 الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية 

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة وهران

كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية

قسم التاريخ وعلم الآثار

منهج الكتابة التاريخية عند المؤرخين الجزائريين في العهد العثماني (1519-1830م)

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث

إعداد الطالب: عبد القادر بكاري

تحت إشراف: أ.د.دحو فغرور

أعضاء لجنة المناقشة:

محمد موفق	أستاذ التعليم العالي	جامعة وهران	رئيسا
دحو فغرور	أستاذ التعليم العالي	جامعة وهران	مشرفا ومقررا
بوعزة بوضرصاية	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر	مناقشا
أرزقي شويتم	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر	مناقشا
محمد مكاحلي	أستاذ التعليم العالي	جامعة سيدي بلعباس	مناقشا
بن عمر حمدادو	أستاذ محاضر"أ"	جامعة وهران	مناقشا

السنة الجامعية: 2015-2016

قال الله تعالى

﴿وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

صدق الله العظيم

سورة النحل الآية 78

قَالَ رَسُولُ ﷺ

﴿مَنْ لَمْ يَشْكُرْ القَلِيلَ، لَمْ يَشْكُرْ الكَثِيرَ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرْ النَاسَ لَمْ يَشْكُرْ اللَّهَ، التَحَدُثُ بِنِعْمَةِ اللَّهَ شُكْرٌ، وَتَرْكُهَا كُفْرٌ، وَالجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالفُرْقَةُ عَذَابٌ﴾

حديث صحيح رواه الإمام مسلم عن النعمان بن بشير.

إهداء

إلى روح والدي...إلى والدتي أطال الله في عمرها .

إلى زوجتي التي صبرت كثيرا معي طيلة مدة إنجاز هذا العمل.

إلى بناتي وأبنائي: أسماء، سارة، محمد الأمين، أيوب، وصهيب.

إلى الدكتور كمال بن صحراوي الأخ والصديق والرفيق.

إلى كل الأساتذة الذين تجمعنا بهم الصداقة الخالصة.

إلى الوطن المفدى.

إلى كل هؤلاء أهدي هذه الرسالة ثمرة جهدي المتواضع.

كلمة شكر

يشرفني ويطيب لي إن أسجل في أولى صفحات هذه الرسالة شكري الخالص وامتناني العميق للأستاذ المشرف الدكتور دحو فغرور على وقوفه ومساعدته لي بتوجيهاته السديدة وملاحظاته القيّمة بهدف إخراج هذا العمل بصورته النهائية.

كما أشكر كل من ساعدني ومد لي يد العون من أساتذة وموظفي المكتبات خاصة بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة تيارت، وبكلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية بجامعة وهران، وبكلية العلوم الإنسانية بجامعة معسكر.

وجزيل الشكر والتقدير إلى أساتذتي أعضاء لجنة المناقشة على قبولهم مناقشة هذا العمل، وستكون لملاحظاتهم القيّمة في إثراء هذا العمل الفضل بعد الله.

قائمة المختصرات:

ص:	صفحة
ط:	طبعة
مج:	مجلد
م:	ميلادي
ه:	هجري
ق:	قرن
ع:	عدد
تح:	تحقيق
تق:	تقديم
تع:	تعليق
تر:	ترجمة
مر:	مراجعة
نق:	نقله
تح وتع:	تحقيق وتعليق
ح وتر:	تتحقيق وترجمة
تح ونش:	تحقيق ونشر
تع وشر:	تعليق وشرح
تص وتع:	تصحيح وتعليق
ش،و،ن،ت:	الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
P	: page
Vol	: volume
T	: tome
E	: édition
Op.Cit	: ouvrage précédemment cité
Ibid.	: Ibidem
R.A :	revue africaine

المقدمة

مقدمة:

من الأمور الواضحة التي يلحظها الدارس والمتتبع لمسيرة البحث التاريخي في الجزائر، إن دراسة الموضوعات (العسكرية، السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية...) سواء الخاصة بالفترة المعاصرة أو بفترة العصر الحديث تحظى بإقبال كبير من قبل الباحثين والدارسين، وذلك لوفرة مصادرها في غالب الأحيان، ولسهولة البحث فيها، وتيسرها من جانب آخر، وأما دراسة موضوعات المناهج التي تقوم على الاستقراء والتحليل والاستنتاج فهي لا تحظى بمثل تلك القبول ولا بالعدد الكافي من الباحثين.

ومن هنا، فإن الدراسات في هذا المجال، لا زالت قاصرة ومحدودة، تحتاج إلى مزيد من الاهتمام والعناية والتشجيع من قبل القائمين على البحوث والدراسات الأكاديمية، لأنه في الحقيقة إذا ما توفر هذا النوع من الدراسات فستتكشف للباحثين كثير من الحقائق والأحداث التاريخية على حقيقتها، أو على الأقل على وجوهها الصحيحة، وعندئذ سيتمكن الباحث الجزائري خاصة من الرؤية الواضحة التي تساعده على التقويم والتقدير للمعالم الأثرية، والنقد السليم للأحداث التاريخية، ثم إن النتيجة الأخيرة من ذلك كله، إنه ستتاح نظرات أو على الأقل نظرة لإعادة كتابة التاريخ الجزائري على نهج واضح وسليم، ويومئذ ستتغير بموجبه كثير من المفاهيم السائدة والمسجلة في بعض كتب التاريخ، ولذلك فإن دراسة مناهج المؤرخين الجزائريين، ومعرفة خبايا كتاباتهم تكتسب قدرا كبيرا من الأهمية.

من الأمور الدقيقة في هذا الإطار، هي إن المسئولية الأولى في كتابة تاريخ أي شعب من الشعوب تقع على مؤرخيه، ولهذا يجب الأنتباه إلى عملية تاريخ التاريخ، أو تطور الكتابة التاريخية وما رافقها من مناهج وأراء مختلفة، ونحن بأمس الحاجة إلى دراسة تاريخ التاريخ وبحثه لدى العرب والمسلمين عامة والجزائريين على وجه الخصوص، وبدون هذه الدراسة تتعذر الكتابة التاريخية النقدية، ولا يمكن القيام بعملية فحص للمصادر التاريخية، ونقد رواياتها وتمييز القوي من الضعيف، والأول من التالي، والأصيل من الموضوع، ولا التمييز بين الروايات التاريخية من القصص دون دراسة نقدية للمؤرخين، ولتطور علم التاريخ عند العرب والمسلمين.

إن الحاجة تتطلب منا إن نعرف سبب نشأة الكتابة التاريخية عند العرب والمسلمين لنتبين دوافع كتابة التاريخ، واتجاهات المؤرخين، وأراءهم التاريخية، وأسلوبهم في تمحيص الروايات، ونظرتهم إلى أهمية التاريخ ودوره في الحياة العامة، وفي الحياة الثقافية العلمية خاصة. والأهم من ذلك معرفة عوامل الوضع والارتباك في

الكتابة التاريخية من أثر التيارات السياسية والحزبية إلى دور القصاص فيها، إلى أثر الشعوبية، إلى المؤثرات الدينية، إلى أثر التطورات العامة في تطور الكتابة التاريخية، والحال كذلك بالنسبة للتاريخ وللمؤرخين الجزائريين، مادام إن التاريخ الجزائري جزء من التاريخ العربي والإسلامي، وإن المؤرخين الجزائريين حلقة من حلقات التاريخ العام لهذا الوطن. فمن دون دراسة هذه النواحي يتعذر الفهم الجيد لقيمة المواد التاريخية المتيسرة لدينا، أو إن نُخلِص تاريخنا من الشوائب التي لحقت به في الماضي والحاضر [1].

لقد انقضى ذلك الزمن الذي اعتبر فيه التاريخ مجرد سرد للحوادث، لكي يحفظ ذكرى الماضي ويمجد الأفعال البارزة في حياة الأشخاص والأمم، أو إنه نوع من الثقافة العامة، أو إنه فرع من فروع الأدب يُدرس للتسلية وإمتاع النفس. لقد ظل التاريخ يتداوله الأدباء حينا والباحثون المدققين حينا آخر، حتى تغيرت نظرة العلماء إليه، ووجد البحث العلمي التاريخي، وقصد الدارسون الوصول إلى الحقيقة التاريخية في ذاتها بقدر المستطاع، والتي عن طريقها يمكن الإفادة بها في الأغراض السالفة الذكر، ولكن الفائدة في هذه الحال تصبح قائمة على الوقائع الصحيحة الواضحة.

ولما كان منهج البحث التاريخي من الأسس الهامة في تقدم دراسة التاريخ، فقد عني به المؤرخون الغربيون ووضعوا فيه مؤلفات عديدة في لغاتهم المختلفة، وعنيت البيئات العلمية الأوربية بجمع الأصول التاريخية ونشرها، والتأليف في شتى نواحي التاريخ، واسترشد بقواعده الباحثون في أثناء دراساتهم التاريخية، في حين إن العالم العربي عامة والمغربي خاصة ظل قليل الحظ من هذه الدراسة التي تعتني بمنهج البحث التاريخي بالأسلوب الحديث[2].

فمما لا ريب فيه إن دراسة منهج البحث التاريخي الجزائري ضرورية للمختصين في التاريخ، ممّن يتصدون لكتابته، ولكي ندرك أهمية الماضي، فإننا تناولنا بالدراسة في هذا البحث أبرز المؤرخين الجزائريين في العهد العثماني(عبد الكريم الفكون، ابن مريم التلمساني، احمد المقري، حسين الورتيلاني، عبد الرزاق بن حمادوش، محمد أبو راس الناصري) الذين ألموا بتطور الكتابة التاريخية، ورصدوا اتجاهاتها، ومحصوا ما يتصل بها من حوادث مع التيارات السياسية والاجتماعية والثقافية بل وحتى الاقتصادية. وإن كنا قد توقفنا عند القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، فلأن هؤلاء المؤرخين الذين ذكرناهم، كانت كتاباتهم تمهيدا هيأ

---

[1]- عبد العزيز الدوري، نشأة علم التاريخ عند العرب، مركز زايد للتراث والتاريخ، 1420ه/2000م، ص:9-10.

[2]- حسن عثمان، منهج البحث التاريخي، ط8، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص: من المقدمة.

الأرضية اللازمة لمن جاء بعدهم خاصة مؤرخي الحركة الوطنية في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي والذين توسعوا في جمع الروايات وتمحيصها، مستخدمين كتابات سابقيهم كقواعد خلفية، وحتى إذا وصلنا إلى مؤرخي الفترة المعاصرة لما بعد الاستقلال وجدنا مؤرخيها يمضون شوطا في الكتابة التاريخية الوطنية الجزائرية.

إن إسهامات المؤرخين الجزائريين بكتاباتهم في طرح عدد من الآراء والنظريات التاريخية والاجتماعية وحتى النفسية التي أصبحت فيما بعد نبراسا استضاء به العديد من الباحثين والمفكرين والمؤرخين الذين ساهموا في تطوير هذه العلوم (العلوم الإنسانية والاجتماعية) وإخراجها إلى حيز الوجود.

ومن هنا فإن دراسة مناهج المؤرخين الجزائريين في العصر الحديث الذين كانت لهم تلك الميزات تبدو على درجة عالية من الأهمية، لما ستكتشفه من خصائص تلك المناهج، ولما ستوضحه من جوانب مهمة تتعلق بطبيعة كتاباتهم التاريخية، ومنها على سبيل المثال: طبيعة معالجتهم للتاريخ الجزائري العربي في طابعه الإسلامي ومدى حياديتهم في بحوثهم وواقعيتهم في تتبع أحداثه والحكم على رجاله.

لقد خلف المؤرخون الجزائريون تراثا تاريخيا ضخما أودعوه في عدد من المؤلفات التاريخية على اختلاف مواضيعها، ولكنهم كانوا في طريقتهم وأساليبهم ومناهجهم المميزة خاصة الذين اعتمدوا فيها على الإحالة والربط بين تلك المؤلفات جعلها تبدو كعمل واحد متكامل، ولكن مع الأسف كان مصير كثير من تلك المؤلفات الضياع أو الفقدان(سواء في الحروب، النهب والسلب من قبل المستعمرين، الإتلاف والإهمال...)مما جعل القارئ والدارس لأي كتاب من كتب المؤرخين الجزائريين في تلك الفترة والموجودة الأن يلمس من نفسه رغبة شديدة وملحة في البحث عن تلك المؤلفات المفقودة، من اجل اكتمال ذلك البناء التاريخي الفذ، وكان هذا أيضا من الدوافع التي شجعتني على البحث في هذا الموضوع من أجل التعرف على ملامح وخصائص مناهج المؤرخين الجزائريين التاريخية، ومن ثم دراسة ما ينسب إلى هؤلاء المؤلفين من مصنفات، والمقارنة بينها وبين مصنفات مؤرخين آخرين عاشوا في نفس الفترة.

والواقع، إنه كان لذلك الترابط الوثيق بين مصنفات المؤرخين الجزائريين خاصة في كتابة التراجم والرحلات أثر كبير على دراستنا هذه، فأطلعنا على بعض المؤلفات، واستطعنا الوصول إلى عديد الحقائق، وقد اجتمع لدي عدد لا بأس به من المميزات والخصائص، كما تمكنا من الاطلاع على أوجه التشابه وأوجه

الاختلاف بين كتب التراجم مثلا، ودرسنا، وقارنا بين جميع المؤلفات التي حصلنا عليها، وبيّنا مدى صحة نسبتها إلى مؤلفيها في الفصول المخصصة لبحث المصنفات.

وفي هذا الإطار يندرج موضوع بحثنا هذا والمقدم لنيل درجة الدكتوراه تحت عنوان "منهج الكتابة التاريخية عند المؤرخين الجزائريين خلال العهد العثماني 1519-1830"، وارتأيت من الواجب تسليط الضوء على هذا الجانب العلمي(المناهج) من الدراسات التاريخية بعيد عن دائرة التاريخ العام بمجالاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية الذي لطالما تعرض له الباحثون، وهو ولا ريب جانب هام في الدراسات المعاصرة، كما إن الفترة التاريخية الجزائرية خلال الوجود العثماني كثيرا ما نُسيت وأهملت، خاصة وإنها تكتسي أهمية بالغة وتشكل جزء هاما من تاريخنا الوطني.

ومن العوامل التي دفعتني للكتابة في هذا الموضوع واختيار هذا العنوان:

- ميولي الشخصية قصد التعرف على المؤرخين الجزائريين الذين دونوا مؤلفاتهم في تلك الفترة، ودراسة آثارهم، ومعرفة مناهجهم، والاطلاع على خصوصياتهم في الكتابة التاريخية في الفترة الحديثة من تاريخ الجزائر، ومدى تأثير كتاباتهم في مناهج من جاء من بعدهم.

- قلة الكتابات حول هذا الموضوع مقارنة بمواضيع أخرى، خاصة وإن الدراسات المنهجية قطعت أشواطا كبيرة في الجامعات العالمية، وحتى عند بعض الدول العربية خاصة المشرقية، في الوقت الذي لازالت تتراوح فيه في الجزائر وتقتصر على قلة من المؤرخين.

- الكشف عن مجموعة من المصنفات التي ألفت في كتب التراجم وفي كتب الرحلات في هذه المدة، والتي تحتوي على كثير من الأخبار والروايات والشهادات، علما بأن تلك المصنفات تغطي معظم الفترة العثمانية والمناطق الجغرافية للوطن الجزائري.

- معرفة مدى تطور الدراسة التاريخية في تلك الفترة، وهل كانت هذه الدراسة تسير على منهج وأسلوب واحد؟ خاصة وإن كل فترة من فترات الحكم العثماني بالجزائر تميزت بخصائصها ومميزاتها، وخضعت لتطورات تاريخية على المستويين الداخلي والخارجي، بل وإن كل منطقة من مناطق الوطن خضعت هي الأخرى

لأحداث ميزها(الاحتلال الإسباني لمدينة وهران مثلا). وهذا ما يجعلنا نلاحظ إن الكتابة التاريخية تختلف من حقبة إلى حقبة، ومن مكان لآخر.

– إبراز دور مؤرخي الجزائر في هذه المدة (القرن10-14ه/16-20م) في جمع المادة التاريخية العلمية المتعلقة بأخبار الجزائر من جهة، وأخبار الدول العربية والإسلامية من جهة ثانية، ومعرفة مدى تأثرهم بغيرهم من المؤرخين السابقين في كتابة التاريخ العام للجزائر.

– مواصلة جهود من سبقني من الباحثين في إبراز مناهج مؤرخي الجزائر في الفترة العثمانية.

الدراسات السابقة:

ومما دفعنا أكثر للاهتمام بهذا الموضوع، هو قلة الدراسات المخصصة لهذا النوع عند الباحثين الجزائريين، وفي حدود علمي والله اعلم إنني لم أقف على دراسة شاملة متخصصة للمناهج التاريخية في صنف معين من الكتابة التاريخية سواء في كتب الرحلات أو في كتب التراجم، ومن الدراسات التي استقطبت دراسة هذا الموضوع من زوايا مختلفة، نذكر اهتمامات المؤرخ ناصر الدين سعيدوني ب"طبيعة الكتابات التاريخية حول الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر" التي وردت ضمن كتابه "ورقات جزائرية –دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني" في قسمه الأول" المنهجية والوثائق"، كما نذكر دراسات يحي بوعزيز وأبو القاسم سعد الله وبوعزة بوضرساية والذين اهتموا بدراسة بعض المصنفات التاريخية الجزائرية العائدة لهذه الفترة، وهي بدون شك معيار للدراسات الأكاديمية الجادة لدى الباحثين الشباب.

أما المقالات فهي كثيرة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، مقال لمحمد دادة بعنوان" التدوين التاريخي في الجزائر خلال العهد العثماني، خصائصه وموضوعاته"، ومقال لمحمد بوشنافي بعنوان "الكتابة التاريخية في الجزائر–العهد العثماني–نموذجا"

إشكالية البحث:

تتمثل إشكالية هذا البحث في إبراز طبيعة ونوعية المناهج التي ميزت الكتابة التاريخية بالجزائر، وتوضيح مدى مساهمة المؤرخين الجزائريين في تدوين وكتابة تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني في ظل تطورات

الأحداث التي ميزت الساحة الوطنية محليا، والمنطقة المتوسطية دوليا، محاولا الإجابة عن جملة من التساؤلات من خلال فصول البحث ومباحثه، ومنها:

- من هم المؤرخون الجزائريون الذين تخصصوا في كتابة كتب التراجم والرحلات خلال الفترة العثمانية بالجزائر؟

وماهينوعية وطبيعة المناهج التاريخية المعتمدة في كتاباتهم؟

وهل استعملوا مناهج جديدة أم ساروا على خطى سلفهم؟

وما مدى درجة مساهماتهم في إحياء دراسة التاريخ الجزائري في تلك الفترة؟

وما هو سبب اقتصار بعض المؤرخين على نوع خاص من الكتابة التاريخية (تراجم، رحلة) دون الأخرى؟

وهل هناك علاقة سببّية بين مختلف المناهج التي عرضتها الكتابات التاريخية للمؤرخين الجزائريين في تلك الفترة؟

إن حدود دراستنا هذه محددة بفترة معينة وهي الجزائر خلال العهد العثماني 1519-1830م، وهي الفترة التي يصفها معظم الباحثين والمؤرخين بالجمود الفكري والتأخر الثقافي، رغم غناها بالأحداث التاريخية التي تشمل المادة الخام للكتابة، فهي تمثل نهاية عهد الأنقسامات السياسية والصراعات على السلطة والزعامة والاضطرابات الدولية في البحر المتوسط، وبداية عهد التواجد العثماني بالجزائر الذي مثل منعطفا حاسما في تاريخ المنطقة وفي مسار الكتابات التاريخية بمختلف اتجاهاتها وأنماطها التي بدأت تأخذ مرحلة جديدة مغايرة لما سبقها، وهي مرحلة الوعي التاريخي الوطني القومي لأنبعاث شعور بالذات الجزائرية التي رسمها العثمانيون منذ عهد البايلربايات.

الصعوبات التي واجهتني أثناء إعداد هذا البحث:

وقد صادفتني أثناء البحث في هذا الموضوع بعض الصعوبات، ومنها الشح في المصادر، إذ لم يصبح أمامي من المصادر الحقيقية التي يمكن الاعتماد عليها سوى الكتب الموجودة المطبوعة والمشهورة عند أصحابها والذين أفاضوا في الحديث عنها(رحلات ابن حمادوش والورتيلاني وأبو راس الناصري، وتراجم أحمد

المقري"نفح الطيب"،وعبد الكريم الفكون"منشور الهداية" ابن مريم التلمساني"البستان")، فعكفت على دراستها والتدقيق فيها، واستخراج مادة البحث منها، فتوفر لدي مادة مكنتني من كتابة هذا البحث.

هذا ولا اخفي إنني وبعد إن قطعت شوطا في دراسة هذا الموضوع، وكنت أظن إنني الوحيد في هذه الدراسة، تبينت إن هذا الموضوع(مناهج الكتابة التاريخية عند المؤرخين الجزائريين في العصر الحديث) قد حظي بدراسات من قبل بعض الباحثين المحدثين، ولكنها كانت تتناول جوانب وزوايا مختلفة من أفكار وتراث هؤلاء المؤرخين، ولم يكن بينها دراسات مخصصة لفحص مناهج الكتابة التاريخية، ومن بين هذه الدراسات، مذكرة دكتوراه للباحث كعوان فارس تحت عنوان"المؤرخون الجزائريون ونمو الوعي التاريخي من1830-1962 ". وقد استفدت من هذه الدراسات، وأنارت لي بعض الجوانب في مناهج المؤرخين الجزائريين، خاصة في مجال تأثير مؤرخي الفترة العثمانية فيمن جاء بعدهم، وأحلت إليها في مواضع مختلفة يلحظها الدارس في هذا البحث.

المنهج المتبع:

من أجل الإلمام بالموضوع من كل جوانبه، اتبعت منهجا تاريخيا وصفيا تعاملت من خلاله بجمع البيانات محاولا تشخيصها وتعليلها وتفسيرها والربط بينها، وبيان نوعية العلاقة بين فروع الدراسة للوصول إلى نتيجة في صورة متكاملة تساهم في كشف الكثير من الغموض عن مناهج الكتابة التاريخية في الفترة المحددة للبحث. كما أنني اعتمدت على المنهج التحليلي خاصة في استقراء المادة التاريخية التي تضمنتها كل نوعية من الكتابات، سواء كتب التراجم فيما بينها، أو كتب الرحلات للخروج منها بنتائج، ولمعرفة مستوى التطور الحاصل في الكتابة التاريخية عند مؤلفيها.

المصادر المعتمد عليها:

لقد اعتمدت على مصادر متنوعة، ذلك إن طبيعة الموضوع تقتضي بالضرورة تنويع المصادر والمراجع لإخراجه في صورة شاملة وكاملة، ولذلك حاولنا قدر المستطاع تتبع المعلومة في كل ما يمكن إن يشير من قريب أو من بعيد لموضوع دراستنا، ومن بين هذه المصادر ما يلي:

-**كتاب"البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان"** لابن مريم التلمساني، سمح لنا هذا المؤلف الهام بمعرفة عدد كبير من العلماء والأولياء الذين عاشوا في تلمسان وأحوازها، وأسهموا في الحركة العلمية والثقافية لهذه المنطقة، و لم يكتفي ابن مريم بالترجمة للعلماء والأولياء، بل زودنا بمعلومات في غاية الأهمية عن الحركة العلمية بتلمسان وأحوازها بصفة خاصة، وبلاد المغرب الأوسط بصفة عامة.

-**كتاب"نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب في ذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب"** لأحمد المقري، والذي يعتبر أقدم كتاب أندلسي ظهر للنور وعرفته المطبعة العربية، فكان مصدراً لأكثر ما عرفه المشارقة عن الأندلس في مدى مائة عام أو أكثر. يعتبر أهم وأشهر كتب المقري، أرخ فيه لبلاد الأندلس وحضارتها الإسلامية من شتى جوانبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، كما يُعرِفُ بابن الخطيب من حيث النشأة والتدرج في المجد. اعتمدت عليه كثيرا في التعريف بنسب المقري وحياته وبمؤلفاته ومصادره، ثم شيوخه وتلاميذه، وأطلعنا على كثير من الأخبار لدول المشرق العربي التي زارها.

-**كتاب"منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية"** لعبد الكريم الفكون، أفادني كثيرا في التعريف بنسب وحياة المؤلف، وبالبيئة الاجتماعية والسياسية التي عاش فيها بمدينة قسنطينة، فهو يتحدث عن المكانة العلمية والاجتماعية لعائلته وعلاقتها بالعائلات الأخرى ذات الجاه والسلطة، كما يذكر الفتن والاضطرابات التي عاشها الإقليم الشرقي للبلاد وأثرها على حركة التأليف التاريخي في تلك الفترة، والأهم من ذلك كله إنه يعرفنا بعدد كبير من العلماء والصلحاء، وبالمتشبهين بالعلماء المبتدعة الدجاجلة على حسب قوله.

-**كتاب"نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"** لحسين الورتيلاني، هو عبارة عن موسوعة وصف فيها الدول والمدن والمناطق وأهلها وعلمائها وعاداتها التي مر بها ركب الحجيج في رحلاته. هو كتاب أراده الورتيلاني كتابا تاريخيا، زينه بأخبار مفصلة عن الخلافة الإسلامية، كما يجمع تراجم من علماء وأولياء ومشايخ المغرب والمشرق العربيين.

-**كتاب"لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"** لعبد الرزاق بن حمادوش، رحلة احتوت على موضوعات كثيرة منها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية، كما تعد من المصادر الهامة لحياة المؤلف نفسه، وجزء من التراث العلمي والأدبي الجزائري للقرن الثاني عشر الهجري/18م. يصف مدن المغرب الأقصى

التي زارها كتطوان ومكناس وصفا دقيقا، كما يصف أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية خلال القرن الثاني عشر الهجري.

-**كتاب"حلتي ونحلتي في تعداد رحلتي"** لمحمد أبي راس الناصري، هو الباب الثالث من كتاب"فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته"، يطلعنا أبو راس الناصري من خلاله على المناظرات العلمية التي كان يجريها مع العلماء الذين لقيهم سواء في الوطن الجزائري أو في الدول التي زارها مغربا ومشرقا، ويفصح عن المسائل الفقهية التي تناولها مع العلماء في فاس والزيتونة والقاهرة وفي مكة المكرمة.

كما اعتمدت على مجموعة من المراجع الخاصة بالمنهجية ومنها:

كتاب"التاريخ العربي والمؤرخون" لشاكر مصطفى، وكتاب"نشأة علم التاريخ عند العرب" لعبد العزيز الدوري، وكتاب"التاريخ والمؤرخون العرب" لعبد العزيز سالم، وكلها أفادتني في الكشف عن قيمة ومكانة علم التاريخ عند العرب والمسلمين.

المصادر والمراجع الأجنبية: كان لها نصيب في بحثنا منها كتاب:

Gabriel, colin, Abderrezaq el-jezairi, un médecin arabe au xii siècle de l'hégire,

وكتاب

Lucien, Leclerc, histoire de la médecine arabe

والذين تحدثوا كثيرا عن الطب العربي والجزائري بصفة خاصة، مع العلم إن لوسيان لكليرك هو من أكتشف كتاب"كشف الرموز" لعبد الرزاق بن حمادوش وقام بترجمته.

Ferdinand, (B), la méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philipe II.

هو مرجعا أساسيا لتاريخ البحر المتوسط منذ أقدم العصور، ومنها التاريخ السياسي والاجتماعي للشعوب والأمم، يذكر فيه جانبا من الصراعات السياسية والمعارك العسكرية التي جرت بين الأوربيين

المسيحيين والأتراك المسلمين. أفادنا كثيرا في العلاقات الجزائرية الأوربية وانعكاساتها على الأوضاع الداخلية للإيالة الجزائرية في تلك الفترة.

Plantet, (E), correspondance des deys d'Alger avec la cour de France (1579-1700).

كتاب أعطانا لمحة واضحة عن نظام الحكم بالجزائر خلال العهد العثماني، وأثر ذلك على الحياة الثقافية والاجتماعية سلبا وإيجابا على المثقفين والعلماء بصفة خاصة.

المجلة الإفريقية Revue Africaine

استفدنا كثيرا من مقالات كبار المستشرقين الذين اهتموا واعتنوا بالتراث والتاريخ الجزائري، خاصة قولفين(Golvin) ودوفو(Devoulx) وقورقوس(Gourgous).

المقالات:

وعن إشكالية الكتابة التاريخية في الوطن العربي وما تعانيه من اختلالات بين الواقع والنظرية كتب هاني إدريس مقالا بعنوان"محنة الكتابة التاريخية العربية بين التأريخ والمؤرخ" في مجلة الكلمة، طرح من خلاله آراء ونظريات حدد من خلالها أسباب تراجع الكتابة التاريخية في الوطن العربي بصورة عامة.

أما محمد دادة في مقال له بعنوان"التدوين التاريخي في الجزائر خلال العصر العثماني،خصائصه وموضوعاته" بمجلة عصور الجديدة، فقد تطرق فيه إلى عدم الاهتمام بالتاريخ، وإن المؤرخين لم يستحدثوا منهجا جديدا، وإنما ظلوا على طريقة أسلافهم القدامى في الكتابة التاريخية رابطين التاريخ بالشعر والمقامات والأراجيز دون الالتفات للحياة الاجتماعية.

وفي الحديث عن مؤرخي الجزائر في الفترة العثمانية، كتب المهدي البوعبدلي مقالا بعنوان"عبد الكريم الفقون القسنطيني(988ه/1073م) والتعريف بتأليفه منشور الهداية..." تطرق فيه إلى دور عبد الكريم الفكون في المجتمع القسنطيني، وعرّف به وبأسلافه، كما يُعرف بمؤلفه الذي يعد في نظره من أهم المصادر التاريخية لبايلك الشرق خلال العهد العثماني.

خطة البحث:

اقتضت الدراسة إلى تقسيم الرسالة إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة.

فالفصل التمهيدي: كان لا بد لي فيه من إلقاء أضواء كافية على مناهج الكتابة التاريخية عند العرب والمسلمين، وما اتسمت به تلك المناهج من تطورات خلال الفترات التاريخية، وقد قسمته إلى أربع مباحث.

فالمبحث الأول جاء بعنوان"نشأة الكتابة التاريخية عند العرب والمسلمين"، وفيه حددت مراحل تحول التاريخ من الخبر إلى علم التاريخ.

المبحث الثاني بعنوان"دوافع الكتابة التاريخية عند العرب والمسلمين"، وفيه توصلنا إلى إدراك إن الشعور التاريخي يضع الشعوب في حركية الزمن ويجعلها تحدد دورها في المسار التاريخي.

المبحث الثالث خصصناه ل"مشاركة بعض العلوم في نشأة علم التاريخ" وفيه تطرقنا إلى العلوم الشرعية التي كانت من الدوافع الرئيسية لدراسة التاريخ، ففكرة التاريخ موجودة في القرآن الكريم، مما دفع مفسري القرآن إلى البحث عن معلومات تاريخية مفسرة لما جاء فيه.

المبحث الرابع: طرحنا فيه الطريقة التي تناول بها المؤرخون العرب والمسلمين التاريخ، وفيه ركزنا على طريقة ابن خلدون التي كانت حدا فاصلا بين مرحلتين، حيث أوضح أصول البحث العلمي الجديدة التي استخلصها من دراساته وتجاربه ونظراته في التاريخ.

الفصل الأول: جاء بعنوان"الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني(1519-1830م)، وفيه تطرقنا إلى مسألة وطريقة التحاق الجزائر بالإمبراطورية العثمانية في تلك الفترة مقارنة بدول عربية أخرى على غرار مصر مثلا، كما تطرقنا إلى الأوضاع العامة للجزائر في ظل السلطة العثمانية، وقسمناه هو الآخر إلى أربعة مباحث، وهي:

المبحث الأول: الجزائر والدولة العثمانية

المبحث الثاني: التنظيم السياسي للجزائر خلال العهد العثماني

المبحث الثالث: الأوضاع الاجتماعية في الجزائر خلال العهد العثماني

المبحث الرابع: الأوضاع الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني

الفصل الثاني: بعنوان منهج الكتابة التاريخية عند مؤرخي الجزائر في كتب التراجم(ق10-14ه)، وفيه تعرضت لأهم كتب التراجم التي ألفت في تلك الفترة، محاولا التوفيق بين الإطارين الزماني والمكاني، كما إنني تناولت هذه الدراسة من زاويتين، الأولى خصصتها للمؤلف نفسه"حياته ونسبه، مؤلفاته، شيوخه ومكانته في المجتمع. أما الزاوية الثانية، فقد خصصتها للكتاب ومحتوياته مركزا على منهجية الكتابة في هذا الجانب التاريخي.

وقد قسم إلى ثلاث مباحث:

المبحث الأول: تقديم كتاب"البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان" لابن مريم التلمساني

المبحث الثاني: تقديم كتاب"نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب في ذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب" لأحمد المقري.

المبحث الثالث: تقديم كتاب"منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية" لعبد الكريم الفكون.

الفصل الثالث: منهج الكتابة التاريخية عند مؤرخي الجزائر في كتب الرحلة(ق10-14ه)، خصصناه لجانب مهم من الكتابة التاريخية وهي الرحلة كفن تاريخي وأدبي ومصدر من مصادر الكتابة التاريخية، وفيه أيضا تطرقنا إلى أنواع الرحلات التي عرفتها الجزائر في تلك المرحلة التاريخية خاصة الرحلات الحجازية الدينية التي شكلت الجزء الأكبر والأهم من مجموع الرحلات التي عرفتها الجزائر. وقسم هو الآخر إلى ثلاث مباحث وهي:

المبحث الأول: كتاب"نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"لحسين الورتيلاني

المبحث الثاني: كتاب"لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال" لعبد الرزاق بن حمادوش

المبحث الثالث: كتاب"حلتي ونحلتي في تعداد رحلتي" لمحمد أبي راس الناصري.

الفصل الرابع: منهج استخدام المصادر عند مؤرخي الجزائر خلال العهد العثماني. وقسم إلى أربعة مباحث، وهي:

المبحث الأول: طرق النقل من المصادر

المبحث الثاني: طرق ذكر المصادر

المبحث الثالث: تحليل طريقة الكتابة التاريخية عند المؤرخين الجزائيين

المبحث الرابع: أثر منهج مؤرخي الجزائر العثمانية على منهج مؤرخي الجزائر في الفترة الاستعمارية

وختمت رسالتي بخاتمة بينت فيها النتائج المتوصل إليها من خلال الفصول.

وفي الأخير، أتمنى إن أكون قد قدمت بولوجي في هذا الموضوع خطوة تحتاج إلى خطوات، وإن تكون دراستي مقدمة لما سيأتي بعدها، لأنه مجهود متواضع يحتاج إلى مجهودات أخرى، حاولت فيه منذ البداية توخي الموضوعية والدقة، أملا إن أكون عند حسن ظن أستاذي المشرف، وظن كل الذين يطالعون هذه الرسالة، فلا ندعي العصمة من الأخطاء، ونرجو إن نكون قد قدمنا بعض ما علينا من واجبات، وإنا على أتم الاستعداد لإثرائه بكل ما يرقى به إلى الأفضل.

الفصل التمهيدي

مناهج الكتابة التاريخية عند العرب والمسلمين منذ نشأتها حتى القرن التاسع الهجري(15م)

المبحث الأول: نشأة الكتابة التاريخية عند العرب والمسلمين.

المبحث الثاني: دوافع الكتابة التاريخية عند العرب والمسلمين.

المبحث الثالث: مشاركة بعض العلوم في نشأة علم التاريخ.

المبحث الرابع: الطريقة التي تناول بها المؤرخون العرب والمسلمين التاريخ.

تقديم:

ما يلفت الأنتباه اليوم في عالمنا المعاصر، ما يلقاه علم التاريخ ونظرياته من اهتمام خاص من المؤرخين، وذلك لأهميته الكبيرة في البحث التاريخي وفي اتجاهاته، و لم يعد النقاش يقتصر على كون التاريخ علما أو أدباً، أو بالأحرى حول نسبة التاريخ إلى احد فروع المعرفة الأنسانية، بل يتجه الرأي إلى أهمية التاريخ كموضوع حيوي له أسسه، وطرائق بحثه، ومناهجه، وأهدافه.

إن هذه النظرة أدت إلى إعادة النظر في القواعد الأساسية التاريخية، وفي مفهوم علم التاريخ بصفة خاصة، وهي نظرة فيها وجهة عالمية حين تؤكد على أهمية الحضارات وتشابكها، وتبادل التأثير فيما بينها، خاصة بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية المسيحية. هذه الوضعية التي تؤكد على أهمية دراسة التاريخ من وجهات خاصة جنبا إلى جنب التطورات العامة، وتؤكد أيضا ضرورة كتابة بعض التواريخ باتجاه جديد، وهنا تقع المسؤولية الأولى في ذلك على المؤرخين لكل امة من الأمم إن أرادت فهم تاريخها بصورة سليمة.

للعلم، إن تطور الكتابة التاريخية وما رافقها من مناهج وأراء تاريخية لا يمنع من فحص المصادر التاريخية ونقد رواياتها، ومعرفة سبب نشأة ودوافع الكتابة التاريخية عند العرب والمسلمين، واتجاهات المؤرخين وأسلوبهم ونظرتهم إلى أهمية التاريخ في الحياة الثقافية والاجتماعية بصفة عامة.

المبحث الأول: نشأة الكتابة التاريخية عند العرب والمسلمين

إن المتتبع لمراحل الكتابة التاريخية عند العرب والمسلمين عبر العصور، يكتشف الاهتمام الكبير الذي حظي به علم التاريخ، حيث جاء التراث التاريخي العربي والإسلامي غاصا بالكتب المتنوعة والمصنفات، شاملا لجوانب النشاط الأنساني القديم والمعاصر بهدف إرضاء ميلهم للوقوف على مصادر الأمم المنصرمة، ومعرفة الحوادث السابقة لاستنباط العبر والدروس، واستلهام الصواب في واقع حاضرهم ومستقبل أيامهم.

لقد خص العرب علم التاريخ باهتمام بالغ، لميلهم إلى معرفة مصائر الأمم الماضية، وحوادث الأزمان السابقة، ولاهتمامهم بالأنساب، فرووا أخباره، وجمعوا ما استطاعوا من الروايات، وألفوا فيه، ولم يتركوا جانبا من جوانب النشاط الأنساني في القديم والمعاصر لهم إلا سجلوا تاريخه، ولذلك حفلت مصنفاتهم بجوانب متعددة من أحوالهم المعاصرة، وكان لابد للعربي إن يعرف أنساب العرب وأخبارهم، وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وأخبار الفتوح الإسلامية، وتواريخ الخلفاء والدول، وكان لزاما عليه إكمالا لثقافته، إن يعرف بلاد الإسلام ومدائنها والطرق إليها، مع ما تيسر من أحوال أهلها وصفاتهم وعاداتهم، ومن هنا فإنه من العسير، إن نفصل بين المؤرخ والجغرافي والأديب في تاريخ الفكر الإسلامي.[1]

والحق، إن بني آدم لم يعرفوا تاريخ ذا صفحات بيض، مثل صفحات التاريخ العربي والإسلامي، تاريخ الدين الذي لا يقبل الله من الأولين والآخرين غيره، وتاريخ الأمة العربية والإسلامية الواقع التطبيقي لهذا الدين. هذه الصفحات البيض للتاريخ العربي والإسلامي، قد تعرضت مع تعرض بلاد الإسلام للغزو والتحرش من كل الجهات، وبشتى الأنواع، وعبر كل مراحل التاريخ، خاصة الغزو الفكري الذي قام على أكتاف الحاقدين وعلى رأسهم المستشرقين، يعاونهم الكثير من أبناء العرب والمسلمين، استهدف تشويه وتزييف التاريخ الإسلامي، والقضاء على الدور الحضاري المتميز لهذه الأمة الإسلامية، كما حرص على التجاهل والتجهيل بهذا النوع.[2]

وينسجم هذا الموقف مع العبارة التي أوردها ستيفن رنسيمان صاحب كتاب "تاريخ الحروب الصليبية" والتي تلخص مدى درجة الحقد والكراهية للعالم الغربي الصليبي اتجاه العالم الإسلامي، قوله: "فما من أمير أو سيد في أوروبا لم يعد في حماس في وقت من الأوقات، طوال ثلاثة قرون (يقصد الفترة التي تلت سقوط بيت المقدس عام584ه/1187م، والتي مثلت صدمة عنيفة للعالم المسيحي) بالمضي إلى الحرب المقدسة، وما من

1- قاسم يزبك، التاريخ ومنهج البحث التاريخي، دار الفكر اللبناني، ط1، بيروت، لبنان، 1990، ص:9.

2- عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1981، ص:06.

إقليم بأوروبا لم يرسل عساكر للقتال في الشرق من أجل العالم المسيحي، إذ إن بيت المقدس لم تبرح تفكير كل رجل، وكل امرأة".[1]

وقد ترتب على هذا الغزو إن الأمة العربية والإسلامية أصبحت تنظر إلى نفسها (نظرة اليائس-الخجول-الخائف) وغيرها من خلال كتابات، صنعتها أيد أجنبية عن دينها وعقيدتها وتاريخها، أجنبية عن مشاعرها وإدراكها، أجنبية عن اهتمامها بالأمور، وإحساسها بالحياة، وتقدير الأشياء، رغم إن هناك شواهد عديدة تصدر من حين لأخر على ألسن بعض المؤرخين المنصفين (الأنصاف للعلم وليس للجنس) للحق العربي والحضارة العربية الإسلامية. فهذا غوستاف لوبون يخاطب الشباب العربي الذي أصابه اليأس من تقدم أمته، وخجل من ماضيها، وغموض في حاضرها ومستقبلها، يقول: "من كان لأمته مثل هذا الماضي المشرق اللامع، لا يمكن إن يتسرب اليأس إلى قلبه، إلا إذا كان من حقت عليه اللعنة، إنك من شعب لم تعرف البشرية أنبل ولا أشرف منه. إن الخوف هو لعنة الحيارى، وإن الشك في الأنتصار لهو الهزيمة النكراء.[2]

إن هذه النظرة اليائسة جريمة ترتكب في حق الأمة العربية والإسلامية، التي من صالحها إن ترى حقيقة دورها في تاريخ البشرية، وإن تعرف مكانتها في خط سير التاريخ، وإن تتبين قيمتها في العالم الأنساني، وليست فائدة هذا، فائدة نظرية مجردة، بل إنها أكبر من ذلك وأشمل، فعلى ضوئها يمكن للأمة إن تحدد موقفها الحاضر ودورها في المستقبل، وإن تسير في أداء هذا الدور على هدى ومعرفة بالظروف والعوامل العالمية المحيطة بها، بعدما تتخذ من الوسائل والأسباب اللازمة لمواجهة هذه الظروف وتلك العوامل، وهو ما يذهب إليه ألبرت حوراني في دراسته حول الوضع الراهن لكتابة التاريخ الإسلامي في الشرق الأوسطي خصوصا عندما يطرح حلولا تتمثل في البحث في المجتمعات بوصفها وحدات متكاملة، لفهم بعض المظاهر في المجتمعات عامة والمجتمع الإسلامي خاصة، الذي تسيره أدوات العرف والعادة أكثر من قواعد رسمية ومؤسسات.[3]

والمؤسف حقا، إن دُور العلم(أقصد المؤسسات العامة والخاصة على وجه الدقة في فترة ما بعد الاستعمار وإلى يومنا هذا التي ربطت مناهج التعليم بمناهج الدول الاستعمارية) التي أنشئت أساسا لتلقين الشباب العربي والمسلم الأساس الضروري لبناء الأمة المسلمة، دأبت على تلقين الأجيال تاريخا إسلاميا مشوها، وتاريخا عربيا جاهليا مضخما، لا عن مجرد خطأ غير مقصود، ولكن عن نية مبيتة خبيثة من الإستدمار الغربي المتوحش، والصهيونية العنصرية العالمية، التي يهمها إن لا تجد الأمة المسلمة في تاريخها ما تعتز به، وإن ترى الغرب وعلى وجه الخصوص – أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية – كنموذج – للجاهليات، على العكس

[1] – ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج3، نقله إلى العربية: السيد الباز العريني، دار الثقافة للنشر والتوزيع، (د ت)، بيروت، لبنان، ص:782.

[2] – غوستاف لوبون، حضارة العرب، تر :عادل زعيتر، دار احياء الكتب المصرية،ط2، القاهرة، مصر،1948،ص:05.

[3] – البرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، مجلة الفكر العربي، ع 28، منشورات مركز الأنماء القومي،بيروت، لبنان،1982،ص:100.

هم أصحاب الدور الأول في التاريخ الأنساني. فإذا يئست الأمة من ماضيها بعد إن استعرضت دورها في حياة البشرية، وامتلأت نفوسها إعجابا بالدور الذي قام به الغرب، وإكبارا للرجل الأبيض، سهل قيادتها على الأعداء وذُلت رقابها لها.[1]

إن هذا العرض، يهدف إلى تنبيه الأذهان إلى ما وقع في تاريخ الأمة العربية الإسلامية من تشويه وتزييف، يستلزم من القادرين من أبناء الأمة العربية والإسلامية، حكومات وأفرادا القيام بتنقية هذا التاريخ "مرجعا ومنهجا"، مما ألحقه به المستشرقون الحاقدون خاصة، ومن سار على نهجهم، وسوف يكون لهذا التصحيح قيمة في حساب المصلحة الأنسانية، فكم لأخطاء التاريخ من أثر في إقامة الحواجز بين بعض الأمم، وكم لها من أثر في سوء تقدير الأجناس للأجناس والجماعات للجماعات، والأفراد للأفراد، بل والعقيدة والمبادئ والحضارات، وهذا يؤذي البشرية في حاضرها ويتيهها في مستقبلها .لذلك رفعت دعوات بإعادة المنظومات الفكرية التي عرفتها البشرية إلى فلك الواقع، والاتجاه إلى إقامة علاقة وثيقة بالتاريخ،لأن للأفكار تاريخا، ومعرفة تاريخ الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية العامة، هي المرشد الحقيقي لكشف التاريخ الذي تتميز به الأفكار.[2]

كما إنه من حق البشرية الضالة اليوم، إن تحصل على صورة صحيحة لتاريخ البشر على الأرض، ومن الإجرام في حقها تزوير ذلك التاريخ، وإعطائها معلومات مضللة وخاصة في مجالي العقيدة والتاريخ، ومن الأمانة العلمية، إن يمتنع العلماء وخاصة الذين يرسمون للناس صورة القرون الماضية عن تقديم كتابات يعلمون إنها غير صحيحة، كما إنه من واجب القادرين إزالة أخطاء التاريخ وإزالة آثارها،وتصحيحها التصحيح الواجب، لأنه ليس من مصلحة الأنسانية إن ترى الحياة كلها من زاوية واحدة لا تكشف عن كل جوانبها، وإن تسوده فكرة خاطئة عن ماضيها وحاضرها، وإن تجهل الدوافع الكاملة لسيرها وتحركها، والقيم الأساسية لحياتها وحضارتها، لأن هذا الجهل لينشئ أخطاء عميقة الأثر، لا في التصور والتفكير فحسب، ولكن في علاقات الأمم بعضها ببعض، كما ينشئ أخطاء بعيدة المدى في تكييف سياسة كل امة وتوجيهها.[3]

إن هذه الأخطاء ينشأ معظمها عن سوء دراسة التاريخ البشري، وسوء تقدير الدور الذي قام به العالم الإسلامي، هذا العالم الذي يمثل وحدة إنسانية شاملة، لها كل خصائصها المستقلة، ويمثل قوة إنسانية ثابتة، لا يؤثر ضعفها الحضاري العلمي الطارئ إلا تأثيرا عارضا في وزنها الحقيقي.[4]

---

[1]- جمال عبد الهادي ومحمد مسعود، منهج كتابة التاريخ الإسلامي –لماذا ؟ وكيف ؟، دار الوفاء للطباعة والنشر، ط3،مصر،1994،ص:06.

2- معتوق فردريك، المعرفة والمجتمع والتاريخ، طبعة جروس برس، طرابلس، لبنان،1991،ص:157.

[3]- جمال عبد الهادي، المرجع السابق، ص:07.

[4]- مصطفى الرافعي،حضارة العرب،منشورات دار الكتاب اللبناني،ط3،بيروت، لبنان،1981،ص:17).

وإذا كان الفكر البشري يجتهد إن يتوصل تدريجيا إلى معرفة لا تستهدف الفائدة من الموضوع المدروس، فإن الرغبة في المعرفة كمجرد رغبة ليست شيئا من العلم. فحفظ شاهد عن الماضي، ومستند تاريخي، وهو ما يفعله عدد من الناس الذين على حد قول م، جوردين يصنعون شيئا من التاريخ دون علمهم.[1]

والحقيقة، إن البشرية لا تستطيع إن تتقدم مع الزمن إلا مع حفظ التضامن بين حاضرها وماضيها تضامنا وثيقا، وعلى هذا الأساس يتصدى التاريخ لكل المشاركات البشرية، وبالحرب(يعني بالتاريخ) وحدها ضد النسيان، تستطيع السلالات على حد قول باسكال "إن تجتمع في رجل يتعلم باستمرار، ومن اجل هذا نسمي(شعوبا متوحشة) أولئك الذين يبقون فقراء من الذكريات.إن الأنسانية في مجرى حياتها الطويل، لم يكن أمامها سوى تاريخ واحد، يستعيد ذاته، ولوحة موحدة عن ماضي البشرية، وكل حضارة تعتمد حضارتها، أي التاريخ كما يرونه. وتأثرا بهذا الوضع، نجد إن المؤلف التاريخي يحيلنا على ذاته أكثر مما يحيلنا على المرحلة من الزمن التي وقع عليها الاختيار، وفي هذا المعنى قال بينيد يتو كروتشه:" كل تاريخ حقيقي هو تاريخ معاصر، يعني تاريخ الحاضر". [2]

لئن كان أول من ترك لنا تراثا مهما مكتوبا هم السومريون،كما يذهب إليه معظم الباحثين في تأريخ ظهور الكتابة، فإننا يمكن إن نقول بوضوح بأن أول من كتب، هو أول من وعى الحياة وعيا آخر لم يشهده من سبقه، وبتعبير آخر إن الوعي الحقيقي بالتأريخ تشكَل مع اكتشاف الأنسان للكتابة.

وعليه، ورغم إن العرب قبل الإسلام كانوا أصحاب حضارات معروفة في اليمن، وتدمر، والحيرة، إلا إن الكتابة التاريخية عندهم لم تكن واسعة الأنتشار، و لم تكن مجهولة أيضا، حيث شاعت كتابة العهود والمواثيق والصكوك والرسائل، وكانت العقلية العربية قادرة على الحفظ ونظم الشعر الذي يعتز بالعروبة،[3] وهي الصفات التي أعاقت طريق التدوين التاريخي على حسب بعض المؤرخين في تعليلهم لقلة المدونات التاريخية العربية لفترة ما قبل الإسلام، بالإضافة إلى غلبة الأمية، رغم ما عرف عنهم من قوة الذاكرة والذكاء العالي، مقارنة بأمم أخرى كانت قد بدأت بالتدوين التاريخي. ولكن قد لا نخطئ تماما عندما نقول إن العرب من أكثر الأمم في العالم اهتماما بدراسة التاريخ والكتابة فيه، لهذا أصبح التاريخ جزءً من تطورهم الثقافي العام فيما بعد.[4]

كان العرب قبل الإسلام يحددون الأوقات بالنجوم والآهلة، كما كانوا يؤرخون بالأحداث العظيمة الحاسمة، والوقائع المشهورة السابقة لعصرهم والمعاصرة لهم، فأرخ العدنانيون بعام نزول إسماعيل عليه السلام

---

[1] - قاسم يزبك، المرجع السابق،ص:14.

[2] - المرجع نفسه،ص:14-15.

[3] - علي أدهم، بعض مؤرخي الإسلام، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت، لبنان، 1974،ص:10.

[4] - شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، م1، دار العلم للملايين، ط1، بيروت، لبنان، 1979، ص:59-62.

مكة، وعام تفرق ولد معد،وعام الفيل (غزوة أبرهة الحبشي للكعبة)، وبناء الكعبة وغير ذلك، وكانت بعض الأحداث التاريخية تحفظ بواسطة النقوش، أو بواسطة الروايات الشفوية.[1]

ظل التاريخ من أهم ميادين المعرفة التي اهتم بها العرب وتدارسوها وألفوا فيها، ويرجع اهتمامهم بها إلى ما قبل الإسلام، حيث كانوا يعتقدون بأهمية الدم في تقرير خلق الأنسان، ويؤمنون بأن أعمال الآباء والأجداد تسبغ على الأبناء مكانة في المجتمع، وهذا ما دفعهم إلى الاهتمام بالنسب، وحفظ شجراته وتدارسها، والاهتمام معها بالتاريخ.[2]

في الحقيقة، مما ساعد على وجود التدوين التاريخي عند العرب في تلك الفترة هي الأخبار(أيام العرب)، والتي هي بمثابة شكل من أشكال التعبير التاريخي، غير إنها أكثر دلالة على وجود الإحساس التاريخي، حيث يشير بعض المؤرخين على إن المسلمين كانوا قد ورثُوا نظرة العرب قبل الإسلام إلى التاريخ، وهي نظرة قائمة على الأيام وطبيعة الحرب والقتال، لذلك اهتم كتاب السير قبل كل شيء بمغازي الرسول صلى الله عليه وسلم، ذلك الدور الحربي الذي أدى إلى انتصار المسلمين في النهاية.[3]

بالإضافة إلى الأنساب وأيام العرب، فلا بد من الأنتباه إلى تأثير العرب، ولاسيما في الجزيرة العربية إلى تغلغل بعض أشكال الكتابة والتفكير التاريخيين (من الشمال الغربي حضارات الهلال الخصيب كتدمر والأنباط، ومن الجنوب حضارة اليمن)، وكان اعتماد الحوادث في تحديد التاريخ (حرب البسوس، حرب داحس والغبراء....) عند العرب قبيل الإسلام يدل على اكتمال الوعي بأهمية تسلسل الأخبار، كما كان للعرب عشية ظهور الإسلام نصيب من الاهتمام بالتاريخ، تمثل في التراث التاريخي (المنقوش والشفوي)، المتفاوت في الأهمية من حيث الصحة والصدق، ومنها على سبيل المثال، كتب الحيرة التي كانت تحتوي على أخبارهم وأنسابهم، والتي أشار إليها الطبري وابن هشام.[4]

وعليه، يمكننا إن نقول إن الفكرة التاريخية عند العرب، سواء عشية ظهور الإسلام أم في صدره، انبثقت من الأيام والأنساب التي كانت متداولة قبل الإسلام، والتي أعطتها مادة قصصية للعظمة الدينية من جهة، ومادة سياسية اجتماعية من جهة ثانية، للحفاظ على صورة القبيلة، ومادة لغوية أدبية من جهة ثالثة، من خلال ما يحمل الشعر والقصة من معان لا تتقاطع مع لغة القرآن. كما إن اهتمام العرب بالتاريخ ازداد أكثر بالإسلام،

1- عطاء الله الجمل شوقي، علم التاريخ ومناهج البحث فيه، دار الزهراء للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2002، ص:29.

2- محمد السخاوي، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ، تح: فرانز روزنتال، ترجمة: صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، لبنان،1986 م، ص: من المقدمة.

3- إحسان عباس، فن السيرة، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1956، ص:13.

4- شاكر مصطفى، المرجع السابق، ص:52-53.

إذ إن معرفة الفرد بنسبه تدفعه إلى معرفة مكارم الأخلاق، وتمنعه من ممارسة الرديئة، فمتى عرف الأنسان في أصله شرف، وفي عوده صلابة، وفي منبته طيبة، فإنه يأنف عن تعاطي دنايا الأمور حرصا على سمعته، وهذا خلاف ما يراه البعض عندما يقولون "إن علم النسب مدعاة للتعصب والعصبية، وخروجا عن التقدم والإسلام والأنسانية". [1]

للإشارة، فإن الكتابة التاريخية عند العرب والمسلمين ارتبطت ارتباطا وثيقا بالعلوم الدينية، فكان المؤرخون الأولون يكتبون في السيرة النبوية، وفي المغازي (المقصود بمصطلح السيرة النبوية، هو كل ما يتصل بسيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم من حيث الحديث عن نسبه الشريف، ومولده، ونشأته، وبعثته، وصفاته، فهذا هو الأصل في مصطلح السيرة النبوية، لكنه قد استعمل أيضا مضافا إليه، حديث المغازي والحروب التي خاضها الرسول صلى الله عليه وسلم، فصار هذان المصطلحان يتعاقبان على موضوع واحد، فكتاب ابن إسحاق يقال له: السيرة، ويقال له: المغازي. وقد جمع بعض المؤلفين المصطلحين في العنوان الذي اختاره لكتابه، مثلما هو عليه في كتاب "الدرر في اختصار المغازي والسير" لابن عبد البر، وكتاب "عيون الأثر في المغازي والسير" لابن سيد الناس، وابن الجوزي في كتابه "تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التواريخ والسير"، على إن هناك بعض الكتب التي تنصرف خالصة إلى السيرة النبوية بمعناها الأصلي، عرفت بكتب دلائل النبوة والشمائل والخصائص وفي نسب قريش، وفي الطبقات، وفي التراجم لرجال العلم والفقه والحديث. [2]

ومما لا شك فيه إن القرآن الكريم، أكد على أمثلة الشعوب الماضية البائدة، لما تنطوي عليه هذه الأمثلة من عبر دينية ومواعظ خلقية، كما جاء القرآن بنظرة عالمية إلى التاريخ ممثلة في تتابع النبوات، لأن جذوره قديمة وتعاليمه عميقة، لها تاريخ طويل، فالإسلام دين الحنفية، وهي دين إبراهيم الخليل، [3] وفي هذا يقول الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز "ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن حنفيا مسلما وما كان من المشركين" [4]

وعلى هذا، هناك من العلماء المسلمين من جمع بين الفقه والتاريخ، ودعوا لضرورة الاشتغال بهذا الأسلوب خدمة للدين، ومن أبرزهم المؤرخ شمس الدين السخاوي صاحب الكتاب المشهور "الإعلأن بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ "، الكتاب كما يدل عليه العنوان، كُتب للدفاع عن دراسة التأريخ كموضوع ثقافي مساعد في مناهج الدراسة الدينية، والواقع إن هذا الكتاب كُتب من وجهة نظر العلوم الدينية، غير إنه في

1- خاشع المعاضيدي، من بعض أنساب العرب، مطابع دار الشؤون الثقافية، العراق، 1990، ص:11.

2- محمود محمد الطناحي،الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر،1406 د/1986 م، ص:34.

3- عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص:26.

4- آل عمران، رقم 67.

الوقت نفسه كتب لعرض حقبة عظيمة من البحث في معضلات كتابة التاريخ، وهو محاولة لترتيب المقتطفات من الكتب التاريخية عن نوادر التاريخ.[1]

إذا كانت كلمة تاريخ التي اعتبرت منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، تعبيرا فنيا خاصا مرادفا من حيث العموم لكلمة استوار (Histoire) أو"استوري"(History)، إنما هي بالنسبة لعلم التاريخ العربي القديم، كانت كلمة مختلفة تماما، إذ يبدو إن أصول كلمة تاريخ مستمدة من الكلمة السامية يرخ أو ياريخ، بمعنى القمر أو الشهر، وهي في الأكادية "أرخو"، وفي العبرية "يرخ"، بمعنى القمر أيضا، غير إن ذلك لا يعني إن كلمة تاريخ مشتقة من هذه الشعوب.ولكن من الثابت، كما يؤكد ذلك صاحب كتاب – الإعلأن بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ – إن المناطق العربية الجنوبية اليمنية استخدمت لفظ "ورخ " و" توريخ" قديما، ومنها جاءت كلمة تاريخ ومؤرخ.[2]

إذن وعلى ما يبدو، إن كلمة تاريخ لفظ عربي أصيل، وإن استخدمت الشعوب القديمة لفظا مماثلا له، وتأريخ مصدر من أرخ بلغة قيس[3] ، أو ورخ بلغة تميم[4]. وقد فرق الأصمعي بين اللغتين فقال: "بنو تميم يقولون ورَخت الكتاب توريخا، وقيس تقول أرّخته تأريخا"[5]. وهي نفس النظرة التي يراها المؤرخ هملتون.جب حيث يؤكد في كتابه –علم التاريخ – من إن تأريخ لفظ عربي، بمعنى العهد أو الحساب أو التوقيت، أي تحديد الوقت وتحديد الشهر.[6]

---

[1]– السخاوي، المصدر السابق، ص: 05.

[2]– نفسه، ص:17.

[3]– قيس–جدّ القيسية – جد جاهلي يسمى قيس بن عيلأن بن مطر بن نزار من عدنان، بنوه قبائل كثيرة من هوازن وسليم وغطفان ذكرت القيسية عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: رحم الله قيسا، فقيل يا رسول الله(ص) تترحم على قيس، قال، نعم، إنه كان على دين أبينا إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام. وعلماء النسب مختلفون في عيلأن، هل هو أبو قيس أم عبد لأبيه تولى تربيته، أم هو فرس له. ينظر:رضا كحالة، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، مؤسسة الرسالة، ط7، بيروت، لبنان، 1414 د/1994 م، ص:972، وابن الكلبي، جمهرة الأنساب تح: ناجي حسن، عالم الكتب، بيروت، لبنان، 1425 د/2004م، ص:232، والقلقشندي، نهاية الإرب في معرفة أنساب العرب، تح وتع: علي الخاقاني، مطبعة النجاح، بغداد، العراق، 1378د/1958م، ص:327.

[4]– (تميم، جد جاهلي يسمى تميم بن مرّة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر، بنوه بطون كثيرة كانت منازلهم بأرض نجد والبصرة واليمامة والكوفة، ثم تفرقوا في الحواضر والبوادي. ينظر: اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي،علق عليه: خليل منصور، دار الكتب العلمية، ج1، ط 1، بيروت، لبنان، 1419 د/1993م، ص: 212.

[5]– كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية: يعقوب بكر ورمضان عبد التواب ج1، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1975، ص:104.

[6]– د. جب، علم التاريخ، تعريب وترجمة : لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية (إبراهيم خورشيد وآخرون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1981(مأخوذ من كتاب: حسان حلاق، مناهج الفكر والبحث التاريخي والعلوم المساعدة وتحقيق المخطوطات بين النظرية والتطبيق، دار المعرفة الجامعية، ط 3، مصر، 1998، ص:48).

ويظهر من ذلك جليا، إن العرب كانوا يتذاكرون أيامهم عن طريق الرواية الشفوية ويتفاخرون بما أحرزه أجدادهم من انتصارات، وذلك عن طريق الشعر أو النثر. [1] .كما كان للعرب قبل الإسلام صلاتهم ببعض الشعوب المجاورة لهم كالروم والفرس، فكان طبيعيا إن تتناول قصصهم ورواياتهم شيئا من تاريخ هذه الشعوب وأخبار ملوكهم.[2]

ولابد من الإشارة إلى إن كلمة تاريخ، بدأت في صدر الإسلام تعني التقويم والتوقيت، ثم أصبحت تعني تسجيل الأحداث على أساس الزمن، وتحمل اسم الأخبار، والحقيقة إن القرآن الكريم كان حافزا ومشجعا للمسلمين على الاهتمام بالتاريخ، فقد ورد فيه الكثير من الأحداث(آيات بينات تذكر قصصا وأخبارا عن الأولين والماضين) تسجيلا لتاريخ المجتمعات السابقة على الإسلام، الهدف من إيرادها العظة وإعطاء أمثلة على الشعوب، والقبائل، والأنبياء قبل الإسلام.[3]

فإلى جانب ذكر القرآن الكريم لقبيلة قريش التي كانت موجودة في القرن الأول الهجري (السابع الميلادي)، فقد أورد القرآن الكريم قبائل عاد، وثمود، ومن هنا حاول المسلمون إن يبحثوا عن تاريخ هذه الشعوب والقبائل، فعادوا إلى المصادر العربية، واليونانية، فأخذوا منها بعض المعلومات التاريخية، وأضافوا إليها معلوماتهم الأولية.[4]

وإذا كانت الكشوف الأثرية قد أيدت صحة ما جاء في الكتب المقدسة، ولاسيما القرآن الكريم، عن بعض أخبار العرب القدماء، فإن بعض المستشرقين لا يميلون إلى الاعتماد على الكتب المقدسة في ميدان التاريخ، إذ إنهم يرون إن ما جاء فيها سرد بأسلوب مختصر، وإن القرآن الكريم كان يهدف إلى عبرة أخلاقية، فضلا عن إن بعض الأخبار لا تزال غير واضحة، وينقصها التحديد الزملكاني. [5]

تشير بعض الكتابات التاريخية، إلى إن أول تدوين لأخبار العرب السابقين للإسلام كان على عهد معاوية بن أبي سفيان في أواسط القرن الأول الهجري(السابع الميلادي)، حيث استقدم عبيد بن شريه من صنعاء، فكتب له أخبار الجزيرة في عصر ما قبل الإسلام، ثم جمعها في كتاب سمي بكتاب "الملوك وأخبار

1- شوقي الجمل عطا الله، المرجع السابق، ص:09.

2- محمد مرسي الشيخ، نشأة الكتابة التاريخية عند المسلمين وتطورها من نهاية القرن الخامس عشر الميلادي (التاسع الهجري)، دار الثقافة العلمية، مصر(د ت)، ص:04.

3- حسان حلاق، مناهج الفكر والبحث التاريخي والعلوم المساعدة وتحقيق المخطوطات بين النظرية والتطبيق، دار المعرفة الجامعية، ط3، مصر، ص:50.

4- عثمان موافي، منهج النقد التاريخي الإسلامي والمنهج الأوروبي، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1996، ص:211.

5- سيدة إسماعيل كاشف، مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، 1983، ص:15-16.

الماضين"، وهو الأمر نفسه الذي يذكره صاحب كتاب الفهرست [1]. وعند وهب بن منبه [2]، الذي ركز اهتمامه على أخبار اليمن في الجاهلية. ورغم الطابع الأسطوري والخرافي الذي امتازت به كتابات كلا من عبيد بن شرية ووهب بن منبه، إلا إنها كانت مصادر اعتمد عليها ابن قتيبة في كتابه "المعارف"، والطبري في كتابه "تاريخ الرسل والملوك "، والمقدسي في كتابه "البدء والتاريخ".[3]

وعليه، فإن الاتجاه العام في كتابة التاريخ عند العرب المسلمين، قد بدأ حوالي النصف الأول من القرن الثاني الهجري(الثامن الميلادي)، حيث يذكر الذهبي(ت 748ه/1348م) إن السنة التي بدأ فيها تدوين العلوم العربية، هي سنة 143ه/761م.[4]

وهنا لا بد من الإشارة إلى إن العلماء قد مُنِعوا من تدوين الأحاديث إلى أيام عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، خوفا من إن يختلط الحديث بالقرآن،كما مُنع أهل الكتاب من قبل، وهذا يعني منع كتابة الآراء الشخصية، لكي لا يتبع الناس هذه الآراء ويتركوا القرآن الكريم، فانصرف كثير منهم إلى تدوين السيرة النبوية الشريفة، وهكذا كانت السيرة النبوية أول عمل يقوم به العرب، ومن الأوائل الذين كتبوا في ذلك عمرو بن الزبير بن العوام (ت 92ه/711م)، وأبان ابن عثمان (ت 105ه/724م)، ووهب بن منبه(ت 110ه/729م).[5]

إن التاريخ الإسلامي، نشأ نشأة مستقلة، غير متأثرة بما كتبه أعلام المؤرخين اليونان، أو الرومان، أو الفرس، وكان أوائل المؤرخين في القرن الأول الهجري عربا، سواء من الجنوب أو من الشمال، ولكن لمؤثرات خارجية تراجعت الحركة التاريخية في أواخر القرن الثاني من الهجرة، وصار جميع المؤرخين من الموالى[6]. وفي هذا الإطار، يذكر ابن الجوزي إن من الموالي ممن اهتموا بتدوين التاريخ العربي لا يتحسسونه كله، ولأنهم غالبا

[1]- عبيد بن شرية –ت نحو68ه/686م-راوية من المعمرين، وهو أول من صنف الكتب عند العرب، من الحكماء والخطباء في الجاهلية، أمره معاوية بن أبي سفيان بتدوين أخباره وأخبار العرب والعجم، من مصنفاته: كتاب الملوك وأخبار الماضين، وكتاب الأمثال، ينظر:ابن النديم، كتاب الفهرست، تح: رضا تجدد، ج3، (د ط ود ت) ص:89.

[2]- وهب بن منبه-34-114 ه/654- 732م هو وهب بن منبه الأبناوي الصنعاني الذماري، مؤرخ، كثير الأخبار عن الكتب القديمة، عالم بأساطير الأولين ولا سيما الإسرائيليات، ولد ومات بصنعاء، من كتبه:ذكر الملوك المتوجه من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم، ينظر: العسقلاني، تهذيب التهذيب، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، لبنان، 1412 ه/1991 م، ص: 166 والدينوري، المعارف، المصدر السابق، ص:202.

[3]- ابن النديم، المصدر السابق، ص:90.

[4]- شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط 1، بيروت، لبنان، 1407 ه/1987 م، ص:221.

[5]- د. حب، المصدر السابق، ص:55-56.

[6]- محمود الحويري، منهج البحث في التأريخ، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، مصر، 2001م، ص:120. وحسين نصار، نشأة التدوين التاريخي عند العرب، مكتبة النهضة العربية، مصر(د ت)، ص:06

ما يجمعون في عملية التدوين الأخبار كافة، إن لم نقل إنهم يُظهِرون بعض المثالب على العرب، وهذا ما أدى إلى بروز الاتجاهات السلبية في التدوين التاريخي للعرب، ومن أبرز هؤلاء الموالي: شرحبيل بن سعد، وابن إسحاق، وأبو معشر السندي وغيرهم.[1]

وعليه، فإن السبق العربي في صناعة التاريخ أصيلة، وإن الكتابة التاريخية ولأول مرة في تاريخ الاسطويوغرافيا البشرية قد تحولت إلى علم، يقف كطرف نقيض للأسطورة، ولأن العرب تجاوزوا كلا من هيرودوت وتيودور في تنقيح الأخبار وسبرها اعتمادا على تقنيات منهجية أثمرتها الخبرة العربية في إطار عدد من العلوم الإسلامية والعربية الأصيلة مثل علم الرجال، والدراية بأساليب الجرح والتعديل، فقد ساهموا –وفي حدود ما– في إنماء الرؤية التاريخية ليس فقط عند العرب والمسلمين، بل وعند جميع الشعوب.[2]

كما إنه من دون أدنى شك، من اعتبار الكتابة التاريخية العربية والإسلامية أرقى مما شهدته الاسطويوغرافيا اليونانية و الفارسية، وإن العقل العربي والإسلامي في ظل طموحه المتواصل، سأهم في إرساء ما من شأنه تنقية الأخبار المنقولة عبر الرواة، مع تتبع لتراجم الرواة أيضا، وهذا ما أحال إليه الكاتب نيقولا زيادة عبر عرضه لأكثر من نموذج تاريخي من كتب السيرة والتراجم في التراث العربي الإسلامي بقوله: "لسنا نعدو الحقيقة إذا حسبنا إن هذا النوع من الكتابة التاريخية هو اختراع عربي. [3]

وعليه، حينما رأى الكاتب فرانسوا شانلي وغيره من المؤرخين الأجانب، إن التاريخ هو صناعة أوربية تطرح إشكالية في الكتابة التاريخية، خاصة لما يمارس التاريخ بوعي لا تاريخي، يجد المؤرخ نفسه أمام عالم تتشكل فيه عناصر لواقع تاريخي أزموي يتمثل في، هل الأزمة هي وليدة الاتجاه نحو عمق الموروث الفكري التاريخي الهادف إلى صوغ المشاهد التاريخية بما يؤسس لوظيفة إيديولوجية أيا كان مجال سلطتها؟، أم إن الأزمة هي أشمل وأعمق من ذلك، تتجه نحو طبيعة الكتابة التاريخية ذاتها، من حيث هي تقنية نادرة في الحقل التاريخي بما هو علم خطير جدا كما يقول فاليري؟. [4]

وللإجابة عن هذه الإشكالية، كشفت تجربة ابن خلدون في ابتكار تيها التي واجهت الفشل على المستوى التطبيقي، عن إن المؤرخ العربي والإسلامي لم تكن تخونه الآلية الموضوعية في الكتابة التاريخية، بقدر ما كان ضحية لنزعات سياسية ومذهبية وحتى أثنية. والنتيجة إن التقنيات العالية لم تجد فرصتها كي تستثمر

---

[1]– ابن الجوزي، جمال الدين أبي الفرج، صفة الصفوة، اعتنى به: أيمن صالح شعبان م 1، ط1، مطبعة الأصيل، حلب(سوريا)،1969، ص:37.

[2]– هاني إدريس، محنة الكتابة التاريخية العربية بين التأريخ والمؤرخ، مجلة الكلمة، الصادرة عن منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، ع18، السنة الخامسة، لندن، المملكة المتحدة، 1998م، ص:158-175.(مجلة الكترونية)

[3]– نيقولا زيادة، كتاب الجغرافية والرحلات عند العرب، الشركة العالمية للكتاب، دار الكتاب اللبناني، لبنان، 1986، ص:167.

[4]– محمد مخزوم، نقولا زيادة، شيخ مؤرخي العروبة والإسلام، مجلة العربي، تصدرها وزارة الإعلام الكويتية، ع 548، جويلية، 2004، الكويت، ص:23-27.

بشكل حقيقي على صعيد الكتابة التاريخية العربية والإسلامية، وهو ما يدعو إلى إعادة كتابة التاريخ العربي والإسلامي، بعيدا عن مؤثرات فن الملل والنحل، وعن نتائج المغالبة الطائفية والسياسية[1]

ومما يجب التنبيه إليه في هذا المجال (مجال نشأة الكتابة التاريخية عند العرب والمسلمين)، إننا لا يمكننا تجاهل الإسهام الأعظم للشعوب العربية الإسلامية في جدول الاكتشافات والاختراعات في الكتابة التاريخية ونشأتها، وكيف إن هذه الاكتشافات أصبحت مفتاحا، بل شرطا أساسيا للتراكم المعرفي والتقدم الأنساني الذي حققته، أو ما تحققه البشرية في ماضيها وحاضرها. الأكيد إن هناك بون شاسع اليوم بين العرب المسلمين والغرب، من حيث كثرة المؤرخين، وغزارة الأنتاج وتنوعه، بل يزداد الوضع قلة وندرة في الكتابة التاريخية العربية الإسلامية كلما تقدمنا إلى الأمام، وهذا ما أدى بالعديد من الباحثين والمؤرخين الغربيين لتناسي الأنجازات الكبرى في تاريخ الحضارة العالمية، التي اضطلعت بها الشعوب العربية، فيحسبون التاريخ وكتابته بدأ باليونان وانتهى بأوربا الحديثة.

المبحث الثاني: دوافع الكتابة التاريخية عند العرب والمسلمين:

إن تقدم الشعوب مرهون باكتشاف شعورها التاريخي، فهو الذي يضعها في الزمان، ويجعلها تحدد دورها في مسار التاريخ، فالشعور التاريخي هو شرط الوعي التاريخي، وهو الذي بدأ بنزول الوحي عند المسلمين، لأن الوحي كان مصدر المعرفة الجديدة التي أخذها المسلمون، ومصدر الحضارة العربية الإسلامية التي تميزت بالنزعة التاريخية الواضحة، والتي تجلت في ظهور ألاف المؤرخين، وأضعاف الأضعاف من الكتب التاريخية لديها، وهي حضارة كباقي حضارات الأمم، اشتركت في هذه النزعة التاريخية التي تكاد لعمقها وثباتها واستمراريتها وأثرها التلقائي الفعال تدعى بالغريزة التاريخية، وإن تراثها التاريخي الضخم الذي يعتبر ميزة من ميزاتها وحدها، ليس ذلك ناجما عن صدفة انتشار الورق وصنعه لدى العرب منذ القرن الثاني الهجري فقط، ولكن أيضا لجذوره النفسية والدينية والمادية فيهم.[2]

حقا لقد كان لثقافة العرب ولاهتمامهم الفكري أثر كبير في توجيه الحركة الفكرية في العالم العربي الإسلامي، ومن أبرز مظاهر اهتماماتهم، اتجاهاتهم الثقافية والفكرية والأنسانية، أي بكل ما يتعلق بالأنسان وتصرفاته. والتاريخ من أهم فروع المعرفة الأنسانية بل هو المعرفة، أو العلم الذي يظهر الأنسانية على حقيقتها، لذلك حظي بنصيب وافر من الاهتمام،كما كان لظهور الإسلام أثر كبير على نشأة علم التاريخ عند العرب المسلمين، الأمر الذي أعطى هذا العلم أصالته العربية والإسلامية من بين العلوم الأخرى.[3]

---

[1] - المرجع نفسه، ص:23.

[2] - شاكر مصطفى، المرجع السابق، ص:09.

[3] - محمد أحمد ترحيني، المؤرخون والتأريخ عند العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د ت)، ص:23.

لقد أثر الإسلام بمجمله (القرآن الكريم، الحديث، السنة)، ومن ثم أحداث الدولة السياسية والاقتصادية والعسكرية، سواء في العهد النبوي، أو في العهد الأموي، أو في العهد العباسي، على حركة التدوين التاريخي لدى العرب المسلمين، فسارع المسلمون إلى تدوين التاريخ مدفوعين بعدة عوامل، منها:

القرآن الكريم: يعتبر القرآن الكريم من الدوافع العلمية الرئيسية لدراسة التاريخ، ففكرة التاريخ موجودة في القرآن، حيث يطرح مفهوما للتاريخ البشري يقوم على أساس إن هناك غاية، ضف إلى ذلك إنه يوفر المادة التاريخية، خاصة إذا علمنا إن ثلث القرآن الكريم قصص تاريخي، مما دفع مفسري القرآن الكريم إلى البحث عن معلومات تاريخية لتفسير ما جاء فيه، ومعرفة مناسبات نزول آياته، وأخذ العبر من مصير الأمم السابقة. فالإسلام دين تاريخي يحمل في ذاته الفكرة التاريخية، والقرآن الكريم هو الذي عمق الإحساس التاريخي عند العرب، وذلك بذكره لقصص أقوام وحضارات شهدها مسيرة الأنسان عبر الزمان الطويل، كقصة آدم أبي البشرية، ونوح وعيسى عليهم السلام، وقوم لوط، وصالح، وعاد، وثمود، وطسم، وجديس، والعمالقة[1]

أشار القرآن الكريم إلى الزمن، وإلى دوره كإطار للفعل التاريخي الذي تمثل في الحياة الدنيا، التي تبدأ بيوم الخليقة وتنتهي بيوم القيامة.وإذا كان القرآن الكريم قد ذكر الأحداث الماضية، فإنه ذكر أيضا الوقت كالأيام والشهور والسنين، إلا إن كلمة تاريخ لم ترد فيه بشكل مباشر، بل وردت معلومات تاريخية تختلف عما يدعي اليهود إنها موجودة في التوراة، ولذلك كان الشعور التاريخي عند النبي صلى الله عليه وسلم عميقا.[2]

لقد كان التفسير الأول لعلم التاريخ عند العرب بعد الإسلام، حيث عُد ضربا من ضروب البحث التاريخي، إضافة إلى إن الاستخدام الثقافي والاجتماعي الأول لعلم التاريخ جاء تلبية لضرورة ملحة في الحياة، هي تفسير القرآن. وفي هذا المجال لمعت أسماء مثل كعب الأحبار، ووهب بن منبه، حيث يعتبر هذان الرجلأن مصدرا مشتركا لكتب التفسير طوال عصور الثقافة العربية الإسلامية.[3]

وعليه فإن الأنسان فاعل تاريخي، لأنه مسئول عن وجوده في الحياة الدنيا، كما إنه مسئول عن تطوير أحواله فيها، وكذلك العقل التاريخي البشري نتاج لتفاعل الأنسان مع بيئته، باعتبار إن البيئة الطبيعية ومظاهرها وسيلة من وسائل معرفة الأنسان لربه، ومدى قدرته، وبالتالي فللبيئة دور في صياغة الفعل التاريخي من حيث كونها مسخرة لخير الأنسان ونفعه. وقد جسد المؤرخون هذا في تتبعهم لجذور القصة التاريخية في الماضي من

1- أحمد الدينوري، الأخبار الطوال، تح: عبد المنعم عامر، ط1، دار أحياء الكتب المصرية، القاهرة، 1960، ص:15.

2- فرانز روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، تر: صالح أحمد العلي، مؤسسة فرانك لين للطباعة والنشر، بغداد، العراق، 1960، ص:21.

3- د.حب، المصدر السابق، ص:56.

خلال محاولاتهم لرسم قصة الأنسان في الكون عبر الزمان، بحيث تكون قصة الخليقة (آدم وحواء والأنبياء) هي البداية التي ينطلق منها كثير من المؤرخين تجاه العصر الذي يعيشون فيه ويؤرخون له.[1]

الحديث الشريف: بَين القرآن الكريم إن أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم هي الطريق المباشر للمسلمين الذي يجب الاقتداء به، ومن هنا جاء الاهتمام بالحديث الشريف. ولما كانت السنة النبوية الصحيحة المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم في الاحتجاج بها، والعمل بمضمونها، والاحتكام إليها، والتسليم لها، فقد اشتدت عناية الصحابة رضوان الله عليهم بما صدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، من أقوال وأفعال، فحفظوها في صدورهم، وقيد بعضها عدد منهم في الصحف، وبلغوها لمن جاء بعدهم من التابعين بدقة بالغة، وعناية لا نظير لها، ثم جاء عصر التابعين وحذو حذو الصحابة في حفظ الحديث وكتابته، فكان العالم منهم يتردد على صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين كانوا في بلده، فيحفظ مروياتهم، ويُعقِل فتاويهم، ويعي تأويلهم للآي الكريم [2].

إذا كان تدوين الحديث الشريف بدأه الصحابة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه ازدهر مع نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني للهجرة بصفة رسمية، وأصبح منهاجا عاما لحفظ العلوم، فكان دافعه الرئيسي، هو حفظ الحديث من الأندثار بموت الأئمة الحفاظ، ومن التحريف والوضع الذي بدأ يظهر.[3] ومن الأحاديث التي وردت في إباحة كتابة الحديث، ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة، قال: "ما من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أحد أكثر حديثا عنه مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا الكتب"[4] .

استقر الأمر على ذلك إلى رأس المائة الأولى من الهجرة في ولاية الخليفة عمر بن عبد العزيز، فرأى جمع الحديث والسنن، وتدوينها تدوينا عاما خشية إن يضيع منها كل شيء بموت حافظيها. فقد روى الإمام مالك في الموطأ (برواية محمد بن الحسن رقم:936)، عن يحي بن سعيد، إن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر بن عمرو بن حزم، إن أنظروا ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو سنته، أو حديث عمر أو نحوه، فأكتبه لي، قد خِفت دروس العلم، وذهاب العلماء.وكتب أيضا إلى العالم الجليل المُحدث الحافظ ابن

1- محمد أحمد ترحيني، المرجع السابق، ص:24.

2- محمد بن الفراء، العدة في أصول الفقه، تح وتع: أحمد المباركي، كلية الشريعة بالرياض، المملكة السعودية، (د د ن)، 1410 د/1990 م، ص: 97.

3- يوسف عبد الرحمن المرعشلي، علم فهرسة الحديث، دار المعرفة، ط1، بيروت، لبنان، 1406 د/1986 م، ص:132.

4- رواه البخاري في صحيحه برقم 110، محمد الحافظ، الصحيح، اعتنى به: أبو عبد الله عبد السلام علوش، مكتبة الرشد ناشرون،ط2، المملكة العربية السعودية، 1427د/2006م،ص: ،ومسلم في صحيحه برقم 3004، مسلم بن الحجاج، الصحيح، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت،ص: ، ومسلم في صحيحه برقم 3004.

شهاب الزهري إن يدون الحديث والعلم، فكان كما يقول أبو الزناد "يطرق على العلماء ومعه الألواح والصحف يكتب كل ما يسمع" [1].

ثم شاع التدوين في الطبقة التي تلت طبقة الزهري وأبي بكر بن حزم، فصنف عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج (ت 150ه/767م) بمكة، وأبو عمرو عبد الرحمن الأوزاعي (ت156ه/773م) بالشام، وسفيان بن سعيد الثوري (ت161ه/778م) بالكوفة. ثم تلاهم كثير من أهل عصرهم في السير على منوالهم، إلى إن رأى بعض الأئمة منهم إن يفرد حديث النبي صلى الله عليه وسلم خاصة وذلك على رأس المائتين، فصنف عبيد الله بن موسى العبسي (ت 213ه/829م) مسندا، وصنف مسدد بن مسرهد البصري (ت212ه/828م) مسندا، وصنف نعيم بن حماد (ت 228ه/844م) مسندا. ثم اقتفى الأئمة بعد ذلك أثرهم، فقل إمام من الحفاظ إلاً وصنف حديثه على المسانيد كالإمام أحمد بن حنبل (ت241ه856م)، وإسحاق بن راهويه (ت 241ه/856م)، وعثمان بن أبي شيبة (ت 238ه/853م)، وغيرهم من الحفاظ، ومنهم من صنف على الأبواب وعلى المسانيد معا، كأبي بكر بن أبي شيبة (ت 235ه/850م)، وبقي بن مخلد الأندلسي (ت 276ه/890م)[2].

ثم تلت هؤلاء طبقة أصحاب الكتب الستة، وهم: البخاري(ت 256ه/870م)، ومسلم (ت261ه/875م)، وأبو داود (ت 275ه/889م)، وابن ماجة (ت 275ه/889م)، والترمذي(ت 279ه/893م)، والنسائي(ت 303ه/916م)، ولقد اشتملت هذه الكتب على الإسناد وعلى النص، فكان لابد لمن يتحرى صحيح الأخبار من دراسة هذه الأسانيد والمتون دراسة دقيقة، تستند إلى معايير وصفها المختصون بهذا العلم، لكي يتمكنوا من تمييز ما هو صحيح عن ما هو ضعيف[3].

وعلى العموم كان القرن الثالث الهجري /التاسع الميلادي هو أجلُ عصور الحديث في جمعه وتدوينه، وتمييز الصحيح من غيره، وأما القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي فإنه كان في الغالب عصر تبويب وتهذيب، وبنهاية هذا القرن انتهى جمع السنن. وأكثر الكتب المؤلفة بعد القرن الرابع الهجري إنما غايتها: جمع التشتيت أو بيان الغريب، أو الإبداع في الترتيب، أو الاختصار،، فهي غالبا إما كتب جامعة لأحاديث كتاب أو أكثر،

1- شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح: شعيب الارنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ج 5، بيروت، لبنان، 1422 ه/ 2001 م، ص:329.

2- محمد ابن حيان، صحيح بن حيان، تح: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، لبنان، 1424ه/1993م، ص: من المقدمة.

3- عادل مرشد، المنهج الصحيح في الحكم على الحديث النبوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 2000، ص: 13.

أو كتب جامعة لأحاديث الأحكام، أو لأحاديث الترغيب والترهيب، أو لأحاديث مسألة من المسائل، وإما كتب تلخيص الأسانيد ككتب الأطراف، أو كتب تخريج لمؤلفات مخصوصة.[1]

السير والمغازي: لقد اهتم المسلمون بمغازي الرسول صلى الله عليه وسلم، وكانت مصدر اهتمام واعتزاز لدى المسلمين، كما كانت موضوعات محببة لاستجابة ثقافية لحاجة المسلمين في الوقوف على تفاصيل حياة النبي صلى الله عليه وسلم، إضافة إلى إن المشاركة في غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم كانت عاملا في رفع المنزلة، وعنصرا في تحديد العطاء في الديوان، مما قوى الاهتمام بها، وسرعان ما صار الصحابة أنفسهم قدوة لمن بعدهم في أقوالهم وأفعالهم وأعمالهم.

لقد سميت الدراسات الأولى لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم باسم المغازي، والتي هي علَم على فن من فنون علم التاريخ، من حيث إنه يؤرخ لحياة النبي صلى الله عليه وسلم، ابتداءً من إرهاصات بعثته، مرورا بأخبار دعوته، وإقامته للدولة الإسلامية، وانتهاء بوفاته صلى الله عليه وسلم.[2]

وعلم المغازي يتنازعه علم التاريخ من حيث إنه يؤرخ لحياة النبي صلى الله عليه وسلم، وعلم الحديث من حيث إن إثبات أخباره يكون بالأحاديث والآثار المسندة والمرسلة، وهي مدار علم الحديث.[3]

لقد كان الاهتمام بهذا الفن مبكرا، إذ كان الصحابة ومن بعدهم يحفظون المغازي والسيرة النبوية، كما يحفظون القرآن، ويعلمونها الصغار، قال علي بن الحسين زين العابدين "كنا نُعلم مغازي النبي صلى الله عليه وسلم، كما تُعلم السورة من القرآن"[4] وقال الزهري في علم المغازي: "علم الآخرة والدنيا"[5]

في الحقيقة إن المغازي والسير تناولت عصر الرسالة بكامله، وقد جاء هذا النمط من الكتابة استجابة لحاجة المسلمين لمعرفة الفترة التي تم فيها بناء الأمة الإسلامية، ونشر الإسلام، ومن الصحابة البارزين الذين تناولوا المغازي بالكتابة، عروة بن الزبير الذي يعد مؤسس دراسة المغازي، إذ إنه أول من ألف كتابا في "المغازي.[6]

---

[1]- محمد بن سويلم أبو شهبة، دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين، مكتبة السنة، مصر، 1989، ص:157.

[2]- ابن منظور، لسان العرب،ج4، ط1، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1374 ه/1955م، ص:389 (مادة سير، و123/15 مادة غزا).

[3]- صديق القنوجي، أبجد العلوم، تح: عبد الجبار زكار، ج2، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1987، ص:514.

[4]- الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع،تح: محمد عجاج الخطيب، ج 2، ط 3، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1416 ه/1996م، ص: /195.

[5]- ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله التركي،ج 3، دار عالم الكتب، مصر، 1424 ه/2003م، ص:/242.

[6]- عبد العزيز الدوري، نشأة علم التاريخ عند العرب (المغازي النبوية)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1960، ص:67.

الاهتمام بالأنبياء والإسرائيليات: إن القرآن الكريم هو كتاب الله المترل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وهو امتداد لرسالات الأنبياء السابقين كنوح، وإبراهيم، وموسى عليهم السلام، وبذلك جاء القرآن بنظرة عالمية للتاريخ، تمثلت في توالي النبوات، مما كان له أثره في العناية والالتفاف إلى تواريخ أولئك المرسلين لمعرفة أخبارهم .إن القرآن ترجمة بلسان عربي لما هو موجز في زبر الأولين، وإحقاقا للحق، فقد أبدع في الترجمة، في أغلب المواضع، وحاز قصب السبق في استعمال عنفوان وبلاغة اللغة العربية في المجال اللاهوتي.[1]

كما إن القرآن بعودته إلى بدء الخليقة، وبنظرته العلمية إلى التاريخ من خلال تأكيده على توالي النبوات، وعلى إنها في الأساس رسالة واحدة بشر بها أنبياء عديدون، فالقرآن الذي جُمع ودُوِن أنار عقول العرب والمسلمين ودفعهم للاهتمام بتاريخ الأنبياء والإسرائيليات، ففيه اقتباس لعديد القصص والأحكام من التراث اليهودي، بيد إنه كان يتدخل أحيانا في صياغة القصة، أو التشريع ليجعله موافقا للأرضية العربية، كما حافظ القرآن على تشريعات كانت موجودة في الجاهلية كقطع يد السارق مثلا، فقد جاء في المنمّق "إن قريشا كانت تقطع يد السارق في الجاهلية"، ناهيك عن عادة الحج، وهي شرائع وثنية جاهلية.[2]

وفي هذا الإطار، لنا إن نتمثل كلام وحيد السعفي: "الدين يشيّد صرحه العظيم على أنقاض الصرح القديم، فشابه الدين الدين وآمن بالأنسان، بتواصل الحياة في ظل الإصلاح والقضاء على التحريف، وظهر للعيان ما كان خافيا من دين حنيف حرّفه الزمان، ذاك شأن الدين، ذاك حيلة من حيل الدين". فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يفهم العبرية، والمقاصد من غمز اليهود، وكيف لا وهو المطلع على قصص التراث اليهودي، والتي صاغها بلسان عربي بليغ ورائع.[3]

وفي ذات السياق،أود ربط حديثي الخاص بالإسرائيليات بملاحظة تتعلق بدائرة المعارف الإسلامية، ودورها المشبوه في العديد من القضايا التاريخية والدينية وغيرها. كما هو معلوم إن دائرة المعارف الإسلامية نتاج جهد استشراقي مشترك لأكثر من خمسين مستشرقا من أكثر من بلد غربي (فرنسا، إنجلترا، هولندا، المجر، المانيا،....) قساوسة، علماء لاهوت، منصرين، ويهود، ومن بينهم: الهولندي أريد جان فتسيك(wensinck.A.J)، والهولندي الثاني من أصول يهودية جوزيف شاخت (joseph schakht)، وهم من أشد المتعصبين على الإسلام. إن هذه الموسوعة لا تخلو من عيوب ذات دلالات كثيرة، وأثارا خطيرة، فمعظم موضوعاتها تستند إلى دراسات إستشراقية، ومعاجم أجنبية سابقة، وقلما اعتمدت على مصادر عربية إسلامية، وهذا فيه محاولة لإقناع المثقف المسلم وغيره بشبهات هؤلاء المستشرقين، فكيف ستكون معلومات هذه

---

[1]- محمد بن فتوح الحميدي، الجمع بين الصحيحين (البخاري ومسلم)، تح: علي حسين البواب، ج 2، ط 2، دار ابن حزم، لبنان، 1423ه/ 2002 م، ص:97.

[2]- محمد بن حبيب البغدادي، كتاب المنمق، تح: خورشيد أحمد فاروق، دائرة المعارف، مصر، 1964، ص:530.

[3]- وحيد السعفي، القربان في الجاهلية والإسلام، منشورات تبر الزمان، تونس، 2007، ص:194.

الموسوعة، ومدى مصداقيتها إذا كانت مصادرها معجمية، أو تاريخية غير موثقة،[1] ، ومن بين عيوبها، عرضها للمعلومات عرضا مباشرا تقل فيه إلى حد كبير الظاهرة الاستدلالية طلبا للاختصار، ولو لم تقض الطبيعة الموسوعية للدائرة ذلك، ففي الحديث عن البلوغ مثلا لم تذكر الدائرة دليلا واحدا تعضد به رأيا من الآراء، لا من الكتاب، ولا من السنة، ولا من الإجماع، ولا من القياس، كما إنها لم تذكر علامات البلوغ، فمن هذا أقول بأن الاختصار يفتقد إلى الاستدلال المعضّد للقول والمظهر للحجة.[2]

ومما يؤكد هذا الكلام، رأي الكاتب الأمريكي ستيفن همفري (stephan humphrey) صاحب كتاب: التاريخ الإسلامي—إطار البحث–(Islamic history framework for inquiry) بقوله: "دائرة المعارف الإسلامية مؤلفة بالكامل من قبل باحثين أوربيين، وهي لا تعبر إلا عن النظرة والمفهوم الأوربي للحضارة الإسلامية، وتتناقض هذه المفاهيم وتختلف اختلافا كبيرا عن المفاهيم التي تؤمن بها ويتبعها المسلمون أنفسهم، وما ذكر في هذه الموسوعة لا يتوافق مع التعاليم والمبادئ الإسلامية للمراجع الإسلامية كالأزهر، بل يتناقض معها"[3]

ولأنه ينبغي إن يكون لكل أمة ذات حضارة ورسالة خالدة عملا علميا ضخما يقدم للعالم صورة صادقة عنها، يجب إن تتوافر همة علماء المسلمين على كتابة دائرة معارف إسلامية، بأقلام إسلامية لتكون البديل العلمي الصحيح، والمرجع للباحثين العرب والمسلمين، ولعل ما بادرت به مؤسسة أعمال لأنجاز موسوعة عربية عالمية لخير دليل. [4]

الفتوحات الإسلامية: إن الفتوحات الإسلامية الكبرى والمتعددة في مشارق الأرض ومغاربها، جعلت المسلمين يحسون بأن لهم دورا تاريخيا كبيرا، يستحق التسجيل في كل تفاصيله، وإعطائه شأنه الأنساني.إن تجارب الأمة الإسلامية جديرة بأن تدون وتعرف في تطور أحداثها وأمورها، وتقارن مع تجارب الأمم الأخرى، كما إن الفتوحات الإسلامية ساعدت على اهتمام المسلمين في التاريخ في معرفة البلدان التي فتحت عنوة، وأيها فتح بالصلح، وما يترتب على ذلك من حقوق بالنسبة لتقدير قيمة الخراج المفروض على الأرض، كل ذلك أدى إلى ظهور نمط من الكتابة التاريخية، يهتم بفتوح البلدان بقصد التعرف على ظروف الفتح، ومن الأمثلة على ذلك كتاب "فتوح مصر وأخبارها" لعبد الرحمن بن عبد الحكم، وهذا الكتاب يعتبر من أقدم المصادر التاريخية التي تحدثت عن فتوح مصر وشمال إفريقيا، كما يعتبر من المصادر التاريخية الهامة التي يعود إليها الباحث في

---

[1]– م.ت. هوتسما وآخرون، موجز دائرة المعارف الإسلامية، تح: إبراهيم خورشيد وآخرين، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ج4، 1418ه/1998م، ص:1169.

[2]– موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج7، المرجع السابق، ص:1921.

[3]– ينظر: إبراهيم عوض، دائرة المعارف الإسلامية –أضاليل وأكاذيب، صدر عام 1998.

[4]– الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ج24، ط1، الرياض، المملكة السعودية، 1416ه/1996م، ص:394.

المجال التاريخي لمصر والأندلس، وفيه تراجم وجداول بيبليوغرافية لأهم الأعلام والرجال الذين اقترنت أسماءهم بتلك الفترات التاريخية عن تاريخ مصر.[1]

في الحقيقة إن النقلة الواسعة التي تحققت في الحياة العربية، من الجاهلية إلى الإسلام بسبب الفتوحات الإسلامية، أدت إلى ظهور ملامح جديدة للمجتمع الإسلامي. هذا المجتمع الذي تشكل بسرعة، لم يكن أثرا لحادثة واحدة، وإنما كان أثرا للفكرة الإسلامية في جملتها، التي صاغت هذا المجتمع الإسلامي وأهالت عليه من السمات والشيات، ووهبته طوابعها المعالم والملامح، في الوقت الذي تولّت فيه الحياة الإسلامية نفسها بكل عقائدها ومثُلها، وحوادثها وأحداثها، وما أتاحت من اختلاط، وما انتهت إليه من تمدد في صياغة هذا المجتمع الإسلامي وتكوين طبقاته.[2]

إن هذا النمط من الكتابة التاريخية، جاء استجابة للحاجات التي نجمت عن حركة الفتوح الإسلامية، ومن الأسماء التي لمعت في هذا النوع من الكتابة أحمد البلاذري (ت279ه/893م)، صاحب كتاب " فتوح البلدان"، والواقدي(ت270ه/823م) صاحب كتاب "فتوح الشام"، إضافة إلى إن السرعة التي تحققت بها الفتوحات الإسلامية، وامتداد حدود الدولة الإسلامية شرقا من الصين بآسيا إلى شبه جزيرة أيبيريا بأوربا غربا، اشعر العرب المسلمين بقوة دينهم وبسلامة نهجهم، كما أشعرهم بأن لهم دورا قياديا في التاريخ العالمي، فأخذوا بجمع وتحقيق عناصر هذه التجربة الكبرى، التي كان لهم شرف حملها وتبليغها للعالمين، فكان ذلك مدعاة لعنايتهم بالتاريخ.[3]

إذا كان الإسلام قد حط من قيمة "الأيام القبلية الجاهلية "، فإن نظام الحكم الإسلامي أوجد مبدأ جديدا في تفاضل الناس يعتمد إلى حد كبير على النسب القبلي نفسه، كما أوجد شكلا آخرا للأيام تمثلت في المعارك وما ترتب عليها من فتوحات، فأيام الجاهلية القبلية قد تجددت بالغزوات والفتوحات الإسلامية، وتجاوزت بحدودها الوسط القبلي لتصبح حدثا "قوميا" يتأثر بها العرب بأجمعهم، وحدثا عالميا يتأثر بها المسلمون في شتى إنحاء الأمة. ولذا لم يعد الاهتمام بهذه الأحداث هدفا للتفاخر كما كان في الجاهلية، بل هدفا لما يترتب عليه من مكاسب مادية تتعلق بعطاء الجنود الفاتحين وأرزاقهم وإقطاعاتهم، كما تتعلق بالبلاد المفتوحة نفسها ومقدار ما تدفع من جزية، وما يجب على أرضها من خراج وعشر، وقد تحدثت كتب عن ذلك، مثل

[1]- عبد الرحمن بن عبد الحكم، فتوح مصر وشمال أفريقيا، تح: محمد الحجيري، ط1، دار الفكر، بيروت، 1416 ه/1996 م.
[2]- شكري فيصل، المجتمعات الإسلامية في القرن الأول، دار العلم للملايين، ط5، بيروت، لبنان، 1981، ص:39.
[3]- مصطفى الرافعي، حضارة العرب، دار الكتاب اللبناني، ط3، بيروت، لبنان، 1981، ص:142.

كتاب "الخراج" لأبي يوسف، كما تتعلق بالبلاد بما أعطي لبعض المدن المفتوحة أو الفئات الدينية أو الأقطار من حقوق أو عهود محفوظة. [1]

التقويم الهجري: كانت فكرة الوقت وتحديده في المجتمع القبلي الجاهلي غير محدودة ومشوشة، فكان العرب يؤرخون بكل عام فيه أمر مشهور ومتعارف عليه، فمثلا أرخ العدنانيون بعام نزول إسماعيل مكة، وعام رئاسة عمرو بن لحي الخزاعي الذي بدل دين إبراهيم عليه السلام بعبادة الأصنام، وعام وفاة كعب بن لؤي، وعام الغدر أو حجة الغدر، كذلك أرخ العرب بعام الخنان لأنهم تماوتوا فيه، وكانت حمير تؤرخ بالتبابعة، وغسان بالسد(سد مأرب)، وأهل صنعاء بظهور الحبشة على اليمن، ثم بغلبة الفرس، كما أرخ العرب بالأيام المشهورة كحرب البسوس وداحس وبيوم ذي قار وبحرب الفجار.[2]

لقد كان من الطبيعي إن يهتم المؤرخون المسلمون بهذا الموضوع المهم جدا، حيث أوردت عدة كتب الأحاديث التي تشير إلى ذلك، ومنها ما أشار إليها السخاوي، ويكفي إن نشير إلى بعضها. قال ابن عساكر "إن الأمر به في زمن عمر"، وكذا صححه الجمهور، بل هو الصحيح المشهور، إنه كان في خلافة عمر رضي الله عنه، وإنه ابتدأه بالهجرة النبوية، وبالمحرم منها. وذكروا في سبب عمل التاريخ أشياء، منها ما أخرجه أبو نعيم الفضل بن دُكين في تاريخه، ومن طريقه الحاكم من طريق الشُعبي إن أبو موسى الأشعري كتب إلى عمر رضي الله عنه، يقول: "من إنه يأتينا منك كتب ليس لها تاريخ"، فجمع عمر الناس، فقال بعضهم أرخ بالمبعث، وبعضهم أرخه بالهجرة، فقال عمر رضي الله عنه، الهجرة فرقت بين الحق والباطل، فأرخوا بها، وذلك سنة سبع عشرة للهجرة، فلما اتفقوا، قال بعضهم: إبدأوا برمضان، فقال عمر بالمحرم، فإنه منصرف الناس من حجهم، فاتفقوا عليه. في حين هناك من يجعل أصل التاريخ الإسلامي مأخوذا من النبي صلى الله عليه وسلم، استنادا إلى الرأي القائل بأن أول من أرخ للتاريخ يعلى بن أمية، الذي كتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتابا من اليمن مؤرخا، فاستحسنه عمر بن الخطاب (ض)، فشرع في التأريخ. [3]

وعليه يجمع المؤرخون، ومنهم محمد الكافيجي بأن التقويم الهجري بدأ في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه[4] والذي أصبح عنصرا حيويا في نشأة الفكرة التاريخية، وذلك بتأسيس الديوان وسجل المحاربين

1- محمد عمارة، الفتوحات الإسلامية في ميزان الإسلام والتاريخ، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، مصر، 2014، ص:39.

2- أبو بكر الصولي، أدب الكتاب، تح: محمد بهجة الأثري، القاهرة، 1941، ص:179، والبيروني محمد، الآثار الباقية عن القرون الخالية، تح: إدوار شاو، ليبزغ، المانيا، 1923، ص:34.

3- السخاوي، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ، تح: فرانز روزنتال، تر: صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، لبنان، 1407ه/1986م، ص:131-132.

4- محي الدين الكافيجي، المختصر في علم التاريخ، تح: محمد كمال الدين عز الدين، عالم الكتب للطباعة والنشر، مصر، 1990، ص:330-331، وجواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، بغداد، 1959، ج8، ص:406.

وأهليهم حسب قبائلهم، فلقد أعطاها عنصر التنظيم الخاص بالإسلام، وثبت عليها الطابع الإسلامي، فأضحى التقويم الهجري العمود الفقري للروايات والأبحاث التاريخية، ونقطة الارتكاز في تنظيم تاريخ الإسلام، وفصله الواضح عن التواريخ الأخرى، وإعطائه عنصرين هامين من عناصر التدوين التاريخي هما: الثبات، أي الارتباط بالزمن، والخلاص من القصص، والنجاة من الاختلاط الحادثي، أي منع الأحداث من إن تختلط بعضها ببعض، بين عصر وآخر، ومكان ومكان، وبين شخص وثان.[1]

لقد كانت ثمة تقاويم أخرى قبل التقويم الهجري، ولكن ظهوره كان تعبيرا عن الشعور بجدة وقيمة وأصالة المسيرة الأنسانية الجديدة، أي تاريخيتها، ومن ثم أضحى التقويم الهجري العمود الفقري للروايات والأبحاث التاريخية، وكان العامل الأساسي في تنظيم تاريخ الإسلام، وفصله الواضح من التواريخ الأخرى.[2]

الأنساب : ليست الأنساب جديدة على التدوين عند العرب، وربما كانت قد سبقت علم التاريخ في التدوين، لأن النسب بصوره المتعددة كان أساسيا في حياة القبائل قبل الإسلام، وعاملا بعيد الأثر في الحياة العامة بعد الإسلام، من ذلك أدرك المؤرخون الصلة الوثيقة بين الأنساب وكتب التاريخ، إضافة لخصوصية الأنساب وأثرها على الكتابات التاريخية السياسية خاصة الاهتمام القديم بالقبائل العربية، وافتخار الحكّام والأشراف بأنسابهم إثر قيام الخصومات القبلية، وهذا ما أدى إلى ظهور عدد كبير من الكتب حول هذه الموضوعات، حتى تعدّى ذلك إلى كتب أُلفت عن أنساب الحيوانات، تفوق ما ألف عن أنساب بني آدم على حد قول الجاحظ.[3]

وإذا كانت ظروف الحياة قبل الإسلام أثرت في حجم الكيانات القبلية بتداخل الأنساب، فإن الأنساب في العصر الإسلامي أثرت في تنظيم الديوان، أثرت وتأثرت بدورها بالظروف السياسية في الدولة الإسلامية، فظهرت العناية بالأنساب، بروايتها وكتابتها خلال القرن الأول للهجرة، وتمثلت في مرحلتها الأولى بوجود نسابين في كل قبيلة، وبوجود كُتُب لدى القبائل بأنسابها وأخبارها وأشعارها.[4] كما ظهر نسابون وسعوا اهتمامهم إلى أكثر من قبيلة، وبدؤوا بجمع أنساب القبائل في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة، ومن النسابين من اهتم بأخبار القبائل مع أنسابها، فأسهموا في الدراسات التاريخية، وفي مقدمة هؤلاء محمد بن السائب الكلبي.[5]

1- عبد العزيز الدوري، المرجع السابق، ص:19.

2- نفس المرجع، ص:19.

3- الجاحظ، كتاب الحيوان، ج3، دار صعب، بيروت، لبنان، ص:474.

4- محمد الهمذاني، الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير، تر وتح: محب الدين الخطيب، الدار اليمنية للنشر والتوزيع، ج10، 1987، ص:111.

5- الأصبهاني، الأغاني، ج19، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، (د ت)، ص:59.

ومن النسابين الذين أسهموا مساهمة كبيرة في الكتابات التاريخية، نذكر هشام بن السائب الكلبي، صاحب كتاب "جمهرة النسب" وهو كتاب شامل في أنساب العرب (عرب الشمال، عرب الجنوب)، اتسمت كتابته بالدقة والموضوعية بصورة عامة. ولكتاب جمهرة النسب أهمية كبيرة في ذكر الشخصيات العربية من الجاهلية الثانية إلى أيام المأمون (من كان شريفا أو سيدا في قومه، ومن برز في يوم من أيام العرب وغير ذلك)، كما يتناول الكثير من شؤون القبائل كدخول جماعات من قبيلة في نسب قبيلة أخرى، ومعلومات اجتماعية عن أسماء القبائل وعاداتها وتقاليدها.[1] ولعل مؤلف مصعب الزبيري في نسب قريش من أفضل المؤلفات في هذا الإطار، وذلك بشهادة المؤرخين الكبار كالطبري والبلاذري والأصفهاني والوا قدي، حيث يقدم معلومات مهمة عن التحوُلات في الأنساب، فيذكر النسب الصحيح، وما اتجهت إليه بعض القبائل (عك الحارث من ولد عدنان بن أد وكل من بالمشرق من عك ينتسبون إلى الأزد)، ولعل أيضا أهم ما في مؤلف نسب قريش هو جمعه بين الأنساب والأخبار التاريخية والأدبية، خاصة تلك التي تتعلق بالعلاقات الاجتماعية كالمصاهرات، وبأهمية المرأة ودورها في المجتمع.[2]

بينما مؤلف البلاذري" أنساب الأشراف" فهو عبارة عن دراسة شاملة للتاريخ العربي الإسلامي، ومجموعة كبيرة من التراجم في إطار خطة النسب، التي يتمشى فيها مع تنظيم ديوان المقاتلة، ابتداء بآل الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم الأقرب فالأقرب، حيث خصص كتابه للسيرة،ثم العلويين فالأمويين فالعباسيين، ثم بعض القبائل كمضر وكلاب وهلال. وتبدو ميزة كتاب أنساب الأشراف في إنه قدم تاريخا للأشراف العرب في مختلف الحقول، مع تاريخ الخلافة، وهو نسق فريد في سعة أفقه وشموله، والميزة الأهم في نظرنا، هي ما أفاد به في تفاصيل من خطوط تاريخية متعددة، من أساليب كتب الطبقات، وكتب الإخباريين، إضافة لكتب الأنساب.[3]

وفي هذا الجانب أود إن أشير إلى إنه إذا كان الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قد ألغى الاهتمام بالأنساب من حيث المبدأ، إلا إن النزاع الاجتماعي مع الموالي فيما بعد، وظهور الأفكار والحركات الشعوبية، وحاجة العرب إلى الدفاع عن مراكزهم وأولويتهم،كان من أسباب قبول الأنساب إسلاميا، وإعطائها مكانتها من بين المعارف الإسلامية الهامة المطلوبة، وبالتالي أصبح ذلك فرعا أساسيا من فروع التاريخ، حتى لقد ظهرت تواريخ خاصة على أساسه.

1- عبد العزيز الدوري، المرجع السابق، ص:140.

2- البلاذري، فتوح البلدان، تح ودر: رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1403ه/1983م، (د ط)، ص:121.

3- البلاذري، أنساب الأشراف،تح: سهيل زكار ورياض الزركلي، دار الفكر، ط 1، بيروت، لبنان، 1417 ه/1996م، ص: من المقدمة.

الحركة الشعوبية: يجمع المؤرخون العرب خاصة، على إن الشعوبية حركة مناهضة للعرب والعروبة، وهي حركة ذات طابع جنسي وسياسي وديني، جاء في القاموس المحيط: "وهم الذين يصغرون شأن العرب ولا يرون لهم فضلا على غيرهم"، وقال الزمخشري "الشعوبية بأنها كل اتجاه مناوئ للعروبة"، تعرف في الموسوعة البريطانية ب (Anti- arabism)

إذا كان هناك من المؤرخين من يعتبر إن أولى أعمال الشعوبية، هو حادثة اغتيال أبو لؤلؤة الفيروزي للخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه انتقاما للدولة الساسانية التي قُهرت في عهده، فإن آخرين يرجعونها إلى تاريخ الصراع بين الأخوين الأمين والمأمون، حين استعان المأمون بالموالي ضد أخيه، وجعل منهم قادة الجيش، حيث كان للشعوبية دور في إنشاء الفرق الباطنية كالقرامطة والنصيرية وغيرهم، إلا إن معظم المؤرخين يتفقون على ظهورها في القرن الثاني للهجرة، ومن ثم اتسعت في القرون التالية، غير إن الشعوبية التاريخية لم تكن مقصورة على الفرس، بل كان منها بعض من ينتمون إلى الشعوب العريقة، التي ارتقى بها الإسلام إلى طور أمة عربية كالنبط، ثم توسعت لتشمل الهنود والأتراك، ثم مولدي الأندلس الأسبان المستعربون.[1]

يتمثل المفهوم التاريخي للشعوبية في إنه عندما ظهر الإسلام كان الفرس في طور الشعب، بينما كان العرب (في شبه الجزيرة العربية) في طور القبائل، فارتقى الإسلام بالعرب إلى طور أمة، ثم حمل العرب الإسلام إلى الفرس ليرتقي بهم إلى أمة مسلمة، غير إن هناك من يرفض هذا الارتقاء بسبب إن الفرس كانوا أكثر تحضرا وأكثر مدنية من العرب، كما إن الفرس أول من دخل الإسلام من غير العرب بأعداد هائلة، فتشكلت منهم أكثرية عددية بين الموالي. كل ذلك نمى لديهم شعور بالاستعلاء، وعَمق نزعة التعصب لديهم، فكانت الشعوبية الفارسية أول حركة تؤمن بأفضلية الدم والتراب الفارسي عبر تحويل الدين الإسلامي وشخصية علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى مذهب عنصري وشخصيات قداسة . يقول ابن قتيبة إن العجم يحتجون بقول الله تعالى في الآية الكريمة "يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا" [2]، فقالوا الشعوب من العجم، والقبائل من العرب، والمقدم أفضل من المؤخر.[3] ويقول البغدادي "الشعوبية الذين يرون تفضيل العجم على العرب يتمنون عودة الملك إلى العجم".[4]

لقد تزامن تصاعد التحدي الشعوبي لتشويه تاريخ العرب، والدس عليه، والأخذ بأخبار المثالب، وإبراز النقائض وتقميصها،بالازدهار الذي شهدته الحركة الفكرية والتدوين التاريخي في العصر العباسي خاصة،

---

[1]- الجاحظ، رسائل الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2000، ص:131.

[2]- سورة الحجرات ، الآية رقم 13.

[3]- ابن قتيبة، كتاب العرب أو الرد على الشعوبية، تح: محمد كرد علي، رسائل البلغاء، القاهرة، 1372ه/1953 م، ص:344.

[4]- عبد القاهر البغدادي، الرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، دار الآفاق الجديدة، ط2، بيروت، لبنان، 1977، ص:285.

والذي كان يسير بشكل متوازن، فقد بذل الشعوبيون جهود كبيرة، وألفوا الكثير من المؤلفات، ونظموا العديد من القصائد التي تنال من العرب وآداهم، ومن التاريخ العربي.[1]

ومن الأعمال التي سجلت الكثير من ذلك، أعمال الهيثم بن عدي، وعلأن الشعوبي، التي ولدت ردود فعل لدى العرب لدراسة وتسجيل تاريخهم وأدهم الخاص، كما فعل الجاحظ والمسعودي، ولكن وهذا هو المهم، إن في كلا الحالتين كسب التاريخ ثروة تاريخية هامة، وروح علمية واسعة، عَبدتْ الطريق للعديد من الدراسات والأبحاث.

تشجيع الخلفاء والحكام: اهتم الخلفاء والحكام في مختلف العهود بأخبار الماضيين، للإطلاع على طرقهم ووسائلهم في إدارة بلدالهم، سواء كان ذلك للفرس أو الروم، فاستقدموا الإخباريين إلى قصورهم وقربوهم، واعتبر الخلفاء الأمويين والولاة في عهدهم المعرفة التاريخية من بين المعارف المطلوبة في المجتمع الإسلامي، ومن الخلفاء الأمويين الذين حرصوا على ذلك، معاوية بن أبي سفيان، الذي رأى إن التاريخ بما يحويه من رصيد في التجارب السياسية، يمكن إن يعينهم على حل مشكلات الحكم، فلقد استدعى عبيد بن شريه من صنعاء ليسأله عن ملوك العرب والعجم، وكان يجلس كل مساء لسماع أخبار التاريخ، وروى ابن النديم إن الوليد بن يزيد بن عبد الملك جمع ديوان العرب، وأشعارها، وأخبارها، وأنسابها، ولغاتها. و لم يكن الخلفاء العباسيين أقل شأنا من الأمويين، فكتاب السيرة لابن إسحاق كتبه بطلب من الخليفة المنصور، كما أمر الخليفة المهدي بجمع كتاب في الأغاني، وألفت بعد ذلك كتب عديدة للرشيد والمأمون.[2]

وعليه، يعتبر العصر العباسي من أكثر العصور الإسلامية اهتماما بتأسيس المكتبات العامة والخاصة،،إذ تبارى الخلفاء والأمراء والوزراء والحكام في العناية بالمكتبات، ولعل مكتبة بيت الحكمة التي أنشأها الخليفة أبو جعفر المنصور أعظم المكتبات العربية شأنا وأقدمها زمانا، جمعت نفائس الكتب ونوادرها من المؤلفات العربية والمترجمة عن اللغات المختلفة.[3] وأما في عهد الخليفة هارون الرشيد، فقد أصبحت بغداد كعبة العلم والعلماء، والأدب والأدباء، حيث أنشأ مؤسسة ثقافية كبرى، مهمتها الملازمة كما يقول ابن النديم، ثم تطورت زمن الخليفة المأمون، لتصبح مؤسسة علمية لترقية البحث والدرس والتجرد للدراسات العليا. وقد زاد من هذه النهضة العلمية والثقافية الاستخدام الواسع للورق في الكتابة في بغداد ثم بدمشق، ثم في باقي دول العالم العربي، فنشطت حركة التدوين والتأليف نشاطا لم يعهده التاريخ إلا في العصر الحديث.[4]

1- محمد مفيد آل ياسين وآخرون، التاريخ العربي الإسلامي، مطبعة الوفاق، بغداد، 1998، ص:167-168.

2- حسان حلاق، المرجع السابق، ص:52-53.

3- سعيد أحمد حسن، أنواع المكتبات في العالمين العربي والإسلامي، دار العرفان للنشر والتوزيع، ط1، الأردن، 1984، ص:02.

4- خضر احمد عطا الله، بيت الحكمة في عصر العباسيين، شركة دار الإشعاع للطباعة، ط1، القاهرة، مصر، (د ت)، ص:29.

ولما كان القرآن الكريم ولا يزال فتحا جديدا في تاريخ المعرفة الأنسانية، فهو قد رفع العلم والعلماء إلى أسمى منزلة، وأقسم الله في محكم آياته بالكتاب والقلم، كما حض على القراءة والتعليم. ومن هنا فليس بغريب إن توصف الحضارة العربية الإسلامية بأنها كتب ومكتبات، وإذا كان المصحف الشريف هو أول كتاب ظهر في لغة العرب، فقد بدأت حركة التأليف منذ منتصف القرن الأول الهجري، كما شهد القرن الثاني ظهور الكتب وحركة تدوين التراث والتاريخ، متأثرة في ذلك بطريقة كتابة التاريخ.[1]

وهنا، تجدر الإشارة إلى إن معظم الذين أرخوا للحكام، إنما يعترفون بوزر كتاباتهم، والحال ينطبق على إبراهيم الصابي، الذي ألف كتابا لبني بويه، ويعترف بأن ما كتبه: "أباطيل أنمقها وأكاذيب ألفقها".[2] ولكن بجانب هؤلاء، هناك من رفض التزلف للحكام، ولعل أحسن مثال ما ذكره المستشرق مرجليوت منوها بموقف المؤرخ مسكويه بقوله:" يعتبر الحياد العام لبعض المؤرخين سِمة مدهشة في كتبهم، ولا نستطيع إن نجد مثالا لهذا أحسن من تاريخ مسكويه".[3].

ظهور الأحزاب والفرق: يذكر بعض المؤرخين إن تعدد الأحزاب السياسية أمر ضروري وأساسي لأداء الوظائف والمهام السياسية التي يصعب تحقيقها في غياب تعدد الأحزاب، وبخاصة في ظل ظروف العصر الحديث، فإذا صحت هذه المقولة، فإن التعددية الحزبية التي ظهرت بين أوساط المجتمع الإسلامي نتيجة للأحداث الأليمة بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، وما عقبها من حادثة التحكيم أمر طبيعي وواقعي، خاصة إذا علمنا إن الخلاف السياسي كان سببا من أسباب الخلاف الديني في نشوء العقائد والفرق بين الأحزاب.[4]

ولكن الحقيقة التاريخية تثبت إن الفتنة التي حدثت في عهد الخليفة الراشدي عثمان بن عفان رضي الله عنه، وما أعقب ذلك من صراعات داخل كيان الأمة الإسلامية، أدى إلى ظهور أحزاب وفرق متنازعة، تناصر هذا أو ذاك، مما أدى إلى الاهتمام بالتاريخ لالتقاط ما يعينها على تدعيم موقفها في صراعها مع الغير، من حديث وسنة، أو موقف لأحد الصحابة، وإن ظهور الأحزاب السياسية والفرق الدينية، أدى بدوره إلى تسجيل الأحداث ومعرفتها، لاستخدام ذلك في تأييد وجهات نظرها، وإن النزاع القوي على الخلافة، والتنافس بين الأفكار الدينية كان يجد سنده دوما في وقائع التاريخ، وأحيانا في اختراع المواقف التاريخية المؤيدة أو المناهضة لاجتذاب التأييد من أكبر عدد من المسلمين.[5]

1- أحمد بدر، المدخل إلى علم المكتبات والمعلومات، دار المريخ للنشر، الرياض (المملكة العربية السعودية)، 1985، ص:33.

2- نور الدين حاطوم،المدخل إلى التاريخ، مطبعة الهلال، دمشق، 1981، ص:167.

3- د.مرجليوت، دراسات عن المؤرخين العرب،تر: حسين نصار، دار الثقافة، بيروت،لبنان،ص:26-27.

4- أحمد أمين، ضحى الإسلام،المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ط1، القاهرة، مصر، 2006، ص:314.

5- محمد ماهر حمادة، الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر العباسي الأول، ط3، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1402 ه/1982 م، ص:10-13.

وبشكل عام، لم يكن من السهل على المهاجرين والأنصار وأبنائهم من بعدهم،إن يقبلوا الأوضاع الجديدة بسهولة، ولا سيما نقل العاصمة من المدينة إلى الكوفة أولا زمن علي رضي الله عنه، ثم إلى دمشق زمن الأمويين، ثم إلى بغداد زمن العباسيين، كما لم يكن من السهل على الموالي إن يظلوا خاضعين لعهد السيادة العربية في ظل الخلافة الأموية، فهذا الجاحظ، يذكر إن دولة بني مروان عربية أعرابية، وإن دولة بني العباس أعجمية فارسية.كل هذه المعطيات التاريخية عن وضع العالم الإسلامي بفرقه واتجاهاته وميوله تتفق مع وصية محمد بن علي بن عبد الله بن العباس لأتباعه عندما أرسلهم لبث الدعوة العباسية، فقال: "أما الكوفة وسوادها فهناك شيعة علي بن أبي طالب، وأما البصرة فعثمانية تدين بالكفر، وتقول كُن عبد الله المقتول ولا تكُن عبد الله القاتل،وأما الجزيرة فحرورية مارقة وأعراب كاعلاج ومسلمون في أخلاق النصارى، وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبي سفيان وطاعة بني مروان، وأما أهل مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبوبكر وعمر"، هذه الصورة أدت إلى تعصب المصادر، وتحامل المؤرخين، وانفجار الأحقاد لعصر ضد عصر أخر، خاصة ما حدث بين الأمويين والعباسيين، فهذا ابن أبي الحديد صاحب كتاب "نهج البلاغة"، الذي أورد فيه معلومات تاريخية كثيرة، يتعصب كل التعصب ضد الأمويين مع العلويين خاصة والعباسيين.[1]

ظهور الورق: إن الكتابة إرث حضاري إنساني، اشتركت كل الأمم في تطويرها، وتقنين أساليبها، وتبسيط عملية الاستفادة منها، ولأن التطور يقوم على التراكم المعرفي، فإنه لا سبيل لتجميع وحفظ المعارف من دون كتابة، من هنا اتفق الباحثون والمؤرخون في التأريخ القديم على إن ظهور الكتابة، هو الحد الذي يعين بداية التأريخ، تلك البداية التي يتراجع عهدها كلما اتسعت معارف الأنسان بآثار الأولين.[2]

وإذا كان السومريون هم مكتشفو الكتابة الأوائل بصورتها التي استخدمت في التدوين الواسع، فإن الصينيين هم مكتشفو صناعة أهم وسائلها، ألا وهي الورق قبل أكثر من ألفي سنة، مما أدى إلى تطورا كبيرا في حركة النسخ والتدوين في المناطق المتاخمة للصين ككوريا واليابان، ثم انتقلت صناعة الورق إلى بغداد، حاضرة العالم الإسلامي آنذاك، حيث أسس الفضل بن يحي البر مكي وزير هارون الرشيد أول مصنع للورق في بغداد عام147 ه/793م، وهو الأمر الذي كان له الأثر الواضح على النشاط الفكري والحياة الثقافية بصفة عامة في عاصمة العباسيين، حتى إن العرب والأوربيين لم يحتاجوا إلى إن يضيفوا شيئا جوهريا إلى هذه التقنية. لقد عمل ظهور الورق على نقل التدوين الفكري بوجه عام، وكان المؤرخ يجني ثمارا طيبة من أعماله الأدبية،

---

[1]- محمد ماهر حماده، الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي، ط4، دار النفائس-مؤسسة الرسالة- بيروت، لبنان، 1405 ه/1985 م، ص:18-20.

[2]- ويل ديورانت، قصة الحضارة، تر: زكي نجيب محمود، ج1، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1988 م، ص:184.

ومن الأمثلة على ذلك ابن الساعي البغدادي الذي ربح كثيرا من المال من مؤلفاته، إذ كان يكسب من كل مجلد يكتبه عن التاريخ بين المائة والثلاثمائة دينار.[1]

لقد انتقلت صناعة الورق من بغداد إلى دمشق إلى مصر، فالمغرب العربي والأندلس، فكان أول مصنع للورق أنشىء في مصر نحو عام 251ه/900م، وفي مراكش نحو عام 445ه/1100م، فيما كان أول مصنع للورق أسس في الأندلس في عام 495ه/1150م في مدينة شاطبة.[2] وكان لازدهار حركة التأليف، والإبداع، والترجمة، وكثرة المدارس، ودور العلم، وازدياد عدد طلاب المعارف، الأثر الأساسي في ازدهار صناعة الورق، حتى أصبح الورق من أكثر السلع وفرة في العالم الإسلامي، هذا في الوقت الذي كانت فيه أوربا تغرق في بحار الظلمات والأنحطاط الفكري.[3]

ولما كانت الكتابة وعاء الحضارة، كما يقول ويل ديورانت في كتابه "قصة الحضارة"، فقد تأخرت صناعة الورق في أوربا حتى أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، حيث أقيم أول مصنع للورق في مدينة تروا......شرقي فرنسا عام 590ه/1250م، وأخر في إيطاليا عام616 ه/1276م، وبهما نمت صناعة الورق وتطورت في أوربا فيما بعد، وأصبحت ايطاليا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر المركز الرئيسي لصناعة الورق ،وأنفرد الأنسان الأوربي بحفظ تأريخه، ونقل تراثه الممتد في تجاربه الأولى إلى حاضره، واحتضانه وحراسته، وحمله إلى مستقبله وأجياله الآتية. ومما ينبغي الإشارة إليه، إن صناعة الورق دخلت أوربا من خلال الأندلس الذي كان جزء من العالم الإسلامي، وخارج عن أوربا آنذاك.[4]

الحروب الصليبية:

إذا كانت الحروب الصليبية قد ألحقت بالإسلام والمسلمين ضررا حقيقيا كان بالغ العمق والأثر،حيث صادف هجوم الصليبيين ما أصبحت عليه الخلافة العباسية من عجز سياسي وجغرافي منعها من قيادة المسلمين لمواجهته، فإن وقعها على حركة التدوين التاريخي كان أكثر نفعا في بلاد المشرق عموما، وفي الشام ومصر خصوصا، فقد ازدهرت نتيجة لتلك الحروب الكتابة التاريخية، حيث حدث تطورا في هذا المجال، تمثل في التركيز على صفات البطولة العسكرية "السير الملكية في السلطان أو الملك أو في الأسرة الحاكمة بأسرها"، وقد كان لنجاح الحملة الصليبية الأولى على المشرق تحد كبير للمسلمين، باعتبارها عدوانا استعماريا ضد المشاعر الإسلامية. ولما كان الحكام المسلمون يمثلون العضو المزيل في جسد الأمة الإسلامية، بالإضافة إلى تنافرهم

1- أحمد القلقشندي، صبح الأعشا في صناعة الأنشا، ج2، دار الكتب المعرفية، القاهرة(مصر)، 1914، ص:475.

2- عبد اللطيف الصولي، لمحات من تأريخ الكتاب والمكتبات، دار طلاس، ط1، دمشق، سوريا، 1987، ص:44-45.

3- عواد كوركيس، الورق أو الكاغد – صناعته في العصور الإسلامية مجلة المجمع العلمي العربي، ع13، الصادرة عن مجمع اللغة العربية، (مدونة لسان العرب) دمشق، سوريا، ص:457.

4- عبد اللطيف الصولي، المرجع السابق، ص:46.

المقيت، فقد تعلقت الأنظار ببطل يلبي الحاجة الشعبية إلى الجهاد، والتي أعلنت عن نفسها على منابر المساجد، وفي الأسواق في شتى أرجاء العالم الإسلامي.[1]

وفي هذا الصدد توافقت الكتابات التاريخية مع المطلب العام، ودبجت الرسائل التاريخية عن الجهاد والمجاهدين، وتحت حركة الضغط الشعبي، بدأت حركة الجهاد الرسمي، وبرزت أسماء قادة هذه الحركة من أمثال عماد الدين زنكي ثم صلاح الدين الأيوبي، واهتم المؤرخون كثيرا بسيرة هؤلاء، لاسيما صلاح الدين الأيوبي الذي نجح في استرداد بيت المقدس. فظهر كتاب "المحاسن اليوسفية والنوادر السلطانية" لأبي شداد، الذي يدور حول شخصية صلاح الدين الأيوبي ودوره في الجهاد ضد الصليبيين، كما يتعرض لأحداث الحروب الصليبية في حياته وينتهي الكِتاب بوفاة صلاد الدين، بينما تغطي كتابات ابن الأثير، وأبو شامة (الذي ينقل عن عماد الدين الأصفهاني)، وكمال الدين بن العديم أحداث القرن الثالث عشر الميلادي.[2]

للعلم، إذا كانت الحروب الصليبية التي مثلت دورا هاما في تاريخ الشرق والغرب، وصورا من الصراع بين الإسلام والمسيحية، فإنها لم تلقى العناية الخاصة من كتاب العربية إلا في العصور الأخيرة، رغم إن دور الإسلام في هذا الصراع بين الشرق والغرب يبتدئ منذ إن بدأ الإسلام يتجاوز حدود الجزيرة العربية، فواقعة القادسية سنة 16 ه/637م كانت معركة حاسمة لإخضاع البلاد الفارسية التي كانت تتزعم الشرق في مصارعة الغرب. ومنذ ذلك التاريخ تقلد العرب المسلمون هذه الزعامة في الصراع العالمي، وأصبح النزاع ماثلا ما بين الإسلام في الشرق والأمم النصرانية في الغرب.[3]

على إن الصليبيات كانت تكتب دوما بأقلام غربية، ومن وجهة النظر الغربية، ولخدمة أغراض غربية، حتى بعض الكتاب المسلمين ما انفكوا يعتمدون دراسات الغرب، فيسقطون في الفخ، وتتضح لديهم الرؤية الغربية أكثر بكثير من الرؤية العربية الإسلامية، وأحسن مثال في نظرنا هو موسوعة دائرة المعارف الإسلامية التي سبقت الإشارة إليها. [4]

والأمر الآخر الذي تسجله الحروب الصليبية، هو تأثيرها في حركة التدوين التاريخي الأوربي الوسيط خاصة،حيث حررته من ربقة الأطر القديمة، وأكسبت المؤرخين خبرات جديدة مناقضة للتدوين التاريخي اللاتيني الكنسي التقليدي، وأنتجت كتابا علمانيين، ومؤلفات تاريخية وطنية، ذلك إنهم كانوا يتعرفون على

[1]- ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، نقله إلى العربية: الباز العريني، ج3، دار الثقافة للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1969، ص:786-787.

[2]- المصدر السابق، ج2، ص:810.

[3]- محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1982، ص:27.

[4]- ممدوح حسين، الحروب الصليبية في شمال أفريقيا وأثرها الحضاري، دار عمار للنشر، ط1، عمان، الأردن، 1419 ه/1998 م، ص:06.

حضارتين قامت بينهما اتصالات سليمة، كشفت حقيقة تاريخية، وهي إن الأعداء ليسوا دائما من الشياطين وإنما بشر.[1]

المبحث الثالث: مشاركة بعض العلوم في نشأة علم التاريخ :

ارتبطت الكتابة التاريخية منذ بدايتها في صدر الإسلام بالعلوم الدينية ارتباطا وثيقا، حيث كتب المؤرخون الأولون في السيرة الذاتية، وفي المغازي، وفي نسب قريش، وفي الطبقات، وفي التراجم لرجال العلم والفقه والحديث. ومما لا شك فيه إن القرآن الكريم أكد على أمثلة الشعوب الماضية البائدة، لما اتنطوي عليه هذه الأمثلة من عبر دينية ومواعظ خلقية، كما جاء القرآن بنظرة عالمية إلى التاريخ ممثلة في تتابع النبوات.[2]

لقد جمع كثير من مؤرخي المسلمين بين الفقه والتاريخ، منهم الحافظ الذهبي، ومحي الدين الكافيجي، والسخاوي، وكانوا يرون ضرورة الاشتغال به لخدمة الغرض الديني، حتى يصبح علم التاريخ وسيلة لفهم الفقه والشريعة، أما الطبري وابن كثير فقد جمعا التفسير والتاريخ، ولا عجب في ذلك، فإن كل المؤرخين كانوا علماء دين قبل إن يكونوا مؤرخين، وعليه فإن الكافيجي خص في رسالته "المختصر في علم التاريخ" جانبا كبيرا من عنايته لتوضيح مركز التاريخ في العلوم الدينية الإسلامية.[3]

إن بعض العلوم العربية ساعدت بشكل أو بأخر على نشأة علم التاريخ، فمثلا دراسات الشعر العربي وجمعه، وبخاصة دراسة اللغة والأدب والنحو وأسرار البلاغة كلها أدت إلى حفظ الكثير من الأخبار والأحداث المتعلقة بذلك الشعر وبمفردات اللغة، والنثر الفني الأدبي، وتكونت من حصيلة تلك الأخبار، مادة تاريخية أولية خدمت المؤرخين خدمة كبيرة، وفي هذه الناحية أيضا، كان طبيعيا إن يجد بين كبار اللغويين والرواة من كانوا في الوقت نفسه من الإخباريين البارزين، ويمثل هؤلاء خاصة أبو عبيدة(ت211ه/826م) الذي شمل بإطلاعه كافة المعارف العربية، فكان كما أجمع الجاحظ وأبو الفرج الاصبهاني وابن النديم "من أعلم الناس بأخبار العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها"، وقد ألف عددا من كتب التاريخ التي تغلب عليها العناية اللغوية، كما كتب في المثالب والمفاخر والأخبار.[4]

---

[1] – بيريل سمالي، المؤرخون في العصور الوسطى، تر: قاسم عبده قاسم، القاهرة، 1984، ص:129.

[2] – عبد العزيز الدوري، المرجع السابق، ص:18-20.

[3] – الكافيجي، المختصر في علم التأريخ، الباب الثاني الخاص بأصول علم التاريخ ومسائله، المصدر السابق، ص:337.

[4] – مصطفى شاكر، التاريخ العربي والمؤرخون، ج1، المرجع السابق ص:66.

وقد ظهر نتيجة "عرف التدوين التاريخي عند المسلمين" نمط جديد هو "الرسائل التاريخية" [1]، لحاجة ثقافية تمثلت في رغبة الناس في الإطلاع السريع على معلومات تاريخية تتعلق بموضوع ما. إن الرسائل التاريخية تتناول أشبه ما يكون بتناول الأعداد الخاصة في الدوريات الحديثة حين تعالج موضوعا بعينه.[2]

وبالإضافة إلى ذلك، لابد إن نشير في هذا المجال بأن المفكرين العرب والمسلمين اهتموا بعلم هام من علوم الفهرسة والتوثيق، وهو العلم الذي يرتبط إلى حد كبير بالدراسات التاريخية، مثل كتاب الفهرست لابن النديم الذي ضمنه فهارس بأسماء كتب التاريخ، وكتب الأخبار والسير، وإن بعض المؤرخين العرب والمسلمين كانوا أحيانا مؤرخين، وأدباء،وعلماء، وجغرافيين، كما بلغ من أهمية تقدير المسلمين للتأريخ إن ألف بعض مفكريهم كتبا خاصة بالتاريخ وأهدافه ومراميه وفوائده، كما تصدى بعضهم للدفاع عنه، ومن بين هؤلاء السخاوي الذي ألف كتابا خاصا تحت عنوان – الإعلأن بالتوبيخ لمن ذم التاريخ – ومما قاله مدافعا عن غايات التاريخ: "وأما الذامون له فمنهم من خَصص ومنهم من عَمم، فالمخصصون اقتصروا على من ملأ منهم كتبه بما يرغب عن ذكره مما ادر جناه في التحريم، ومنهم من يدَعي المعرفة والرزانة، ويظن بنفسه التبحر في العلم والأمانة، يعمم فيحقر التواريخ ويزدريها، ويعرض عنها ويلغيها، لظنه إن غاية فائدتها إنما هو القصص والأخبار ونهاية معرفتها الأحاديث والأسمار.[3]

ومن الأهمية بمكان، القول بأن نتيجة لأهمية علم التاريخ عند العرب والمسلمين، فقد قام عدد من المستشرقين بدراسة هذا العلم، لكشف الجوانب الخفية في مناهج الفكر التاريخي العربي والإسلامي، ومن بين هؤلاء فرديناند وستنفيلد ومرجليوث وبروكلمان وفرانز روزنتال.[4]

كما توجد هناك عوامل أخرى ساعدت في نشأة علم التاريخ ومنها:

1- من الرسائل التاريخية التي اشتهرت، رسالة الكافيجي التي تأخذ أهميتها من إنها أقدم رسالة إسلامية عن نظرية علم التاريخ، إنها محاولة أولية هامة سبق بها صاحبها إلى طرح عدد من المسائل المتعلقة بخصائص علم التاريخ وغرضه وأهدافه وفوائده، وأجاب باختصار عليها محاولا وضع نظرية للتاريخ وأصوله ومسائله، وقد طبق المنهج الفقهي، وأراد استخراج منهج للبحث والتدوين التاريخي من خلاله، أما في النصف الثاني من الرسالة، فيخصصه إلى ذكر بعض القصص من الأنبياء، ثم عالمية الرسالة المحمدية، وخلاصة صغيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين، وفضل أهل العلم، أما ورسالة تقي الدين المقريزي في المجاعات، والمعروفة باسم "إغاثة الأمة بكشف الغمة"، تتناول تاريخ المجاعات التي نزلت بمصر منذ أقدم العصور وحتى سنة 808ه، وهي سنة تأليف الكتاب. يحتوي الكتاب على رؤية اجتماعية واقتصادية ثاقبة تبحث عن تدوينه لأخبار المجاعات، أسبابها ويقترح علاجها، كما يقسم المجتمع المصري إلى طبقات. ينظر: تقي الدين المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، تق: سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الهلال، القاهرة، مصر، 1990م.

2- شاكر مصطفى، المرجع السابق، ص:15-16.

3- السخاوي، المصدر السابق، ص:50.

4- عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1981، ص:6-7.

المدارس التاريخية عند العرب والمسلمين: إن تنوع أقاليم الدولة الإسلامية في العنصر والدين وحتى في الماضي بوجود معارف لدى بعضها دون بعض، أوجد نوعا من الاختصاص لكل إقليم بنوع من المعرفة التاريخية، كما توطنت بهذا الشكل معارف التاريخ في أقاليم معينة دون غيرها. وقد لعبت الحاجات والتجمعات السكانية دورها في ذلك التوطن، فاختصت منطقة الحجاز بالحديث والمغازي خاصة، فنشأت فيها مدرسة قوية الأركان بفعل توطن الصحابة الكبار رضوان الله عليهم، في حين توطنت الطبقة الارستقراطية العربية في جنوب العراق (البصرة والكوفة)، فظهرت في ذلك الإقليم طبقة الإخباريين ومدرسة العراق. ولما كان لأهل اليمن تاريخهم الماضي العريق، فقد أرادوا مضاهاة عرب الشمال، فكانت لهم مدرستهم الخاصة بهم (مدرسة اليمن)، كما كان لإقليم الشام ومصر وحتى الأندلس مدارسهم الخاصة بهم.

وعلى ضوء ما تقدم من ذكر لمحطات ومراحل الحركة التاريخية، فإن هذه المدارس التاريخية الواضحة المعالم، أدت إلى تطور ونمو التاريخ،كعلم أصيل ومستقل بذاته عن باقي العلوم الأخرى، ومن بين أهم هذه المدارس ما يلي:

أ- المدرسة اليمنية: يرى صاحب كتاب "التاريخ العربي والمؤرخون" إن من الأسباب الرئيسية التي أدت إلى ظهور هذه المدرسة، التنافس القديم بين عرب الجنوب العريقين في الحضارة والتوطن، وعرب الشمال الحديثي الحضارة والتمدن، والذين صاروا بعد الإسلام أصحاب الحكم والقيادة، يضاف إلى ذلك الرغبة في إثبات الوجود اليمني الجنوبي بجانب القيسي الشمالي خاصة في العهد الأموي، ورغبة الموالي في معرفة كافة الجوانب من تاريخ العرب. [1]

إن هذه المدرسة اهتمت بتمجيد عرب اليمن وأخبارهم وأخبار أهل الكتاب، والتاريخ فيها قصص وأساطير، وهي استمرار للتيار الجاهلي، والمؤرخون فيها قصاص شعبيون وإخباريون، يرددون الروايات التاريخية كما هي، دون محاولة لنقدها أو تخليصها من الخرافات، وهي مزيج من القصص الشعبي والإسرائيليات، وفيها تمجيد لعرب اليمن، أسلوبها لا يخرج كثيرا عن أسلوب قصص أيام العرب.[2]

يرى بعض المؤرخين إن رواد هذه المدرسة قصاص أكثر منهم مؤرخين، وفي مقدمة هؤلاء عبيد بن شريه ووهب بن منبه، الذي نسبت إليه العديد من المؤلفات من الإسرائيليات.[3][4] ورغم إن رواد هذه المدرسة هم

1- مصطفى شاكر،التاريخ العربي والمؤرخون، ج1، ص:135.

2- شوقي عطاء الله الجمل، المرجع السابق، ص:38.

3- الإسرائيليات، يقصد بها الأحاديث الإسرائيلية المتعلقة بأحداث جاء ذكرها في القرآن الكريم، وتذكر للاستشهاد لا للاعتماد. ينظر: أبو الفدا إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن الكريم، دار الفكر، طبعة جديدة، ج1، لبنان، 1422ه/2002م، ص:40.

4- شوقي عطا الله الجمل، المرجع السابق، ص:39.

أول من وضعوا هيكلا لتاريخ النبوة منذ بدء الخليقة حتى ظهور الإسلام، إلا إن المنهج القصصي والأسطوري الذي اتخذته منذ نشأتها على يد كعب الأحبار، وسحبها لنماذج تاريخ عرب الشمال، أدخل على المدرسة كثير من الزيف والأنحراف.

ولا شك إن وراء ذلك أسبابا جغرافية وسياسية واجتماعية هي المسئولة عن ذلك التزييف، ومنها: نزوح اليمنيين إلى الشمال (ديار الهجرة الجديدة)، واحتلال الخليج العربي المكان التجاري البحري الأول، أدى إلى عزل اليمن، وقلل من الاهتمام بها، وجعل أخبارها قليلة نادرة، وغير مستقاة من الموارد الأصلية الصحيحة، خالية من الفكرة التاريخية.[1]

مثل هذه المدرسة رواة كثيرون منهم، كعب الأحبار، وعبيد بن شرية الجرهمي، والحميري، ومحمد بن كعب القرظي، ولكن يبقى وهب بن منبه الذماري اليمني الفارسي الأصل، الشخصية الأكثر التصاقا بهذه المدرسة، نظرا للمساهمة التاريخية التي قدمها لتاريخ اليمن خاصة، وللتاريخ الإسلامي عامة. يعتبر وهب بن منبه الذي ولد بذمار قرب صنعاء(34-114ه/) من أشهر رواة القصص التاريخي في التاريخ الإسلامي، حتى التصق ذكر القصص باسمه لدى المؤرخين لقيمة مروياته ومعارفه التاريخية والدينية (قصص الأنبياء)، والتي سمعها ودوّنها عن معلمه عبد الله بن عباس، هذا الأخير الذي ترك صحفا لورثته (تلامذته)، والتي عرفت بالأصول، ومن ذلك فهو لدى ياقوت الحموي "الإخباري صاحب القصص"، وعند ابن خلكان "صاحب الأخبار والقصص"، وعند الذهبي "إخباريا علامة قاصا".[2]

لعل الفروع الثلاثة العريضة في التدوين التاريخي عند وهب بن منبه، والتي رواها على طريقته الخاصة، شكلت النواة للمدرسة الكاملة المستمرة لأكثر من أجيال في تاريخ اليمن، على غرار رواية المغازي التي كان يرويها رواية مما يتصل بالنبوات، وهذه الفروع هي: قصص الأنبياء السابقين، مما يدعى بالإسرائيليات، وبذلك يكون أول من وضع الهيكل القصصي لتاريخ العالم على أساس سلسلة الرسل والأنبياء.

والفرع الثاني، هو تدوين تاريخ اليمن القديم بقصصه الأدبية، المليئة بالأشعار وبالأساطير الشعبية اليمنية. أما الفرع الثالث، فهو تاريخ الفتوح، وصاحب كشف الظنون ينسب إليه.[3]

وعليه، ورغم زوال نجم هذه المدرسة، وإن بقي منها آثار في كتب التاريخ روايات وأخبار كثيرة، احتوت على أساطير ومخترعات سخيفة أشار إليها ابن خلدون في ديوانه العبر، إلا إنها تعتبر المدرسة التاريخية

[1]- شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج1، ص:135.

[2]- ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، دار صادر، بيروت، ص:365.

[3]- عبد العزيز الدوري، نشأة علم التاريخ، المرجع السابق، ص:103.

الأقدم في التاريخ، وواضعة الخطوط الأولى لتاريخ اليمن، وإنما وجهت الأنظار إلى هذا التاريخ اليمني وأقامته على قدميه.[1]

ب- المدرسة الحجازية (مكة والمدينة): ولما كانت مكة البلد الذي نزل فيه الدين الجديد، ولما كانت المدينة عاصمة الرسول صلى الله عليه وسلم، والخلفاء، ومركز تجمع الصحابة، والمقر لعلماء المسلمين، وهم يومئذ القراء والحفاظ، كان من الطبيعي إن يتوجه طلبة العلم إلى هذه الأماكن، فكان إن تعددت حلقات الدراسة، مشكلة النواة لنشوء مدرسة التاريخ خاصة في المدينة المنورة، التي تميزت بالمعارف التاريخية الإسلامية، وتحديدا في الحديث والمغازي والفقه.[2]

وصف المؤرخون هذه المدرسة، بمدرسة كُتاب السيرة والمغازي، الذين اهتموا بعرض الظروف والأحداث التاريخية الهامة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين الأولين، فقد كان مؤسسيها من أشهر رواة الحديث[3] الذين اجتهدوا في الحصول على المعلومات التاريخية من مصادرها الأولية، بالاعتماد على الوثائق المكتوبة، والأخبار الشفهية،كما كان الرواة يربطون الحوادث التاريخية بما ينسجم معها من آيات قرآنية.[4]

تعتبر هذه المدرسة، مدرسة رواة الحديث، حيث قادها أبرز فقهاء المدينة وأوسعهم اطّلاعا وعلما، فهم علماء في الفقه، وفي الأخبار الماضية، والنسب، والشعر، واللغة، وتفسير القرآن، والفرائض، وفي مقدمتهم ابن عباس الذي كان يسمى بالبحر لكثرة علمه. ذكر ابن سعد في طبقاته، قوله: "قال عطاء، كان ناس يأتون ابن عباس للشعر، وناس للأنساب، وناس لأيام العرب ووقائعها، فما منعهم من صنف إلاّ يقبل عليه بما شاء".[5]

لقد جمعت هذه المدرسة طائفة من الفقهاء، من المهاجرين كسعيد بن المسيب المخزومي(ت 94ه/713م)، ومن الأنصار كعاصم بن عمر بن قتادة الظفري(ت120ه/737م)، ومولى الزبيريين موسى بن عقبة (ت141ه/758م)، والوا قدي مولى الإسلاميين (ت207ه/823م) وغيرهم كثير، لكننا سنركز على

[1]- شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج1، المرجع السابق، ص:139.

[2]- محمد أحمد ترحيني، المؤرخون والتأريخ عند العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د ت)، ص:41.

[3]- من أبرز رجالات مدرسة المدينة المنورة عبد الله بن العباس، الذي قيل عنه: "نعم ترجمان القرآن ابن عباس"، وسعيد بن المسيب المخزومي الذي كان يفتي وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحياء، وقيل فيه: "فقيه الفقهاء...وعلم الأدباء"، وعروة بن الزبير بن العوام الذي عبر عن طموحه بقوله: "أمنيتي الزهد في الدنيا والفوز في الآخرة، وإن أكون ممن يروى عنهم العلم" ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، دار صادر، بيروت، لبنان، ص:365-379، وابن خلكان، وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، ج2، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ص: 421.

[4]- البلاذري، فتوح البلدان، تح: صلاح الدين المنجد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص:17.

[5]- ابن سعد، المصدر السابق، ص:367.

أبرز رجالات هذه المدرسة في نظرنا، وهم محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري، واضع أسس مدرسة المدينة، وراسم وجهة دراساتها التاريخية، ومحمد بن عمر الواقدي أحد كبار علماء بغداد الأعلام الذين جمعوا بين الفقه والحديث والتاريخ.

كان الزهري يسعى سعيا للتعرف على أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، فلم يترك مجلسا إلا غشاه، ولا صحابي إلا زاره، وكان يأتي المجالس من صدورها، ولا يأتيها من خلفها، ولا يبقي في المجلس شابا، ولا كهلا، ولا شيخا إلا ساءله، معتمدا خطة مبنية على التسلسل الزمني للأحداث (حياة الرسول صلى الله عليه وسلم قبل الرسالة، نزول الوحي، عهد الرسالة، الهجرة، الغزوات، السفارات، وأخيرا وفاة النبي صلى الله عليه وسلم)، هذا التسلسل يؤكد فهمه للتاريخ من خلال فهمه لتسلسل أحداثه، وهذا ما ساعده على وضع إطار واضح متجدد للسيرة.[1]

لم تقتصر دراسات الزهري التاريخية على السيرة والمغازي، بل تعدتها إلى الأنساب، متبعا المنهج نفسه الذي اتبعه في دراسته للسيرة، وهو الترتيب الزمني للأحداث حسب وقوعها في صدر الإسلام، وعهد الخلفاء الراشدين، كما تطرق إلى مبدأ الإجماع، وظهور الأحزاب السياسية، ومسألة الخلافة، وهل هي بالأنتخاب أم بالوراثة، ومشكلة التنظيم الإداري، وخاصة تنظيم الضرائب والديوان،كل هذه المسائل كانت تتطلب الإيضاح بواسطة الدراسة التاريخية، وفي نفس الوقت كان له أهمية في نشأة الكتابة التاريخية.[2]

أما الواقدي، فقد أعتبر عالما بالمغازي والسير والفتوح، ومن أعلام بغداد الذين جمعوا بين الفقه والحديث والتاريخ، فهو منتظم ومنطقي في تناول مادته، إذ يعرض أولا إطار الموضوع، ثم يعقبه بذكر التفاصيل. وقد نال كتابه المغازي تقديرا مميزا من النقّاد المحدثين، واعتبروه فتحا جديدا في تأليف التاريخ، قال عنه المستشرق جب: "ألف الواقدي تاريخا جامعا اقترب فيه علم التاريخ القائم على الحديث من المادة التاريخية التي جمعها فقهاء اللغة مع الاحتفاظ بأسلوبه الخاص في إيراد الأحاديث"[3]. والجدير بالذكر، إذا كان رجال الحديث لا يقبلون كل القبول الواقدي، فإن العاملين في حقل التاريخ يولونه ثقة تامة، بينما المستشرقون يعتبرونه المؤرخ الأول بسبب تدقيقه الزمني والجغرافي، واعتماده الوثائق.

ج– المدرسة العراقية (الكوفة، البصرة، بغداد): إذا كان الاتجاه الإسلامي قد تمركز في مدرسة المدينة، فإن الاتجاه القبلي تمركز في العراق، وتحديدا في البصرة والكوفة، هذان المصران شكّلا ما عرف في التاريخ بمدرسة العراق التاريخية. ففي الوقت الذي كانت فيه المدينة مهد الإسلام، والمركز الأول لأهل الحديث، كانت

---

[1]– محمد أحمد ترحيني، المرجع السابق، ص:48.

[2]– عبد العزيز الدوري، علم التاريخ...المصدر السابق، ص:99-100.

[3]– جب، دائرة المعارف الإسلامية، ج4، المرجع السابق، ص:487.

المدرسة العراقية مقر الحاميات القبلية، وموطن التقاليد العشائرية، والعصبية للقطر، ثم للبلد، فنجد مثلا الخطيب البغدادي يؤلف كتابا عن تاريخ بغداد يضمنه تراجم علمائها وزهادها وأدبائها، في الوقت الذي اهتم فيه الرواة بالحوادث العامة، وعليه فإن هذه المدرسة نشأت مستقلة الجذور عن مدرسة المدينة. [1]

على إن احتلال العراق للمركز الأول في التاريخ الإسلامي، صار بعد انتقال الخلافة الإسلامية إلى بغداد، وصار الاهتمام بتاريخه وأحداثه في المرتبة الأولى، لكن الأنقسامات السياسية والمنازعات القبلية التي اجتاحت الدولة الإسلامية في تلك الفترة، هيأت الظروف للصراع الثقافي الذي احتدم،خاصة مع الثقافات التي استجدت عند العرب والمسلمين في أمصارهم الجديدة البصرة والكوفة، التي انتقل إليها العرب ومعهم عاداتهم الجاهلية، وأخلاقهم العربية، فانقسموا فيها قبائل وبطونا: عرب اليمن في أحد طرفي البلد، وعرب الحجاز في الطرف الآخر، بل وانقسمت المنازل في كل جانب حسب البطون والأفخاذ، وأقيمت فيها أسواقا أدبية مثل أسواقهم في الجاهلية للمفاخرة والمناظرة والمناشدة، حيث كانت المربد. [2]

ومما زاد في تبوء البصرة والكوفة المركز الأول في الحركة التاريخية، تشجيع الأمويين للنهضة الأدبية والفكرية، وخاصة ما تعلق بالشعر الجاهلي، وبعادات العرب في أيام جاهليتهم، حتى أصبحت البصرة في عهد عبد الملك بن مروان دار العلم، بل وجعلوا من البصرة والكوفة البديل عن مكة والمدينة، فتقاطر على هذه الأمصار أهل المدن المجاورة من العراق والشام وفارس، فازدادت المراكز العلمية، وحافظت على فعاليتها، وتنوع أفكارها وعلومها، رغم تكاثر الأزمات السياسية في هذا العهد، وما ترتب عليه من ضعف للطبقة الحاكمة. [3]

حدد النقاد إن أول مؤرخ في مدرسة العراق هو عبيد الله بن أبي رافع، كاتب أمير المؤمنين على مدة خلافته في الكوفة، يقول صاحب الذريعة: "وهو أول من صنف في المغازي والسير والرجال في الإسلام، لأنه لم يعرف من سبقه". [4] وقد تطورت الكتابة التاريخية مع منتصف القرن الثاني للهجرة بوجود علماء متضلعين، وفروا برواياتهم المدونة مادة تاريخية استعان بها المؤرخون فيما بعد، ومن أبرز من أسهم في عملية التطور الثقافي في هذه المدرسة مايلي:

سيف بن عمر الأسدي التميمي(ت180ه/796م)، الذي يعتبر أحد أصحاب السير والأحداث، كما تعتبر كتاباته التاريخية في عداد الكتب التاريخية التي غلب عليها طابع الرواية المتسلسلة الأحداث، والتي تشكل

1- عطا الله شوقي الجمل، المرجع السابق، ص:47.

2- ياقوت الحموي، معجم البلدان،ج5، دار صادر، ط2 بيروت، لبنان، 1995، ص:97-98.

3- شوقي عطا الله الجمل، المرجع السابق، ص:47-48.

4- آغا بزرك، الذريعة، ج4، ص:181.

بمجملها ترابط للتاريخ العربي وتواصله، ومما زاد في قيمة كتاباته نقل الطبري عنه في مواضع عديدة، واعتباره من أكثر الثقات.[1] أما الهيثم بن عدي (130-207ه/747-822م) الطائي الثعلبي الكوفي، العالم بالشعر والأخبار والمثالب والمناقب والمآثر والأنساب، فهو يحتل مكانة خاصة، لا لجمعه بين دراسات التاريخ والأنساب فحسب، بل لمفهومه التاريخي الذي ميزه عن أقرانه من الإخباريين، وللطريقة التي تناول بها التاريخ (تنظيم الكتابة التاريخية عبر السنين، وتأثره بثقافات الشعوب المجاورة، وإطلاعه على كتب مترجمة عن الفارسية واليونانية)، وهو أول من جذر التواصل بين الفكر التاريخي الإسلامي وتواريخ الأمم الأخرى، مدونا ذلك في كتبه ومؤلفاته والتي من أهمها "كتاب التاريخ المرتب على السنين"[2]

د- مدرسة التاريخ في الشام: لقد كان رواد هذه المدرسة الصحابة الذين رحلوا إلى هذه الأقطار، ثم أخذ عنهم التابعون، وأخذ عن التابعين تابعوهم، حيث اشتهروا بمعرفتهم للسير، وبالكتابة في فتوح مصر والشام وتاريخهما.

فمدرسة الشام التي عنيت بالأنساب وبالتاريخ الجاهلي عنايتها بعهد الرسالة والفتوح على السواء، كانت وسطا بين المدرستين السابقتين الذكر(الحجازية والعراقية)، بل إن مدرسة الشام كانت تتجه للتخصص في التاريخ بهذا المعنى قبل مدرستي المدينة وبغداد، كما يبدو إنها ظلت فترة طويلة تنافس المدينة ومدرستها في أمر المغازي، لما غلب على أهل المدينة من العلم بالحديث والبحث عنه. وكان معروفا في ذلك العصر اختصاص المدارس التاريخية الإقليمية كل منها بميدانها، وقد عبر عن بعض ذلك ابن أبي عيينة حين قال" من أراد الإسناد والحديث فعليه بأهل المدينة، ومن أراد المناسك والعلم بها فعليه بأهل مكة، ومن أراد المقاسم وأمر الغزو فعليه بأهل الشام.[3] كما يذكر ابن تيمية إن أعلم الناس بالمغازي بعد أهل المدينة، أهل الشام " فأهل المدينة أعلم بها لأنها كانت عندهم، وأهل الشام كانوا أهل غزو وجهاد، فكان لهم من العلم بالجهاد والسير ما ليس لغيرهم، ولعل السبب في كل ذلك، إلى جانب ما ذكره ابن أبي عيينة وابن تيمية، إنه قد تجمع في الشام حول البلاط الأموي، عدد من الصحابة والتابعين الذين حضروا أحداث الإسلام الأولى ورووها، وإن أمر الفتوح كان يهم خاصة السلطات الحاكمة، لما يحمل من نتائج سياسية ومالية تتعلق بالعطاء وإدارة المدن المفتوحة والأقاليم.[4]

لقد مهد لظهور المدرسة التاريخية في الشام بعض الصحابة الذين اشتركوا في فتح الشام كأبي إمامة الباهلي، الذي روى عنه المؤرخون بعض أحداث الفتح، وبعض التابعين وتابعيهم ممن عُرِف بعد ذلك برواية الأخبار التاريخية في الشام، ومنهم أبو عثمان الصنعاني الذي شهد اليمامة وفتح دمشق، وروى عن سلمان

1- ابن النديم، الفهرست، المصدر السابق، ص:137.

2- شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج1، المرجع السابق، ص:182-184.

3- ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج1، دار ابن كثير، دمشق، سوريا،ط1، 1986، ص:316.

4- شاكر مصطفى، المرجع السابق، ص:121.

الفارسي، والذي أوردت له المصادر وصفه لفتح حمص، وحصار دمشق وكيفية فتحها، وجبير بن نفير الحضرمي التابعي الشامي وابنه عبد الرحمن بن جبير وغيرهم كثير.[1]

أما العلماء المؤرخون الذين شكلوا نواة المدرسة الشامية فمنهم: عبيد بن شرية الجرهمي، ويزيد بن ربيعة بن مفرغ المشترك النشاط بين مدرستي الشام واليمن، وعروة بن الزبير بن العوام. ولكنني سأخص بالذكر الأول وهو عبيد بن شرية الجرهمي لأسباب منها: إنه العالم المخضرم الذي عاش الجاهلية والإسلام وعرف الرسول صلى الله عليه وسلم، وعاش حتى زمن عبد الملك بن مروان، هذا العمر الذي جعله يقص ما يعرف من أخبار الماضين والمتقدمين، وملوك العرب والعجم، والأمثال والأنساب، والأشعار، ما دفع الخليفة معاوية إن يأمر إلى تدوين ذلك كله في كتاب وينسب إلى عبيد بن شرية. وثانيا الأثر الواضح للعصبية اليمنية الكلبية التي كانت موجودة في جنوب الشام في دعم الأمويين، نتج عنه العلاقة العلمية التاريخية المتينة التي ارتبطت بين معاوية وعبيد بن شرية، حيث استدعاه إلى دمشق ليكتشف اهتماماته التاريخية ويأمر بتدوينها،بل وأسند الخليفة أمر تربية ابنه يزيد إليه.[2]

رغم إن عبيد بن شرية كان يمانيا، إلا إنه كان أساس مدرسة الشام في التاريخ، ويبدو إنه كان له من الكتب الكثير، بالنظر إلى الفترة الطويلة التي عاشها، والأخبار التي رواها، وعدد التلاميذ الذين رووا عنه، سواء منهم باليمن كالكيس النمري واللسين الجرهمي، أو بالشام كعلاقة بن كريم الكلبي، ونديم الخليفة، ومن كتبه "كتاب الأمثال" الذي كان يحوي جانب من أخبار العرب في الجاهلية، وكتاب "الملوك وأخبار الماضين" في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها، وهو أول تدوين تاريخي واضح ثابت في الإسلام على حد قول صاحب كتاب"مروج الذهب".[3]

صحيح إن مدرسة الشام لم تنل العناية التي نالتها المدارس التاريخية الكبرى الأخرى، والأصح إنه لم يبرز دورها كثيرا في نشأة علم التاريخ في الإسلام، ولكن يسجل لها السبق في أمور أساسية منها: النظرة العامة والواسعة إلى التاريخ وقيمته، والاهتمام بالحدث التاريخي العام كالفتوح، وأحداث الجاهلية، ولم تتوقف عند الحدث الخاص كالغزوات النبوية، أو الأنساب مثلا. وثانيها إن علم التاريخ أخذ اسمه على يد أحد رجال هذه المدرسة، هو عوانة بن الحكم. وثالثها، وكما سبقت الإشارة إليه، إن أول تدوين تاريخي معروف في الإسلام،

---

[1]- ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج4، المصدر السابق، ص:320.

[2]- المسعودي، مروج الذهب، ج4، المصدر السابق، ص:89-90، وابن النديم، الفهرست، المصدر السابق، ص:89.

[3]- مصطفى شاكر، المرجع السابق، ص:126.

كان في هذه المدرسة، وفي خلافة معاوية حين أمر الكتبة بتدوين أقوال عبيد بن شرية الجرهمي وإن تنسب إليه.[1]

وللعلم، فإن هذه المدرسة انقطعت بانقطاع حبل وريدها،وهو زوال الخلافة الأموية عن دمشق، قبل إن يكتمل نموها، بل واتجهت منذ أواخر القرن الثاني وخلال القرن الثالث الهجري إلى اتجاهين: كان الأول ذا صدى سياسي عام بأقلام أموية خالصة،أو لمتعصبين لهم، لرواية التاريخ الأموي ومناقب الأمويين، والثاني ذا صدى ديني، شعاره الرفض للعباسيين بإثبات أعمال الرسول صلى الله عليه وسلم تجاه أعمالهم، وكل ذلك سيؤدي إلى ظهور المدرسة الشامية الإقليمية ذات الطابع المحلي في التدوين التاريخي.[2]

وإذا ما كنت قد ركزت على هذه المدارس التاريخية الإسلامية الكبرى، فهذا لا يعني عدم وجود غيرها، فهناك المدرسة التاريخية المصرية التي تكونت متأثرة بالشخصية المصرية، والموقع الفريد لمصر، حيث التاريخ التليد قبل الفتح الإسلامي، والذي يمتد خمسين قرنا من الزمن إلى الوراء. ففي الوقت الذي بدأت المدارس التاريخية في اليمن والشام والعراق تتضاءل، فإن المدرسة التاريخية بمصر أخذت تتطور وتتصدر التاريخ للمسلمين، أي منذ منتصف القرن السابع الهجري، بعد سقوط بغداد وانتقال الخلافة العباسية إلى القاهرة، علما بأن هذه المدرسة بدأت تنسج خيوطها منذ الفتح الإسلامي لمصر، ومن روادها الأوائل عبد الله بن عمرو بن العاص (ت 65ه/685م)، والذي اهتم بالتاريخ الغالب مروياته الأساطير المتأثرة بالجو المصري، وعقبة بن عامر الجهني (ت58ه/678م)، والذي تولى رواية أخبار فتح مصر، ثم تبعهم طبقة أخرى من التابعين، ليصل إلى أعمدة المدرسة التاريخية المصرية كالكندي وابن عبد الحكيم وغيرهم[3]. أما المدرسة التاريخية الثانية التي تعمدت ذكرها بالإشارة إليها فقط، فهي مدرسة التاريخ بالأندلس، هذه المدرسة التي طبعت الحياة العلمية والثقافية فيها بالطابع الإسلامي المشرقي منذ فتحها عام 92ه/897م على يد موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد، وذلك بالاعتماد على علماء وكتب الذين هاجروا إلى قرطبة وغيرها من مدن الأندلس. للتذكير، وعلى الرغم من استقلال الأندلس عن خلافة المشرق عام 138ه/756م، ورغم أيضا الصراعات الداخلية والخارجية المستمرة، فإن الأندلس أنجبت خيرة وأشهر المؤرخين والفلاسفة المسلمين، وفي مقدمتهم عبد الرحمن بن خلدون ولسان الدين بن الخطيب وابن حيان القرطبي.[4]

وعليه، أخلص إلى القول بأن هذه المدارس التاريخية لم تكن متساوية لا في الأهمية، ولا في العمر، فإذا كانت أهمها من الناحية الإسلامية مدرسة المدينة، فإن أطولها عمرا وأبقاها وأهمها في التاريخ كانت مدرسة

[1] - شاكر مصطفى، المرجع السابق، ص:134-135.

[2] - نفسه، ص:134.

[3] - السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تح: أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ج1،القاهرة،مصر،1988،ص:179.

[4] - إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1962، ص:28.

العراق، لأنها وصلت عمرها الأول بعمر آخر سياسي حين انتقل مركز العالم الإسلامي مع العباسيين إلى العراق، وإلى بغداد بالذات، وأصبحت هذه العاصمة لعدة قرون على الأقل سرة الدنيا ومركزها، أما مدرسة اليمن فقد ذابت بسرعة، لأن اليمن معزولة جغرافيا، ولأنه لم يكن لها من تاريخ إسلامي هام عالي الأثر تصل به تاريخها القديم وتنعشه.[1]

المبحث الرابع: الطريقة التي تناول بها المؤرخون التاريخ

إن أكبر قفزة عرفها التدوين التاريخي، بدأت منذ القرن الثامن الهجري، مع ظهور العلامة ابن خلدون، الذي نهج منهجا جديدا من خلال كتابه المقدمة، حيث ركز على فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه. كما أشار إلى أخطاء المؤرخين السابقين، وحذر من الوقوع تحت تأثير النقل عن الأقدمين، دون مراعاة لأصول البحث العلمي التي أوضحها في مقدمته. فكانت نظرته إلى التاريخ الإسلامي نظرة عامة شاملة، وآراؤه في كتابة التاريخ أراء جديدة، استخلصها من تجاربه ودراساته التاريخية ونظراته في التاريخ نظرات فلسفية.[2]

لقد خص العرب علم التاريخ بجانب كبير من اهتمامهم، لميلهم إلى معرفة مصائر الأمم الماضية، وحوادث الأزمان السابقة، ولاهتمامهم بالأسباب فرووا الأخبار وجمعوا الروايات، ولم يتركوا جانبا من جوانب النشاط الأنساني القديم والمعاصر لهم إلا سجلوا تاريخه. فكما كانا من الضروري للعربي إن يعرف لغته، كان لزاما عليه –إكمالا لثقافته– إن يعرف بلاد الإسلام ومدائنها، ومن هنا كان من العسير كما يقول حسين مؤنس الفصل بين المؤرخ والجغرافي والأديب في تاريخ الفكر الإسلامي.[3]

وعلى هذا النحو، فإن معظم المصنفات التاريخية والجغرافية والأدبية، هي موسوعات عربية في التاريخ والأدب والعلوم الإسلامية بوجه عام، ولا تخفى أهمية هذه الموسوعات الجامعة بالنسبة لدراسة الحضارة الإسلامية.كثيرة هي الحركات السياسية والاجتماعية يستعصى فهمها على دارس التاريخ، مالم تكن مصحوبة بدراسة العوامل الاقتصادية والسياسية التي أثرت فيها وتأثرت هي بها .(الهجرات السامية من قلب شبه الجزيرة العربية إلى بلاد الشام والعراق في العصور القديمة، وغزو الهكسوس لمصر...)، أحداث يصعب على المؤرخ فهمها مالم يقرنها بالعوامل الاقتصادية التي كانت تؤثر فيه، كما إن الفتوحات الإسلامية، والحروب الصليبية،

---

[1]– مصطفى شاكر، التاريخ العربي والمؤرخون، المرجع السابق، ص:118.

[2]– أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، دار النهضة العربية، لبنان، 1994، ص:138، ومحمود الخويري، المرجع السابق، ص:110، ومحمد محمد مرسي الشيخ، المرجع السابق، ص:04.

[3]– حسين مؤنس الجغرافيا و الجغرافيون في الأندلس من البداية إلى الحجارى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، 19 9-1960، ص:199-200.

والهجرات الجرمانية، وغيرها من الأحداث الكبرى في التاريخ الإسلامي والأوربي، لم تكن كلها حركات سياسية، أو دينية فقط،ولكن صلتها بالأوضاع الاقتصادية كان وثيقا للغاية.[1]

إن الاهتمام بالبحث في علم التاريخ عند العرب ودراسة مناهج البحث فيه أمر قديم، لكن بعض المؤرخين ومنهم الكاتب السيد عبد العزيز سالم يذكر إن المستشرقين هم من سبق إلى تحقيقه، ولم يعب الباحثين العرب إن يأخذوا على هؤلاء المستشرقين، ورغم إنه لا ينبغي إن نجحد فضل الأبحاث القيّمة التي قام بها بعض المستشرقين في التاريخ الإسلامي وفي مصادره،إلا إن العديد منهم عمد إلى التضليل، وإلى إبراز الأخطاء التي وقع فيها العرب، وإلى تفتيت وحدة الشعوب العربية، وإلى تمجيد الحركات الشعوبية.ومن طلائع المستشرقين في دراسة علم التاريخ عند العرب: فرديناند وستنفلد —مرجليون— بروكلمان— هاملتون جب— كلود كامن— سوفاجيه— فرانز روزنتال— ليفي بروفنسال.

لفظة تاريخ عند العرب لم تكن مطابقة لكلمة "أسطوري" عند الأوربيين،لأن القضايا الفلسفية المتصلة بفكرة التاريخ هي من تطورات الفلسفة الحديثة، وهي تختلف كلية عن مفهوم التاريخ عند العرب.[2]

ولعلي من خلال هذا الفصل التمهيدي أحاول الإجابة عن جملة من التساؤلات وهي: كيف نشأت الكتابة التاريخية في الجزائر، هل هي استمرار للكتابة التاريخية عند العرب والمسلمين، أم إن هناك طريقة خاصة في الكتابة التاريخية عند الجزائريين؟ وهل تنتمي الكتابة التاريخية الجزائرية إلى إحدى المدارس التاريخية الكبرى السالفة الذكر، أم إنها تنتمي إلى مدرسة خاصة؟ ثم ما هي طريقة وأسلوب الكتابة التي انتهجها المؤرخون الجزائريون في الكتابة التاريخية؟

استنتاج:

مما لا شك فيه، إن عِلمية التاريخ بدأت ببداية المجتمع الأنساني نفسه، وذلك منذ إن بدأ الأنسان يسجل مظاهر حياته بشكل أو بآخر، مبتكرا بذلك مجالا جديدا لمعرفة الأنسان بذاته وبمحيطه، ولا شك أكثر، إن هذا النمط المعرفي قد جاء تلبية لحاجات اجتماعية فرضت نفسها منذ البداية على الجماعات الأنسانية، ومن ثم من الجائز، إن نقرر إن التاريخ وظيفة اجتماعية من حيث إنه يلبي حاجة الجماعة البشرية إلى معرفة ذاتها.

لعل معظم التعاريف إن لم أقل كلها التي خصصت لعلم التاريخ، وفي مقدمتها تعريف"ابن خلدون"تتلخص في معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم وعاداتهم وصنائعهم...وغير ذلك، والغرض من ذلك

---

[1]- سيدة كاشف، إسماعيل، مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه، القاهرة، 1960، ص:6.

[2]- هواتكن، دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية، ترجمة: محمود زايد، بيروت، 1963، وهر نشو، علم التاريخ، ص:1-22.

الوقوف على الأحوال الماضية، فائدته العبرة بتلك الأحوال والتنصح بها، وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن، وهنا بهذا المفهوم يمثل عمرا آخر للناظرين للأنتفاع بمنافع تحصل للمسافرين في الزمن.

لم يكن التاريخ الإسلامي ظلا لما كان عند الآخرين، أو اقتباس لأعمالهم التاريخية وأفكارهم، وإنما كان علما مستقلا أصيلا نشأ داخل بيئة إسلامية تلبية لحاجات المجتمع الإسلامي وأغراضه، ولشعور المؤرخين الديني، ومتمما للعلوم الدينية.

وإذا ما تصفحنا تاريخ مناهج الكتابة التاريخية عند العرب والمسلمين لوجدناه تطور تطوراً كبيرا، حيث كان عرب الجاهلية وأوائل الإسلام يحفظون التاريخ في ذاكرتهم، و لم يكونوا يدونونه، ليس لأنهم كانوا يجهلون الكتابة، بل لتحبيذهم الحفظ على الكتابة، وإن ملكة الكتابة لم تكن لتعطي صاحبها تفوقا وقيمة في المجتمع أكثر مما تعطيه ملكة الحفظ.

ولكن لما اتسعت بيئة المسلمين باتساع المناطق والشعوب، أضحت الحاجة ماسة إلى التدوين التاريخي للأحداث، فظهرت أساليب التدوين، واستحدثت مناهج للكتابة التاريخية شملت كتب السير، والطبقات، والتراجم، والفتوح، والأنساب، فالتواريخ المحلية والتواريخ العامة، كما ظهرت صور وأشكال حديثة من صور الكتابة التاريخية عند الشعوب سميت بالمدارس التاريخية، لتتغير النظرة إلى التاريخ عما كانت عليه في القرون الأولى، وأصبح التاريخ علما من العلوم الاجتماعية يعتمد على منهجية علمية تكاد تصل إلى الموضوعية، لولا تعنت، وتصلب، ونقص، وتحايل، ومساومة بعض المؤرخين... من مختلف الأطياف للتاريخ...بدعوى الدفاع عن التاريخ، والتاريخ منهم بريء.

الفصل الأول

الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية في الجزائر

خلال العهد العثماني (1519-1830م)

المبحث الأول: الجزائر والدولة العثمانية

المبحث الثاني: التنظيم السياسي للجزائر خلال العهد العثماني

المبحث الثالث: الأوضاع الاجتماعية في الجزائر خلال العهد العثماني

المبحث الرابع: الأوضاع الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني

تقديم:

ما أريد الإشارة إليه في هذا التقديم قبل الخوض في الحديث عن الأوضاع العامة للجزائر خلال العهد العثماني، هو النظرة الأحادية للغرب عن تاريخ الإمبراطورية العثمانية والجزائر التي كانت تابعة لها كولاية، وهو في الحقيقة نقل لما يقدمه المؤرخ الألماني جوزيف فون هامر"على إنه تاريخ يتميز بأسلوب تأريخي تقليدي"[1].

يهتم هامر بالوصف أكثر من اهتمامه بالتفسير، أو إنه لا يتحرى الأسباب العميقة للأحداث، رغم إن النقاد يعتبرونه من الكتاب الذين يؤرخون بموضوعية للدولة العثمانية،كما إنه يركز بشكل خاص على شتى ضروب العيوب والأخطاء والمفاسد والتجاوزات(مرد ذلك إلى السياق المعادي للعثمانيين ومن ورائهم الجزائر، وهي ولا ريب نظرة معظم المصادر الغربية التي تتناول الشؤون التاريخية بسطحية بالغة)، فهي حقائق لا تنكر، إلا إنها لا تشكل جوهر التاريخ، والأهم من ذلك إنها تقدم عنه صورة جزئية ومتميزة.

إن معظم المؤلفات التي نشرت حول تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني كانت تركز على الجوانب الإخبارية المتعلقة بالأحداث، وعلى العلاقات السياسية بين الدول الأوربية والجزائر، دون الإشارة إلى التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والحضاري للجزائريين. كما إن هذا التصور للجزائر قد تأسس على مفاهيم في القرن التاسع عشر الميلادي بوجه خاص خلال الاحتلال الفرنسي للجزائر، مصورين النظام العثماني بالاستبدادي الوحشي والعنيف الذي لا يدين بسيطرته إلا لقوة جيشه. أما الحكام(الباشوات) فهم إما إنهم كائنات دموية لا تعرف الشفقة، تحركها غواية السلطة، أو إنهم أشخاص بلا شخصية، يحيون في الفجور والفساد وجمع المال. أما الإدارة، فهي معدومة، أو تتميز بالإخلال بالواجبات، وتشهد على صدارته الدنوش والجبايات والضرائب المختلفة.

---

[1]- جوزيف فون هامر برجشتال (Joseph Von Hammer Purgstall)1856/1774م)، مستشرق نمساوي قام بمحاولة اولى لكتابة تاريخ الأدب العربي"التاريخ الأدبي للعرب من بدايته إلى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة"، رائد المدرسة الجرمانية في الاستشراق، دبلوماسي نمساوي، مؤرخ، مترجم، محقق ومؤلف، له مؤلفات تزيد عن المائة مؤلف في التاريخ والأدب والشعر، من أهمها"تاريخ الإمبراطورية العثمانية". ينظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين–حرف الهاء–ط3، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان،1993،ص:615.

إن هذا التصور الذي يستند إلى تفوق الغرب بأفكاره وعدالته وحرياته وإلى مبدأ القوميات، والذي غالبا ما يعاود الظهور من حين لآخر، كثيراً ما دسّ في النفوس والعقول فكرة فساد العالم الإسلامي بوجه عام، والإمبراطورية العثمانية بوجه خاص، والجزائر في عين الإعصار بوجه أكثر خصوصية.

ويبقى التساؤل يراودني هنا لمعرفة الأوضاع العامة للجزائر خلال العهد العثماني وهو: هل اللجوء إلى المصادر الشرقية دون المصادر الغربية والتي من الواضح إنها قد ركزت على عدم كفاءة الكُتاب الشرقيين وضعفهم يسمح لنا برؤية واضحة وصحيحة عن الأوضاع التي عاشتها الجزائر خلال العهد العثماني، وعن إصدار حكم مختلف إلى حد ما عن الحكم الغربي الأوربي (الأنحطاط والتخلف والتدهور)؟

المبحث الأول: الجزائر والدولة العثمانية

مما لا شك فيه إن الدولة العثمانية التي تأسست في النصف الثاني من القرن السابع الهجري – الثالث عشر الميلادي –"بقيادة ارطغرل بن سليمان شاه التركماني" (ت 687 ه/ 1288 م)، قائد إحدى قبائل الترك النازحين من سهول آسيا إلى بلاد آسيا الصغرى، وزعيم الترك في دادي قرصوفي بلاد الأناضول، كانت واحدة من الدول العديدة المتتابعة، والتي نشأت على أنقاض الوحدة السياسية للخلافة العربية الإسلامية، بعد إن اعترتها عهود من الضعف، وقبل إن تعرف المصير الفاجع، وهي تواجه غزو المغول والتتار لعاصمتها التاريخية بغداد في منتصف القرن السابع الهجري – الثالث عشر الميلادي[1].

ومن دون أدنى شك أيضا، إن إمارة عثمان الحدودية الصغيرة، تضخمت واتسعت بفضل فكرة الجهاد ضد العالم الغربي المسيحي عامة، والكنيسة البيزنطية الشرقية خاصة، وتحولت إلى إمبراطورية قوية وواسعة، تمكنت من الأنبعاث بمعجزة في وقت كانت تتهددها فيه الحروب الأهلية، والحملات الصليبية. ففي ذلك العهد، لم تعد هناك في السياسة الدولية أية مسألة لا تعني العثمانيين، حيث قرّرت السلطة العثمانية إن تنطلق باتّجاه الفتوحات للدول العربية والغربية على السواء. ورغم إن العثمانيين اعتمدوا على الجهاد مبدأ رئيساً لهم، إلا إن الهدف من ذلك، لم يكن تدمير عالم الكفر أو دار الحرب، بل إخضاعه، حيث قامت الإمبراطورية العثمانية بحماية الكنائس الأرثوذكسية، وملايين المسيحيين الأرثوذكس، وكان الإسلام يضمن حياة المسيحيين واليهود وممتلكاتهم، ويسمح لهم كذلك إن يمارسوا شعائرهم الدينية، شريطة إن يخضعوا وإن يدفعوا الضرائب[2].

ولما كان المجتمع العثماني من المجتمعات الحدودية، فقد كان الاختلاط يتم بحرية مع المسيحيين، وكان العثمانيون يطبقون هذه المبادئ الأساسية، بليبرالية وتسامح كبيرين، وفي هذا الإطار نقل غري غوري بالاماس(PALAMAS) مطران صالونيك الذي وقع أسيراً في أيدي العثمانيين بعد فتحها، قوله: "إن التقدم

[1]- محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العليّة العثمانية، تح: إحسان حقي، دار النفائس، ط10، بيروت، لبنان، 2006، ص:115.

2- محمد فؤاد كوبرولي، قيام الدولة العثمانية، تر وتح: أحمد السعيد سليمان، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، ط1، 1993، ص:119-122.

المستمر للعثمانيين المسلمين من الشرق إلى الغرب يمثل دليلاً واضحا على إن الله يساعدهم، وعلى إن الإسلام هو الدين الصحيح". [1].

ولعل هذه النظرة، هي التي أدت إلى تعرض التاريخ العثماني للإهمال بوجه عام حتى النصف الأول من القرن العشرين، فقد تأثر الكتاب الأوربيون باتجاهات معاصريهم من الدولة العثمانية، التي ظلت تشكل بالنسبة إلى أوربا ولمدة ستة قرون مشكلة كبرى، فهي في بادئ الأمر، كانت تمثل رد الفعل الإسلامي ضد الخطر الصليبي، ثم ما لبثت إن اعترضت المشروعات الاستعمارية الأوربية. وعليه جرى تفسير التاريخ العثماني من وجهة النظر القومية لكل من هذه الدول، وهي بوجه عام، تفسيرات متحيزة ومنقوصة، بل إن مؤرخينا العرب- باستثناء عدد قليل- كانت تحركهم الدوافع الدينية، بحيث دافعوا عن الدولة العثمانية التي اعتبروها دولة الخلافة، بينما أبدوا نفورهم من التاريخ العثماني، واعتبروا ظهور الأتراك نهاية لازدهار الحضارة العربية الإسلامية، وعقبة في سبيل اقتباس درجات التطور التي أصابتها الحضارة الأوربية الحديثة. ومثل هذه الأحكام العامة، لا تتماشى مع الحقائق التي تبرزها الدراسة الجادة الشاملة، لما خلفه العثمانيون في بلادنا من آثار مادية وسياسية تنفي ما يقال عادة من إنهم كانوا مجرد محاربين، مجردين من أي قيم حضارية[2].

لقد اتخذت السلطة العثمانية منذ نشأتها في كل البلاد العربية التي وقعت تحت سلطتها ومنها الجزائر، صيغة مؤسسات حكم ينتظمها منطق موحد، وجامع لمكوناتها المتشعبة والمختلفة، فالإلمام بخصائص هذه المؤسسات، وما اختطته لنفسها من مبادئ وقوانين تنظيمية، ونظم تشريعية خاصة بمباني السلطة، أو ما طورته من سياسات إستراتيجية في تعاملها مع ما واجهته من قضايا كبرى، يؤكد استحالة الركون إلى أية منهجية تحاول إن تعين طبيعة هذه السلطة عن طريق دراسة المؤسسات، والقوى التي شكلت مبانيها المختلفة. بهذا المعنى لا تشكل مؤسسات السلطة العثمانية في الجزائر، سواء في مراحل نشوئها وتكونها، أوفي مراحل ترسخها واكتمال بنيانها، معطيات أصيلة مالكة لجماع شروطها الذاتية أو الاجتماعية، كي يصار إلى الأنطلاق منها أو

1- خليل اينالجيك، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الأنحدار، تر: محمد الأرناءوط، دار المدار الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 2002، ص:16-20.

2- أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، ط3، القاهرة، 2003م، ص: من المقدمة.

التأسيس عليها. وهذا ما يدفعنا إلى العمل على استكشاف مرتكزاتها التي شكلت الإطار التاريخي الذي انبثقت منه في مطلع القرن السادس عشر [1].

فإذا كان تاريخ تبعية بعض المناطق العربية للدولة العثمانية معلوم، كبلاد الشام التي دخلتها القوات العثمانية عام 922 ه/ 1516م، ومصر التي دخلتها عام 923 ه/ 1517م مثلا، فإن المصادر والمراجع المعرفية الحديثة لدراسة الفترة العثمانية بالجزائر، لا زالت تعاني من تأثر عميق باختلاف مواقف مؤلفيها من تحديد بداية العصر العثماني في الجزائر. ولا بد من الإشارة إلى اختلاف عابر لا يمكن عده ذا أهمية، يتعلق بتحديد هذا العصر، إما في عام 922ه/ 1516م، الذي شهد دخول عروج مدينة الجزائر، واستقبال الشيخ سالم التو مي، وأمراء وأعيان ووجهاء المدينة، وسكانها استقبال الفاتحين له، وإعلأن عن نفسه سلطانا على الجزائر[2] أوفي عام 924 ه/1518م، الذي شهد تسلُم خير الدين القيادة بعد استشهاد أخيه عروج، والذي راسل السلطان العثماني سليم الأول، يعرض عليه خضوعه وتبعيته حتى يضمن قوة تحميه، ويستند عليها في أوقات الشدة، أوفي عام 925ه/1519م، حينما عزم خير الدين رد السلطة لأهلها، وألح سكان المدينة عليه بالبقاء بينهم، فاشترط عليهم إيصال أيديهم بالقوة الإسلامية، ولا يكون ذلك إلا ببيعة السلطان العثماني، والدخول في طاعته بالدعاء له في الخطب على المنابر، وضرب السكة باسمه لتفيء ظل حمايته، فاستحسن أهل المدينة رأيه، ووجهوا رسالة مؤرخة في أوائل ذي القعدة سنة925ه/ 26 أكتوبر1519م حملها وفد من الأعيان على رأسه الحاج حسين، وكان خير الدين يدرك تمام الإدراك، إن السلطان العثماني سيكون مسروراً بإضافة المغرب أو جزء منه إلى دولته، ولاسيما إذا كان ذلك لا يكلفه سوى القليل.وللعلم، تذكر بعض الروايات إن أحمد بن القاضي هو الذي تولى قيادة الوفد الجزائري إلى القسطنطينية[3].

وعلى الرغم من إن التحديد التاريخي كإطار زمني له أهميته ودلالاته السياسية، إلا إنه يبقى ذا أثر ضعيف، في تحديد مواقف الباحثين والمؤرخين اتجاه طبيعة الحكم العثماني في الجزائر، ولكن أيضا لا يجب غض

1- حسن الضيقة، الدولة العثمانية-الثقافة المجتمع والسلطة- دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان، 1997، ص:11-12.

2- عزيز سامح ألتر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، تر: محمود علي عامر، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط1، بيروت، لبنان، 1989م، ص:51. ومحمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1964، ص :44-45

3- عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج2، مكتبة الأنجلو-المصرية، ط1، القاهرة، مصر، 1980، ص:910.

النظر عن هذا الجانب في مؤلفات الباحثين، لأن جوانب أخرى تبقى ضرورية لتشييد الجسور المعرفية المثلى المنجزة في الجزائر خلال العصر العثماني.

يذكر فرديناند بروديل(Ferdinand, Braudel) صاحب كتاب" البحر المتوسط والعالم المتوسطي..." إن الدولة العثمانية تعتبر جزءً أساسياً من عالم البحر المتوسط، ليس فقط في الصراع على السيطرة، وإنما أيضا في العلاقات الاقتصادية[1].

كما رصد كتّاب آخرين من جهة أخرى، إن التجارة في مجالها الدولية أحدثت تحول هام في سياسة العثمانيين، حيث لعبت الإمبراطورية العثمانية في القرن السادس عشر الميلادي دوراً هاماً في التجارة الدولية، وكان لمغامراتها الواسعة والمتنوعة، نتائج اقتصادية على ضفاف الأنهار والبحار(البحر المتوسط خاصة). فالأعمال العسكرية كانت ترتبط ارتباطا وثيقاً بالقضايا الاقتصادية- المالية، فبعد إن فتح العثمانيون مصر، بذلوا جهودا عظيمة، سواء كانت باعتبارهم حماة الأماكن المقدسة، أم كانت لإعادة الحياة إلى طرق التجارة القديمة، فقد كانوا وهم يحاولون إجهاض العمليات الحربية التي يقوم بها الأسبان في البحر المتوسط وشمال إفريقيا من ناحية، يخوضون صراعا مع البرتغاليين من ناحية أخرى، الذين وصلوا إلى الهند، وسيطروا على طريق التوابل، وعطلوا تجارة البحر المتوسط، وهددوا أمن الحرمين الشريفين[2].

في الحقيقة، ما دعاني إلى طرح هذه الفكرة (العامل الاقتصادي)، هو محاولة التدقيق والتوضيح لمضمون الوجود العثماني بالجزائر منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي، علما إن مختلف كتابات المؤرخين المحليين خاصة، تصنفها في خانة "الاستنجاد"، وهي ولا ريب، دعوة الجزائريين العثمانيين لنصرتهم من الهجمات المتكررة للأسبان المسيحيين على السواحل الجزائرية، ولكننا نعتقد حتى الأن، لا الدراسات الجامعية، ولا مراكز البحوث، استطاعت تجاوز الإطار التقليدي لمصادر الدراسات العثمانية بالجزائر، وهي الكُتب التي أعدها المتخصصون بالدراسات العثمانية عربا أو غير عرب، والكِتاب مهما كانت قيمته يبقى وجهة نظر، ويبقى يحمل قدراً من الأنتقائية. و لم تصبح الوثائق حتى الأن مصادر لدراسة أساسية، وعلى نطاق واسع، وهي رغم

1- F, Braudel, la Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de philipe2, paris, 1966, p:49.

2- أكمل الدين حسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، نقله إلى العربية: صالح سعداوي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة، استانبول، تركيا، 1999، ص:43، وخليل اينالجك، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، تحرير: خليل اينالجك بالتعاون مع دونالد كواترت، تر: عبد اللطيف الحارس، دار المدار الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 2007، ص:49.

وفرتها وكثرتها بشكل يندر إن يحظى به تأريخ أية حقبة، إلا إنها ما زالت، لم تتجاوز حدود أكداس من الورق المحفوظة في مراكز الأرشيف في تركيا (بخزائن قصر طوبقاي، الباب العالي، الخارجية التركية) يأكلها تقادم الزمن، دون إن تصبح في متناول الدارسين. ورغم ما قام المؤرخ أحمد توفيق المدني في السبعينات من تصوير لمجموعة من الوثائق التركية(3000وثيقة)، إلا إن ذلك يعتبر غيض من فيض على حد قول الباحثين والمؤرخين. وفي هذا الصدد يقول نزار الحديثي: "إن اعتماد الدراسات على المصادر سهلة البلوغ(الكُتب)، جعل نتائج الدراسات تبقى بحدود وجهات نظر، مبنية على وجهات نظر سبقتها وهكذا"[1].

وبالعودة إلى ما سبق ذكره أقول، صحيح إن أعيان ووجهاء وعلماء مدينة الجزائر، توجهوا بطلب إلى الإخوة بربروس(عروج وخير الدين)، وهو ما يذكره حسن الوزان الذي أمضى بضعة شهور في المغرب الأوسط سنة 922ه/1516م، وشهد عن كثب الصراع الدائر بين عروج والأسبان في مدينة بجاية، بأن أهل الجزائر أرادوا إن يفسخوا الهدنة، ويتخلصوا من الخراج الذي كانوا يؤدونه لاسبانيا، فأرسلوا إلى بربروس(عروج) ليكون قائدا لهم، نظرا لقيمته العسكرية العظيمة، وكفايته في محاربة المسيحيين، وبعد تخلصه من المتآمر عليه سالم التو مي حاكم مدينة الجزائر، نودي به ملكاً فضرب السكة......ذلكم كان أصل قوة بارباروس وعظمته.[2].

كما إن علماء وأعيان مدينة بجاية كانوا قد طلبوا من عروج إنقاذ المدينة وتحريرها من الأسبان في رسالة أرسلت إليه، كان من مضمونها: "وكاتبه العلماء والأعيان من أهل بجاية يستصرخونه في إنقاذها من يد العدو...... وقد لبى عروج الدعوة، واتجه إلى بجاية على رأس جيش بحري قوامه حوالي ألف جندي تركي، على متن أثنى عشر قطعة محملة بالمدفعية والذخيرة، وكان ذلك في شهر أوت1512م/918ه[3]، للعلم، إن أهل مدينة جيجل قد خضعوا بعد ذلك في سنة921ه/1514م من تلقاء أنفسهم إلى عروج (بارباروس)، الذي لم يفرض عليهم سوى زكاة عشر الحبوب والثمار، مما هو معمول به، و لم يترك نائبا عنه في القصر سوى مندوب واحد[4].

1- نزار الحديثي، مشاكل الدراسات العثمانية في الوطن العربي من كتاب: الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني، جمع وتقديم: عبد الجليل التميمي، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، زغوان، تونس، 1988، ص:281-286.

2- حسن الوزان، وصف إفريقيا، تر: محمد حجي ومحمد الخضر، ج2، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، لبنان، 1983، ص:41.

3- ابن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان وأخبار تونس في عهد الأمان، ج2، ش، و، ن، ت، الدار التونسية، ط2، (د ت)، تونس، ص:10.

4- حسن الوزان، المصدر السابق، ص:52.

تذكر المصادر التاريخية، إن عروج بعد تقديم يد المساعدة لأهالي المدينتين بجاية وجيجل، كثف نشاطه البحري فحقق انتصارات كبيرة، حصل بموجبها على غنائم كثيرة، بادر بإرسال جزء منها إلى السلطان العثماني سليم الأول، الذي استحسنها وأرسل إليه مكافأة مجزية وثمينة[1]. ومما لا شك فيه، من إن هذه الواقعة التي حدثت بين القائد عروج والسلطان العثماني سليم الأول، قد جلبت اهتمام الباب العالي إلى واقع الأحداث في البحر المتوسط (انتصارات البحارة بربروس)، الشيء الذي مهد الطريق لتطوير العلاقات السياسية والعسكرية بين الأستانة والإخوة بربروس، كما جلب اهتمام أهالي المدن الجزائرية الأخرى لطلب يد المساعدة، وهو ما حدث فعلا، حيث وصل وفداً من سكان مدينة تلمسان بعث به أبا زيان، يطلب من الأخوين عروج وخير الدين المساعدة والحماية ضد أبي حمو الثالث، خاصة بعد انتصارهما على حميد العبد شيخ سويد بتنس، والذي كان خاضعا للأسبان، لكن أبو حمو الثالث استنجد بحلفائه الأسبان الذين حاصروا عروج، ثم هزموه وقتلوه سنة 925ه/ 1518م[2].

لعلي ما أوردته من أراءٍ لمعظم المؤرخين، والكتّاب حول مسألة إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية، لخصه المؤرخ حسن الوزان، انطلاقا من التبعية الدينية، والسلطوية للإخوة بارباروس. ولكن ثمة تساؤل يطرح نفسه في هذا الإطار في محاولة تخطي الواقع الذي ذكرناه، والمتمثل في رغبة السلاطين العثمانيين في بسط نفوذهم، وسيطرتهم العسكرية والاقتصادية، وحتى الجيوسياسية في البحر المتوسط عامة وضفته الغربية خاصة؟

إن معظم الكتابات التاريخية ولأسباب عديدة، لم تتناول بشكل كاف على الإطلاق، دور الإمبراطورية العثمانية نفسها والجزائر كولاية تابعة لها، في الصراعات الدولية الاقتصادية، خاصة التي نشبت في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر الميلادي، إذ جرت العادة على بحث هذا الدور من زاوية، كونه أثراً معرقلاً للطموحات السياسية للدول الأوربية، على الرغم من إن الإمبراطورية العثمانية كانت تعتبر نفسها شريكاً مستقلاً في العلاقات الدولية بالبحر المتوسط. إن ما يفسر ذلك هوإن قدوم البحارة الأتراك في بادئ الأمر إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط(شمال إفريقيا)، لم يكن بقصد الدفاع عن تلك البلاد ضد الهجمات المسيحية الاسبانية، بل جاؤوا إلى المنطقة لممارسة الأعمال البحرية، وحينما لمسوا التعصب المسيحي الرامي إلى قهر

1- مجهول، غزوات عروج وخير الدين، تص وتع: عبد القادر نور الدين، مطبعة الثعالبية والمكتبة الأدبية، الجزائر، 1934، ص:12.

2- عبد الحميد حاجيات، خطر النصارى وانهيار الدولة الزيانية، الجزائر في التاريخ (العهد الإسلامي)، ج3، ص:456، وعثمان الكعاك، موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، تق ومر: أبوا لقاسم سعد الله وآخرون، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 2003، ص:275.

سكان المنطقة لكونهم مسلمين، وخاصة فيما بعد بالمسلمين الأندلسيين، تحول الصراع، من صراع اقتصادي إلى صراع ديني ما بين العالم المسيحي(إسبانيا) والعالم الإسلامي المرتبط بالإمبراطورية العثمانية.[1].

من المؤكد اليقين، إن ذلك لا يعني استبعاد العامل الديني، ولكن استقرار آل بارباروس بمنطقة المغرب العربي، وتحمُلهم أعباء الدفاع عنه، كان أيضا بدافع الأنتقام من المسيحيين، الذين شردوهم من جزيرة مدلي، حيث تعرض عروج وأخوه إلياس لهجوم من قبل فرسان رودس، الذين كانوا يمارسون السلب والنهب ضد السفن الإسلامية خاصة، وإزاء ما فعله هؤلاء الفرسان به (سُجِن بجزيرة رودس) وبأخيه إلياس(استشهد)، فقد أقسم على منازعة المسيحيين المتعصبين، ونذر نفسه لذلك[2].

وحتى تكون النظرة واضحة، نسجل إن كل الدراسات، والدراسات الأوربية خاصة، تركز حول مسائل القرصنة الجزائرية، والأسرى، والغنائم البحرية، ولعل ما أورده الكاتب دي فونتان دو راسباك(fontaine de resbecq) يلخص كل رؤى الكتابات الأوربية، وقد احتفظت بالعبارة التالية بلغتها الفرنسية كما وردت في كتابه للدلالة على ذلك، حيث يقول:

«Piraterie, le fondateur de ce brigandage devint célèbre sous le nom de Barberousse …puissants et redoutés, Barberousse et ses compagnons aspirèrent à jouer un rôle plus relevé que celui de vagabonds. Ils conçurent alors l'idée de fonder un établissement, ce qu'ils obtinrent presque aussitôt en s'emparent d'Alger, dont le roi les avait appelés" [3].

1- نينل الكسندر وفنا دوفينا، الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية، تر: إنور محمد إبراهيم، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، 1999، ص: 04.

2- عبد العزيز ألتر، المرجع السابق، ص:28.

3 - A. de fontaine de Resbecq, Alger et les cotes d'Afrique, Gaume frères libraires, imprimerie de découchant, paris, 1837, p : 96.

وهو ما يدعوا إلى التساؤل أيضا، كون إن الكُتّاب لم يكلفوا أنفسهم في ذلك عناء النظرة المتخصصة، التي تقر بالحقائق من خلال مجريات الأحداث، كالأنشطة الاقتصادية، والتنظيمات الإدارية، ومدى الارتباط بينها[1].

المبحث الثاني: التنظيم السياسي للجزائر خلال العهد العثماني:

يتفق المؤرخون الأوربيون والجزائريون على السواء، على حقيقة تاريخية ثابتة، وهي إن السلطان العثماني سليم الأول بعدما قبل إن تكون الجزائر إقليما عثمانيا جديداً، أدخلها في النظام الإداري العثماني، محولا إياها إلى إيالة يقودها الباشوات، واعتبرت الجزائر في نظر العثمانيين، ثاني ولايات الدولة العثمانية في إفريقيا بعد مصر، من حيث الأهمية العَمَلِية، ولذلك فإن الديوان الهمايوني كان يرسل إليها من يختارهم من بين كبار الموظفين، الذين كانوا قد تمرنوا قبل ذلك على حكم ولايات أخرى أصغر، وكان بعضهم قد احتل منصب الوزارة، وحاز ثقة السلطان، سواء في الإدارة الداخلية، أوفي قيادته الجيوش العثمانية، فعلى سبيل المثال، كان علي باشا(1568م) واليا على طرابلس الغرب، وكان جعفر باشا(1580م) واليا على الجر حيث أبلى فيها البلاء الحسن.[2]

ومن الأهمية بمكان هنا إن نذكر، إذا كان عروج هو المؤسس الحقيقي لجماعة البحرية الأنكشارية، فإن خير الدين هو القائد الأول الذي أسس الإيالة الجزائرية العثمانية، وهو الذي أعطى شكلها المميز، ولوجودها صفة الشرعية، بربطها بالدولة العثمانية، وهوالذي مُنح لقب باي لارباي سنة 937ه/1534م، مع امتياز التسمية قائد للأوجاق، والعامل باسم السلطان، وهو الذي ثُبت كتائب للباد شاه، [3] فإن دخول الأنكشارية العثمانية قد وفر القوة العسكرية الضرورية، ليس فقط للدفاع عن مدينة الجزائر ضد الهجمات الأيبيرية، ولكن

1- ناصر الدين سعيد وني، طبيعة الكتابات التاريخية المتعلقة بالجزائر العثمانية، مجلة الثقافة، ع45، منشورات وزارة الثقافة، السنة الثامنة، جمادى الثانية، رجب1398ه/يونيو، يوليو1978 الجزائر، ص:25-45.

2- haedo.d,de, histoire des rois d'Alger ,trad., de.h.d, Grammont, éditions grand-Alger ivres, Alger,2004, p ;148-168,et191

3- هو لقب وظيفي من ألقاب السلطان العثماني، يتكون من باد: وهي تخت أو عرش، وشاه: وتعني سيد أو صاحب، والكلمة باد شاه تعني: السلطان أو الملك، واستخدم لأول مرة في القرن السابع عشر الميلادي، حيث أطلقه الصدر الأعظم قويوبجي مراد باشا(ت1612م) ينظر: حسن الباشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، مكتبة النهضة المصرية، مصر، 1957، ص:220.

أيضا لتوسيع رقعة الفتوحات العثمانية لتشمل كل المغرب الأوسط، وإن هذا الأنضمام أعتبر خطوة حاسمة في تطور ايالة الجزائر العثمانية الذي استمر إلى سنة1830م، وبهذه الطريقة تكونت إيالة الجزائر[1].

ومن جهة أخرى، لقد اعترف خير الدين بأن سياسة أخيه عروج الهادفة إلى الحصول على سلطة سيادة فوق المدن الداخلية كانت سياسة صحيحة، بل كانت ضرورية لا مناص منها، ولكنه أدرك بأن توحيد منطقة المغرب الأوسط(الجزائر) المضطربة تحت سلطة واحدة، لم يكن أمراً سهلا، فعندما بدأ خير الدين حكمه، كانت المقيمات الاسبانية تسيطر على الحركة في موانئ الجزائر، ووهران، وتنس، وباديس، وعنابة، بالإضافة إلى موانئ أخرى عديدة أقل أهمية، كما كانت العاصمتان القديمتان تلمسان وقسنطينة في غرب وشرق المغرب الأوسط، قد اعتمدتا على تسيير شؤونهما بنفسهما، ولا تريدان أي تدخل من الخارج. أما في الجبال والهضاب العليا، فقد كانت القبائل البربرية والعربية تحت قيادة شيوخها وأمرائها، ولا تريد هي أيضا إن تدفع ضريبة، أو تعترف بسلطة خارجية، غير إن خير الدين كانت لديه فرصة هامة، وهي إن المدن الساحلية لا يمكنها طرد الأسبان المسيحيين إلا بمساعدة الأتراك العثمانيين، وهي أول فرصة سياسية لخير الدين.[2]

إن النظام الذي طبقه العثمانيون، لم يكن يهدف أبدا إلى القضاء على الكيانات السياسية القائمة، طالما أبْدت هذه الدول خضوعها واستجابتها بدفع مستحقاتها المالية للباب العالي، وتقديم حكامها المساعدة العسكرية اللازمة للدولة العثمانية خاصة في أوقات الحروب، وهو الأمر الذي يوافق تماما القوانين والأعراف العثمانية، فقد ساعدت مرونة الجهاز الإداري، والنظام السياسي الذي طبقه العثمانيون على تدعيم الحكم العثماني في الجزائر مدة طويلة تعدت الثلاثة قرون، هذه الفترة التي عرفت فيها الجزائر عدة أشكال من أنظمة الحكم السياسية عبر فترات تاريخية محددة ومختلفة، هي:

فترة حكم البايلربايات أو(باي البايات) 926-985ه/1519-1588م:

بدأ هذا العهد باعتلاء خير الدين الحكم، وربط الجزائر رسميا بالدولة العثمانية سنة1519م، وبفضل كفاءته في القيادة، وخبرته في التسيير، وبمساعدة السلطان العثماني، ودعم أهالي مدينة الجزائر، تأسست رابطة قوية بين الجزائر واسطنبول، وهي الرغبة الشديدة التي حرص خير الدين على تحقيقها، ومن ورائها توحيد بلاد

1- وليام سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تر: عبد القادر زبادية، ش، و، ن، ت، الجزائر، 1986، ص:36،
Dan, pierre, histoire de barbarie et de ses corsaires, imp. et libr, Pierre Rocolet, Paris, 1837, p:87.
2- جون ب. وولف، الجزائر وأوربا، تر وتع: أبوا لقاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص:37.

المغرب تحت راية الدولة العثمانية. فالجزائر إذن، كان لها الدور الفعال في تثبيت الوجود العثماني، ليس في سواحل شمال إفريقيا فقط، بل في البحر المتوسط، باعتبارها القاعدة التي أنطلق منها خير الدين في توجيه ضرباته للأسبان في البحر الغربي للمتوسط، وصولا إلى معاقلهم في شبه الجزيرة الأيبيرية، وسأهم بشكل كبير في إجلاء العديد من المسلمين الفارين من الأندلس، وقد استمر خلفاء خير الدين، خاصة حسن باشا وصالح رايس في توطيد السلطة العثمانية في الجزائر، وتحقيق الوحدة الإقليمية، والسياسية للدولة الجزائرية، والتي امتد نفوذها وسيطرتها من حدود المغرب الأقصى غربا إلى حدود تونس شرقا، وصولا إلى الواحات في الصحراء جنوبا[1].

يعد هذا العصر، أزهى عصور الحكم التركي في الجزائر، حيث ازدهرت البلاد في النواحي الاقتصادية، العمرانية، السياسية، وتنظيم للبحرية خاصة، وذلك بفضل التعاون بين فئة الرياس في القيادة، وأبناء الجزائر في القاعدة، كما تميز باستقرار الحكم، وتوحيد الجزائر سياسيا، وإيقاف خطر الهجمات الإسبانية، وتدمير أساطيلها، كحملة أندري دوريا على مدينة شرشال عام 938ه/1531م، وحملة شارلكان على مدينة الجزائر عام948ه/ 1541م، والأهم من ذلك، تحرير العديد من المدن الجزائرية من الاحتلال الاسباني نهائيا، منها مدينة بجاية عام962ه/ 1555م في عهد صالح رايس، وبذلك ارتاح أهل مدينة الجزائر من عناء الدخول والخروج من حكم الإسلام إلى حكم النصرانية طوراً فطوراً.[2]

من إنجازات عهد البايلربايات أيضا، التنظيم الإداري المحكم، فقد قام حسن بن خير الدين بتقسيم الجزائر إلى بايلكات (عمالات)، وجعل لكل بايلك عاصمة خاصة به، وحاكم لُقِب بالباي، يعينه الباشا، ويساعده في الحكم قُياد يتمتعون بوضع مدني وعسكري معاً، وكان هؤلاء الرجال مسئولين على نظام الحكم في البايلكات. أما في المدن الرئيسية فقد كانت هناك حامية إنكشارية لحراسة المدينة، وضمان ولائها لنظام الحكم، وقد جرت العادة إن وجود عدد من الأنكشارية من ثلاثين إلى مائة رجل تحت إمرة قائد يمكنه ضمان الطاعة، وكان

1- عبد الحي رضوان، جهود العثمانيين لأنقاذ الأندلس في مطلع العصر الحديث، مكتبة الطالب الجامعي، ط1، مصر، 1988، ص:311.

2- عبد القادر فكاير، الغزو الاسباني للسواحل الجزائرية وآثاره (910-1206ه/1505-1792م)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2012، ص:91-92.

القانون غالبا ما يتوقف عند جدران المدينة، وذلك لأن أهل البادية الرحالة أو شبه الرحالة كانوا يعيشون بأعرافهم الخاصة[1].

أما الأوضاع الاقتصادية، فقد تنوعت واختلفت مداخيلها، من المغانم التي يتحصل عليها الرياس في غزواتهم البحرية، ومن العوائد التي تقدمها الدول الأجنبية كهدايا، خاصة بعد تحطيم صخرة ستوفلا التي شيد الأسبان عليها قلعة البينون عام915ه/1510م، من قبل خير الدين عام934ه/ 1529م، والتي كانت تضيق الخناق على مدينة الجزائر، وتفرض الرقابة على السفن بتفتيش الصادرات والواردات، مما أدى إلى عرقلة النشاط البحري الجزائري، ومن أنواع الضرائب، كالزكاة والحكر والغرامة. كل ذلك تضخمت بهما كنوز الدولة الجزائرية، واشتهرت شهرة عالمية.[2].

وعليه، فإن عهد البايلربايات عُد من أحسن عهود الحكم العثماني بالجزائر، واعتبر مظهراً فعليا عَبر عن الوجود العثماني في الجزائر، وعن مدى قوة العلاقات العثمانية الجزائرية، وعُد خير الدين من أعظم رجالها السياسيين، والعسكريين، والإداريين، الذين نجوا بها إلى بر الأمان وسط الاضطراب الشامل الذي عرفته في تلك الفترة.

ومما تجدر الإشارة إليه، إنه تولى منصب الباكوية ثمانية عشر بايلربايا من الأتراك العثمانيين، أولهم خير الدين(1519-1534م) وأخرهم حسن فيتريانو(1583-1587م)، وإن معظم من شغل هذا المنصب، هم من طائفة رياس البحر، الذين كان أبلغهم من رفاق خير الذين.

وإذا كان جون وولف يتساءل عن حقيقة العلاقة التي وجدت بين حكومة السلطان العثماني في إسطنبول والبايلربايات الذين حكموا الجزائر، فإن الجواب، يكمن في سمعتهم من العظمة والثقة التي اكتسبوها لدى الباب العالي، من خلال الأنجازات التي قُدِمت للسلطة العثمانية.ولذلك لم يكن من الغريب، إن يلجأ الباب العالي إلى الاعتماد على هذه الطائفة، التي شكلت قوة دفاعية وهجومية هامة، أجبرت كل الدول الأوربية على احترامها ومراعاتها، مما أدى إلى تعيين هؤلاء البايلربايات في وظائفهم تعيينا طبيعيا، وبقاءهم في مناصبهم لمدة طويلة وغير محددة (حكم حسن بن خير الدين مدة سبعة عشر عاما على فترات ثلاث)، بل وإن معظمهم

1- جون وولف، المصدر السابق، ص:118-119.

2- مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1964، ص:128-129.

أصبح أدميرال(أمير الحرب) للبحرية العثمانية بعد قضاء مهمته بالجزائر، كما تمكنوا من نقل لقب باشا وبايلرباي إلى أبنائهم (خير الدين وابنه حسن، صالح رايس وابنه محمد، علج علي الذي كان معاونا لدرغوث باشا أصبح أميرال باشا في خدمة الدولة العثمانية).

إن القوة والنفوذ الواسعين، اللذين تميز بهما عهد البايلربايات على المستويين الداخلي والخارجي من جهة، وسوء تسيير شؤون البلاد لبعض البايلربايات (كحسن فيتريانو) والذين أثارت سياستهم سخط الأهالي من جهة أخرى، شكل خطراً، استوحته فرقة اليولداش أولا، لأن ولاة البايلربايات وبعبقرية سياسية، قد اهتدوا إلى إبعادهم، ومحاولة التخلص منهم، بواسطة تشكيل جيش جزائري صرف يُمكِن الدولة الناشئة من الاستغناء عن الجنود الأتراك، وأدركه سلاطين الباب العالي ثانيا، والذين بدؤوا يشتمون رائحة التمرد، ومحاولة الأنفصال عنهم، خاصة وإن المسافة طويلة بين الدولتين، لذلك بادر السلطان العثماني مراد الثالث(1549-1595م) في إيجاد حل، تمثل في تقليص مدة حكم الولاة إلى ثلاث سنوات، بما يضمن له ولاء الجزائر، بل الشمال الأفريقي بكامله، وتَسهُل مراقبة هؤلاء ومتابعة تحركاتهم، وهو ما تمثل في عهد سمي بعهد الباشوات.[1]

عهد الباشوات (995-1010ه/1587-1659م):

يمثل المرحلة الثانية من مراحل الحكم العثماني في الجزائر، ففي سنة 1587م أصدر السلطان مراد الثاني(1421-1451م) فرمانا يلغي بموجبه نظام البايلربايات، واستبداله بنظام الباشوات. فالباشا [2] لقب يمنح في الدولة العثمانية لأصحاب المناصب العالية، من مدنيين وعسكريين، ولذلك اعتبر عهد الباشوات عهد الموظفين، الذين كانت ترسلهم الأستانة، والذين حُدِدت فترة الحكم الواحد منهم مبدئيا بثلاث سنوات، فعرفوا بالباشوات"الثلاثيين"، وكان هؤلاء الباشوات يديرون شؤون الدولة، بمعاونة لجنة استشارية مشكلة من وكيل الخرج، الخزناجي، خوجة الخيل والأغا. وقد تداول على هذا المنصب 34 باشا، أولهم دالي أحمد

1- مبارك الميلي، نفسه، ص:128...Diego de haedo, op-cit, p : 78

2- الكلمة مأخوذة من اللغة التركية"باش أغا" وهي لقب عسكري بمعنى كبير الأغوات، وقيل أيضا إنها مأخوذة من اللفظ الفارسي"باد شاد" أي الملك، وقد ظهر أول ما ظهر في القرن 8ه/14م، وكان علاء الدين أخو أورخان بن عثمان أول من لقب بلقب باشا.ينظر: مصطفى بركات، الألقاب والوظائف العثمانية، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 2000، ص:81.

باشا(1587-1589م) وآخرهم إبراهيم باشا(1656-1659م)، ومنهم من شغل المنصب لمرتين كالباشا حسين الشيخ(1613-1660م)[1].

لعل الأسباب السالفة الذكر، لم تكن هي الأولى والوحيدة في استبدال حكم البايلربايات بحكم الباشوات، خاصة إذا علمنا إن التنظيم الذي كان يجمع المناطق الثلاثة (الجزائر، تونس، طرابلس) تحت سلطة شخص واحد كان مستوحى من الظروف السياسية والعسكرية في المنطقة، ومن طبيعة المشاكل التي كانت تواجه السلطة العثمانية من قبل الأسبان، الذين كانوا يمثلون تهديدا مستمر للممتلكات العثمانية في المغرب العربي، وليس من باب محض الصدفة، إن الشخص الذي يتولى الباشوية بالجزائر هو نفسه الذي يترقى لمنصب البايلرباي، إلى منصب القائد العام للأسطول العثماني بعد انقضاء مهامه بالجزائر.ولكن موت الباشا علج علي وضع حداً لهذه الاعتبارات، حيث خفت حدة الصراع بين إسبانيا والسلطة العثمانية، كما بدأت العلاقات بين ملك فرنسا والسلطان العثماني تصاب بالفتور والتراجع، ضف إلى ذلك الصراع الشديد الذي كان قائما بين طبقة الرياس وجنود الأنكشارية.[2]

إن قرار السلطة العثمانية تقسيم الحكم لفصل الولايات الثلاث(الجزائر، تونس، طرابلس) عن بعضهما البعض، وإسناد إدارة كل ولاية إلى باشا، يُعين لمدة ثلاث سنوات لأحكام سيطرتها على البلاد، ومنع حدوث التمرد ضدها، كان من أكبر الأخطاء السياسية والإستراتيجية في مستقبل السلطة العثمانية بشمال إفريقية في اعتقادنا، والدليل على ذلك كثرة الاضطرابات، والقلاقل على جميع الجبهات الداخلية، المحلية، وحتى الإقليمية.

فعلى المستوى الداخلي، اشتد الصراع بين القوة العسكرية الأنكشارية وطائفة الرياس للسيطرة على الحكم بشتى الوسائل، وأصبحت البلاد مهددة، فاضطربت البيئة، وانتشر النهب والسلب والقتل. فطبقة الرياس انصرفت إلى مصالحها (الغنائم البحرية)، بينما لم يعد للطبقة الأنكشارية ولاء للسلطة، ولا للدين، ولا للشعب، وإنما للمال والنفوذ والسلطان. أما الباشوات الذين أصبحوا دون سند أساسي، بين القوى التي تسيطر على البلاد (الأنكشارية- الرياس) أضحى همهم جمع اكبر قدر ممكن من المال خلال مدة الحكم، التي حُدِدت بثلاث سنوات كما سبقت الإشارة إليه. وهذا ما أدى إلى تعرض الحكم العثماني إلى هزات عنيفة، وفي ميادين

1- مصطفى أحمد بن حموش، فقه العمران الإسلامي من خلال الأرشيف العثماني(من واقع الأوامر السلطانية وعقود المحاكم الشرعية)دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث،الجزائر،2000،ص:51).

2- محمد مبارك الميلي، المرجع السابق، ص:136-137.

عدة، نجم عنها اضطراب شل الإدارة نفسها، فاندلعت الثورات، ومنها ثورة الكراغلة عام 1633 م، التي كانت نتيجة القرارات التي اتخذها الديوان، والمتمثلة في إخضاع خزينة الدولة لإدارته، وإرغام الباشوات على دفع رواتب الجنود، كما اندلعت ثورة القبائل عام 1643م بسبب محاولة الباشوات جمع المزيد من المال وبسرعة، فعمت الفوضى إنحاء الوطن ضد الأتراك العثمانيون[1].

أما على المستوى المحلي، فقد توترت العلاقات السياسية بين الجزائر وتونس، بسبب تدخلات بايات تونس في شؤون الشرق الجزائري بتشجيعهم قيام الاضطرابات، إلا إن تم إبرام معاهدة صلح بين الطرفين عام 1628م، والعلاقات نفسها تقريبا عرفتها الجهة الغربية من الوطن، فقد حرص المغرب الأقصى على توسيع نفوذه شرقا، وهو ما تجلى في كثرة الحملات، خصوصا في بداية الحكم العلوي، الأمر الذي دفع بحكام الجزائر العثمانية إلى طرح مسألة الحدود بين الدولتين. ورغم إن البعثة الجزائرية استطاعت إن تقنع الشريف محمد العلوي (1663-1664م) بفكرة رسم الحدود بين المغرب الأقصى والجزائر، إلا إن الملوك العلويين ظلوا مقتنعين بإمكانية ضم مناطق من الجهات الغربية للجزائر[2].

كل ذلك انعكس سلبا على الأوضاع الخارجية، فتعقدت العلاقات الدبلوماسية الفرنسية الجزائرية من جهة، والجزائرية العثمانية من جهة ثانية. فقد قام الباشوات بوضع حد لامتيازات التجار الفرنسيين، وذلك بتحطيم المركز التجاري بالقالة في عهد الباشا خضر، نتج عنه قيام السفن الفرنسية بالاعتداءات على المراكب الجزائرية في عرض البحر المتوسط، كما جاءت حادثة لافلون بإيطاليا لتعكر العلاقات الجزائرية العثمانية، بسبب تعرض الأسطول الجزائري إلى تحطيم نصفه تقريبا في حروب الدولة العثمانية بالبحر الادرياتيكي، ووعود الباب العالي بتعويض الخسائر، إلا إنه لم يف بعهده، مما جعل السلطة الباشوية بالجزائر تعارض كل التعليمات الصادرة عن الباب العالي[3].

ورغم إن الباشا كان يدير شؤون البلاد بمعاونة لجنة استشارية مؤلفة من وكيل الخرج، والخزناجي، وخوجة الخيل، والآغا، ورغم تداول أربع وثلاثين باشا على الحكم بمعدل سنتين وزيادة لكل حاكم، إلا إن

1- صالح فركوس، تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال- المراحل الكبرى- دار العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2004م، ص:51.

2- قنور بوزياني، مسألة الحدود بين المغرب وأتراك الجزائر، منشورات كلية الآداب والعلوم الأنسانية (سلسلة ندوات ومناظرات)، ط1، الرباط، المغرب الأقصى، 1995، ص:25.

3- يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر الحديثة، ج2، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، الجزائر، 2003، ص:79.

معظم المؤرخين يصفون هذا العهد بالمقلق، والمثير على كل الجبهات، منها الجبهة المتعلقة بمكانة سلطة الباب العالي في الجزائر، حيث أصبح الباشا لا يجرؤ حتى على الذهاب إلى الديوان، الذي أصبح هو المرجع في تسطير سياسة البلاد، من غير إن يبحث عن مدى انسجام قراراته مع سياسة الخلافة العثمانية التي يمثلها الباشا(1). ولما كانت سنة1659م علم الباشا إبراهيم إن السلطان عزم على تعويضه بأحد ضباطه، حاول تقديم رشوة لمن لهم النظر والوساطة، حتى يتمكن من البقاء في منصبه، إلا إن الجند خلعوه وسجنوه، وحملوا الديوان على حذف وظيفة الباشا، وإسناد مقاليد الحكم إلى رئيس الجند الأعلى، وهو الآغا.

ولعل غضب الصدر الأعظم كوبرلو محمد باشا(1656-1683م) بعدما قام الأنكشاريون بانقلاب ضد الباشا علي، وإلقاء القبض عليه، وعلى أتباعه له ما يبرره من جانب، ويدعو إلى الحيرة والتساؤل من جانب أخر، خاصة إذا علمنا إن الباب العالي ظل يبعث بممثليه إلى الجزائر إلى غاية سنة 1096ه/ 1771م، فقد أرسل فرمانا إلى الجزائريين يخبرهم فيه:" أخيراً لن نرسل إليكم واليا، بايعوا من تريدون، السلطان ليس بحاجة إلى عبوديتكم، لدينا آلاف الممالك مثل الجزائر، فالجزائر إن كانت وإن لم تكن شيء واحد، ومن بعد ذلك إن اقتربتم من الممالك العثمانية فلن تكونوا راضين"(2).

عهد الأغوات (1070-1082ه/1659-1671م):

اغتنم اليولداش فرصة انقلاب الرياس على الباشا إبراهيم الذي استحوذ على المبالغ المالية، التي خصصها السلطان العثماني كتعويضات للخسائر التي لحقت بالأسطول الجزائري في حروبه إلى جانب الأسطول العثماني بالبحر الادرياتيكي، حيث تم القضاء على سلطة الباشا، وإنهاء حكم الباشوات، وبداية سلطة الأغا، وحكم الأغوات(3).ونظرا لحالة الفوضى والعصيان والتمرد التي لم تشهد البلاد مثيلا لها، عقد الأنكشاريون اجتماعا في الديوان، تقرر فيه إعطاء السلطة التنفيذية للأغا، وهو رئيس الفرقة العسكرية، على شرط إن لا تتجاوز مدة

1- محمد مبارك الميلي، المرجع السابق، ص:139.

2- عزيز سامح ألتر، المصدر السابق، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، تر: محمود علي عامر، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط1، بيروت، لبنان، 1989م، ص:386.

3- الأغوات الذين تولوا حكم الجزائر قادة حامية الجند الأنكشارية هم: خليل بولكباشي 1659-1660م، ورمضان بولكباشي ابن عم خليل والمعروف باسم بورك رمضان 1660-1661م، شعبان أغا الذي لم يكن تركيا بل علجا برتغالي الأصل 1661-1665م، وحاجي علي أغا 1665-1671م.ينظر: عثمان الكعاك، المرجع السابق، ص: 290.

حكمه الشهرين. أما السلطة التشريعية فتكون بيد الديوان، وبذلك أصبحت طائفة الرياس تحتل مكانة ثانوية في شؤون الحكم[1].

إن المتمعن في نظام الأغوات، يجده محاولة نوع من الديمقراطية داخل الطبقة العسكرية التركية الحاكمة بالجزائر، لكنه في واقع الأمر نظام غير واقعي، ولا علمي مؤسس، لأنه يحمل في طياته بذور زواله. فالظاهرة الأولى، وهي تنصيب الأغا لمدة شهرين وبواسطة الأنتخاب، يكشف عن عجز الطبقة التي نصبت هذا النظام، وبالتالي إلى ذوبان معنى الدولة.أما الظاهرة الثانية فهي محاولة الأنفصال عن السلطة العثمانية، والاستقلال بالجزائر، وذلك بالدلالة البالغة إن هذا النظام (الأغوات) كان انتقاما من طائفة الرياس التي كانت كلمتها هي العليا في عهد الباشوات، وإن فرقة اليولداش هي التي كانت تتهم طائفة الرياس بمحاولة الأنفصال عن السلطة العثمانية. ومعنى ذلك بعبارة أخرى، إن كلا الطائفتين(الأنكشارية- الرياس) تأكدتا من استحالة إقامة نظام بالجزائر يأخذ الجزائريون والباب العالي على السواء بخيوطه[2].

لقد استحدث الأغوات نظام جديد لم يكن موجودا، لا بالولايات الأخرى، ولا بالمناطق داخل الجزائر، فالأغا يعين كل شهرين، وعليه إن يخضع لهذا التغيير، فإذا رغب في الاحتفاظ بالسلطة تعرض لغضب الجند.فقد كان القتل هو الإجراء الوحيد لتبديل وتنحية الأغا، فكل الأغوات الأربعة قتلوا من قِبل فرقة الأنكشارية وطائفة الرياس. هذا الأمر نظر إليه بعض المؤرخين، على إنه محاولة تحقيق نظام قائم على المساواة المطلقة بين القادة العسكريين، بينما نظر إليه آخرون، على إنه تأكيد على مفهوم السلطة المركزية، الذي يفيد في التنبيه إلى إنها ليست إلا إحدى التعبيرات الخاصة لمدار الحقل السياسي، الذي تتعين خطوطه ومساراته وأطره الناظمة في رحم دورة الاجتماع العامة، وما تنطوي عليه من وقائع تغطي شتى جوانب حياة الأفراد والجماعات، وما يتفرع عنها من أنماط عيش، ورؤى وتطلعات، ونظم اجتماعية وتشريعية مستقرة[3].

إن من أهم ما ميز هذا العهد رغم قصر مدتة الزمنية، كثرة الاضطرابات، والثورات على الصعيد المحلي، منها ثورات بلاد القبائل عام1668م بقيادة أمير كوكو أحمد بن أحمد المدعو بوختوش، الذي وسع سلطته ما بين بجاية وأعالي سباو، وامتنعت العديد من القبائل ببايلك الشرق عن دفع الضرائب، بحجة تخريب الباستيون

1- مبارك الميلي، المرجع السابق، ص:171.

2- نفسه، ص:172.

3- حسن الضيقة، المرجع السابق، ص:13.

الذي كان يمول تجارتهم مع الفرنسيين، كما تعاظم نفوذ الأغوات المعزولين الذين تقاسموا فيما بينهم مختلف المناصب العليا في الدولة، وإذ ذاك بدأت تتشكل ما يمكن تسميتها بالمناصب الوزارية، والذي بقيت عليه خلال مرحلة الدايات، والأهم من ذلك الكارثة الأنسانية الحقيقية بسبب وباء الطاعون، والمجاعة الناتجة عن الجفاف والجراد.[1]

أما على الصعيد الخارجي، مواصلة فرنسا اعتداءاتها على السفن الجزائرية، تحت غطاء رهبانية فرسان مالطة، خاصة في عهد لويس الرابع عشر، والذي حاول بعث التجارة الفرنسية بالمشرق، ولا يمكنه ذلك إلا بالأنتصار على الجزائر، وإضعاف أسطولها. ورغم إن الأغا خليل سمح للمقيمين الفرنسيين بمزاولة نشاطاتهم التجارية بكل حرية، وأمر الرياس بعدم التعرض لمراكبهم، بعد حصوله على ضمانات من حكام مارسيليا بخصوص إرجاع الأسرى الجزائريين، إلا إنه لم تكن للطرفين رغبة التعايش في سلم، بسبب رفض الديوان إقرار الحاكم الجديد للباستيون لويس كامبون (Louis Campon) الذي فوضه ملك فرنسا، والإعداد الفرنسي لتحركات عدائية ضد الدولة البربرية[2] بالإضافة إلى دخول كلا من هولندا، وإسبانيا، وإنجلترا حلبة الصراع مع الجزائر خاصة الأخيرة، ونظراً للسياسة التي مارستها إدارة كرومويل وعلى نطاق واسع، أثارت سخط الرياس، ودفعت بالديوان إلى توجيه رسالة شديدة اللهجة إلى حاكم إنجلترا المذكور، ولتفادي حدوث قطيعة بين البلدين، أصدرت حكومة الملك تعليمات إلى اللورد وينشلسي تمهيداً لعقد معاهدة سلام مع الجزائر[3].

واشتداد الصراع بين ضباط القوات البحرية وطائفة الرياس، وتراجع نفوذ السلطان العثماني بالجزائر، وعجز ونظرا للفوضى السياسية، الأغا علي في توفير الاستقرار الداخلي، تآمرت الأنكشارية على الإطاحة به وقتله. ولأن هذه الحالة أغضبت طائفة الرياس، التي وجدت نفسها هي التي دفعت ثمن سياسة الأغوات، تحركت باتفاق أكابر أوجاق الأنكشارية بترشيح القبطان الحاج محمد التريكي لحكم البلاد، فقَبِل شريطة إن يُمنح مفاتيح القصبة، وإن يكون حاكما على كل شيء، فاجتمع الديوان، وأنتخبه دايا على الجزائر، ولأنه

1- Rang, S. Précis analytique de l'histoire d'Alger sous l'occupation turque. In tableau de la situation des établissements français dans l'Algérie en 1841, Imprimerie Royale, paris, décembre 1842, p : 424.

2- Dumay, Projet pour l'entreprise d'Alger, In recueil historique contenant diverses pièces curieuses de ce temps, Christophe van Dyck, Cologne, 1666, p : 1-2.

Plantet,) E) , correspondance des deys d'Alger avec la cour de France 1579-1700, t1, éd, bous lama, Tunis, 1981, p : 58.

3- Krieken, G. van, corsaires et marchands, les relations entre Alger et les pays- Bas, 1604-1830, éd, bouchene, 2002, p : 50-52.

كان متقدم في السن، ألحق به صهره حسن شاوش بصفة كاهية.كل ذلك جرى في وقت قصير، لم يتعدى اليوم الواحد حسبما ما ذكر القنصل الفرنسي ديبور ديو(Debours_Duo)، فانتهى بذلك عهد الأغوات عام1671م، ليبدأ عهد جديد ألا وهو" عهد الدايات".[1]

ومما تجدر الإشارة إليه، إن عهد الأغوات على قِصره، هو احد أهم فترات تاريخ الجزائر في العهد العثماني، حيث مثل منعطفا هاما في تاريخ الجزائر الحديث، لما تميز به من أحداث، وما شهده من تغيرات، طرأت على المجالين السياسي والإداري خصوصا، ومَثّل كذلك مرحلة انتقالية، توسطت عهد الولاة العثمانيين الذين درج على تسميتهم بالباشوات وعهد الدايات.

عهد الدايات (1082-1246ه/1671-1830م):

لقد تحول اغتيال الأغوات الأربعة إلى انقلاب جذري في أسس السلطة العليا، إذ استغلت طائفة الرياس الحادثة، وانتزعت السلطة من المسئول الرئيسي، واتفقت مع الديوان الذي تمثل الأغلبية داخله، على إلغاء نظام الأغاوية وتعويضه بنظام آخر أكثر استقرار، يتمثل في تعيين داي في منصب الوالي طوال حياته، على ألا يكون له الحق في تعيين من يخلفه، وإنما يكون ذلك من حق مجلس الديوان[2].

إن لقب الداي كان يُشعِر بالعظمة، حيث كان يتم عن طريق الأنتخابات في حالة وفاة الداي أو قتله، وهو ما أعطى للدولة الجزائرية نظام حكم شبيه بالنظام الجمهوري، حيث كان الداي يختار من بين ثلاثة موظفين سامين هم: الخزناجي، خوجة الخيل، وآغا العرب، بينما يذكر حمدان خوجة إن الداي كان يختار من ضمن الموظفين السامين هما: وكيل الحرج والخزناجي[3].

1- Gleizes, R, jean le vacher, vicaire apostolique et consul de France à Tunis et à Alger (1619-1683), d'après les documents contemporains, J, Gabalda, paris, 1914, p : 208-209.

2- من الميزات التي ميزت الحكم العثماني في الجزائر عامة وعهد الدايات خاصة، إن منصب الداي لم يكن يورث كما كان الحال في تونس التي كان أمراؤها يحملون هذا اللقب منذ سنة1591م، وإن الاهتمامات العائلية لم تسيطر على السياسة الجزائرية، وربما كان الوضع أسوأ من ذلك، لأن حياة الداي كانت غالبا في خطر، فمن بين الثلاثين دايا الذين حكموا بين 1683-1818م لم يمت منهم موتة طبيعية سوى ستة عشر، والأربعة عشر الآخرون منهم ماتوا مقتولين. وقد لخص الأسقف جوان كانو.... هذا الوضع فيما يلي:" وهكذا كان الداي يعيش والد بدون أطفال، وزوج بدون زوجة، وطاغية بدون حرية، وملك على عبيد، وعبد لرعاياه"ينظر: جون وولف، المصدر السابق، ص:390.

3- حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تق وتع وتح: محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1982، ص:127.

إن مجلس الديوان وطائفة الرياس مارسا نوعا متطرفا من الديمقراطية الممزوجة بالاغتيال في بداية العهد، فكانت سلطة الداي محدودة، الأمر الذي أدى إلى وصول كثير من الدايات إلى هذا المنصب دون علم، ولا ثقافة، ولا حتى دين، بل منهم من كان يمارس مهن وضيعة حقيرة كالإسكافي أحمد باشا(1695-1698م)، وعلي باشا الغسال(1808-1809م). ولكن الدايات ونظرا لطول المدة في الحكم، كونوا لأنفسهم سلطة واسعة، ووسعوا نفوذ معاونيهم الذين كان الداي يعينهم ويعملون بإرادته، وفي الواقع صنائعه، حيث نجح الدايات منذ أوائل القرن الثامن عشر، إن يحصلوا في إطار التقاليد والأعراف المعمول بها على صلاحيات واسعة، جعلت الداي في نظر العديد من الكتاب الأوربيين خاصة بانني(Pananti) ومورغان(Morgan) وبايصونال(Peyssonnel)حاكما مستبداً برأيه، وسيد مطلق الحرية في مملكته، لاتحد من تصرفه سوى رغبات الحامية التركية التي احتارته وخولت له سلطته.كل ذلك أدى إلى تغيير موازين القوة في المؤسسة العسكرية في ذلك العهد، فلم يعد الديوان الكبير، سوى هيئة استشارية شرفية، انحصرت صلاحياتها في المناسبات الدينية، أوفي توزيع الأجور، وتحولت السلطة الفعلية من الديوان إلى جماعة متنفذة من كبار الموظفين، الذين يمارسون مهامهم بأمر الداي وتحت إشرافه، مثل أغا العرب قائد فرق الحامية، وخوجة الخيل المتصرف في أملاك الدولة، ووكيل الحرج المكلف بالبحرية والشؤون الخارجية، والخازناجي القائم على الخزينة[1].

لقد كان الشرط الرسمي والوحيد، هوان الداي يجب إن يكون تركيا بالأصالة، ونتيجة لذلك، كان الرجال الذين أصبحوا دايات قد جاؤوا معهم بأنواع كثيرة من التجارب والقدرات، والخصائص الذاتية، وكان عدد منهم حكاماً كرماء ومتفهمين، بينما كان آخرون طغاة متشككين لا يثقون في أحد، كما كانوا يسيئون الحكم، وعليه أبقى الدايات على منصب الباشوات الشرفي لمدة من الزمن، ولكنه ليس له أي نفوذ، ثم سرعان ما تخلى الدايات عن هذه الازدواجية، وأصبح الداي هو نفسه الباشا.[2]

أما عن طبيعة السلطة التي حكمت الجزائر خلال هذا العهد (عهد الدايات)، فقد تميزت بالصبغة العسكرية وشبه الجمهورية على المستوى الداخلي، فقد استحوذ الدايات على دواليب الحكم، واحتكروا كل

1- جون وولف، المصدر السابق، ص:170.

2- إنقسمت فترة الدايات إلى مرحلتين، مرحلة الدايات الأوائل والتي امتدت من1671 إلى1711، وكان فيها لقب الحاكم" داي" وبجانبه باشا شرفي يبعث به السلطان لتمثيله لدى ديوان الجزائر، أما المرحلة الثانية، والتي إمتدت من 1711-1830م فهي مرحلة الدايات الباشوات، والتي تم فيها جمع رتبة الباشا مع منصب الداي، وذلك بعد رفض الداي علي شاوش استقبال الباشا ابراهيم مبعوث السلطان وأعطى لنفسه لقب الباشا. ينظر:عثمان الكعاك، موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، تق ومر: أبوالقاسم سعد الله وأخرون، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 2003، ص:291-292، ويحي بوعزيز، المرجع السابق، ص:46.

السلطات، وحرموا الجزائريين مناصب الإدارة، وانتشرت ظاهرة التمييز في كيفية التعيين للمناصب العليا، فقد أستُعِمل الأعلاج في كل المهن، بينما أُبعد العرب والكراغلة عنها، كما إنهم تجاهلوا حقيقة السلطة وأهدافها لخدمة مصالحهم الخاصة، معتمدين على قبائل المخزن، وشيوخ القبائل، والمرابطين في إدارة شؤون البلاد الداخلية، ولكن هناك من الدايات من خدموا المصلحة العامة واهتموا بشؤون الرعية.[1]

أما على مستوى علاقاتها بالباب العالي في تلك الفترة، فقد تميزت بالصبغة المعنوية السطحية التي عبرت عنها الجوانب الروحية الدينية، وهو ماجعل الدايات في أواخر عهدهم يؤسسون علاقات تحالف، وتعاون مشترك مع السلاطين العثمانيين في استانبول خاصة في المجال العسكري، كالمشاركة في الحروب بالبحر المتوسط، ولكن دون الرجوع إلى السلطان العثماني وأخذ مشورته، ولعل تواجد القنصل الفرنسي في الجزائر برتبة المكلف بالأعمال، وهي ولا ريب نفس الرتبة التي كان يحملها القنصل الفرنسي المتواجد في المغرب الأقصى، المستقل عن كل رابطة مع الدولة العثمانية، عَبر بشكل واضح على مدى الاستقلالية التي تمتعت بها الجزائر كدولة ذات سيادة دبلوماسية[2].

ورغم إن أغلب الدايات الذين حكموا الجزائر كانوا من أصول تركية، وكانوا يعتبرون أنفسهم خلفاء السلطنة العثمانية، واعترافهم بأحقية السلطان العثماني في رعاية مصالح المسلمين في العالم الإسلامي ككل، وهو الخليفة الشرعي، إلا إن كل ذلك لم يمنع الدايات من رفض التدخل في شؤون الإيالة الجزائرية، إلا بالإدلاء بالنصح والإرشاد، عن طريق إرسال فرمانات سلطانية، التي كانت ترسل عادة عند تولية داي جديد للجزائر، تبارك الاختيار والتعيين والإمساك بمقاليد السلطة والحكم، كل ذلك أدى إلى تبلور الشخصية السياسية للدولة الجزائرية، التي تحولت إلى كيان مستقل إلى حد بعيد عن الباب العالي، ودولة قطرية إقليمية لها استقلال شبه تام عن الدولة العثمانية[3].

وإذا كانت الجزائر خلال بداية عهد الدايات من أقوى الدول في حوض البحر المتوسط، حيث احتلت مكانة خاصة في دولة الخلافة العثمانية، وتمتعت باستقلال كامل، مكنها من ربط علاقات سياسية وتجارية مع

1- Mercier(E), histoire de Constantine, S.N.E.D, Alger, 1903, p : 477.

2- عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية لدراسة العلاقات العثمانية المغربية في القرن16م، المجلة التاريخية المغاربية، ع29- 30جويلية 1983، ص:71-76.

3- عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ص:110.

أغلب دول العالم، وبلغ أسطولها البحري قوة عظيمة، استطاع خلال القرن الثامن عشر إحداث نظام للملاحة في البحر المتوسط، ضمن أمن الدولة الجزائرية خاصة والدولة العثمانية عامة، وبصورة أعم بالنسبة للتجارة الدولية في هذا البحر، وهو ما جعل الدول الأوربية تعمل على إنهاء هذا النظام تحت غطاءاتها، بما كان يسمى بالقرصنة، التي كانت تمارسها مجموع المغامرين الأوربيين بموافقة دولهم ومؤازرتها لهم، في حين إن ذلك كان أسلوبا دفاعيا لمواجهة المد الاستعماري، الذي أنطلق منذ القرن الخامس عشر. فإن صورة الجزائر خلال نهاية هذا العهد، تميزت بضعف أسطولها البحري، ونضب مواردها المالية، وتدهور مركزها الاقتصادي في كامل إنحاء البلاد، وذلك نتيجة للسياسة الغير وجيهة للكثير من الدايات، والذين لم تتعدى فترة حكمهم بضعة أشهر، والمتمثلة في السياسة الضريبية المجحفة التي كان يفرضها الحكام على الأهالي، بل وقد حدد الحكام لذلك الغرض حملات مخزنية لقمع الممتنعين عن أداء الضرائب، ولذلك قلت ثقة الأهالي في الحكام المسئولين، الذين أهملوا مصالح البلاد وأفقروا العباد، وأنصب اهتمامهم بالسلطة، فأحس الأهالي بالظلم الذي انبت الحقد، والضغينة، والكراهية، وحب الأنتقام في صدورهم، فتوجهوا بشكواهم إلى رجال الطرق الصوفية الذين كانوا يتمتعون بنفوذ روحي في المجتمع الجزائري، فقادوا سلسلة من الثورات في مطلع القرن التاسع عشر، كرد فعل على سياسة الدايات الجائرة[1].

كل ذلك أدى إلى استفحال وانتشار ظاهرة الاغتيالات، والتمردات ضد الدايات في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، فاغتيل الداي مصطفى عام1805م، والداي أحمد عام1809م، والداي محمد عام1814م، والداي عمر أغا عام1817م. هذه الظاهرة التي مست حتى البايات في الأقاليم، فقد اغتيل صالح باي سنة1792م والبايات الذين خلفوه التسع عشر، بل لم يسلم حتى الموظفين والوزراء من عمليات الاغتيال. وفي ذلك يصف شارل أندري جوليان الحالة بقوله:" في الحقيقة كانت الجزائر مستعمرة استغلالية موجة من قبل قلة من الأتراك، بمساعدة بعض الأهالي الأشراف، وكون إن الأتراك كانوا مسلمين مثلهم مثل الجزائريين، فإن ذلك لم يغير شيئا في نظام الحكم الذي يصفه بالاستعماري، بما إن قلة من الأجانب(الطبقة المحظوظة)، كانت تسيطر على أغلبية الشعب الجزائري الذي لم يعد يرغب في التحمل أكثر، خاصة في مطلع القرن التاسع عشر"[2]

1- فاتح بن سالم ومخلوف عزيزي، بداية الحكم العثماني في الجزائر، ص:15.

2- Charles André- julien, histoire de l'Algérie contemporaine_ la conquête et les débuts de la colonisation : 1827-1871, éd, casbah, Alger, 2005, p:57.

وعليه، ومن خلال هذا العرض حول مراحل الحكم العثماني بالجزائر، يمكننا إن نستنتج الملاحظات التالية. كان الوالي في كل العهود هو خليفة السلطان في البلاد، يمارس سلطاته طبقا للفرمانات الواردة من الباب العالي، وكان يقوم بالواجبات الملقاة على عاتقه، وكان مسئولا عن الدفاع عن الجزائر، وإن عليه إن يرسل كُلما طُلب منه قطعا من الأسطول الجزائري، معززة بالجنود لمساعدة الدولة في حروبها البحرية، أو لحماية سواحلها من تعديات القراصنة المسيحيين، علاوة على ذلك، كان على الوالي إن يرسل إلى ا لأعتاب السلطانية مبلغا معينا من المال سنويا، حسب ما تفيد به الأوامر والفرمانات. كما كان عليه أيضا إن يحافظ على استقرار الإيالة وأمنها، وإن يهتم بصفة خاصة بجمع أموال الجباية، ويفصل في شكاوي رعاياه، ويراقب الضبط والربط عند القوات الموجودة في البلاد[1]. وكانت رئاسة الديوان من أهم اختصاصات الوالي، وإن كانت أهم مشاغله هي الشؤون المالية للدولة، فلقد كان الباشا أو الوالي يخضع لحاجات متعددة وكلها مالية، إذ كان عليه إن يدفع من الأموال المحصلة من الضرائب والمكوس، رواتب الجند والموظفين، علاوة على"عوايد" متنوعة، وكانت إقامة التحصينات وصيانة أملاك الدولة تكلفه كذلك نفقات باهظة.[2]

1- الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهمات الديوان الهمايوني، رقم12، صحيفة427، رقم14، صحيفة38.

2- الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهمات الديوان الهمايوني، رقم12، صحيفة91، رقم12، صحيفة312، رقم12، صحيفة427، رقم22، صحيفة182، رقم31، صحيفة278، رقم42، صحيفة386، رقم48، صحيفة338.

المبحث الثالث: الأوضاع الاجتماعية في الجزائر خلال العهد العثماني

شكلت المرحلة العثمانية في تاريخ المنطقة العربية والتي استمرت مدة أربعة قرون على الأقل، عاملا رئيسيا في قيام الأوضاع الحالية للعالم العربي المعاصر، فعندما ننظر إلى التنظيمات الاجتماعية للجزائر مثلا، تتبين من خلال الدراسات الحديثة إن قيام الأسر الإقطاعية المحلية النافذة، جاء نتيجة نظام الالتزام العثماني الخاص في القرن الثامن عشر الميلادي. فقد انحصرت القيادة في المدن العربية في الملتزمين النافذين، من عائلات العلماء، والقادة العسكريين العثمانيين، ومن كبار الإداريين، الذين اندمجوا مع مرور الوقت في النخبة المحلية. وإذا كانت الفترة الأولى من التاريخ العثماني في الجزائر، اعتبرت فترة مميزة، محددة اجتماعيا وذات حكومة مركزية، فإن الفترة التالية وفي فترة الأنحطاط، تعرضت البنى الأساسية الاجتماعية لعملية تحويل، شهدت عمليات تغيير جذرية، ببروز قوى نافذة محلية بقيادة أعيان قبائل، وأسر شريفة ورجال دين زوايا وطرقية[1].

انقسم المجتمع في الدولة العثمانية وفي الولايات التابعة لها إلى فئتين كبيرتين، اعتبرتا أساس النظام والسلم في المجتمع، ويعتقد إنهما العامل الضروري للمسيرة السليمة في الحياة الاجتماعية. وهما: فئة الحاكمين(العسكريين) التي تتكون من الأشخاص الذين اعترف لهم السلطان بمرسوم خاص منه بصلاحيات دينية أو إدارية (الفرمانات). أما الفئة الثانية، فهم الرعايا المحكومين الذين لا يشاركون في الحكم بشكل من الأشكال، ويتكونون من جماعات تنسب لأديان وأعراف مختلفة. وإذا كانت وظيفة الفئة الحاكمة وعلى رأسها السلطان، هي تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، والقوانين العثمانية العُرفية، وضمان سيادة العدل في البلاد، فإن وظيفة الرعايا أيا كان دينهم، أو كانت أعراقهم، إن يكونوا دعما لفئة الحكام عن طريق الأنتاج وتأدية الضرائب[2].

كما إن من الأصوات المتداولة كثيرا بين المؤرخين عن الحكم العثماني بالجزائر صفة السطحية، ويرجعون خلفيات وأسباب هذه السطحية، لتمسك العثمانيين الشديد، بمبدأ المحافظة والإبقاء على النظم الحضارية والاجتماعية، التي وجدوها أمامهم في البلاد التي فتحوها، والاقتصار فقط على إدخال بعض التحويرات،

1- خليل إيناجلك، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي...المصدر السابق، ص:42.

2- أكمل الدين إحسان أوغلي، المصدر السابق، ص:526.

والتعديلات الضعيفة التي يفرضها مبدأ السيادة العثمانية[1]. ورغم الحقبة التاريخية الطويلة للتواجد العثماني في البلاد العربية (1516-1916م)، فقد بقي العثمانيون سلطة حاكمة خارج المجتمع العربي، بعيدين كل البعد على إحداث تغيير في بنية هذا المجتمع[2].

إن أول ما يلفت الأنتباه من الناحية الاجتماعية في الجزائر خلال العهد العثماني، هو تنوع واختلاف التركيبة السكانية، وهو ما أدى بهايدو إلى القول بأن:" سكان الجزائر العاصمة كانوا خليط من الأجناس"، بالإضافة إلى الطابع الريفي الرعوي في الأرياف وأطراف المدن حيث تعيش الأغلبية، والنشاط الحرفي في الحواضر الكبرى خاصة، والتي تشكل سوى نسبة ضئيلة لا تتعدى حسب المعلومات 5 بالمائة، كما إن التنظيم الاجتماعي في الجزائر خلال العهد العثماني، قام على ترتيب تفاضلي من حيث الامتيازات والمكانة الاجتماعية، أساسه امتلاك القوة العسكرية، واكتساب الثروة والنفوذ، وهذا ما أبقى على الوضعية المتميزة للنخبة المحظوظة من الأتراك، والمتعاونين معهم، على حساب باقي السكان، وهم الذين كانوا يشكلون أغلبية المجتمع الجزائري[3].

ولإلقاء نظرة حول ذلك، نستعرض الفئات التي شكلت المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني، حسب مكانتهم، ودرجة فاعليتهم ومراتبهم، في سُلم السلطة الجزائرية آنذاك، وهي:

1-الأتراك:

تعتبر هذه الفئة، الطبقة الأولى في الهرم السكاني بالجزائر، تحتكر الرتب العليا في جهاز الحكم، والوظيف العمومي، والمهام الرئيسية في الجهاز الإداري للبايلك[4].

1- جب هاملتون وهارولد باوون، المجتمع الإسلامي والغرب، ج1، تر ودر: أحمد عبد الرحيم مصطفى، دار المعارف، القاهرة، 1970، ص:226.

2- ليلى الصباغ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، مطبعة ابن حيان، دمشق، 1982، ص:130.

3- ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير عبد القادر، مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، 2000، ص:107.

4- (Edmond sergent et Etienne sergent, Histoire d'un marais Algérien, Institut pasteur d'Algérie, Alger, 1947, p:66.

تشكلت هذه الفئة بالدرجة الأولى، من فرقة الأنكشارية[1]. والتي كانت أهم الفرق العسكرية في الدولة العثمانية، والنواة الأساسية لقوة الدولة الجزائرية خلال العهد العثماني، بل إنها تمثل الجيش العثماني بصفة عامة، وهو ما عبر عنه وايسمن بقوله:

Weismann(n), les janissaires, cela signifiait l'armée turque tout court'.[2]

عرفت الجزائر أول تدفق للأنكشارية سنة927ه/1520م، إثر إرسال السلطان سليم الأول(1512-1520م) إلى الجزائريين 2000 من الأنكشارية و4000 من المتطوعين الأتراك، لتدعيم وتثبيت حكم خير الدين، ومنذ ذلك التاريخ، أصبح للجزائر جيش إنكشاري خاص، عرف بأوجاق الجزائر بجميع هياكله ومؤسساته. أما السلطان سليمان القانوني (1520-1566م) فهو الذي خول لخير الدين حق التجنيد من مناطق الأناضول ابتداء من سنة 1525م، وأصبح للجزائر وكالات خاصة للإشراف على جمع المتطوعين وإرسالهم إلى الجزائر[3]في بداية الحكم العثماني بالجزائر، كان التجنيد يتم تحت إشراف ونفقة السلطان العثماني، إذ أصدر السلطان سليم الأول فرمانا يقضي بمجانية نقل المجندين، وضمان أجور منتظمة لهم، وجواز مرور السفن الجزائرية بالموانئ العثمانية, إلا إن ذلك الوضع لم يدم طويلا، إذ أُجبرتْ حكومة الجزائر بعد استقلالها عن الباب العالي، على تحمل جميع نفقات التجنيد[4].

وزيادة على التجنيد الرسمي، وصل إلى الجزائر الكثير من المتطوعين، غير الرسميين والمغامرين، الذين جاءوا بطرق مختلفة، يدفعهم إلى ذلك الطمع في الثروة والمجد، أو الهروب من العدالة، فكان منهم التركي،

1- يعتبر السلطان العثماني أورخان مؤسس فرقة الأنكشارية، أما ابنه السلطان مراد الأول (1362-1389م) هوواضع قوانينها وتنظيماتها، وهوما عبر عنه صاحب بشائر أهل الأعيان، بقوله:" وأول وقت الربيع جمع مراد الأول عساكر ورتب قوانين من جملتها رتب قاض عسكر ولم يكن من قبل....." إلا إن بعض المصادر تعيد تأسيس الجيش الأنكشاري إلى السلطان مراد الثاني(1421-1451م)، ينظر:خليفة حماش، العلاقة بين الايالة الجزائرية والباب العالي1798-1830م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الإسكندرية، 1988، ص:116.

2- Weismann (nahoum), les janissaires (étude sur l'organisation militaire des ottomans), thèse de doctorat, faculté des lettres de paris, 1938, librairie orient édition, paris, 1964, p:3.

3- Devoulx (Albert), recherche sur la coopération de la régence d'Alger à la guerre de l'indépendance grecque, In R.A, 1856-1857, p : 209.

4- وليام سبنسر، المصدر السابق، ص:36.

والأرناؤوطي، والفارسي، واليوناني، كما جاء بعض المتطوعين من مصر عن طريق وكيل الجزائر في الإسكندرية، وغيرهم من الأجناس التي تتكون منها الدولة العثمانية[1].

استقر المجندون أولا بمدينة الجزائر، حيث بنيت لهم ثكنات، ففي الجزائر العاصمة لوحدها كان بها ثماني ثكنات، ونظمت قوانينهم وحددت أجورهم، بينما الأتراك الذين كانوا خارج الإطار العسكري والمتزوجون وهم قلة، كانوا يسكنون مع باقي السكان في الأحياء الشعبية. للعلم إنه كان من السهل على الأنكشاري إن يتزوج بجزائرية، لأن الأهالي كانوا يبحثون عن هذه العلاقات لضمان حرية قوية من هؤلاء الأنكشاريين.[2]

كان معظم إنكشارية الجزائر في البداية ينتمون إلى أصول مسلمة، وكان أغلبهم من فقراء الأناضول، والشبان المغامرين، من أجل الثروة والجاه، وبعض المتطوعين للجهاد، إضافة إلى العلوج Renégats المسيحيون الذين اعتنقوا الإسلام من العناصر الجديدة التي انضمت إلى إنكشارية الجزائر، وأصبحوا حسب تعريف هايدو أتراكا بالوظيفة.[3]

لقد حافظت هذه الطائفة على وضعها المتميز طيلة تواجدها بالجزائر، بسبب انغلاقها عن باقي السكان، رغم إنه لم يكن يتجاوز عددها العشرين ألف رجل في أقصى الحالات حسب جون دوني Jean Deny [4]. وكان الدافع إلى هذه العزلة، هو رغبة الأتراك في إبقاء هيمنتهم على المناصب الحكومية، وصيانة تقاليدها الخاصة في نظم العيش والسلوك. وحتى يحافظ الأتراك على وضعهم الاجتماعي الخاص، كانوا يستقدمون بين

1- نظرا لحاجة الدولة الجزائرية لمزيد من الجند، ظل حكامها يطالبون الباب العالي بترخيص عمليات التجنيد، وهوما عبرت عنه رسالة السلطان محمود الثاني بتاريخ1231د/1815م إلى داي الجزائر عمر باشا، يسمح له فيها بتنظيم عملية التجنيد بين متطوعي مسلمي الأقاليم العثمانية ونقلهم من ميناء أزمير. ينظر:الرسالة من سلسلة خط همايون، علبة24، رقم16872، من الأرشيف الوطني الجزائري-رسالة رقم115، مجموعة3190، المكتبة الوطنية الجزائرية.

2 - Charles André-julien, op-cit, p : 10.

3- Haedo(f), topographie et histoire générale d'Alger, in, R.A, 1870, p : 496.

4- اختلف المؤرخون في تحديد أفراد الأتراك بالجزائر، ولكن يبدوإن العدد كان يزيد وينقص، حسب الظروف السياسية والطبيعية كالحروب والأوبئة والأمراض، فبينما حدد هايدوHaedo العدد ب6000 جندي في القرن السادس عشر، حدده شاوShawما بين25و30ألف مجند في القرن الثامن عشر، وهونفس العدد تقريبا الذي أشار إليه لوجي دي تاسيLaugier de Tasseفي حين يقدر شالرShaler عدد المجندين بالجزائر ب15ألف جندي بداية القرن التاسع عشر.ولما كان الجنود غير مستقرين جميعا بالثكنات، فإنه كان يصعب تعدادهم، وهوما أشار إليه الداي عمر باشا(1815-1817م) في رسالة إلى السلطان العثماني محمود الثاني بتاريخ5 جمادى الثانية1230د/16ماي1815م، بقوله:" وفي ذلك الوقت(بداية الحكم العثماني بالجزائر) كان اثنا عشر ألف إنكشاري يتقاضون أجورهم.....ومنذ بضع سنين كان علينا تسديد أجور مابين ثلاثين وأربعين ألف إنكشاري. ينظر: عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، 1816-1817، الدار التونسية للنشر، ط1، تونس، 1972، ص:245-247.

فترة وأخرى جماعات من أتراك الأناضول للعمل في فرق الأوجاق. ونظرا لهذه الأوضاع الخاصة التي كانت تعيشها الأقلية التركية، أصبحت علاقاتها مع بقية السكان تتصف بالروح العدائية، والنفور المتبادل، خاصة في أواخر عهد الدايات وفي ذلك كتب هايدو يقول:" بأنه لا يوجد في الإمبراطورية العثمانية علاقة أسوأ من علاقة الترك بالعرب في مملكة الجزائر"[1]

وأود إن أشير إلى ملاحظة وهي، إن الميليشيا الجزائرية على حد تعبير جون وولف، تشكلت من الأرقاء المسيحيين، والمجندين من المجرمين، والمتسولين، والمتسكعين، من سناجق أناضوليا وسوريا والبلقان، كما كانوا يجندون من الفلاحين الشبان الذين لم يجدوا لهم مكانا في قرأهم. وإذا صح هذا القول، فإن أوربا القرنين 16-18م قد أنتجت رجالا ليس لهم مكانا في الاقتصاد، وحيث القانون والسلوك كانا عنيفين وغير عادلين. هذه الميليشيا كانت عبارة عن فرقة عسكرية منظمة في شكل جيش، والمجند الجديد يصبح فيها يولداشا أو جنديا خاصا حين يصل إلى الجزائر، والذي يصبح سيد الجزائر القوي والمشهور. لقد كانت فرقة الأنكشارية منظمة تنظيما ديمقراطيا، ذلك إن الرتب التصاعدية كانت مضمونة، وبعد إن يمر الأنكشاري برتبة الأغا، يتقاعد، ويمكنه إن يصبح صبائحيا، أو فارسا، وقد يعطى وظيفة سياسية.[2]

2- **الكراغلة** : يشكلون الطبقة الثانية في المجتمع الجزائري .تكونت هذه الطبقة نتيجة للتزاوج بين الجنود الأنكشاريين والنساء الجزائريات[3] حيث ظهرت هذه الفئة أولا في المدن التي تتواجد بها الحاميات التركية، كالجزائر العاصمة، وتلمسان، وقسنطينة، والمدية، وقلعة بني راشد بمعسكر، ومع مرور السنين تكاثرت في المدن الأخرى كمستغانم، ومازونة، وبجاية، وعنابة، حتى وصل عددهم في نهاية القرن الثامن عشر في مدينة الجزائر لوحدها حوالي 6000نسمة، كما أصبحوا يكونون غالبية سكان مدينة تلمسان وأصحاب الرأي فيها[4].

لقد ارتبط الكراغلة عبر مختلف مراحل الحكم العثماني بنسب أخوالهم، رغم إنهم من صلب العثمانيين، إلا إنهم ظلوا يشعرون بمركب العظمة، وحافظوا على حالتهم النفسية المتعالية أمام أخوالهم العرب والبربر،

1 - haedo (fray diego), histoire des rois d'Alger, H.D de grammont, A, jourdan, Alger, 1881, p:219.

2- جون وولف، المصدر السابق، ص:107.

3- Boyer(p), Le Problème Kouloughli dans la régence d'Alger, numéro spécial, 1970, p : 87.

4 - Boyer(p), ibid, p:87.

ناصر الدين سعيدوني والشيخ المهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ، العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص: 94.

وإنهم ظلوا يطمحون إلى نيل الامتيازات التي يحضاها الأتراك، ورغم ترفع هذه الطبقة عن الجزائريين، إلا إنها عجزت عن الأندماج في الطبقة التركية الأولى، وأُبعدت عن المناصب الحساسة، وحُرمت من التمتع بنفس الامتيازات، التي كان يستفيد منها الأتراك العثمانيين. وإذا كان شو(shaw) يرجع ذلك إلى ارتباطهم بالعائلات الجزائرية الأهلية عن طريق المصاهرة، مما يزيد من عددهم ويشكل خطراً على الدولة[1] فإن جاروت(garrot)، يرجع سبب حرمانهم من الامتيازات، إلى مساندة الكراغلة لطائفة الرياس، التي دخلت في تنافس ضد الأنكشارية، وكان الكراغلة يعتقدون إن الرياس يمنحونهم بعض المناصب في حالة انتصارهم على الأنكشارية، خاصة وإن الكراغلة تمتعوا بنفس الحقوق والامتيازات كباقي الأتراك في عهد البايلربايات[2] بسبب محاولاتهم المنافسة في وجه الأتراك، للحصول على مناصب عليا، ونيل الامتيازات التي كانوا يطمحون إليها، تسبب ذلك لهم في عداء العناصر التركية، وتصدت لهم فرق الجيش الأنكشاري في العديد من المناطق والفترات، والتي كانت عازمة على استبعاد أي إنسان مولود في شمال إفريقيا من فرقتهم، وما دام إنهم كانوا يشكلون نصف الطبقات الأجنبية في المجتمع الجزائري، ومترلتهم بعد فئة الأنكشارية، كان من الطبيعي إن يطمحوا إلى التمتع بمكانة أبائهم وامتيازاتهم[3].

ظل الكراغلة يرفضون الاختلاط بالسكان الأصليين، ويحاولون التقرب من الأتراك، ولتفانيهم في خدمة الدولة العثمانية، ولعجز السلطة في الحد من شوكتهم، فقد سمح لهم الداي شعبان آغا(1661-1665م) بحق الأنتساب للأوجاق، فكانت نتيجة سياسة الترضية التي انتهجها الداي شعبان، ارتقاء البعض منهم إلى مناصب سامية في إدارة البايلك، إذ تولى بايلك الغرب مصطفى العمر(1636-1648م)، ومحمد الذباح(1668-1671م) بايلك التيطري، وأحمد باي(1826-1837م) بايلك الشرق، وفي المقابل أضحت هذه الطبقة أكثر قساوة على الرعية، مما جعلها تنفر منهم وتسخط عليهم.[4]

1- Shaw(t), voyage dans la régence d'Alger, trad de l'anglais par, j, mac carty, 2éd, bouslama, 1980, p : 185.

2- garrot(h), histoire générale de l'Algérie, imp., cresenzo voutes, Alger, 1910, p: 478.

3- قام الكراغلة بعدة محاولات عسكرية للوصول إلى السلطة في الجزائر، ولكنهم فشلوا، مثلما حدث عام 1629م بالجزائر العاصمة، وعام 1748م بتلمسان، وهذا ما اضطرهم بعد ذلك إلى الأنزواء. ينظر: أبوالقاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص:139.

4- مسلم بن عبد القادر، خاتمة إنيس الغريب والمسافر، تح وتق: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص:85.

3- **الحضر** : تشكلت هذه الطبقة من الأسر العريقة، والتي كانت لها علاقات متينة بالسلطة، امتلكت آلاف الهكتارات من الأراضي في سهول المتيجة والشلف، واستثمرت أموالها في التجارة، وفي شراء حصص في السفن التجارية الكبيرة، وهم في مجملهم موسرون، أصحاب أملاك في المدينة، وأراضي في الريف. ومن بين هذه العائلات، عائلة قدورة التي تعددت مداخيلها، وكانت لها مناصب ووظائف حكومية في السلطة، وعائلة أحمد بوضربة وحمدان خوجة الذي كان يعتبر من أكبر الأغنياء بالثروة في عهده بالجزائر العاصمة، وعائلات ابن الفكون وابن باديس بقسنطينة، وعائلة المشارفة وابن سحنون التي اشتغلت بالتعليم وفي جهاز إدارة البايلك بقلعة بني راشد بمعسكر.

إن الوظائف الإدارية التي كانوا يشغلونها كالقضاء، والإفتاء، والكتابة، والأعمال التجارية التي كانوا يديرونها، والمستوى الثقافي والعلمي الذي بلغوه، جعل منهم برجوازية محلية، أعطاهم مكانة مرموقة ونفوذا في المجتمع.(1)

من بين العائلات التي كان لها شأن كبير في المجتمع الجزائري في تلك الفترة، الجالية الأندلسية، حيث تذكر المصادر التاريخية إن بعض المدن الجزائرية كتلمسان وبجاية، كانت تعج بأهل الأندلس حتى قبل سقوط الحواضر الإسلامية الأندلسية، ولكن المرسوم الملكي الاسباني الذي صدر في 12فيفري1502م، والذي خيّر المسلمين، بين النصرانية أو مغادرة الأندلس، جعل الهجرة الأندلسية تشتد نحو الثغور المغاربية، خاصة بعد رحيل السلطان أبي عبد الله الصغير(1460-1527م) آخر ملوك الأندلس المسلمين إلى المغرب الأقصى، حيث نقلت السفن الجزائرية من موانئ الترحيل، التي امتدت ما بين اليكانت وبيناروث في الساحل الشرقي للبلاد آلاف الأندلسيين، كما إن شروط التسليم التي أعدها الملكين الاسبانيين، والتي التزما فيها بتوفير السفن لنقل مسلمي الأندلس إلى المغرب مجنا ولمدة ثلاث سنوات(المادة السابعة من المعاهدة)، حوّل ظاهرة الهجرة القسرية إلى عملية نزوح جماعي للأندلسيين نحو مختلف المناطق الساحلية الجزائرية(2).

1- Lacheraf (m), l'Algérie : nation et société, paris, 1969, p : 161.

2- اختلفت تقديرات المؤرخين حول عدد المهّجرين الأندلسيين، فبعض التقديرات الاسبانية تضعها في حدود الثلاثمائة ألف نسمة، ومنهم الونسوبنونازيث صاحب كتاب"تاريخ بلنسية"، والكاتب بليدا الذي حدد عددهم ب340000 نسمة، غير إن هناك من رفع العدد إلى المليون شخص، وهوالعدد الذي صار يحضى بثقة الكثيرين من الكتاب، ولكن يبقى هذا الرقم في نظرنا بعيد نوعا ما عن الحقيقة. ينظر: محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص:235، وعبد القادر فكاير، مساهمة الجزائر في دعم الأندلسيين واحتضانهم 1492-1609م، مجلة عصور الجديدة، الصادرة عن مخبر البحث التاريخي، ع16-17، ربيع1436د-أفريل2015م، جامعة وهران، ص:233-244.

إن الحنين إلى الوطن الأصلي للعودة إليه، لم يثني الأندلسيين من الأندماج في مجتمع دولة كانوا يعتقدون إنها أكثر الدول المغاربية قوة ماديا ومعنويا، لحمايتهم والدفاع عنهم، بل ويصبحون أحد أهم عناصرها، خاصة إذا علمنا إن من بين الجالية المهاجرة أسر وجيهة، وأعلام بارزة، وشخصيات ميسورة. ومن العائلات الأندلسية التي اشتهرت بالجزائر خلال العهد العثماني، عائلات ابن رامول، وابن هني، وابن زوان، وابن تشيكو، وابن الكبابطي، وابن الشاهد، وابن عمار، وخوجة. فقد وصف لوجي دي تاسي (laugier de tassé) هذه العائلات بالطبقة الغنية في مجتمع إيالة الجزائر، بقوله: "هم يسكنون المدن، ويقيمون في منازل كبرى، ويملكون الثروة، ويتعاطون التجارة وخاصة تجارة الفداء"[1] لقد أضحى الأندلسي، رقما هاما وفعالا في المعادلة الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع الجزائري، بل وتمتع بمكانة خاصة لدى العثمانيين، حتى إن حميدة الأندلسي عُين على أوقاف حنفية عثمانية، وكان عضواً في لجنة إدارة سبل الخيرات، كما عين خضر باشا سليمان الكبابطي وكيلا على أوقاف جامع سوق اللوح.ورغم إن الأندلسيين ساهموا مساهمة كبيرة في الحياة الاقتصادية آنذاك، فطوروا النمط الفلاحي، بإدخال تقنيات زراعية جديدة، وارتفعت نسبة الأراضي المستصلحة خاصة في سهل المتيجة، الذي اشتهر بإنتاج مختلف أنواع الفواكه، وأنشئوا السواقي لجلب المياه إلى المدن، كما برعوا في الحرف الصناعية التي جلبوها معهم من الأندلس، كصناعة الجلود والبارود والخزف، والمهن الاقتصادية كتجارة الحرير والأقمشة والزرابي، ونمقوا المدن بالبنايات والحدائق، حتى أصبحت تلمسان أشبه بأشبيلية وغرناطة في روائعها الفنية، وطبيعتها الخلابة، إلا إنهم لم يكن بإمكانهم الوصول إلى الوظائف العليا في السلطة، أو حتى الالتحاق بالجيش[2].

ولما كانت نظرة العثمانيين للحكم والسياسة والأنسان خاصة، قائمة على أسس فكرية وعقّدية، فإن الدولة كانت تترك لكل طائفة دينية حريتها، واعترفت لهم باستقلال بقدر معين، ولم تسعى أبدا لاستيعاب أحد، أو محاولة إذابته. ومن الطوائف الدينية التي أخذت مكانها في المجتمع الجزائري، طائفة الموسويين أو اليهود، فكانوا أحسن حالا اقتصاديا واجتماعيا، بحيث اكتسبوا عادات وتقاليد الأهالي، واتخذوا اللغة العربية أداة في معاملاتهم التجارية، وطقوسهم الدينية، لكون غالبية اليهود من ذوي أصول أندلسية، يتشابهون في نمط

1 – Laugier de tassé, histoire du royaume d'Alger, paris, ed loysel, 1992, p : 54.

2– محمد الشريف سيدي سويسي، مدينة بجاية الناصرية(دراسة في الحياة الاجتماعية والفكرية)، تقديم: محمد الأمين بلغيث، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص:121، وخليل السامرائي وآخرون، تاريخ المغرب العربي، " فصل دور المغرب في احتضان العرب المهاجرين من الأندلس وفي حفظ الثقافة والحضارة"، دار المدار الإسلامي، ط1، ليبيا، 2004، ص:406، ومحمد الهادي العامري، تاريخ المغرب العربي، لبنان، 1974، ص:29-38.

الحياة والعيش معهم، والذين كانوا قد لجئوا إلى الجزائر واستقروا فيها، وكان رئيس حاخاماتهم هو المسئول عن إدارة العلاقات بينهم وبين السلطة [1]

لقد انتقل اليهود إلى الجزائر عبر فترات زمنية متلاحقة، ومن مناطق مختلفة. فالطائفة الأولى، وهم الشكليين"chekliines" الذين هاجروا من جزر البليار (مايوركا) بقيادة الحاخام سيمون دوران أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، وأصل تسميتهم تعود إلى اللهجة المايوركية، كما هاجرت طائفة أخرى من إسبانيا في القرن الرابع عشر الميلادي، وهم الكيبوسيين، والطائفتين انصهرتا مع بعض حتى لم يعد التفريق بينهم، فكان منهم عائلات ستورا، ودوران، وسيرور، وبن حاييم. أما الهجرة الكبيرة فقد وقعت بعد سقوط غرناطة عام1492م، حيث خُيروا بين الرّدة أو الهجرة، فاختاروا الهجرة إلى شمال إفريقية[2] وإذا كان خير الدين باشا مؤسس الايالة التركية بالجزائر، هو الذي سمح ببناء مؤسسة دينية لليهود دائمة بالجزائر، فإن الدايات الباشوات هم الذين مكنوهم بسرعة، خاصة في عمليات التصفية التي كان الرياس يقومون بها. وابتداءً من نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، أصبح يهود ليفورن (القورنيان) البكري وبوشناق هم الذين يتولون تسيير الشؤون العامة، والعلاقات المالية بالجزائر[3].

من النشاطات الواسعة التي مارسها اليهود، السمسرة والوساطة، واحتكار المبادلات التجارية على المستويين الداخلي والخارجي، بالإضافة إلى صناعة الجواهر الثمينة، والأحجار الكريمة، تشجعهم في ذلك الأرباح الوفيرة التي تصل فوائدها إلى حوالي 50 بالمائة من الجواهر المصنوعة، وفي ذلك يذكر لمنور مروش في كتابه"بحوث حول الجزائر خلال العهد العثماني" إن صناعة العملة في الجزائر كانت بأيدي اليهود من الأصول الأوربية، والذين كانوا في اتصال دائم مع السوق الرأسمالية الأوربية"، بل ووصل الأمر بالمرابين اليهود إلى شراء صكوك الأجور الشهرية للأنكشاريين مقابل مبالغ مالية أقل من رواتبهم، كل ذلك في ظل الحماية التي كان الدايات يوفرونها لهم، والثقة التي تمتعوا بها في عهد السلطة التركية، بل وتفضيل بعض الدايات، كالداي

1- H D de Grammont, Histoire d'Alger sous la Domination turque 1515-1830, Alger, Leroux, 1887, p:380-382.

2 - Charles André-julien, histoire de l'Algérie contemporaine- la conquête et les débuts de la colonisation : 1827-1871, éd, casbah, Alger, 2005, p : 11.

3- نفسه، ص:11.

مصطفى(1798-1805م) التعامل معهم [1] ورغم ذلك، فإن شالر قنصل الولايات المتحدة الأمريكية بالجزائر كتب عام1826م، يقول: "إن حياتهم لم تكن سوى خليط مشين من الدناءة والسلب"[2] إلى جانب الفئات السابقة الذكر، عاشت بالجزائر عناصر أجنبية أخرى، تزيد أو تنقص من حين لآخر، حسب الظروف السياسية والاقتصادية والأمنية، كالأسرى الأوربيين، والتجار الأجانب، وأصحاب السلك الدبلوماسي الممثلين في القناصل، ورجال الحملات التبشيرية، والبعثات الدينية، وطبقة العبيد التي يعود أصولها إلى السودان، حيث كانت الطبقة الحاكمة والغنية تمتلك العبيد كنوع من التباهي بالثراء[3].

ورغم هذا التنوع في التركيبة البشرية بالجزائر، وما تبعه من تنوع في العُملات التي كانوا يتعاملون بها، والبضائع التي يتاجرون بها، والملابس التي يظهرون بها، فإنه لم يكن من طبيعة العثمانيين إن يتدخلوا في الشؤون الدينية لأي طائفة، أوفي لغاتهم، أو الجانب الأعظم من كيانهم الاجتماعي والإداري، أو بإيجاز في ثقافتهم، وفي هذا الصدد يقول، أ. مايكل:" كان الأهالي المسيحيون ينعمون بحكم لم ينعموا به في زمن البيزنطيين واللاتين، فلم يشهدوا أبدا ظلما بشكل منظم، بل على العكس، كانت أراضي الإمبراطورية واستانبول في مقدمتها، ملجأً لليهود والأسبان الفارين من التعذيب، ولم يحدث في مكان قط إن أجبر أحد على الإسلام"[4] وإذا وقعت بعض الأمور من مثل ذلك، فإنما حدثت نتيجة للتطور الاجتماعي.

4- سكان الأرياف:

إن الحديث عن سكان الأرياف بالجزائر خلال العهد العثماني، يجرنا حتما إلى الحديث عن التنظيم الاجتماعي لهذه الفئة، فقد ظلت القبيلة بالمغرب الأوسط على امتداد العصور، وعلى اختلاف أصولها ومنبتها، تشكل وحدة اجتماعية، لها نظام يكاد يكون قاسما مشتركا بين جميع القبائل(البربرية- العربية)، ترتبط برابطة

1- Riche®, notes et documents de la corporation des bijoutiers à Constantine avant1830,in R .A, 1961, n°466-467, p:181.

2- shaler(w), Exquise de l'état d'Alger considéré sous les rapports politique, historique et civil, trad. de l'anglais et enrichi de notes par H.X. bian Chi-ladvocat, 1830, p : 406.

3- جون .ب. وولف، المصدر السابق، ص:215-217.وعائشة غطاس، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830م، منشورات إناب(ANEP)، الجزائر، 2007، ص:36.

4- André miquel, l'islam et sa civilisation (16-20é siècle), éd, armand colin, collection 'destins du monde', paris, 1968, p : 16.

وناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1792-1880 م)، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2، الجزائر، 1985، ص:194

القرابة الوشيجة، وحيث كان التنظيم السياسي داخل القبيلة يقوم على السلطة، فإن ابن حوقل وفي معرض حديثه عن النظام الاجتماعي للبربر مثلا، يقول:"إن فيهم ملوك ورؤساء ومقدمون في القبائل، يطيعونهم فلا يعصونهم، ويأمرونهم فلا يخالفونهم"[1].

وهو الأمر الذي يدفعنا إلى تحديد نوعية السلطة، أهي سلطة أساسها القوة والاستبداد، أم الخضوع للتقاليد التي تفرض على الفرد داخل القبيلة الأنصياع والطاعة، وهذا الأخير هو الرأي الأرجح في اعتقادنا، وفي ذلك يلقي ابن خلدون مزيدا من الأضواء على هذه الإشكالية في معرض حديثه عن التنظيم القبلي، فيؤكد:" إن الرئاسة إنما هي سؤدد، وصاحبها متبوع، وليس له عليهم قهر في أحكامه"[2].

من الثابت تاريخيا، بالمغرب الإسلامي عامة والأوسط خاصة خلال فترة من الزمن، إن علاقة القبائل بالسلطة المركزية ظلت اسمية فقط، مقابل ذلك، مُنح المرابطون أشياخ القبائل نفوذا كبيرا، وحرية واسعة، فهم المسئولون أمام قبائلهم، وفي ذاته كُلفوا بالبطش بها في حالة أي تمرد أو انتفاضة[3].

وعليه، فلقد هيمن الطابع القبلي على الريف في الجزائر خلال العهد العثماني، سواء في المناطق الجبلية والسهلية، أوفي الهضاب العليا والصحراوية، ونظرا لأهمية العصبية القبلية، صارت الجماعات تنتظم ضمن تنظيمات قبلية، رغم انتفاء علاقة القرابة بينهما أحيانا. شكل العنصرين العربي والامازيغي نواة المجتمع، حيث مثلوا أغلبية السكان، وبفضلهم اكتسبت الجزائر طابعا فلاحيا ورعويا، بالإضافة إلى بعض العائلات اليهودية المنتشرة في بعض المناطق الريفية. إن التركيبة الاجتماعية في الريف الجزائري تكونت على العموم من جماعات ذات امتيازات، وجماعات عادية (الرعية)، ومنهم كبار ملاك العقارات أفراداً وعائلات، وفلاحي الملكيات الجماعية والخماسة والعبيد[4].

1- ابن حوقل، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979، ص:97

2- ابن خلدون، المقدمة، تح: عبد الواحد وافي، ج2، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، 1953، ص:439

3- ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، دار نهضة مصر، (د ت)، القاهرة، ص:243

4- Marcel(E), les tribus privilégiées en Algérie dans la première moitié du XIXe siècle, Annales. Economies, Sociétés, Civilisations,21e année, n°1, 1966, pp : 44-58.

لم تكن القبائل بالريف الجزائري كلها على مرتبة واحدة، فمنها الآكلة ومنها المأكولة[1] وبالتالي انقسمت إلى قبائل مخزنية خادمة للسلطة، وقبائل محالفة لها مقابل امتيازات، وقبائل سايبة ممتنعة، ولعل ما سنذكره في معرض حديثنا يوضح الفرق بين هذه القبائل.

أ- **قبائل المخزن** : وهي القبائل المرتبطة بخدمة الجهاز الإداري، والواجبات العسكرية المحددة خارج المدن، والتي تؤدي المهام الموكولة إليها، إذن هي قبائل فلاحية وعسكرية، وإدارية في نفس الوقت، دخلت في خدمة البايلك مقابل امتيازات تحظى بها، منها الحصول على الأراضي، والإعفاء من الضرائب، وفي هذا السياق، يذكر إيميريت: "إن قبائل المخزن بقدر ما كانت دعامة لنظام الحكم العثماني بالجزائر، بقدر ما كانت تدافع عن امتيازاتها بوقوفها ضد كل محاولة لتغيير نظام الهيمنة"[2].

استقرت هذه القبائل المسلحة والمدربة حول الأبراج، والحصون التي كانت تقيم بها الحاميات العثمانية، وقرب محطات القوناق والطرق السلطانية، وحول الخوانق الجبلية، والممرات الصعبة، وقد شكلت هذه القبائل حلقة وصل بين الأهالي في الأرياف والحكام في المدن، وهي تجمعات سكانية ذات تكوين اصطناعي، لا ترتبط بنسب واحد، ولا بأصل مشترك، و لم يكن اعتماد البايلك في الجزائر على قبائل المخزن بدعا، إنما تقليداً لما فعله الموحدون، واتبعه الزيانيون بتلمسان، وبنو حفص في بجاية وقسنطينة[3].

من الأسباب التي جعلت هذه القبائل تدخل في خدمة السلطة العثمانية، وتقبل التحالف مع البايلك، هي غناها واستحواذها على أراضي سهلية واسعة وخصبة وقريبة من المدن، فكانت عرضة لحملات البايات العسكرية المستمرة، وفيها القبائل ذات البعد المرابطي الديني، والتي اقتنعت بضرورة التعاون والتحالف من باب الجهاد ضد الخطر الصليبي، ومنها أيضا القبائل غير المتجانسة التي تشكلت من عناصر مختلفة، كالعبيد والمغامرين الفارين من العقاب، لجرائم ارتكبوها في قبائلهم، كما إن من أسباب اعتماد البايلك على هذه القبائل، الرغبة في الاستفادة من قوة فرسانها، وخبرتهم القتالية، والأهم من ذلك امتصاص غضبها بإدراجها ضمن قواته، خصوصا القبائل القوية التي لها تحالفات، وأتباع تشكل خطراً على البايلك[4].

1-Chems eddine (chitour), Algérie, le passé revisité, Edition casbah, 2eme édition, 2004, p : 79.

2- Marcel (E), op-cit ,p : 44.

3- ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص:106-107.

4- أرزقي شويتام، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني1519-1830م، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، 2006-2007، ص:168.

وعلى غرار الأدوار السياسية والعسكرية، لعبت قبائل المخزن دوراً اجتماعيا مزدوجا، فقد كانت عاملا مساعدا على الحد من الحياة البدوية، وعلى الأنتقال التدريجي من الترحال إلى الاستقرار، كقبائل الدواير وأولاد خليف ومجاهر والبرجية في بايلك الغرب، ولكن في المقابل تحولت قوتها العسكرية إلى طبقة عازلة، تُفرق وتُشتت، عوض إن تجمع وتؤلف بين سكان الريف، كما إنها غدت منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، القوة الاحتياطية الموضوعة تحت أوامر قياد البايلك، تستخدم في مراقبة تحركات قبائل الرعية والعشائر، والتصدي لثورات الطرق الدينية (الدرقاوية والتيجانية)، مقابل إعفائها من الضرائب، والحصول على امتيازات أخرى[1].

ب- قبائل الرعية: وهي القبائل الخاضعة، التي تدفع الضرائب باستمرار، وتزود البايلك بما يحتاج إليه, انقسمت إلى مجموعات: مجموعة تخضع مباشرة للباي، ومجموعات أخرى يتقاسم الإشراف عليها كلا من خليفة الباي، وقايد المدينة، وقايد الجبل. ولما كان النظام الزراعي إقطاعي استغلالي الذي دعمه الأتراك في الجزائر، جعل الفلاح يأتي في آخر القائمة الاجتماعية، إذ يصف فانتوردي بارادي حالة الفلاح الجزائري بقوله: "إن الفلاح الجزائري (الخماس) هو أتعس مخلوق، إذ ليس هناك من هو أشقى من سكان السهول والجبال القريبة من مدينة الجزائر" [2]

ونظرا لأن الفلاح كان محل استغلال أصحاب الحكم والنفوذ والجنود، وحتى الشيوخ والمرابطين، فإنه لا يستطيع إن يدفع اللزمة، أو الحكر، أوالضريبة، فيتحول إلى مخزنيا أي خادما في صفوف المستغلين، والحديث هنا عن الجماعات وليس عن الأفراد، ذلك إن هناك قبائل بأسرها تحولت من حالة الرعية إلى حالة المخزنية لكي ترقى، بينما قبائل أخرى شقت عصا الطاعة، ودخلت في صراع مع السلطة التركية كقبائل الحشم بمنطقة بني راشد ببايلك الغرب الجزائري[3].

ج- القبائل المستقلة: وهي القبائل التي امتنعت عن السلطة بأراضي بعيدة عن السيطرة التركية، تعرف حالة من التمرد والأنفلات من رقابة البايلك، وتعيش أوضاع الترقب وعدم الاطمئنان، بسبب هجومات قبائل

1- ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية" دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني- دور قبائل المخزن في تدعيم سلطة البايلك بالجزائر- دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 2000، ص:263، وحنيفي هلايلي، عملاء وجواسيس الأسبان في بايلك الغرب على ضوء كتاب بهجة الناظر، مجلة حوار، جامعة منتوري بقسنطينة، ع06، الجزائر، 2005، ص:144-145.

2- Venture de paradis, Alger au 18éme siècle, par fagnan, in: R .A, t39, p : 80.

3- أبوالقاسم سعد الله، المرجع السابق، ص:152

المخزن المحتملة، تجوب الهضاب العليا ومناطق الأطلس الصحراوي، ومنها مثلا قبائل سكان الونشريس، وقبائل سكان الأنجاد بجبال طرارة.

ونظرا لبعد المسافة بين هذه القبائل عن السلطة، وللظروف الصعبة التي عاشتها، فإن إدارة البايلك أرادت إن تحتفظ على الأقل بولائها الظاهري لها، حتى لا تتحول إلى خطر يهدد السلطة العثمانية. ولكن هذه القبائل اعتمدت في الأساس على فرض سيطرتها، ونفوذها بالسلطة الروحية، خاصة بالمناطق التي كانت تابعة للطرق والزوايا كالزاوية التيجانية بعين ماضي(الأغواط) التي زحف أنصارها نحو مدينة معسكر، وكانت موقعة عواجة في بلاد أولاد مجاهر بسهل غريس عام 1241 ه /1826م، أو بالكفاءة الحربية، حيث أعلنت قبائل الأنقاذ عصيانها، وألحقت الهزيمة الأولى بفرسان البايلك في معركة فرطاسة[1].

هناك نوع آخر من القبائل، سميت **بالقبائل الحليفة**، وهي قبائل لا خادمة كالقبائل المخزنية، ولا خاضعة كقبائل الرعية، ولا متمردة كالممتنعة، ولكن طبيعة العلاقة بينها وبين السلطة تجعل إدراجها ضمن قبائل المخزن أقرب، باعتبار الوظيفة الأمنية التي كان يؤديها للبايلك، والمتمثلة في إقرار الهدوء في المجتمع الريفي باستخدام السلطة الروحية. ونتيجة لذلك اضطر البايلك إلى التحالف مع بعض زعمائها، سواء كانت دينية أو قبلية، والتي لم تعطه ولاءها حتى ضمنت امتيازات هامة كجمع الضرائب، واحترام الحكام لحق اللجوء إلى زواياها، إضافة إلى حق اختيار شيوخها، وهو ما لم يتوفر حتى لقبائل المخزن، التي كان الحاكم يعين عليها أول مسئول، ومن أشهر هذه القبائل أولاد سيدي الشيخ بالجنوب الغربي للجزائر.[2]

المبحث الرابع: الأوضاع الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني:

إن من الأهمية بمكان عند الحديث عن الأوضاع الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني، إلقاء نظرة عن مواقف الباحثين والمؤرخين من الثقافة العثمانية عامة، والأدب العربي خاصة خلال فترة التواجد العثماني بالبلاد العربية، حيث تذهب البحوث المعنية بذلك إلى ثلاثة اتجاهات :فالاتجاه الأول، يرتكز على إهمال العصر المذكور للثقافة، إهمالا تنعدم فيه فرصة تصنيفه، مسوغا موقفه بضعف الثقافة والإبداع فيه، ومن بين هؤلاء

1- أحمد بن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير "باي الغرب الجزائري" إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تحقيق وتقديم : محمد بن عبد بن عبد الكريم، عالم الكتب، ط1، القاهرة، 1969، ص:14.

2- Esterhazy (louis-joseph-Ferdinand Walsin, de la domination turque dans l'ancienne régence d'Alger, paris, librairie de Charles Gosselin, 1840, p : 270.

المستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير الذي يؤكد بقوله :" منذ أواخر القرن التاسع للهجرة (الخامس عشر الميلادي) جف معين الحياة والإبداع الذاتي في الآثار المكتوبة بلغة فصحى، فطويت بذلك صفحة من صفحات الثقافة الأنسانية، و لم توقد جذوة الأدب العربي، إلا في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي"[1].

من الملاحظة الأولى، إن موقف بلاشير يتكرر بصور مختلفة لدى باحثين عرب وأجانب آخرين. لكنني أود الإشارة هنا إلى موقف، وهذا ليس نفيا لرؤية الاتجاه الأول، وإنما هو رأي أردنا من خلاله توضيح حقيقة تاريخية، والمتمثلة في إن العثمانيين كانوا يهتمون اهتماما كبيرا بتعليم اللغة العربية وبآدابها، وإنهم كانوا ينظرون إلى العرب على إنهم النجب والسادة، وإن الأتراك حافظوا على العالم الإسلامي طيلة أربعة قرون من الأخطار الخارجية التبشيرية والاستعمارية، و لم تتمكن أوربا من فرض هيمنتها على البلاد العربية إلا بعد الحرب العالمية الأولى[2].

أما أصحاب الاتجاه الثاني، فيرون إن العصر العثماني جزء من عصر أشمل، يعود إلى مراحل تاريخية سابقة، ويدرسون أدبه ضمن دراساتهم المعنية بذلك العصر الأشمل، ويأتي موقف نديم عدي في كتابه " تاريخ الأدب العربي" منسجما مع هذه الرؤية إلى اختصار الحديث عن أدب الحقبة العثمانية، اختصارا يكاد يقترب من إهماله. ولكن يبدوا واضحا من هذه الرؤية، إن التاريخ العثماني عامة والثقافي خاصة، قد تعرض لإهمال وتحريف جائرين، بل وإن معظم الدراسات ربطت التاريخ العثماني بمسألة التخلف، وإن العثمانيين مسئولين عن تخلف بعض المجتمعات. وفي الحقيقة، قلة هي الدول التي تم تجاهلها أو تشويه تاريخها مثلما حصل للدولة العثمانية، ليس فقط في الغرب، وإنما في مختلف إنحاء العالم التي شاركت العثمانيين ماضيهم[3].

بينما يرى أصحاب الاتجاه الثالث، إن أدب العصر العثماني عصرا مستقلا، ذو خصوصيات تميزه بين عصور الأدب العربي، وتوجب دراسته مستقلا، ويعد المستشرق الألماني كارل بروكلمان (1868-1956م) من أوائل الباحثين الذين عددوا العصر العثماني عصرا أدبيا خاصا، وهو نفس الموقف الذي ينسجم مع موقف عمر فروخ، والذي حدده بوضوح في كتابه، مبديا رأيه في هذا العصر بقوله :"العصر العثماني عصر إسلامي

1- شكري فيصل وآخرون، الأدب العربي في آثار الدارسين، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1960، ص :479.

2- خليل إيناجلك، المصدر السابق، ص:30.

3- نديم عدي، تاريخ الأدب العربي، ج1، مكتبة ربيع، ط2، حلب، سوريا، 1954، ص:359.

الإيمان عربي الثقافة"[1]. وهو ما يتوافق مع نظام الدولة العثمانية المتعددة اللغات والثقافات، المتعددة الأديان والإثنيات، وهي أقرب ما تكون في هذه الحالة، إلى المجتمعات الغربية التعددية المعاصرة، بتركيبتها الدينية والثقافية. ومن هذا المنطلق، فإن النظرة إلى الدولة العثمانية باعتبارها قد حافظت على الاستقلالية ضمن نظام سياسي قوي عافية الكفاية لحماية حياة وممتلكات رعاياها.

علاقة السلطة العثمانية بالعلماء في الجزائر:

في الحقيقة ما دعاني إلى طرح هذه الآراء الثلاثة، حول موقف الدولة العثمانية من الثقافة، هي الأوضاع الثقافية نفسها التي عرفتها الجزائر خلال العهد العثماني، والتي قامت على أسس المهام المنوطة بجماعة العلماء والفقهاء في المدن، وعلى نشاط شيوخ الزوايا في الريف. فعلماء المدن، كانوا يؤطرون التعليم، ويتولون الوظائف القضائية والدينية، كالخطابة والفتوى، أما شيوخ الزوايا بالريف، فقد أتسع نشاطهم ليشمل إلى جانب التربية والتعليم والإرشاد، القيام بمهام الحاكم والقاضي، مما جعل منهم سلطة حقيقية تستمد شرعيتها من تعاليم الطريقة التي ينتسبون إليها[2].

لخص صاحب كتاب "المعيار" علاقة العلماء بالحكام خلال العصور إلى أصناف، فقال: "كان العلماء في صدر الإسلام يفرون من السلاطين، ثم جاء أهل العصر الثاني، فطمحت نفوسهم إلى الدنيا، فكانوا لا يأتون إليهم، فإذا دعاهم السلاطين أجابوهم إلا القليل، ثم كان فيمن بعدهم من يأتيهم بلا دعوى، وأكثرهم إن دعي أجاب"[3].

انطلاقا من هذه النظرة، تدعونا الوقفة إلى تحديد علاقة علماء الجزائر بالسلطة العثمانية الحاكمة آنذاك، خاصة إذا ما استبعدنا الأيديولوجيات وتقيدنا فقط بالمعطيات التاريخية الواقعية، التي تفرض علينا منطقها وقانونها. فالمتتبع لمسار علاقة العلماء بالحكام، يلاحظ إنها مرت بمرحلتين، مرحلة قد نسميها بالتقارب والتعاون والتفاهم بين العلماء والحكام، والتي امتدت من بداية ارتباط الجزائر بالدولة العثمانية في مطلع القرن السادس عشر الميلادي، إلى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، وهي المرحلة التي عرفت تأييد العلماء والمرابطين للوجود العثماني، بحيث كان أول اتصال بين احمد بن يوسف الملياني احد كبار الطريقة الشاذلية وعروج سنة

1- عمر فروخ، معالم الأدب العربي في العصر الحديث، ج2، دار العلم للملايين، ط1، بيروت، 1986م، ص:68.

2- أبوالقاسم سعد الله، المرجع السابق، ص:261-272.

3- أحمد الونشريسي، المعيار، ج2، المصدر السابق،ص:376.

1517م، لتتوالى الاتصالات المؤيدة للعثمانيين، ومن بين العلماء المؤيدين نذكر على سبيل المثال لا الحصر ابن أفغول ومحمد بن شعاعة وعائلة ابن الفكون التي وقفت إلى جانب العثمانيين في ضم مدينة قسنطينة إلى السلطة العثمانية[1].

لقد اختلفت أسباب وطرق تأييد بعض العلماء والفقهاء للعثمانيين تبعا لتباين رؤاهم، سواء من منظور شرعي ديني، أو سياسي، أو اقتصادي. ومعلوم إن كثيراً من المواقف السياسية والاقتصادية التي اتخذها بعض العلماء، إنما كانت بدافع من قناعة دينية واجتهاد فقهي محض، وينطبق ذلك على أغلب المواقف لأسباب أهمها:

- ارتباط الوجود العثماني بالجهاد ضد الخطر الصليبي، الذي بات يهدد السواحل والمدن الجزائرية، خاصة وإن العثمانيين أعطوا لسيادتهم على الجزائر صبغة دينية.

- إدراك العثمانيين بأن رجال الصوفية هم خير حليف لهم في بسط نفوذهم على ربوع الوطن من جهة، وفي صراعهم مع الأسبان من جهة أخرى.

وفي المقابل نسجل رغبة العلماء ورجال الزوايا في الحصول على وظائف مختلفة، وامتيازات متنوعة، وهو ما حدث في مناسبات منها، عندما منح خير الدين لأحمد بن القاضي لقب الخليفة أو قائد على عمالة الشرق، بعدما تعاون مع أخيه عروج لطرد الأسبان من مدينة بجاية، وفي ذلك يذكر كورين شوفاليه:"تمت ترقيته(أحمد بن القاضي) إلى رتبة خليفة في المنطقة الممتدة من الصحراء إلى جيجل"[2]. والثانية، لما بعث خير الدين بهدايا ثمينة ومبالغ مالية إلى أحمد بن يوسف كاعتراف له بجميله[3].

لكن وفي هذا الإطار، أود الإشارة إلى حقيقة تاريخية ثابتة، ألا وهي إن الدولة الإسلامية لم تغفل يوما دورها المحوري في مجال الاهتمام بالعلم والعلماء، ربما كان هو الدور الغالب عليها، وإن الدولة العثمانية لم تُستثنى من هذه القاعدة، حيث نجحت الخلافة العثمانية في تجميع النابغين من جميع القوى والأمصار، ووفرت لهم الرعاية التي جعلت كل نابغة يعطي ما عنده من فن وعلم، وهو الأمر الذي ساعد على ازدهار الدولة

1- ابن عودة المزاري، طلوع سعد السعود...المصدر السابق، ص:74-75.

2- كورين شوفاليه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر، تر: جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص:26-27.

3- ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، مر: محمد بن أبي شنب، الطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908، ص:266.

حضاريا. كما إن السلطان محمد الفاتح كان لا يسمع عن عالِم في مكانه أصابه عوز وإملاق، إلا بادر إلى مساعدته، وبذل له ما يستعين به على أمور دنياه[1].

وأيضا إن مما تفيد به سيادة نموذج العالم الفقيه، الذي سأهم في إرساء دعائم الدولة العثمانية، وهنا لسنا بصدد وقائع انفرادية منعزلة، بل نحن أمام ظاهرة عامة، استطاعت عبر مخاض تاريخي طويل، إن تفرض نفسها عنوانا كاشفا، ألا وهي مشاركة العالِم العارف في نشأة الدولة العثمانية، بما هو تعبير عن ائتلاف وتوحيد تيارات فكرية واجتماعية وسياسية لها مرتكزاتها، والمتمثلة في شتى المؤسسات العلمية كالمدارس، والتعبدية كالمساجد والزوايا. هذه المؤسسات التي تشكل نسيج دورة الاجتماع، هي التي وفرت مكانة خاصة للعالم العارف، وأتاحت له المشاركة الفاعلة في رسم معالم توازناتها وآفاق حركتها، وأتاحت له أيضا إن يقيم علاقة تواصل مع أصحاب السلطة التي تحكم تشكيلات المجتمع.

لهذا عندما يقوم العالم بمبايعة الحاكم المؤسس للدولة، فإنه في الواقع لا يبايع "صاحب السيف" بما هو قوة متأصلة بذاتها، بل تأخذ البيعة هنا مدلولها الخاص، باعتبارها إضفاء للشرعية من قبل المجتمع وعبر علمائه، على أطر جهادية متفرعة عن مداره العام[2].

كما إن من مميزات الدولة العثمانية التي كانت لدى العلماء، وهي إنهم يستطيعون نقل أملاكهم العقارية إلى ورثتهم، على حين كان على الموظفين الكبار في الإدارة العثمانية، إن يحسبوا حساب مصادرة أملاكهم بعد الموت، وعلاوة على ذلك، فإن السيطرة التي مارسها العلماء على المؤسسات الوقفية، سواء أكانوا يديرونها أم يشرفون عليها، أتاحت لهم كذلك تعزيز حيازاتهم، لأن المؤسسات الوقفية على خلاف الممتلكات الخاصة، لم يكن ممكن تقسيمها بين الورثة. ومن المفترض إنه بسبب هذه الميزة المزدوجة كانت عائلات العلماء قادرة على الحفاظ على نفسها بفضل الثروة والسلطة لوقت أطول من أعضاء المؤسسة الإدارية- العسكرية أو التجار الأثرياء، مثل عائلة ابن الفكون بمدينة قسنطينة، والتي احتفظت وعلى مدى عدة أجيال بمهمة ركب الحجيج إلى الأماكن المقدسة[3].

1- علي محمد الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط1، ليبيا، 2001، ص:140.

2- حسن الضيقة، الدولة العثمانية الثقافة المجتمع والسلطة، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان، 1997، ص:104.

3- Raymond(A), grandes villes arabes à l'époque ottomane, Sindbad, Paris, 1985, p : 84-85.

أما المرحلة الثانية، فتمثلت في إحداث قطيعة بين العلماء ورجال الزوايا والحكام في أواخر العهد العثماني بالجزائر، خاصة بعد ذهاب الدايات والبايات الكبار، الذين كانوا يتولون أمر الدولة والبايلكات، والذين نجحوا في إقرار الهدوء، والمحافظة على العلاقات الاجتماعية.إن السياسة الخاطئة التي انتهجها العثمانيون، والمتمثلة في ازدياد حجم الضرائب المجحفة، والتقليل من امتيازات بعض العلماء والمرابطين مثلت غضب السكان، وفي ذلك يذكر مسلم بن عبد القادر واصفا ذلك بقوله:" إن العثمانيين لم يكونوا أهلا للحكم في أواخر عهدهم...حكموا البلاد ثلاثين سنة لم تكن سياستهم فيها رشيدة، ولا كان حكمهم فيها عادلا على العموم، فكان من الطبيعي إن يكثر الناقمون والثائرون عليهم"[1].

وحتى وإن تمكن بعض الحكام من تسخير بعض العلماء في خدمتهم السياسية، تصديا لإدعاءات الطرق الدينية المناهضة لحكمهم كعبد الكريم الفكون، وأحمد بن يوسف الملياني، وأحمد بن هطال، وابن سحنون الراشدي، وأبو راس الناصري، والذين اعتبروا إن الدولة العثمانية شرعية، وإن على المجموعة الجزائرية طاعتها، وعلى النخبة مساندتها، كونها تنطبق على التصور السياسي للإسلام الذي يقوم على الجهاد، والعدل، ومركزية الحكم، إلا إن الأوضاع السياسية والاجتماعية تأزمت واضطربت، ولم تنته إلا مع الاحتلال الفرنسي للجزائر عام1830م، فقد وقف بعض رجال الدين والزوايا إلى جانب السكان، بل وتزعموا عديد الثورات الشعبية التي اندلعت في ربوع الوطن، منها ثورات بلاد القبائل عام1804و1810م، وانتفاضة التيجانيين عام1818م، وثورة الدرقاويين التي تزعمها عبد القادر ابن الشريف الذي ينتسب إلى الطريقة الدرقاوية بالناحية الغربية للوطن، والتي تصدى لها العديد من البايات، ومنهم الباي حسن بنايلك الغرب الذي نكل بعلمائها وأتباعها، وفي ذلك يقول المزاري:" اجترأ على العلماء والأولياء والشرفاء والرعية، فبأن منه الجور والظلم والتعدي"[2].

ورغم تصريح العديد من العلماء الذين عاشوا أواخر العهد العثماني بظلم العثمانيين، بمن فيهم الذين حظوا بتقدير السلطة، إلا إنهم يقرون لهم بفضائلهم عليهم، وهذا ما جاء على لسان العربي المشرفي في شأن

1- مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص:55.

2- المزاري، المصدر السابق، ج1، ص:351.

محبة الأتراك للعلم والعلماء، قوله:" كانوا مع جورهم وشدة ظلمهم يحبون العلماء، ويخضعون لهم، ويتذللون بين أيديهم أكثر من تذلل الروم لرهبانهم، واليهود لأساقفتهم[1].

المراكز الثقافية بالجزائر خلال العهد العثماني:

لم تكن المؤسسات الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني تخرج عن طابعها العام الذي شهدته مختلف الدول العربية والإسلامية عبر التاريخ، والمتمثلة في المساجد، والكُتاب، والزوايا، والرباط، والمدارس. للعلم إن معظم هذه المؤسسات كانت للتعليم أكثر مما كانت للثقافة بمفهومها الواسع، و لم يكن من بين هذه المؤسسات جامعة أو معهد عالٍ، رغم إن البعض منها كانت تنشر تعليماً بمستو يضاهي كبريات المؤسسات الثقافية في العالم العربي والإسلامي، على غرار ما كان في بعض العواصم كفاس، وتونس، ومصر، والعراق، والحجاز.

ومن بين المؤسسات الثقافية التي شهدتها الجزائر العثمانية ما يلي:

- **المساجد:** ارتبط تاريخ التعليم في المجتمع الإسلامي بالمسجد ارتباطا وثيقا، فهو المركز الرئيسي لنشر الثقافة الإسلامية، وهو أحد أهم دور التعليم. لقد اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم المسجد مكانا للدراسة، حيث كان يجتمع مع أصحابه ليعلمهم أحكام الدين بالقول والعمل، وظل المسجد يؤدي رسالته زمن الخلفاء الراشدين ومن تبعهم بعد ذلك، وقد واكب تأسيس المساجد حركة الفتح الإسلامي، فكلما فتحت مدينة أنشأ بها الفاتحون من المساجد ما تدعوا الحاجة إليه، وكلما أسسوا مدينة جديدة، اهتموا بتركيز المساجد فيها، لتؤدي دورها في تعليم أحكام الدين، ولتستقطب المتعبدين، وكتب التاريخ والتراجم كثيرا ما تحدثنا عن العناية ببيوت الله[2].

- إن ظاهرة انتشار المساجد في المجتمع الجزائري المسلم بارزة، وليست وليدة الوجود العثماني بالجزائر، فلا تكاد تجد قرية أوحيا في المدينة بدون مسجد، فهو منشط الحياة العلمية والثقافية، فقد كانت(وما زالت) أغلب المدن الجزائرية تشتمل على مسجد يطلق عليه اسم الجامع الكبير أو العتيق[3].

1- أبوحامد المشرقي، رسالة في الرد على أبي راس الناصر، مخ، ص:4.

2- عبد الله المشوحي، موقف الإسلام والكنيسة من العلم، مكتبة المنار، الزرقاء، الاردن، 1983، ص:54.

3- Golvin, la Mosquée, ces Origines, sa Morphologie, ses diverses fonctions, son Rôle dans la vie musulmane plus spécialement en Afrique du Nord, in, R.A n°105, Année, 1961, p:198-200.

لم تكن وظيفة المسجد العبادة فقط (أداء الصلاة وتحفيظ القرآن)، بل كان منشط الحياة العلمية والثقافية والاجتماعية، فهو قلب القرية في الريف، وروح الحي في المدينة، وهو المكان المناسب لمعالجة مشاكل الناس، والتحريض على الجهاد ضد العدو، ومنبرا للمناظرات بين العلماء، وكان وسيلة لكسب ود السلطة تارة، ولمعارضتها تارة أخرى خاصة في أواخر العهد العثماني[1].

ولأن الدولة العثمانية لم تولي الاهتمام لبناء المساجد، فإن المبادرات الفردية وغيرها من المؤسسات الدينية، هي التي كانت تتولى ذلك، وما كان يقوم به الحكام (دايات أوبايات) من تشييد للمساجد، وحبس للأوقاف، سوى من مالهم الخاص[2].

لقد انفردت كل حاضرة بجوامعها ومساجدها التي كانت تمثل مهدا للتعليم والعبادة، ففي مدينة الجزائر العاصمة لوحدها، أحصى فونتير دي بوايي أثنى عشرة مسجدا جامعا، وعددا من المساجد الصغيرة، أشهرها الجامع الكبير. أما في قسنطينة، وحسب الورتيلاني الذي زارها في القرن 18م، فيذكر إنه كان بها خمسة جوامع خطبة.[3] في حين يذكر مولود قايد إن بها قرابة المائة مركز ديني بين مسجد وزاوية وجامع ومدرسة.[4]

كما عرفت حواضر بايلك الغرب الجزائري مساجد متعددة، بلغ عددها بتلمسان مثلا، خمسون مسجدا اغلبها صغيرة، أما بمدينة معسكر، فأهمها المساجد الثلاثة الرئيسية: مسجد السوق، والمسجد العتيق، والمسجد الكبير. للعلم إن هذه الحواضر استفادت من الإصلاحات العمرانية والثقافية في إطار المشروع الحضاري الذي بادر به الباي محمد بن عثمان الكبير[5].

1- Devoulx (A), Notes historiques sur les mosquées et autres édifices religieux d'Alger, In R .A, n°5, 1861, p : 390.

2- شيد الباي محمد بن عثمان الكبير جامعا، والمعروف عند أهالي مدينة معسكر بجامع العين البيضاء، شيده عام 1175هـ/ 1762م. وقد أصبح هذا الجامع من المبأني الهامة ومن العجائب، حيث كان من موظفيه حسبما جاء في وقفيته: الخطيب، والإمام، وأربعة مؤذنين، ومسمع، وأربعة مدرسين، وقراء حديث اللغويوم الجمعة، وقراء تنبيه الأنام، وقد خصص الباي محمد بن عثمان الكبير رواتب تليق بكل واحد. ويبدوإن الباي كان يخطط له ليكون قاعدة كبيرة لنشر التعليم في المنطقة، ينافس به القرويين في فاس والزيتونة في تونس، ولكن تطور الزمن لم يحقق له ذلك. ينظر: ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تح : المهدي البوعبدلي، مطبعة البعث، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، قسنطينة، مارس 1973، ص:138.

3- الورتيلاني، ص:685.

4- Gaid (m), chronique des beys de Constantine, O.P.U. Alger, S .D, p : 131.

5- Gourgous(A), notice sur le bey d'Oran Mohamed el-kebir, in R. A, n°1,1866, p : 408.

ولكن، ورغم وفرة المساجد إلا إن بعضها كان في حالة متدهورة، ومنها من لم تكن له أوقاف لصيانتها، وإذا كان الورتيلاني قد لاحظ إن مساجد الأتراك في الغالب جيدة وأنيقة وكثيرة الأوقاف، في حين كانت مساجد الأهالي متواضعة، واصفا إياها بهذه العبارات:" فلا تكاد ترى في مدائنهم مسجدا عظيما قد أحدث، بل ولا مهدما قد جدد، ولا واهيا قد أصلح"[1]. بينما لاحظ بعض الباحثين إن مساجد وهران كانت أجمل من الكنائس التي بها، رغم الفترة الطويلة التي قضاها الأسبان بالمدينة [2].

2- **الزوايا** : ظهرت الزوايا بالمغرب العربي منذ القرن الثالث عشر الميلادي، لتحل محل الرباط تدريجيا، واستمرت في التطور حتى استقرت وظائفها النهائية في العهد العثماني على يد الطرق الصوفية والمرابطين، فمثلت الزاوية المسجد والمدرسة في إن واحد، فهي مقرا للعبادة والدراسة، ومأوى لعابري السبيل، وشهدت انتشارا واسعا خاصة بعد سقوط الأندلس، وبداية التحرش الاسباني على السواحل الجزائرية، حيث عمل شيوخها على إحياء الرباط لتجمع بذلك بين العبادة والتعليم والجهاد[3].

إن من مميزات العهد العثماني في الجزائر، انتشار الزوايا في كامل إنحاء الوطن، خاصة بالأرياف التي افتقرت للمؤسسات التعليمية الأخرى، كما ارتبط الوضع الاجتماعي والثقافي في الجزائر أواخر القرن الثامن عشر وطيلة القرن التاسع عشر بنشاط الطرق الصوفية الدينية، والتي كان لها تأثير مباشر في الحياة الثقافية بالجزائر، علما إن الزاوية كانت تستمد تعاليمها من الطريقة التي تنتسب إليها.ونظرا لحاجة السكان إلى خدمات الزاوية، فقد كانت تقدم يد المساعدة والعون للفقراء والعجزة والمحتاجين، وتوفر الحماية للمضطهدين، والمأوى للاجئين، بالإضافة إلى التوسط في النزاعات بين الأفراد والقبائل، فازداد نفوذ شيوخ الزوايا سياسيا واجتماعيا، ولهذا كان الشيخ محي الدين بن مصطفى الراشدي مقدم الطريقة القادرية يصف زاويته بأنها كمقام إبراهيم عليه السلام من دخله كان آمنا [4].

1- الورتيلاني، ص:266.

2- أبوالقاسم سعد الله، المرجع السابق، ص:244.

3- يذكر أبوالقاسم سعد الله في كتابه" تاريخ الجزائر الثقافي" إن الزاوية ظهرت بالجزائر في القرن الحادي عشر الميلادي، بنما محمد حجي يؤكد إن الزاوية لم تظهر إلا في القرن الثالث عشر الميلادي بالمغرب العربي. ينظر:محمد حجي، الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، المطبعة الوطنية، المغرب، 1969، ص:23، و

Louis Rinn, marabouts et khouans, étude sur l'islam en Algérie, Jourdan, Alger, 1884, p : 173-174

4- أبوالقاسم سعد الله، المرجع السابق، ص:271.

من بين الزوايا التي اشتهرت في تلك الفترة، زاوية سيدي عبد الرحمن الثعالبي بالجزائر العاصمة، وزاوية ابن نعمون بقسنطينة، وزاوية عين الحوت بتلمسان، وزاوية القيطنة بوادي الحمام بمعسكر، وزاوية تيزي راشد المعروفة بزاوية ابن أعراب بمنطقة القبائل، هذه الزوايا ساهمت في إزالة الفوارق الاجتماعية، ووطدت العلاقات بين فئات المجتمع، والأهم من ذلك إنها كانت ولا زالت مخازن للكتب والمخطوطات.

3- **المدارس:** ارتبط التعليم في الدولة العثمانية بالدرجة الأولى، كما هو الحال في جميع الدول الإسلامية بالمدارس الدينية، التي أقيمت بادئ الأمر في المساجد، أو ملحقة بها (كتاتيب). وإذا كانت الجزائر العثمانية قد خَلت من وزارة للتعليم، ومن أية مؤسسة مكلفة بهذا القطاع، فإن الميدان ترك مفتوحا للأفراد والجماعات، يقيمون ما يشاءون من مؤسسات دينية أو تعليمية، وإن معظم علماء الجزائر تخرجوا من هذه المدارس، ومن بينهم الشيخ أبو راس الناصري، الذي تخرج من مدرسة مازونة، والتي عرّفها بقوله:"تبنى لدراسة العلم أي تعليمه وتعلمه"[(1)].

الواضح من التعريف، إنها ليست المدرسة الزاوية أو المدرسة المسجد، رغم إن معظم المدارس كانت تشيد بجانب المساجد لتعليم الدين، وعلوم اللغة، ومبادئ القراءة والكتابة، بل هي المدرسة المتخصصة للتعليم الثانوي العالي وحده، فقد تحدث الرحالة الفرنسي فانتور دي بارادي(venture de paradis) في القرن الثامن عشر عن وجود ثلاث جامعات لتعليم المذهب المالكي(نفس الملاحظة يذكرها بانانتي(pananti) أوائل القرن التاسع عشر، إنه كان في الجزائر العاصمة ثلاث مدارس عامة)، ومن بينها المدرسة القشاشية. أما بمدينة قسنطينة فقد اشتهرت بالمدرسة الكتانية التي أسسها الباي صالح عام1190ه/1776م، والتي كانت تمثل مركزا إشعاعيا ثقافيا لتعليم مختلف العلوم، وبمازونة المدرسة الفقهية التي يعود تأسيسها إلى سنة1029ه/1620م، والتي عرفت بالفقه المالكي(مختصر خليل) وعلم الحديث(صحيح البخاري). مع العلم إن التعليم لم يكن يختلف كثيرا في المدارس بالمدينة وفي الحواضر الكبرى، عن التعليم في الزوايا بالريف، حيث تحفيظ القرآن، وتعليم مبادئ القراءة والكتابة، وعلم الحديث، والنحو، واللغة، والفقه، وهي المواد الرئيسية في المناهج التعليمية التي كانت تدرس.[(2)]

1- الطاهر جنان، مازونة عاصمة الظهرة (ثغر حربي ومركز إشعاع حضاري)، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2005، ص:93-94.

2- Turin, y, Affrontement culturels dans l'Afrique coloniale, Paris, 1971, p : 126.

وللدلالة أكثر، نلقي نظرة على إحدى أهم المدارس التي عرفتها المنطقة الغربية من الوطن خلال التواجد العثماني بالجزائر، وهي:

المدرسة المحمدية : من تقاليد العهد العثماني، بل من تقاليد التعليم الإسلامي عموما، إن بناء المساجد يتبع بناء المدارس إلى جانبها، ولذلك لما بنى الباي محمد بن عثمان الكبير المسجد الكبير بمعسكر(الذي سمي باسمه)، بنى إلى جانبه المدرسة المحمدية. يذكر الشيخ المهدي البوعبدلي، إن الباي اختار لإدارتها الشيخ محمد بن عبد الله الجلالي، وعين لها مدرسين أكفاء، وعلماء أجلاء، كالشيخ الطاهر بن حوا، والشيخ محمد المصطفى بن زرفة، والشيخ أبي راس الناصري الذي تولى التدريس بالمدرسة سنتين حتى أصبح لها صدى كبيرا في الجزائر وفي العالم الإسلامي(1).

في الحقيقة، إن شهرة المدرسة المحمدية ترجع أساسا إلى منهجية التدريس التي اتبعها المدرسون، فقد اتبع أبو راس الناصري الطريقة الجاحظية، فكان يذكر أثناء درسه لطائف مهمات، وترتيبات عجيبات، وحكايات ونوادر، لتنشيط القلوب الفواتر على حد تعبيره ولما رأى بايات المدينة كثرة الطلبة وازدحامهم عنده، عَمَلوا له كرسيا، فاستعان به على الدرس غاية الاستعانة(2).

من العلوم التي كانت تلقن في هذه المدرسة، الفقه مثل حواشي الشيخين الزرقاني والخرشي، وحاشية الشيخ مصطفى الرماصي، إلى جانب كتب النحو مثل شرح المكودي، وفي اللغة مقامات الحريري، وفي الأصول شرح الشيخ المحلي، فضلا عن كتب التصوف، والمنطق، والفلك، وعلم البيان، فقال عنها أحمد بن سحنون الراشدي:" كاد العلم إن يتفجر من جوانبها"(3).

4- **المكتبات:** لم يشهد التاريخ حركة للتدوين والتأليف مثلما شهده التاريخ الإسلامي، إلا في العصر الحديث، و لم توجد من بين الشعوب التي أحبت الكتب، حبا ملك عليها مشاعرها كالشعوب الإسلامية، وهو ما يذكره ويل ديورانت في كتابه قصة الحضارة بقوله:" لم يبلغ حب الكتب في بلد آخر من العالم إلا في بلاد

1- المهدي البوعبدلي، المراكز الثقافية وخزائن الكتب بالجزائر عبر التاريخ، مجلة الأصالة، ع11، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 1972، ص:85-107.

2- أبوراس الناصري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تح وض وتع: محمد عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص:23.

3- ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص:127.

الصين، ما بلغه في بلاد الإسلام في القرون الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر"، وكان من الطبيعي إن تؤدي هذه النهضة العلمية إلى جمع الكتب والمؤلفات، وتشييد المكتبات الخاصة والعامة[1]. وهي ولا ريب نفس النظرة التي عرفتها الجزائر خلال العهد العثماني، رغم ما يقال عن الأتراك العثمانيين من عدم اهتمامهم بالعلم والعلماء.

كانت هناك طريقتين لجلب الكتب، الطريقة الأولى: وهي الكتابة المحلية عن طريق التأليف الذي تمثل في الشروح والحواشي، والتقاييد، والتعاليق، والرسائل، والفهارس، ومن أشهر المؤلفين في تلك الفترة عبد الرحمن الأخضري، وأحمد المقري، وعبد الكريم الفكون. أما حركة النسخ والاستنساخ فقد شاعت بالحواضر الكبرى، ومنها مدينة قسنطينة، فقد كانت زواياها، وبيوت أسرها تعج بالمكتبات، خاصة في عهد الباي صالح الذي شجع العلماء، وجلب الكتب، وحبس الأوقاف على العلماء والطلبة، وهذا ما أورده قفاريل(gaffarel) بقوله:" إن أهلها كانوا مولعين باقتناء الكتب والبحث عن نفائس المخطوطات"[2] .

ومن بين العائلات التي اشتهرت بالنسخ والتأليف، عائلة ابن العطار، والشيخ إبراهيم الحركاتي، ومحمد الزجاي، وعبد القادر المشرفي، وأبو راس الناصري، شيخ مؤرخي الجزائر العثمانية، وكان النسخ يتم بالخط الأندلسي المعروف اليوم بالخط المغربي.

أما الطريقة الثانية، فهي جلب الكتب من الخارج، خاصة من الأندلس مع هجرة أصحابها، وعن طريق العثمانيين أنفسهم، فالقضاة، والعلماء، ورجال الزوايا كانوا ينقلون مكتباتهم معهم عند مجيئهم إلى الجزائر، فقد روى التمغروطي في أواخر القرن السادس عشر، إن مدينة الجزائر كانت كثيرة الكتب، وإنه لا يضاهيها بلد في ذلك من بلدان أفريقية، ولاسيما كتب الأندلس[3]. كما تم جلب الكتب من مصر، والحجاز عن طريق العلماء الرحالة والحجاج الجزائريين.

1- حسن رشاد، المكتبات ورسالتها، دار الفكر العربي، ط3، مصر، (د س)، ص:31.

2- Gaffarel, (p), l'Algérie, conquete et colonisation, éd, firmin didot, 1883, éditeur, gandini, paris, 2004, p : 123.

3- علي التمغروطي، النفحة المسكية في السفارة التركية، تر وتق: محمد الصالحي، المؤسسة العربية للدراسات والتوزيع، دار السويدي، ارتياد أفاق، 2007، ص:139.

ومما يلاحظ، إن علماء الجزائر لم يتوقفوا عن التأليف حتى في أحرج الظروف، وفي أخطر الأماكن، كالشيخ مصطفى الرماصي الذي كان يسكن الجبال أيام الاحتلال الاسباني لوهران، وعلماء رباط فتح وهران الأول، والثاني خاصة الذي وقع عام 1206 ه/1792 م. فكانت المكتبات تزخر بأمهات الكتب النفيسة، والمخطوطات النادرة، تشهد على ذلك عبارات الباحثين عند مرافقتهم للحملة الفرنسية على تلمسان ومعسكر، إن بها مكتبات تحتوي على مخطوطات كثيرة جدا، بعضها عظيم الأهمية، كما أخبر إنه جمع عددا كبيرا من المخطوطات بمعسكر، وعاد بها إلى مدينة الجزائر[1].

الأوقاف:

يعتبر الوقف مظهر من مظاهر الحضارة الإسلامية، بل هو مبدأ شرعي، له صيغة شرعية يستند عليها، يلتزم الواقف باحترامها، وعلى صيغة قضائية ملزمة. وعليه فإن الوقف نظام إسلامي لم يكن للعرب عهد به قبل ذلك، وإن الدين الإسلامي بدعوته إلى فعل الخير، هو الذي دفع بالكثير من المسلمين منذ بداية ظهور الإسلام إلى تبني فكرة الوقف الخيري، حيث أضحى الوقف خاصية من خصائص الأمة الإسلامية، لازمها عبر تاريخها الطويل، وكان له دور كبير في حياة المجتمعات الإسلامية في جميع النواحي خاصة الاجتماعية والتعليمية[2].

وإذا كان الوقف قد اقتصر على الفقراء والمساكين، بمعنى تلبية حاجاتهم الضرورية بتقديم يد المساعدة لهم في بداية العهد الإسلامي، فإنه ومنذ العصر العباسي توسع ذلك ليتعدى إلى تأسيس دور العلم والمكتبات الملحقة بهذه الدور. وإذا كان مصطلح الوقف متداولا كثيرا عند المؤرخين، فإن الفقهاء والفقهاء المالكية على السواء، يستعملون في الغالب الأعم مصطلح"الحبس" وجمعه"أحباس" كصيغة لغوية للتعبير عن ذات المفهوم الذي يؤديه مصطلح الوقف، وتداولوه بكثرة في مصنفاتهم خاصة في كتب النوازل، حتى إن العلامة أبو يحي الونشريسي أفرد مجلدا من موسوعته للأحباس وأحكامها[3].

1- أبوالقاسم سعد الله، المرجع السابق، ص:287.

2- عبد العزيز الدوري، دور الوقف في التنمية، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، عمان، 1996، ص:01.

3- أحمد الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب في فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب ، دار الغرب الإسلامي، ج7، بيروت، لبنان، 1983، ص:5 وما بعدها.

وإدراكا من الحكام العثمانيين بالجزائر، بأن الوقف ليس فقط وسيلة للتضامن ودعم للحياة الثقافية، بل وسيلة لتأكيد النفوذ والاستمرار في السلطة، فقد تكاثرت الأوقاف واتسعت رقعتها في مختلف إنحاء البلاد، واكتسبت المؤسسات الوقفية مكانة مرموقة في ترتيب نفقات المساجد والمدارس، والإشراف على التعليم وتمويله، والمحافظة على حقوق الورثة، وعاملا مساعدا للحد من المظالم والأحكام التعسفية، وأداة في تماسك الأسرة(1).

وإذا كانت الأوقاف شملت الأملاك العقارية، والأراضي الزراعية، والمحلات التجارية كالدكاكين والفنادق والمطاحن، فإن الأوقاف العلمية شكلت وفي معظم مراحل الحكم العثماني قاعدة للنهضة التعليمية، وأداة لأنتشار المعرفة والإشعاع الثقافي، عن طريق توظيف عائداته المالية لتأسيس المدارس والأنفاق على احتياجاتها. ومن الحكام الذين اهتموا بإقامة المؤسسات العلمية، وتأمين الموارد لصيانتها، والأنفاق على إقامة الشعائر الدينية فيها، نذكر على سبيل المثال لا الحصر، علي بتشين الذي كان من رياس البحر، بنى مسجدا من ماله الخاص وحمل اسمه، وشيده سنة1032ه/1622م، والداي بابا حسن(1682-1683م) الذي بنى جامع كتشاوة، وأوقف عليه أماكن وعقارات كثيرة، والداي محمد بكداش الذي أسس زاوية الأشراف أوقف عليها حبوسا. على إننا لا نكاد نجد حاكما بقي مدة طويلة في السلطة إلا وبنى مسجدا أو زاوية أوحبس لها وقفا، والإشارة هنا إلى كلا من الباي محمد بن عثمان الكبير ببايلك الغرب الذي كان يشتري المخطوطات النفيسة ليحبسها على المدارس والمساجد، والباي صالح ببايلك الشرق، الذي نظم أوقاف مدينة قسنطينة في هيئة تسهر على رعايتها، وضبط مداخلها في دفاتر رسمية، وعين لها موظفين خاصين بها (2).

في الواقع، إن مؤسسة الأوقاف في الجزائر خلال العهد العثماني شكلت أهمية كبيرة، للدين والدنيا بنوعيها العامة والخاصة، كما عرفت انتشارا واسعا خاصة في القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي. ومن بين المؤسسات الدينية الوقفية التي اشتهرت وكان لها صدى واسعا على المستويين الداخلي والخارجي، نذكر المؤسستين التاليتين للدلالة على ذلك:

1- عبد الجليل التميمي، الحياة الفكرية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، تونس، 1990، ص:193.

2- أبوالقاسم سعد الله، المرجع السابق، ص:236-237.

أ-مؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين: والتي أنشئت بغية تمكين الجزائريين من وقف الكثير من ممتلكاتهم داخل مدينة الجزائر وخارجها. فقد كانت تقدم الإعانات لأهالي الحرمين الشريفين وذلك بإرسال حصة من مداخلها إلى فقراء مكة والمدينة عن طريق مبعوث شريف مكة، أو بواسطة أمير ركب الحجيج، كما أوكلت لها مهمة الأنفاق على ثلاثة مساجد حنفية داخل مدينة الجزائر، للعلم إن هذه المؤسسة كانت تشرف على ثلاثة أرباع الأوقاف كلها، حيث قدر قنصل فرنسا بالجزائر عام 1836م/1252ه عدد أحباس هذه المؤسسة بحوالي 1558 عقارا.كل ذلك جعلها في صدارة المؤسسات الخيرية من حيث عدد الأملاك التي تعود إليها، والأعمال التي كانت تقوم بها[1].

ب- أوقاف المسجد الأعظم: كانت نشاطات هذا المسجد متنوعة ومختلفة المجالات، حيث مست الجوانب السياسية والاجتماعية والقضائية والدينية والتعليمية، واشترك في تحبيسها الأحناف والمالكيين على حد السواء، بل ووجد منها حتى الحكام وأصحاب المناصب العليا من العثمانيين، فقد احتوت أوقافه على بساتين وحوانيت وأفران ومنازل، منها الدار الكائنة قرب باب الواد قام بتحبيسها محمد الدولاتي باشا بتاريخ1667-1668م. إن من مميزات هذا الجامع، إن إدارة مداخيل كراء أحباسه كانت مستقلة، مما ساعده على أداء وظائفه المتعددة، منها رواتب مستخدمي الجامع كالإمام والمؤذن والمدرسين والحزابين، إلى درجة إن أوقاف هذا الجامع غطت جميع أنشطة الجوامع الأخرى التي بناها العثمانيون أنفسهم، والتي تجاوزت حسب أحد المؤرخين أكثر من مائة جامع أواخر القرن 16م[2].

1- مها اليزيدي، أوقاف الحرمين الشريفين أهميتها ودورها، مجلة الحجاز، منشورات الجمعية الوطنية الحجازية، ع:89، المملكة السعودية، 2010، ص:127.

2 - Devoulx(A), les édifices religieux de l'ancien Alger R .A, 1862, pp : 371-372.

استنتاج:

رداً على التساؤل الذي طرحته في التقديم السابق، أود إن أشير إلى أمر معين، وهو إن الكثير ممن يحسبون إنه يتعذر فهم تاريخ الجزائر خلال تلك المرحلة دون معرفة التاريخ العثماني نفسه، بل هناك من يذهب إلى أبعد من ذلك، فيقول إنه لا يمكن إدراك التاريخ المتوسطي والأحداث التي دارت فيه في تلك المرحلة دون معرفة التاريخ العثماني. قد يكون في ذلك جزء من الحقيقة، ولكن المشكلة الجادة هي في حاجة الكُتاب الجزائريين إلى الإحاطة بالتاريخ المحلي للجزائر في ظل الحكم العثماني لسد الفراغ ودون تغيير، وبغير أخطاء متعمدة أو غير متعمدة. وأمر آخر، هو إنه لا زال التاريخ الجزائري خلال الفترة العثمانية يمثل أحد التشكيلات المعروف عنه أقل بكثير من المعروف عن الإمبراطورية الرومانية المناظرة مثلا، ولا ينسحب ذلك على الجوانب السياسية والعسكرية فحسب، بل يمتد إلى الجوانب الحضارية الفكرية والثقافية العلمية، لذلك ينبغي على الباحثين الجزائريين خاصة الاهتمام أكثر بدراسة التاريخ العثماني ببصيرة ويقظة وفكر ناقد.

الفصل الثاني

مناهج الكتابة التاريخية عند مؤرخي الجزائر في كتب التراجم (ق10-14ه/16-20م)

المبحث الأول: كتاب"البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان"

المبحث الثاني: كتاب"نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب في ذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب"

المبحث الثالث: كتاب"منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية".

تقديم:

علم التراجم أو علم تراجم الرجال، هو العلم الذي يتناول سيرة حياة الأعلام من الناس عبر عصور مختلفة، وهو علم دقيق يبحث في أحوال الشخصيات والأفراد من الناس الذين تركوا آثارا في المجتمع.كما يتناول هذا العلم كافة طبقات الناس وفي شتى المجالات، بذكر حياتهم الشخصية ومواقفهم وأثرهم وتأثرهم في الحياة.

يعتبر علم التراجم فرع من فروع علم التاريخ، بل إن فن التراجم أعم من علم تأريخ الرجال، لأنه يتناول جميع الأعلام من الخلفاء، والوزراء، والعلماء وغيرهم، بخلاف علم تأريخ الرجال، فإنه يختص بالرواة والروايات. وقد كشف بعض المؤرخين سبب ارتباط علم التراجم بالتاريخ، دراسة رواة الحديث واتصال الأسانيد من انقطاعها، وفي ذلك يوضح احمد بن حجر العسقلاني سبب الاحتياج إلى معرفة هذا العِلم (التراجم) معللا ذلك بقوله: "لتضمنه تحرير مواليد الرواة ووفاتهم، وأوقات طلبهم وارتحالهم، وقد افتضح أقوام ادّعوا الرواية عن شيوخ ظهر بالتأريخ كذب دعواهم"[1]

وعليه، كان لزاما على المسلمين إن يهتموا بعلم التراجم اهتماما كبيرا، خاصة لما حرص العلماء على حماية وصيانة المصدر الثاني من مصادر التشريع في الإسلام، وهو الحديث النبوي الشريف من التزوير والتلفيق والدس. بدأت العناية بهذا العلم لما نشأت قاعدة تلَقي الأخبار والآثار المروية عن الصحابة والتابعين، وباقي طبقات العلماء خصوصا والناس عموما، وفي ذكر رجالات الأمم والبلدان إحياء للأولين والآخرين من علمائها، قال الحافظ ابن الجوزي: "واعلم إن في ذكر السير والتواريخ فوائد كثيرة أهمها، فائدتان، أحدهما: إنه إذا ذكرت سيرة حازم، ووصفت عاقبة حاله، علمت حسن التدبير واستعمال الحزم، أو إن ذكرت سيرة مفرط ووصفت عاقبته، حويت من التفريط، فيتأدب المتسلِط ويعتبر المتذكِر، ويتضمن ذلك شحذ صوارم المعقول، ويكون روضة للمتنزه في المنقول. والثانية: إن يطلع بذلك على عجائب الأمور وتقلبات الزمن، وتصاريف القدر، والنفس تجد راحة بسماع الأخبار"[2].

نشأ علم الرجال لدراسة أحوال رجال الأسانيد، وعندما أصبحت سلاسل الأسانيد طويلة عبر تعاقب السنين، بعد إن كان الراوي من الصحابة يروي عن النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة، زاد في التابعين وأتباعهم آخرين، لذا أصبح من الضروري التعريف بالرواة والعدول والمجروحين منهم وطبقاتهم، ليتميز

[1]- ابن حجر العسقلاني، نزهة النظر شرح نخبة الفكر، تعليق وشرح: صلاح محمد عويضة، دار الكتب العلمية(د ط)، بيروت، لبنان(دت)، ص: 65، وعبد الرؤوف المناوي، اليواقيت والدرر في شرح نخبة ابن حجر، تح: المرتضى الزين أحمد، ج2، مكتبة الرشاد، ط1، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1317ه/1999م، ص: 8).

[2]- عبد الرحمن ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، در وتح: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، راجعه وصححه: نعيم زرزور، ج1، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، لبنان، 1415ه/1995م، ص: 117.

الاتصال من الأنقطاع في الأسانيد. ولهذه الأسباب ظهر علم الرجال، وتعددت المؤلفات فيه، واتسعت في ترتيب المادة العلمية وأسلوب العرض[1].

[1]- ابن حزم الأندلسي، جمهرة إنساب العرب، تح وتع: عبد السلام محمد هارون، ط5، دار المعارف، القاهرة، (د ت)، ص: 13.

4-محمد حجي،جولات تاريخية، دار الغرب الإسلامي،ط1، بيروت،لبنان،1995،ص:56.

الفصل الثاني:

منهج الكتابة التاريخية عند مؤرخي الجزائر في كتب التراجم(ق10-14ه/16-20م)

تقديم

المبحث الأول: البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان

المبحث الثاني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب في ذكر وزيرها لسإن الدين بن الخطيب

المبحث الثالث: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية

استنتاج

تقديم

لقد اهتم مؤرخو الجزائر في العصر الحديث(ق16-20م) بكتب التراجم والسير، وأولوها جانبا كبيرا من الأهمية في دراساتهم التاريخية. للعلم إن كتب التراجم كثيرة ومتنوعة، تتنوع وتنقسم إلى عدة أقسام، فمنها ما هو مخصص لتراجم أهل اختصاص واحد، ومنها ما هو مخصص لأسرة معينة، ومنها ما هو مخصص لترجمة شخصية بعينها، ومنها ما هو مخصص لتراجم الرجال أهل مذهب واحد، ومنها ما يعم قطرا أو أقطارا أو العالم الإسلامي بأكمله، وغير ذلك(4).

وفي هذا الفصل سنتعرف على نوع آخر من التراجم، وهو ما يسمى بالتراجم المشتركة، أي يشترك مع هذه التراجم موضوعات أخرى، ومن الملاحظ عند دراسة هذه الكتب من التراجم، نجد إن مؤلفيها ساروا في إعدادها على منهجية واضحة، والدارس لمناهج مؤرخي الجزائر في هذه الفترة، يجد إن أكثر كتب التراجم التي ألفها المؤرخون، تتركز حول دراسة تراجم العلماء والأولياء الصالحين، وتراجم حكام الجزائر وولاتهم (البايات)، تتخلل هذه التراجم أحداث سياسية، أو اجتماعية، أو جهادية (فتح وهران...) أو كلأهم معاً، كما سنتعرف من خلال المباحث الثلاث على كتب تراجم خصصت موضوعاتها لسير علماء وفقهاء من جهة، ولجوانب سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية علمية من جهة ثانية، ومن هنا نتعرف على منهج هؤلاء المؤرخين في الجمع بين المنهج التاريخي وبين التراجم التي تتضمنها الكتب. وإذا كانت مؤلفات ابن الأحمر وابن القاضي والمقري أهم ما كُتبَ في تراجم علماء وأدباء وملوك المغرب والأندلس في القرن التاسع والعاشر الهجريين(15-16م)، فإن مؤلفات ابن مريم وعبد الكريم الفكون وأحمد المقري تعتبر أهم ما كتب في تراجم علماء وأولياء وأدباء الجزائر في تلك الفترة.

المبحث الأول: البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان لابن مريم التلمساني

أولا: ترجمة المؤلف: وفيها

اسمه ونسبه :

لعل ما يذكره ابن مريم عن نفسه في مقدمة كتابه "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان" يعتبر أكبر وأول مرجع، فهو الشيخ الإمام العلامة القدوة الهمام أبي عبد الله محمد بن محمد ابن احمد الملقب بابن مريم الشريف المليتي نسبا، المديوني نجار، التلمساني منشأ ومولدا وداراً[1].

وقد لاحظنا إن كل من ترجم له يذكره بهذا النسب تقريبا، ونذكر منهم على سبيل المثال، أبو القاسم الحفناوي الذي قال عنه: "الفقيه الصالح، المؤرخ المؤلف، محمد بن أحمد الملقب بابن مريم، الشريف المليتي المديوني صاحب كتاب" البستان في علماء وصلحاء تلمسان" الذي انتقاه من "نيل الابتهاج" للتنبكتي، ومن "بغية الرواد" ليحي بن خلدون وغيرهما"، وذكر إنه لم يقف على ترجمته ، ثم أورد فقرة طويلة من كتابه، وتتعلق بذكر مؤلفاته والأبيات الشعرية التي أوردها عند التمهيد لذكرها، كما أورد أسماء العلماء والأولياء الذين ترجمهم ابن مريم[2].

ومحمد مخلوف صاحب كتاب"شجرة النور"، الذي قال عنه: "الفقيه العالم، الشيخ الصالح، المؤرخ الأديب الكامل، أخذ عن الشيخ سعيد المقري وغيره"[3]. وذكره صاحب كتاب الأعلام بقوله: "هو محمد بن محمد بن أحمد الملقب بابن مريم، أبو عبد الله الشريف المليتي نسبا، المديوني أصلا، التلمساني منشأ ووفاة، مؤرخ من علماء تلمسان، من كتبه" البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان–ط"، كان حيا سنة1014هـ[4].

وقد اعتمدنا على الإشارة التي أوردها عبد القادر بوباية محقق كتاب "البستان"في الحصول على ترجمة مفصلة لابن مريم، من خلال تلميذه عيسى بن محمد بن يحي الراسي البطوئي(ت1040هـ/1631م)، الذي بقي بتلمسان مدة طويلة خصه فيها ابن مريم بعناية كبيرة، سرعان ما تطورت تلك العناية إلى صلة وثيقة،

---

[1]- ابن مريم التلمساني، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، طبعه واعتنى بمراجعة أصله: محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية لأحمد بن مراد التركي وأخيه، الجزائر، 1326هـ/1908م، ص: 5-315، وابن مريم، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، تحقيق: عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2014، ص: 4.

[2]- أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مؤسسة الرسالة، بيروت، المكتبة العتيقة، ج1، ط2، تونس، 1405هـ/1985م، ص: 151-152-164.

[3]- محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تح وتع: عبد المجيد خيالي، ج1، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1424هـ/2002م، ص: 428.

[4]- خير الدين الزركلي، الأعلام، ج7، دار العلم للملايين، ط15، بيروت، لبنان، 1424هـ/2002م، ص: 61-62.

دفعته إلى التصريح لابنه محمد الصغير بقوله: "إنك عندي وعيسى سواء... وإن عيسى عندي أرجح منك"، جعلته يخص شيخه بترجمة وافية في كتابه الموسوم ب"مطلب الفوز والفلاح في آداب طريق أهل الفضل والصلاح"، معتمدا على الترجمة التي أرسلها إليه ابن المؤلف محمد الصغير بعد رحيله عن مدينة تلمسان سنة1028ه/1618م، وهي ولا ريب نفس الترجمة التي أوردها ابن مريم في مقدمة كتابه[1].

ورغم كل ذلك، فإن بعض الباحثين المعاصرين يذكرون عدم العثور على ترجمة خاصة له، ومنهم محمود بوعياد، الذي قال: "ورغم الأبحاث الطويلة في كتب التراجم المشرقية والمغربية لم نحظ بالعثور على ترجمة للمؤلف"[2]. أما محمد ابن أبي شنب الذي اعتنى بمراجعة أصل الكتاب لم يتكلف سوى بجملة مقتضبة في تقديمه للكتاب جاء فيها: " فلما كان الكتاب المسمى البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان للشيخ أبي عبد الله محمد بن محمد بن احمد، الشهير بابن مريم الشريف، المليتي أصلا، التلمساني منشأ ووفاة رحمه الله تعالى من أعظم المؤلفات"[3]. في حين إن المستشرق بروفنزالي الذي نشر الكتاب مترجما إلى اللغة الفرنسية، لم يقدّم ترجمة للمؤلف، واكتفى في مقدمته بالإشارة إلى إن المعلومات الوحيدة المتوفرة عنه هي التي توجد في كتابه[4].

مولده ونشأته:

ولد ونشأ بتلمسان، من عائلة تنتسب إلى أشراف قبيلة فليتة، فقد تدرج عبر مراحل، ففي المرحلة الأولى أخذ عن والده مبادئ القراءة والكتابة، وحفظ القرآن الكريم في الكتاتيب، كما تعلم اللغة والفقه بمدارس تلمسان، أما المرحلة الثانية فقد أقبل على دراسة النحو واللغة والأدب على الشيخ محمد العطافي والفقه على الشيخ محمد الكناني والشيخ محمد الشرقي بالجامع الأعظم، وغيرهم من مشايخ مدينة تلمسان، أما في المرحلة الثالثة فقد تخصص في العلوم الدينية كالقراءات والتفسير والحديث والتوحيد بمزيد من التعمق والتفصيل، كل ذلك أهله من إن يصبح من أبرز فقهاء تلمسان في عصره لمعارفه الفقهية واللغوية[5].

---

[1]- عيسى بن محمد البطوئي، مطلب الفوز والفلاح في آداب طريق أهل الفضل والصلاح، در وتح: حسن الفكيكي، مركز طارق بن زياد للدراسات والأبحاث، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، المغرب الأقصى، 2000، ص: 9، وينظر أيضا عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 293 وتاريخ آداب اللغة العربية، ج3، ص: 343، ومعجم المطبوعات، ص: 236 ، وفهرس دار الكتب المصرية، ج5، ، ص: 57، ومعجم المؤلفين، ج11، ص: 189، ودائرة المعارف، ج3، ص: 33.

[2]- محمود بوعياد، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان وقيمته التوثيقية، مجلة الأصالة، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، العدد: 28، السنة الرابعة، الجزائر، ذوالقعدة-ذوالحجة1395ه/نوفمبر-ديسمبر1975م، ص: 260-269.

[3]- ابن مريم التلمساني، المصدر السابق، ص: 4.

[4]- Ibn Meryem ech-chérif el-Medyouni tilimceni, El-boustane ou jardin des biographies des saints et savants de Tlemcen, trad. et annoté par F. provenzali, Ed ibn khaldoun ,2003.

[5]- ينظر: عبد الحميد حاجيات، الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان، مجلة الأصالة، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، ع26، السنة الرابعة، رجب-شعبان1395ه/جويلية-أوت1975م، ص: 136-157.

امتهن التدريس وهو لا يزال تحت رعاية والده، وخلفا له سنة985ه/1577م، فاهتم بتقييد وقراءة الشروح اللغوية، فاشتهر بزهده وتفوقه في المسائل الفقهية، تتلمذ عليه الكثير ممن أضحوا علماء في عصره، من أمثال عيسى البطوئي الذي ترجم له في كتابه، فوصفه بالعالم المجتهد، الحريص على طلب العلم، المدمن على تلاوة القرآن، المتواضع، الصبور، المتبحر في سائر العلوم الشرعية، المحب للخير لجميع المسلمين. أما المرحلة الرابعة، فهي من المحطات الهامة في حياته، قضاها بمنطقة الجناية، حيث تولى الإمامة بمسجدها بطلب من أهلها، وبعد ارتحال إمامها، فبقي بها حتى أتاه أجله"[1].

أقوال العلماء فيه:

من الأقوال الفاضلة التي تشهد لها الأقلام، وتعتز بها الكتابة التاريخية بصفة عامة، هي تلك الاعترافات التي يبديها التلاميذ عن شيوخهم، والتاريخ مليئ بهذه الشهادات، ومنها شهادة الفقيه العالم عيسى بن محمد البطوئي المغربي، تلميذ الشيخ ابن مريم التلمساني، والذي خصه بترجمة وافية في كتابه "مطلب الفوز والفلاح في آداب طريق أهل الفضل والصلاح"، واصفا إياه **عن شيخه** قائلا: "قد منّ الله تعالى عليّ بملاقاة الشيخ الإمام الصوفي الهُمام، دُرة أقرانه وسنوسي زمانه أبي عبد الله المذكور بيانه، فمتعت النفس والعين من مشاهدته ومن جميل لقائه، وتزودت منه ما ينفعني الله به دنيا وأخرى من جليل علومه وأحواله وصالح دعائه، فما رأت عيناي قط مثله خَلقاً وخُلُقا وإنصافا وحرصا على العلم، ورغبة في نشره، وإنصافا وحرصا على العلم، ورغبة في نشره، واجتهادا في طلبه، وإدمانا على تلاوة الكتاب العزيز، وتواضعا وخشية ومودة وصبرا، واحتمالا وحياء، وصِدق لهجة، وسخاء وإيثارا، ومواظبة على قيام الليل، وتبحرا في سائر العلوم الشرعية، وحُسن إدراكٍ وقوة فهم، وحُبا في الخير لجميع المسلمين"[2].

ويقول عنه أيضا وهو يعدد مشايخه في فصل سماه" في المشيخة"، قوله: "في ذكر شيخنا وبركتنا ووسيلتنا إلى ربّنا، السيد الإمام الحسن النظام، العالم العلم، القدوة العلامة، المُدّرس المتفنن المُنصِف شيخنا أبي عبد الله محمد بن محمد المكي بابن مريم الشريف المليتي التلمساني المعروف بالمديوني برّد الله ضريحه، وأسكنه من الجنان فسيحه، ونفعنا ببركته ومتعنا بمحبته، وذكر وصْلتنا به، وبعض مناقبه ونسبته وموته"[3].

انطلاقا من هذه الشهادة، أود إن أشير إلى ملاحظة وهي إن التلميذ محمد البطوئي راعى كامل الآداب والأخلاق مع شيخه، وهو الذي أدرك يقينا إنه تعلم على من كمُلت أهليته، وظهرت ديانته، وتحققت معرفته،

---

[1]- عيسى البطوئي، مطلب الفوز. . . المصدر السابق، ص: 429.

[2]- نفسه، ص: 9.

[3]- نفسه، ص: 21.

واشتهرت صيانته، وكأني بالبطوئي يحقق مقولة ابن عباس رضي الله عنه القائلة: "الذلة بين يديه(الشيخ) وعلى بابه عزّة. . . وذللت طالبا فعززت مطلوبا"[1].

وقال عنه أبو القاسم الحفناوي: "الفقيه الصالح المؤرخ المؤلف محمد بن أحمد الملقب بابن مريم الشريف المليتي المديوني صاحب كتاب "البستان في علماء وصلحاء تلمسان" الذي انتقاه من "نيل الابتهاج" للتنبكتي، ومن "بغية الرواد" ليحي بن خلدون وغيرهما"، وذكر إنه لم يقف على ترجمته، ثم أورد فقرة طويلة من كتابه، تتعلق بذكر مؤلفاته والأبيات الشعرية التي أوردها عند التمهيد لذكرها، كما أورد أسماء العلماء والأولياء الذين ترجمهم ابن مريم"[2].

وقال عنه محمد بن مخلوف في كتابه: "الفقيه العالم، الشيخ الصالح، المؤرخ الأديب الكامل، أخذ عن الشيخ سعيد المقري وغيره"[3].

محمود بوعياد، وهو من الباحثين المعاصرين، والذي قال عنه: " ورغم الأبحاث الطويلة في كتب التراجم المشرقية والمغربية لم نحظ بالعثور على ترجمة للمؤلف"[4].

وظائفه:

إذا ما تتبعنا مسار الأحداث التاريخية لمدينة تلمسان خلال فترة من الزمن وخاصة القرنين التاسع والعاشر الهجريين/الخامس والسادس عشر الميلاديين، لاعتبرنا إن اشتغال ابن مريم المديوني بالتدريس واحترافه التعليم شيئ طبيعي، لأن أولو الأمر آنذاك (الدولة الزيانية) كانوا يولون التعليم والمدارس عناية خاصة، وإن مدينة تلمسان كانت قبلة لطلبة العلم والعلماء على حدٍ سواء، وكان التعليم منتشر في شتى مدن الدولة الزيانية ومعظم قراها، وإن مواد التدريس شملت العلوم الشرعية والعلوم الطبيعية[5]. ولعل شهادة بعض العلماء ممن سبقوا أو عاصروا ابن مريم دليلا قاطعا، على إن التعليم والتدريس كان الوظيفة الأولى والأسمى وأولوية الأولويات للشيوخ، فقد ذكر الشريف التلمساني، إن إبراهيم بن محمد المصمودي التلمساني أحد شيوخ ابن مرزوق الحفيد، قرأ كثيرا على الشيخ الإمام أبي عبد الله الشريف التلمساني، ثم انتقل بعد وفاته إلى المدرسة

1- محمد الغزالي، إحياء علوم الدين-باب أدب العلم-إعداد ودراسة: إصلاح عبد السلام الرفاعي، مراجعة: عبد الصبور شاهين، ط1، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، 1428ه/1988م، ص: 89.

2- أبو القاسم الحفناوي، المرجع السابق، ص: 151-152.

3- محمد بن مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ج1، تح: عبد المجيد خيالي، المصدر السابق، ص: 428.

4- محمود بوعياد، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان وقيمته التوثيقية، مجلة الأصالة، ع: 28، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، رجب-شعبان1395ه/1975م، ص: 260.

5- حسن الوزان، وصف إفريقيا، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان،1995،ص: 21.

التاشفينية، فقرأ بها على الشيخ العلامة سعيد العقباني[1]. ولعلي أطلت في هذا التقديم نوعا ما، لأؤكد على ما أثبته ابن مريم نفسه، من إن التعليم طبع حياته، وكان أول عهد به وآخره، فقد حثه والده على الاستمرار فيه، فتمادى فيه طول حياته، فقال عن ذلك: " فتماديت على ذلك، فتخرج علي والحمد لله بدعاء والدي وبركاته أزيد من أربعين ولدا، كلهم يحفظون القرآن، وبعضهم علماء يدرسون العلم في كل فن من العلوم الظاهرة والباطنية، والحمد لله"[2].

شيوخه:

ولما كان لابد للعلم من نسب، وهو أخذه عن الشيوخ الموثوقين، الذين يوفرون مئونة كبيرة على الطلاب، فإن ابن مريم تلقى ثقافة علمية فقهية وأدبية كغيره من علماء عصره، وحتى وإن كانت ثقافته تقوم على المجهود الشخصي، فإن لها نسبا، وهو أخذه عن الشيوخ، ورغم الاحترام والتقدير الذي يكنه ابن مريم لشيوخه، فإنه لم يفرد لهم جانبا مخصصا في كتابه على غرار ما قام به العديد من الكتاب. ولكن، ومن خلال تتبع التراجم التي أوردها ابن مريم في مؤلفه "البستان"، ومن خلال قائمة الشيوخ الذين ذكرهم عيسى البطوئي والذين اخذ عنهم ابن مريم، معتمدا على ما كتبه المؤلف نفسه، أمكننا معرفة الشيوخ الذين تتلمذ عليهم، وسنذكر البعض منهم على سبيل المثال لا الحصر:

- **محمد بن أحمد بن محمد الشريف المليتي**، والد ابن مريم ومعلمه الأول، والذي كان نقطة انطلاقه في طلب العلم وحفظ القرآن، أخذ عنه مبادئ اللغة والفقه بمدارس تلمسان، كان فقيها، عالما، موحدا، متصوفا، كثير التمسك بالسلف الصالح في كتم أسراره وحفظ أعواره، ترجم له قائلا: "يا والدي كل من قرأ عليك القرآن حفظه، فقال لي: وأنت يا ولدي كذلك". توفي سنة985ه/1577م. [3].

-**محمد بن محمد بن الشّرقي**، الفقيه العالم، المدرّس، الإمام المفتي، الخطيب، العدل القاضي، كان يدرس مختصر ابن الحاجب الفرعي، ورسالة ابن أبي زيد والتلمسانية، والحساب والفرائض بالجامع الأعظم بتلمسان، ومما يدل على أخذه عنه قوله عند ترجمته: "هو شيخنا ومفيدنا، علم الأعلام وحُجّة الإسلام، آخر حُفّاظ المغرب، المسند الرّاوية، المحدث العلامة المتفنن، القدوة الحافل الكافل، شيخ الإسلام... شيخ العلماء في أوانه، وإمام الأئمة في عصره وزمانه"، توفي عام964ه[4].

---

[1] - ابن مريم، البستان، المصدر السابق، ص: 65.

[2] - نفسه، ص: 66.

[3] - نفسه، ص: 458.

[4] - ابن مريم التلمساني، البستان في ذكر العلماء، تح: عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، لبنان، 2014، ص: 472.

- **أحمد بن محمد بن محمد بن عثمان بن يعقوب بن سعيد بن عبد الله المناوي** أصلا ونجارا، الورنيدي مولدا ودارا، عرف بابن الحاج، قضى الله له جميع الحاج، ووقاه شر كل ماقت ومحاج. يقول عنه: "وجدني يوما بالجامع الأعظم من تلمسان أقرأ كتاب التنوير في إسقاط التدبير، فقال لي مَنْ أمَرك إن تقرأ هذا الكتاب، فقلت له تبركا به، فقال لي نعم... قد أجزتك قراءته، ودعا لي بخير، ففتح الله عليّ"[1].

- **أحمد بن عيسى الورنيدي ثم الزكوطي يعرف بأبركان،** من جبل بني ورنيد، صاحب كرامات وولي صالح، له مكاشفات، يقول عنه: "جئت لزيارته يوما بعدما أقعده الكبر، دخلت عليه وسلمت عليه، فرد علي السلام، وجلست عنده ساعة وانصرفت... وكلما جئت لزيارته أُقبِّل يده واجلس معه، ومما أوصاني به "كظم الغيظ والعفو عن الناس، وإن لم تكن ديانة تكن صيانة، والصيانة ثوب الديانة"، لم يذكر تاريخ وفاته، ولكنه أورد خبرا مفاده إن وفاته كانت قبل سنة1014ه/1605م.

- **سعيد بن أحمد بن أبي يحي بن عبد الرحمن بن بلعيش المقري،** فقيه تلمسان، وعالمها ومفتيها، وخطيبها بالجامع الأعظم، ومما يؤكد تتلمذه عليه، قوله: "حَسَن المجلس، كثير الحكايات، عذب الكلام، فصيح القلم، كثير الأنصاف... له باع في فن حديث البخاري، علاّمة في التوحيد والفقه، أتقن كل علم". لم يذكر تاريخ وفاته أيضا، وفي ذلك يقول: "سمعت هذا من فم سيدي سعيد، ومنه سمعت إنه ولد في حدود ثمانية وعشرين وتسعمائة".

- **علي بن يحي السلكسيني الجاديري،** الفقيه الخطيب، العالم العلامة، المحقق المتفنن، الولي الصالح الصوفي، ومن دلالة تتلمذه عليه، ذكره لبعض أوصافه، وكيفية قضاء وقته، يقول عنه: "كان يظل نهاره صائما، يدرس العلم طول نهاره، ولا يفتر عن الدرس إلا في وقت الصلاة والأذان، والقارئ يقرئه في طريقه ذهابا ورجوعا، ويؤذن ليخرج من الخلاف في أجرة الإمام". تولى الإمامة بمسجد أجادير، وكان حريصا على التدريس. توفي سنة972ه/1564م.

- **محمد بن يحي المديوني المدعو أبا السادات،** الفقيه العالم، الولي الصالح، ذو المآثر السنية والأحوال المرضية، كان يدرس الرسالة ويدرس ما يناسبها، وإذا كان يقرئ ابن الحاجب يقرئ ما يناسبه من الرسالة هذا دأبه. يقول عن تتلمذه على يديه"وإنا أدرس العلم بالجامع الأعظم، وأحضر عند سيدي أبي السادات". توفي بعد سنة950ه/ 1544م، ودفن عند ضريح سيدي محمد بن يوسف السنوسي رحمه الله.

- **محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن عُرف بابن رحمة،** المطغري أصلا، الجادري دارا، الفقيه العالم المتصوف، الولي الصالح المتبع لسنة رسول الله(ص)، صاحب الكرامات، وكان رحمه الله مداوما على الوظائف والأذكار،

---

[1]- ابن مريم، البستان... المصدر السابق، ص: 121.

لا تأخذه في الله لومة لائم، توفي سنة1001ه/1593م، يقول عنه ابن مريم: "زرته في مرضه الذي مات فيه ودعا لي بخير وانصرفت رحمه الله"[1].

تلاميذه:

لم يتحدث ابن مريم عن تلاميذه، و لم يذكر منهم إلا القليل وفي مناسبات مختلفة، ولولا القائمة التي تقدم بها محمد البطوئي، وأكملها ابنه محمد الصغير لما تمكنا من الحصول على شيء في هذا المجال، ولكننا لا نشك في كثرة طلبته الذين صاروا فقهاء، وساهموا في إثراء الحركة العلمية والفقهية بالمغرب الأوسط، بل وبالجزء الشرقي من المغرب الأقصى. ولعل القائمة التي ألفها محمد البطوئي كما أسلفنا الذكر، لشيوخ مدينة تلمسان، والتي احتوت على تسعة عشر شيخا، من مختلف الكفاءات فيما بين سنوات1008/1028ه/1600-1628م، وهو التاريخ الذي كان فيه ابن مريم على قيد الحياة، وجعل في مقدمة هؤلاء شيخه ابن مريم، لدليل على المورد العذب الكثير الزحام[2]. وعليه، فقد اعتمدنا على كتاب البستان (محمد ابن أبي شنب) وعلى القائمة التي أوردها عبد القادر بوباية في تقديمه وعرضه لكتاب البستان، في تقديم قائمة تلاميذه، وهي كما يلي:

– علي بن منصور الشرقي الذي قرأ عليه القرآن، ومحمد شقيقه، ومحمد بن يوسف الشرقي، ومحمد الندرومي، ومحمد بن عبد الله الحداد، وموسى بن أحمد، ومحمد بن سليمان الحجار، ومحمد بن عبد الله، ومحمد الساباني، ومحمد البطحي، ويبدوا إن هذه القائمة من المناقب التي بعث بها محمد الصغير إلى محمد البطوئي بعد رحيله عن مدينة تلمسان بعد سنة1028ه/1628م

وقد ألحق بهذه القائمة، قائمة أخرى، ومن جملتها: أحمد المقري، وسعيد بن أحمد المقري، وعثمان الراشدي العطافي، ومحمد الزنداري، ومحمد السنوسي بن سيدي عبد الرحمن بن موسى الوجديجي، وعمر بن عبد الرزاق، كما قرأ عليه العلم أيضا، أحمد الجراري، والحاج عمر الحانوتي، وعلي بن موسى، وعثمان بن عبد الرحمن المطماطي، والحاج سليمان الصالح الحجازي، وحواما بن يوسف الوليزي، وأحمد بن إبراهيم بن مريم، وعلي بن محمد الشريف، وموسى الشاوي، واحمد الحجام الزواوي، وأخوه إبراهيم بن محمد بن مريم. وما

---

[1]– للمزيد من المعلومات حول شيوخ ابن مريم ينظر: ابن مريم، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، تق: عبد الرحمن طالب، طبعة ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص: 477.

[2]– حسن الفكيكي، من أعلام الريف الشرقي في القرن الحادي عشر الهجري: عيسى بن محمد الراسي البطوئي، مجلة دعوة الحق، ع: 250، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، المغرب الأقصى، 5-6-1433ه/26-12-2012م، ص: 75.

يمكن ملاحظته من هذه القائمة، إن معظم من تتلمذ عليه من أبناء المنطقة، وإن العلوم التي درّسها لم تخرج عن العلوم الشرعية الفقهية[1].

مؤلفاته:

ذكر ابن مريم تأليفه في نهاية كتابه البستان، ويبدو إنه كان حريصا على ذلك، فيذكر إن معرفة الكتب وأسماء المؤلفين من الكمال، ومعرفة طبقات الفقهاء من مهمات الطالب، وكذلك ما ألفوه في حصر المسائل، مستشهدا بابن الخطيب لما سئل عما وقع له من التأليف، فأملى ما صادف زمانه من ذلك حرصا على هذه المسالك. كما يبرر ذلك أيضا بقوله: وقد سألني ولدي رضي الله عنه وعلّمه وبارك فيه وأنعم عليه عما وقع لي من التأليف ليكتب ذلك، فأمليت عليه ما صادفه زمانه لحرصه على هذه المسائل ولنسردها هنا تكملة للغرض... إلى إن يقول: "هذا ما أمكنني جمعه وأما الإحصاء فلا أقدر على إحصائهم"[2]. وقد حدد ابن مريم عدد مؤلفاته في احد عشر تأليفا، أغلبها شروح وتقاييد في أمور الفقه، والعقائد، والذكر، والكرامات، والزهد، والتراجم، أشهرها "البستان". وقبل استعراض قائمة مؤلفاته، أود الإشارة إلى ملاحظة، وهي إن مؤلفاته لم تتعدي الإطار الزماني للقرنين التاسع والعاشر الهجريين/الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، و لم تخرج عن الحيز الجغرافي للمغرب الأوسط، ومنها:

-**البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان**، وهو أهم وأشهر وأبرز وآخر ما كتب من مؤلفات، حيث انتهى منه سنة1011ه/1605م بمدينة تلمسان[3].

-**غنية المريد لشرح مسائل أبي الوليد.**

-**تحفة الأبرار وشعار الأخيار في الوظائف والأذكار المستحبة في الليل والنهار.**

-**فتح الجليل في أدوية العليل** لعبد الرحمن السنوسي المعروف بالرقعي، مخطوط بالمكتبة الوطنية المغربية(الخزانة العامة سابقا) بالرباط، وهو شرح على أرجوزة أبي زيد عبد الرحمن بن علي السنوسي[4]

-**فتح العلام لشرح النصح التام للخاص والعام** لسيدي إبراهيم التازي.

1- ينظر: عبد القادر بوباية، عرض وتقديم كتاب"البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، مجلة التاريخ العربي، ع: 62، تصدرها جمعية المؤرخين المغاربة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1331د/ 2013م، ص: 203-248.

2- ابن مريم، البستان، المصدر السابق، ص: 308 -315.

3- عادل نويهض، المرجع السابق، ص: 292-293.

4- عبيد بوداود، جرد وإحصاء المخطوطات الجزائرية بالمغرب الأقصى، منشورات مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، مكتبة الرشاد، الجزائر، 2013، ص: 69.

-**كشف اللبس والتعقيد عن عقيدة أهل التوحيد**، وهي في الحقيقة تسمى "عقيدة أهل التوحيد المخرجة من ظلمات الجهل وربقة التقليد المرغمة أنف كل مبتدع عنيد"، والمعروفة أيضا ب"العقيدة الكبرى"، شرحها ابن مريم في هذا الكتاب، وهي لمحمد بن يوسف السنوسي ، مع الملاحظة إن للسنوسي شروحات أخرى، منها: شرح العقيدة الصغرى مخطوط رقم6757، بالخزانة الحسنية بالرباط، وشرح صغرى الصغرى مخطوط رقم 726 بخزانة القرويين[1].

- **التعليقة السنية على الأرجوزة القرطبية.**
- **شرح على مختصر الصغرى** اختصرها سيدي سليمان بن أبي سماحة للنساء والعوام.
- **تأليف حديث نبوي وحكايات الصالحين**
- **تعليق مختصر على الرسالة في ضبطها وتفسير بعض ألفاظها**
- **شرح المرادية للتازي.**
- **تفسير الحسام في ترتيب وظيفة التازي وما يحصل من الأجر لقارئها.**
- **تفسير بعض ألفاظ الحكم لم يكمل.**

وفاته:

إذا كان المترجمون لابن مريم اتفقوا على مكان وفاته، وهذا ما يظهر من خلال ما أورده صاحب كتاب البستان نفسه، إلا إنهم اختلفوا على سنة وفاته، اللهم إلا ما ورد بالتقريب في بعض المراجع من خلال بعض الإشارات، وسأذكر البعض منها حسب أهميتها بالترتيب. فالمستشرق بروفنزالي مترجم كتاب "البستان"، ذهب إلى القول بأن وفاته كانت سنوات قليلة بعد سنة1011ه/1602م)[2]، بينما ذكر الحفناوي قوله: "ومن تاريخ تأليف البستان، يُعلم إنه كان حيا سنة1014ه [3]، ونفس التاريخ يقره خير الدين الزركلي[4]، في حين يذهب عادل نويهض إلى أبعد من ذلك، حين قال: "كان بقيد الحياة سنة1025ه [5]. ولكن يبدو إن التاريخ الأقرب إلى الصواب، هو ما أورده عيسى بن محمد البطوئي الذي تتلمذ على الشيخ ابن مريم، ولازمه مدة من الزمن، فبعد رحيله عن مدينة تلمسان، وبتصريح منه سنة1028ه، كان مازال متأثراً بفقدان شيخه، ينتظر وصول المناقب التي وعده بها بإرسالها إليه محمد الصغير، وقول الشيخ ابن مريم لابنه محمد الصغير وهو

---

[1]- محمد العابد الفاسي، فهرس مخطوطات خزانة القرويين، ج1، دار الكتاب، ط1، الدار البيضاء، 1399ه/1979م، ص: 350.
[2]- Provenzali, El-Boustane, p : 5-6.
[3]- الحفناوي، المرجع السابق، ص: 151-152.
[4]- الزركلي، الأعلام، ج7،المرجع السابق، ص: 61-62.
[5]- عادل نويهض، معجم أعلام. . . ،المرجع السابق، ص: 292.

يحتضر: "لو كان عيسى البطوئي وأحمد بن ونيس ما غسلني غيرهما[1]، وهو ما يجعل الاستدلال بأن ابن مريم توفي سنة1028ه، أو قبلها بقليل.

ثانيا: دراسة الكتاب ومحتواه

الكتاب ونسبته إلى مؤلفه:

من المسائل الهامة والضرورية التي ينبغي إن يشتغل بها الباحث قبل أي كلام عما في الكتاب من محتويات، هي إثبات نسبة الكتاب إلى مؤلفه، ولذلك يحسن بنا إن نقدم الأدلة التي تثبت ذلك. فمن هذا الجانب لم يترك لنا ابن مريم مجالا للبحث عن اسم كتابه، وعن نسبته إليه، إذ كفانا عبء النصب في البحث عنهما، فقد ذكر في تقديم كتابه قوله: "وسميته ب"البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان"[2]، وقوله أيضا: "وها هنا انتهى الغرض فيما قصدناه على الوجه الذي بيناه، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وفي سنة إحدى عشرة وألف بمدينة تلمسان وضعناه، ونسأله جلت قدرته إن هذا التأليف المشتمل على عدد أولياء تلمسان وفقهائها في حوزها وعمالتها الأحياء منهم والأموات"[3].

للعلم، إن ما ذكره محقق كتاب"البستان" محمد بن أبي شنب في تقديمه، يعتبر من الأدلة الثابتة، قوله: "فلما كان الكتاب المسمى"البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان للشيخ أبي عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الشهير بابن مريم... من أعظم المؤلفات في تراجم العلماء والسادات بادرنا إلى طبعه"، وقد جمع منه ثمانية نسخ، وزيادة راجع الأصول التي نقل عنها المؤلف.

وإن كانت كل هذه الإشارات من المؤلف في الكتاب قاطعة دالة، تثبت نسبة الكتاب إلى مؤلفه، فإنه يتحتم علينا إن نشير إلى المصادر والمراجع (في الهامش) التي أجمعت على نسبة كتاب"البستان" إلى ابن مريم، كما إن معظم المؤرخين الجزائريين المختصين بالبحث والدراسة حول تراث ابن مريم، أجمعوا على نسبة كتاب "البستان" إلى مؤلفه، ولعل ما يذكره أبو القاسم سعد الله في كتابه" تاريخ الجزائر الثقافي" في أكثر من مرة يثبت ذلك[4].

1- حسن الفكيكي، من أعلام الريف الشرقي في القرن الحادي عشر الهجري، المرجع السابق، ص: 75.

2- ابن مريم، البستان، المصدر السابق، ص: 8.

3- نفسه، ص: 36.

4- من الكتاب الذين اثبتوا نسبة كتاب"البستان" لابن مريم، عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 293، الزركلي، الأعلام، ج7، ص: 61-62، والحفناوي، تعريف الخلف برجال بالسلف، ج1، ص: 148، محمد مخلوف، شجرة النور، ص: 296، وعيسى البطوئي، مطلب الفوز والفلاح. . . ص: 17، وتاريخ أداب اللغة العربية ج3، ص: 343، ومعجم المطبوعات، ص: 236، ومعجم المؤلفين، ج11، ص: 189، وفهرس دار الكتب المصرية، ج5، ص: 57، ودائرة المعارف، ج3، ص: 33.

أما عن زمن تأليف الكتاب، ففي اعتقادنا إن العبارة التي وردت في خاتمة كتابه "البستان" قوله: "وها هنا انتهى الغرض فيما قصدناه على الوجه الذي بيناه، وفي سنة إحدى عشرة وألف بمدينة تلمسان وضعناه" لا تناسب التاريخ الحقيقي لسنة التأليف، لأن هناك تواريخ استقيناها من تراجمه لبعض العلماء، تثبت عكس ذلك، فقد ذكر عند ترجمته لشيخه سعيد بن احمد بن بلعيش المقري إنه كان حيا سنة1011ه، ونفس التاريخ يكرره عند ترجمته للشيخ محمد ابن العباس الكبير العبادي، قوله: "توفي يوم الجمعة سنة1011ه، بينما التاريخ الثاني الذي يذكره وهو الأرجح في رأينا، وهو عندما يترجم لشيخه محمد عاشور بن علي بن يحي السلكسيني بقوله توفي سنة1014 [1]، وهو ما يتوافق مع ما ذكره كلا من عادل نويهض الذي يذكر إن ابن مريم انتهى من تأليفه "البستان" سنة1014ه، وصاحب كتاب "شجرة النور الزكية" الذي يؤكد إن ابن مريم كان حيا في تلك السنة.

سبب تأليف الكتاب:

لعل هناك نوعان من الدوافع، دفعت بابن مريم إلى تأليف كتابه، منها الدوافع الذاتية الخاصة، كون إن ابن مريم ممن يتفقون على إثبات الكرامات للأولياء الصالحين، وممن يصدقونها، سواء أكانت في العلوم والمكاشفات، أم في القدرة والتأثيرات. فابن مريم يؤكد على البعد التاريخي والتربوي للكرامة، والكرامة في نظره، إنما هي في تربية النفس، وتخلصها من أوصافها الرديئة، والكرامة المعنوية هي أجل وأفضل من الكرامة الحسية[2].

وعليه فإن ابن مريم قد حدد دوافع تأليفه في مقدمة كتابه بهذا المعنى تقريبا، حيث قال: "وثبت إن المرء مع من أحب، فكيف بمن زاد على مجرد المحبة بموالاة أولياء الله تعالى وعلمائه وخدمتهم ظاهرا وباطنا، بتسطير أحوالهم، ونشر محاسنهم، في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، نشرا يبقى على ممر الزمان"[3]. أما من الدوافع العامة، فمنها ما أشير عليه بتأليف يتضمن جمع أولياء تلمسان وفقهائها الأحياء منهم والأموات، خاصة وإن المؤرخين الجزائريين في تلك الفترة(ق9-10ه) قد اهتموا اهتماما كبيرا بكتب التراجم والطبقات، وأولوها جانبا من الأهمية في دراساتهم التاريخية.

موضوعات الكتاب:

قسم ابن مريم مؤلفه حسب منهجية الكتابة إلى: تمهيد، عرض، وخاتمة. فأما التمهيد فقد عرض فيه دوافع وأسباب تأليفه، وعنوان الكتاب، أما القسم الثاني(المتن) فهو عبارة عن ترجمة لعلماء وأولياء مدينة تلمسان

1- ابن مريم، البستان، المصدر السابق، ص: 287.

2- ابن عطا الله السكندري، لطائف المنن، تح وتع: عبد الحليم محمود، دار المعارف، ط3، القاهرة، مصر، 2006، ص: 59.

3- ابن مريم، البستان، المصدر السابق، ص: 6.

وأحوازها، ترجم فيه لاثنين وثمانين ومائة عالم وولي ولدوا بتلمسان، أو عاشوا بها، وأشار المؤلف في أول الكتاب إلى هدف تأليفه، فقال: "إنه يقصد جمع أولياء تلمسان وفقهائها الأحياء منهم والأموات، وجمع من كان بها وبحوزها وبعمالتها".

في الحقيقة، إن كتاب"البستان"زودنا بمعلومات في غاية الأهمية عن الحركة العلمية بتلمسان، فذكر في خاتمة الكتاب هدفا علميا، فقال: "اعلم إن معرفة الكتب وأسماء المؤلفين من الكمال، ومعرفة الفقهاء من مهمات الطالب، وكذلك ما ألفوه في حصر المسائل".

رتب ابن مريم تراجمه حسب حروف الهجاء، مبتدئا بمن اسمه"أحمد"، ومنهيا تراجمه بمن اسمه "يحي"، مع الإشارة، إلى إن تراجمه تفاوتت في الطول والأهمية، فبعضها لا يزيد على كلمات خالية من أي معرفة تاريخية أو علمية ومنها الترجمة التي خصصها لهارون أبو موسى التونسي، التي يكتفي فيها بكلمات، قوله" الشيخ الإمام العلامة الصالح، إمام جامع الزيتونة بها"[1]، وترجمته للشيخ أبي القاسم الكنابشي التلمساني التي يقول فيها: "الشيخ الإمام العالم الورع الصالح"[2]. بينما خصص لبعض العلماء عدة صفحات من كتابه، ذاكرا ومستفيضا لمعلومات كبيرة وكثيرة، قيِّمة وافية للمترجم له، ومن ذلك ما خصصه لأحمد المناوي الورنيدي في سبعة عشرة صفحة(ص8-ص24)، وللحسن بن مخلوف الراشدي الشهير بأبركان في عشرين صفحة (ص74-ص93)، وهذه التراجم الموسعة سمحت للمؤلف بذكر كل التفاصيل الخاصة بالمترجم (الأصل والنسب، الشيوخ والتلاميذ، الإجازات، المؤلفات، الرحلات، وحتى قصائد شعرية ومقتطفات نثرية لبعض المترجمين).

احتوى كتاب"البستان" على قصائد شعرية كثيرة ومتنوعة، يذكر القصيدة كاملة تارة، وتارة أخرى يقتطف منها أبيات بالمناسبة، وتارة ثالثة يكتفي ببيت واحد، ومن الأمثلة على ذلك، ما يذكره من أشعار، وهو يترجم للشيخ إبراهيم بن علي الخياط من قصيدة له تسمى ب"الدالية" وهي في النصح التام للخاص والتام من المسلمين، وقصيدة أخرى تسمى ب"اللامية" في الأذكار، شرحها ابن مريم. أما عن الإجازات فقد تنوعت هي الأخرى بتنوع الترجمات، ومنها نص إجازة الشيخ ابن زكري للشيخ أحمد بن الحاج البيدري[3].

أما الخاتمة فجاءت في شكل محطات، حاول المؤلف من خلالها إبراز بعض القيم العلمية والأدبية، مذيلا كلامه بأبيات شعرية في قالب حكم، وذكر قائمة لمصادره التي اعتمدها في تأليف كتابه، ثم فهارس للكتاب، وتضمنت فهرسا في التراجم، وفهرسا في أسماء الرجال والنساء، وفهرسا ثالثا في أسماء الأماكن والبلدان.

1- نفسه، ص: 490.

2- نفسه، ص: 292.

3- ابن مريم التلمساني، البستان...،تح: عبد القادر بوباية، المصدر السابق، ص: 83.

منهج الكتاب وأبرز مميزاته:

إن كتاب البستان في غاية الأهمية عن الحركة العلمية بتلمسان وأحوازها بصفة خاصة، والمغرب الأوسط بصفة عامة، لأنب نوع الترجمة التي يقدمها ابن مريم، هي تراجم رجال أهل مذهب واحد تقريبا، فإدراج كتاب "البستان" في أدب المناقب التي جمعت مجموعة أفراد ذات الطابع الديني، يكون من بين المناهج التي اعتمد عليها بعض المؤرخين في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وهم بدورهم أخذوها من المؤرخين السابقين لهم.

لم يقسم ابن مريم كتابه إلى أقسام أو إلى أبواب أو إلى فصول، و لم يكتب عناوين، وإنما رتب تراجمه حسب حروف الهجاء، مما جعل كتابه يتميز بالوضوح والترتيب، ترجم فيه لاثنين وثمانين ومائة عالم وولي، ولدوا بتلمسان أو عاشوا بها حسب ما ذكره المؤلف في مقدمة كتابه[1].

إن المتتبع لتراجم ابن مريم واحدة واحدة، يتبين إنه أقحم جملة من التراجم مما لا علاقة له بتلمسان، أي لا يتوفر فيهم شرط المؤلف (المولد بتلمسان أو العيش فيها أو زيارتها)، كترجمة خليل بن إسحاق بن موسى بن شعيب المعروف بالجندي ضياء الدين أبو المودة المصري، وترجمة يوسف بن عمر الأنفاسي أبو الحجاج الفاسي المغربي، يقول ابن مريم في حقهما إنهما لم يكونا من تلمسان، لكن أذكرهما تبركا بهما. وفي المقابل، فإن هناك العديد من العلماء والأولياء ممن توفرت فيهم الشروط السابقة الذكر، لم يرد لهم ذكرا في كتاب "البستان"، وفي مقدمتهم أبو زكريا يحي بن موسى المازوني المغيلي صاحب كتاب "الدرر المكنونة" المتوفى بتلمسان عام883هـ/1478م، وحتى وإن قدم بعض الميررات لهذا وذاك، والتي تبدو في اعتقادنا شكلية وبسيطة وغير مقنعة، تتطلب منا الاحترام والقبول، إلا إنها أخلت بالشرط الأساسي، وهو انتماء العلماء والأولياء المترجمين إلى حاضرة تلمسان وأحوازها[2].

تنوعت مصادر ابن مريم في كتابه"البستان"، فمنها المنقولة من الكتب، والتي أختُلف في نقلها باستخدام عدة أساليب، إما بذكر اسم الكتاب دون ذكر اسم المؤلف، مثل قوله "كما ذكر ذلك في رحلته ووقع اسمه في المعيار"، أو بذكر اسم المؤلف دون ذكر عنوان الكتاب، فيقول: "قال الإمام ابن مرزوق سمعت شيخنا..."، أو يذكر اسم المؤلف والكتاب معا صريحا من قوله: "قال الشيخ ابن صعد التلمساني في النجم الثاقب" والأمثلة كثيرة ومتنوعة في تراجمه. أما المنقولة مشافهة وسماعا، فهي الأخرى تعددت، ولعل ما يذكره عن شيخه قاسم العقباني خير دليل على ذلك، فيقول: "فسمعت منه وأخذت عنه ولازمته بعد وفاة سيدي أحمد بن زاغو إلى

---

[1]- نفسه، ص: 5.

[2]- نفسه، ص: 5.

إن ارتحلت من تلمسان، ولما عدت إليها وجدته حيا، قرأت عليه بعض مختصر ابن أبي زيد للمدونة ومختصر خليل والحكم لابن عطا الله وشرحها لابن عباد... وحضرته في كتب متعددة في علوم شتى... "[1]،

نستنتج من ذلك، إن أسلوب ابن مريم في نقله من المصادر، ينقل نصا ويدل القارئ على ذلك المنقول ببعض العبارات الواضحة منها، قوله: "قال الإمام ابن مرزوق... وقد سئل في مجلس تفسيره... وهذا في غاية الحسن، انتهى"، وقوله: "انتهى ما نقله الحافظ"، فهو بذلك يحدد بداية الرواية ونهايتها، وكقوله: "انتهى ما ذكره.." أو "انتهى، فأنظره" أو "انتهى الكلام ملخصا"، وفي ذلك يقول: "وقد كتب في زمان قاضي الجماعة بتونس يعقوب الزغبي مسألة... قلت وقد ذكر هذا الفرع الشيخ حلولو في شرح المختصر فأنظره"[2].

يظهر ابن مريم مسألة أخرى هامة في هذا المجال، هي تحلية مترجميه بأوصاف ونعوت تشعر القارئ بأنهم ليسوا في مستوا واحد من الضبط، وإنما كانوا طبقات، فنراه يترجم لمحمد بن إبراهيم التازي بأنه كان "إماما في علوم القرآن، مقدما في علم اللسان، حافظا للحديث، بصيرا بالفقه وأصوله، من أهل المعرفة التامة بأصول الدين، إماما من أئمة المسلمين"، ويطري عبد الله بن محمد التلمساني قائلا: "كان نحويا جرى منه النحو مجرى الدم، حافظا للغة والشعر والأمثال"، ويأتي دون هؤلاء من اقتصر على وصفهم بالمهنة والاشتغال، مثل وصفه للشيخ ريان العطافي، قوله: "الفقيه الأستاذ النحوي"[3].

ولا بد إنه كان لهذا التصنيف أثره في إقبال أو انصراف الطلبة، بحسب ارتقائهم في الطلب إلى أفاضل الشيوخ، وهو ما يشير إليه بوضوح ابن مريم في حديثه عن النحوي أبي عبد الله بن زيد المدرّس بفاس الذي كان يقرئ أولاد الشرفاء والعظماء لعلو قدره في النحو والقراءة[4].

من بين المميزات التي تميز بها منهج الكتابة عند ابن مريم أيضا، هي تلك الصورة التي يقدمها في كتابه عن النشاط العلمي في تلمسان في تلك الفترة، وهي صورة مطابقة تمام المطابقة لواقعه، تمثلت في سيطرة ألفية بن مالك على النشاط العلمي دراسة وشرحا، وحفظا. وهو أمر طبيعي جدا نظرا للعناية الكبيرة التي أولوها العلماء للألفية، فقام البعض بشرحها وإعراب أبياتها، والبعض الآخر بوضع حواشي وتعليقات عليها، وعليه لم يكن ابن مريم ليغفل التنبيه عليه في تراجمه، كترجمة الحسن بن مخلوف المزيلي الراشدي الشهير بأبركان الذي كان يقرأ ألفية ابن مالك قراءة حسنة، وحدو بن الحاج سعيد المناوي الذي كان عارفا بألفية ابن مالك، كما يذكر ابن مريم في كتابه عدد من الشيوخ المتخصصين في تدريس الألفية، مثل أحمد بن عيسى أبركان، وسعيد

1- نفسه، ص: 57.

2- نفسه، ص ص: 130-150.

3- نفسه، ص ص: 58-101-120.

4- نفسه، ص: 117.

المناوي، وابن مرزوق الحفيد. وإن من الشروح المتداولة، شرح المرادي المعروف ب"توضيح المقاصد والمسالك"، وفي ذلك يقول القلصادي في معرض حديثه عن شيخه ابن مرزوق الحفيد: "وحضرت عليه بعض الألفية وبعض المرادي عليها"[1].

التزامه بالأمانة العلمية في نقله من المصادر التي أخذ عنها، واهتمامه بآراء العلماء والمؤرخين الذين نقل عنهم، وإبراز أرائهم ومواقفهم والتعليق عليها في بعض الأحيان بما يدعو إلى التأييد أو المخالفة، أو بترجيحه لقائل الرواية أو الخبر، وإلمامه بما تقتضيه بعض المواضع من الزيادة في التوضيح والإبانة بغية كشف الغموض، وذلك بكلمة "قلت" أو "فائدة" ولعل العبارة التي نوردها تلخص ذلك، قوله: "وذكرت يوما قول ابن الحاجب فيما يحرم من النساء بالقرابة، وهي أصوله وفصوله... فتأملته فوجدته كما قال... انتهى. نقله ابن الخطيب في ترجمة المقري في تاريخ غرناطة، ونقله العلامة أحمد الونشريسي في فوائد المقري أيضا. قلت ولما أوقفت شيخنا سيدي محمد بن محمود بغيع على هذه المسألة، أعني قوله إن تركب الخ، تأملها وعجب بها كثيرا وصار ينقلها في دروسه، انتهى. قلت وإنما ذكرته في هذا الذيل لأجل هذه الفائدة، صح من نيل الابتهاج بتطريز الديباج"[2].

ولكن بعض المرات لا يشير المصنف إلى موضع الاقتباس من الكتاب الذي يرجع إليه، مما شكل صعوبة في العودة إلى موضع بعض هذه الاقتباسات، وكانت صعوبة الوصول إلى الاقتباس تزداد إذا كان المصدر متعدد الأجزاء، وللمؤلف عدة مصنفات تتشابه، ومن ذلك ما ذكره وهو يترجم لمحمد بن يوسف بن عمر السنوسي، قوله: "ولما ألف بعض عقائده"، للعلم إن للسنوسي شروحات على العقائد الصغرى وصغرى الصغرى وغيرها[3].

من أساليب كتابته أيضا، الاستشهاد بالشعر، لأن الشعر ظل بمضامينه الحية، صورة للواقع التاريخي في أبعاده الاجتماعية والحضارية وحتى النفسية للأمة العربية والجزائرية على وجه الخصوص، فقد وجد فيه المؤرخ مادة في الاستشهاد، وركيزة من ركائز الاعتماد، وصوتا من أصوات الحقيقة، وعنصرا من العناصر المهمة في عملية التوثيق للأخبار[4]. ولهذا أدرك ابن مريم بوضوح قيمة النص الشعري، فراح يستشهد بشعراء عصره خاصة، واحتلت شواهده الشعرية نسبة لا بأس بها في كتابه، معظمها منسوب، والقليل غير منسوب محيلا إليه

1- نفسه، ص: 221.

2- نفسه، ص: 154.

3- محمد القادري وآخرون، فهرس المخطوطات العربية والأمازيغية، ج1، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الأنسانية، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 1985، ص: 118-119.

4- أميري نف، المؤرخون وروح الشعر، تر: توفيق اسكندر، مراجعة: محمد شفيق غربال، ط1، مطبعة لأنجلو-مصرية، القاهرة، مصر، 1961، ص: 8.

بقوله: "وأنشد بعضهم"، أو "وقال آخر"، أو "وأنشد بعض الفضلاء". وكان في استشهاده بالشعر، يذكر البيت تارة، وتارة أخرى مطلع القصيدة ببيتين أو ثلاث، وتارة يذكر القصيدة كاملة، ومنها القصيدة التي أنشدها ابن مريم نفسه في حق شيخه أبا العباس الذي أجازه، وقد بلغت أبياتها اثنان وأربعين بيتا، يقول في مطلعها:

يا من ينادي طالبا إن يقصدا ما للندآ يصلح نحو أحمد
اقصد آبا العباس بيت عرف فذاك ذو تصرف في العرف[1]

لعلامات الترقيم منزلة كبيرة في تيسير فهم النصوص وتعيين مضامينها، والترقيم عنصر أساسي من عناصر التعبير الكتابي، وهو وضع رموز اصطلاحية معينة بين الجمل أو الكلمات، لتحقيق أغراض تتصل بتسيير عملية الإفهام من جانب الكاتب، وعملية الفهم على القارئ، ومن هذه الأغراض تحديد مواضع الوقف[2]، واستيفاء بعلامات الوقف المتعارف عليها، فإننا لم نقف في كتاب "البستان" على أثر لها إلا في حالتين أو ثلاث، حينما يضع النقطة(.) مثلا في ترجمته لنص محمد بن مرزوق الحفيد، والغريب إنها تحل محل الفاصلة(،) في معظم المواضع[3]... مع ملاحظة نبديها هنا وهي لسنا ندري أهي من وضع المؤلف أم المحقق.

ولنا إن نشير في الأخير، إلى حركة المثاقفة بين المدن العربية الكبرى التي حاول ابن مريم إبرازها من خلال التواصل العلمي الثقافي أولا بفاس، وبجاية، ثم بالقطر الأندلسي، وهو ما يشير إليه من خلال ترجمتة للشريف عبد الله بن محمد التلمساني الذي تخرج بنحويين كبيرين من فاس مدة إقامة والده الشريف به[4] ، وهذا لا يعني عدم وجود علاقات مع أقطار أخرى، ففي ترجمته لابن مرزوق الحفيد آثارا تدل على ذلك، حيث لقي الشيخ سراج الدين البلقيني بمصر، والحافظ أبي الفضل العراقي، والمجد الفيروز آبادي صاحب القاموس[5].

مصادره:

من خلال تتبعنا لكتاب "البستان" بكثير من التفحص والتمعن لجميع موضوعاته، ومع استقصائنا لمختلف تراجمه، تبين لنا إن ابن مريم اعتمد في مؤلفه على جملة من المصادر المختلفة والمتنوعة، وذات الأهمية التاريخية والعلمية الكبيرة، والذي يرعى انتباهنا من هذه المصادر ما كان له علاقة بالتاريخ مباشرة أو على صلة به.

[1]- ابن مريم، البستان، المصدر السابق، ص: 20-21.
[2]- محمد عبد السلام هارون، تحقيق النصوص ونشرها، مكتبة الخانجي، ط7، القاهرة، 1998، ص: 86.
[3]- نفسه، ص: 202.
4-نفسه،ص:117.
5-نفسه،ص:209.

وقبل استعراض بعضا من المصادر التي اعتمد عليها في كتابه، أود تقديم طريقة عرضه لمصادره، فقد يذكر اسم المؤلف وعنوان كتابه معا، مثل قوله: "قال الشيخ ابن عطا الله في تأليفه المسمى بالطريق الجادة"، وقوله أيضا في مناسبة أخرى: "قال الشيخ ابن صعد التلمساني في النجم الثاقب"، وقوله: "وقد أطنب ابن الخطيب في الإحاطة في ذكر فوائده وقصائده"، والأمثلة من ذلك كثيرة.

كما إنه في مواضع أخرى، يشير إلى اسم المؤلف فقط، مثل قوله: " قال فيه الشيخ ابن غازي وهو صاحبنا الأود"، وقوله أيضا: "وقال الحافظ السخاوي..."، وقوله: "قال المقري كان أبو زيد رحمه الله من العلماء الذين يخشون الله".[1]

لعلنا ما لاحظناه على مصادر ابن مريم، الكثرة والتنوع، فمنها المصادر التاريخية، والمصادر الفقهية، ومصادر التراجم، والفهارس، ونظرا للقائمة الطويلة، سأكتفي بنماذج من المصادر التي اعتمدها، وسألحق الباقي في الملاحق، ومنها:

-**نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، لأبي العباس احمد بابا بن احمد التنبكتي(ت1036ه/1627م)، اقتبس عنه ابن مريم في عد مناسبات، يعتبر هذا الكتاب موسوعة للتراجم، فهو يتضمن أكثر من ثمانمائة ترجمة من أعلام المذهب المالكي بالمغرب الأوسط إلى أواخر القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي[2].

-**بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، ليحي بن محمد بن محمد ابن خلدون زكريا الحضرمي الاشبيلي(ت780ه/1378م)، وهو كتاب يذكر فيه معلومات تهم تاريخ المغربين الأوسط والأقصى، ويؤرخ لدولة بني عبد الواد ملوك المغرب الأوسط، كما يترجم فيه أيضا لأعلام من تلمسان، والنازلين بها من المغاربة والأندلسيين، وأنساب البربر، ودول المغرب الأوسط قبل عبد الواد[3]، وقد اعتمد ابن مريم عليه كثيرا في ترجمة كثير من العلماء والأولياء لمدينة تلمسان.

-**النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب**، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن صعد الأنصاري التلمساني(901ه/1496م)، مصدر استوحى منه كرامات وسلوكات بعض رجالات الطرق الصوفية، وقد انتهج ابن مريم منهج ابن صعد في ترتيب تراجمه بالتعريف بهم ما أمكن، كما يختم ترجمته عادة بذكر بعض من حكم المترجمين نظما أو نترا، وفي ذلك ينقل ما قاله محمد العربي الغرناطي في ابن صعد

1- نفسه، ص: 7-: 57-58-124-157.

2- محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج2، منشورات كلية الآداب والعلوم الأنسانية، الرباط، 1983، ص: 101-102.

3- نفسه، ص: 101-102.

إذا جئت لتلمسان فقل لصنديد ها ابن صعد

علمك فاق كل علم مجدك فاق كل مجد[1]

-**الديباج المذهّب في معرفة أعيان علماء المذهب**، للقاضي إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون اليعمري المدني المالكي(ت799ه/1397م)، وهو عبارة عن معجم ترجم فيه ابن فرحون لأعيان المالكية، مبتدئا بمؤسس المذهب المالكي مالك بن إنس، ولأعيان المالكية إلى عصره، رتبهم على حروف المعجم.[2] اعتمد عليه كثيرا في ترجمة الأعلام بالمغرب الأوسط.

-**تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب(رحلة القلصادي)**، لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد القرشي البسطي الشهير بالقلصادي(ت891ه/1486م)، يذكر المؤلف في كتابه المناطق التي رحل إليها في كل من المغرب العربي كطرابلس وتونس وتلمسان، والمشرق العربي كمصر والحرمين الشريفين، مسجلا أسماء العلماء والمشايخ الذين يترجم لبعضهم، وقد بلغ عدد المترجم لهم ثلاث وثلاثين عالما، وقد اعتمد ابن مريم في الترجمة لبعض علماء تلمسان الذين ذكرهم القلصادي في رحلته.

-**شرف الطالب في أسنى المطالب**، لأبي العباس احمد بن حسن علي بن ميمون الشهير بابن قنفذ القسنطيني(ت810ه/1407م)، وهو شرح على القصيدة المسماة "القصيدة الغزلية في ألقاب الحديث" لابن فرج الاشبيلي، وهي المنظومة الشهيرة ب"غرامي صحيح"، وفيها انتهج منهجا يقوم على شرح الجانب اللغوي، وإعراب كلمات الأبيات الشعرية، ثم حصر أنواع الحديث وآداب كتابته، وآداب العالم والمتعلم، والناسخ والمنسوخ، والصحابة والتابعين والرواة. نقل عنه ابن مريم بعض الفقرات حرفيا خاصة من الفصول الأخيرة، ومن ذلك مثلا، قوله: "ومعرفة الكتب وأسماء المؤلفين من الكمال، ومعرفة طبقات الفقهاء من مهمات الطالب، وكذلك ما ألفوه في حصر المسائل"[3].

قيمة الكتاب:

لقد اعتمد ابن مريم على سعة فكره التاريخي، وعلى خبرته الأدبية والأخلاقية في تراجمه للعلماء والأولياء، فهو يعالج الموضوع من حيث المعطيات الاجتماعية والثقافية والعلمية، مع الالتفات في شتى المناسبات إلى الواقع التاريخي الذي عاشه أو شاهده، فهو لا يكتفي بذكر الحدث، بل ينظر إليه من خلال مقتضيات الإطار العام، ومتطلبات وظيفة من يترجم له.

1- ابن مريم، البستان، المصدر السابق، ص: 252.

2- ابن فرحون، الديباج المذهّب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح: مأمون بن محيي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1417ه/1996م، ص: 9-10.

3- ابن مريم، البستان...، المصدر السابق، ص: 508.

وعلى الرغم من إن كتاب "البستان" في علم التراجم، فإنه لا يخلو من جوانب متعددة، ويقدم للقارئ دراسة واقعية للموضوع الذي حدده المؤلف في مقدمة كتابه، ويتضمن عرضا شاملا للعلماء والأولياء الذين عرفتهم حاضرة تلمسان في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي. ومن هنا اكتسب مؤلف "البستان" قيمة تجلت في:

كونه من أهم المصادر الجزائرية في التراجم والتاريخ، فهو من جهة معجم في التراجم، ومن جهة ثانية كتاب في التاريخ، إلا إنه كتاب تراجم أكثر منه كتاب تاريخ، وبالرغم من ذلك، فإنه يلقي الضوء على أهم ظاهرة كانت منتشرة، ألا وهي "الكرامات".

كما تتأكد أهمية كتاب "البستان" في كونه مصدرا لتاريخ مدينة تلمسان خاصة، بما يزخر به من معلومات حول الحياة الثقافية العلمية، من خلال تراجم للعلماء وسلوكياتهم وتصوراتهم للحياة اليومية، وكذا بما تبرزه من نشاط صوفي كانت تعرفه الجزائر عامة ومدينة تلمسان خاصة.

يحتوي كتاب "البستان" على أخبار وروايات تاريخية، نقلها المؤلف من أمهات كتب التاريخ، والفقه، والتراجم، ومن الفهارس، أو مما سمعه وشاهده من الشيوخ الذين تتلمذ على أيديهم. وفي هذا الإطار، ومن بين القضايا التي يركز عليها هي أخذ العلوم عن المشايخ للعلماء المترجم لهم، قوله مثلا، وهو يترجم لأحمد بن محمد المناوي: "قرأ على سيدي أحمد بن محمد بن زكريا التلمساني الأصول والمنطق والمعاني والبيان، وكان ماهرا فيها، والحساب، وكان شاعرا ماهرا في عروض الشعر، وكان معاصرا للإمام محمد بن غازي"، ونفس المعلومات يذكرها لما يترجم لأحمد بن محمد بن زكري، قوله: " الفقيه الأصولي البياني المنطقي"، رابطا حدث معاصرته للإمام بن زاغي. كما يذكر بعض الروايات والتي هي أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة في باب الكرامات، والغريب في الأمر إنه لا يصدقها، قوله: "قلت والحديث لا أصل له في المرفوع"، ومن ذلك ما يذكره عن الشيخ عبد الرحمن اليعقوبي صاحب الكرامات العديدة، إنه كلم أبي مدين وهو في ضريحه وشاوره في عزل الترك، ولما سمع أبا العباس (ناقل الرواية) أراد الدخول عليهما، جذبه شيء من خلفه، فالتفت فلم يرى أحد، فعاود الكرة ثانيا وثالثا... فمنعه من الدخول[1]، والروايات من هذا القبيل في الكتاب كثيرة ومتنوعة.

ومما لا شك فيه، إن الأخبار واالروايات التاريخية التي ذكرها ابن مريم في مؤلفه، تبرهن على إن مدينة تلمسان لم تشتهر بعلمائها وأوليائها فقط، وإنما كانت قبلة لطلبة العلم والعلماء على حد سواء، وهو ما أكده

---

[1]- نفسه، ص: 134-135.

حسن الوزان قبله، لما ذكر بأن مدينة تلمسان كانت كثيرة الطلبة والأساتذة في مختلف المواد، وكانت المدارس تتكفل بمعايشهم بكيفية منتظمة[1].

وفي نفس السياق، يتحدث ابن مريم عن مراحل التعليم ومناهجه، وطرائقه، وعن الدروس التي كانت تدرّس في المدارس، وعن زمن الدراسة، وفي ذلك نذكر ما نقله في ترجمته للشيخ احمد بن عبد الرحمن الشهير بابن زاغو المغراوي، والذي قال عنه أحد تلاميذه: " ولازمته مع الجماعة في المدرسة اليعقوبية للتفسير والحديث والفقه والأصول شتاءً، والعربية والبيان والحساب والفرائض والهندسة صيفاً، وفي الخميس والجمعة التصوف وتصحيح تأليفه[2].

وإن طريقة التعليم، هي الطريقة التقليدية القائمة على الإلقاء والشرح، فيتولى الشيخ الشرح، فقرة فقرة، والطلبة يقيدون ما تيسر في انتباههم، كما امتازت طريقة التعليم بتلمسان باعتمادها على البحث والتفكير وعدم الاكتفاء بالحفظ[3].

إذا كان كتاب "البستان" خاص بالأخبار والتراجم لعلماء وأولياء حاضرة تلمسان كما ذكر مؤلفه بنفسه، فإن ابن مريم كغيره من المؤلفين المعاصرين له، والذين طرقوا مثل هذه المواضيع، لم يتخلص من النزعة الأدبية في كتابته التاريخية، وهنا ينبغي التنبيه إلى إن الشعر وإن كان يختلف عن التاريخ، من حيث الطبيعة والمنهج، والغاية والوسائل المعتمدة، في الكشف عن الحقائق، فإن بينهما علاقة جدلية، ولعل في الأعداد الكبيرة من الأبيات الشعرية التي حشدها ابن مريم في كتابه "البستان"، ما يدل بوضوح على إدراكه لعمق هذه العلاقة الوثيقة بين الشعر والتاريخ، ومن هنا كان الاعتماد على الشعر عند ابن مريم جزء من منهج كتابته، ولونا من ألوان الطريقة التي استخدمها في كتابه البستان، وكأني بابن مريم يحقق ما اختص به أرسطو، حينما جعل الشعر أعلى مرتبة من التاريخ، لأنه في نظره (أرسطو) يعبر عن الكلي، والكلي أسمى من الجزئي[4]. ومما تبينه هذه العلاقة بين الشعر والتاريخ التي يبديها ابن مريم، هي عندما يرفع من درجة العلم وإن كان من كافر فاجر، ويحط من دناءة رذيلة الشهوات وإن كانت من مسلم. وفي ذلك يذكر ما صاغه الفقيه أحمد بن عبد الرحمن الكلاعي حيث يقول:

---

[1]- حسن الوزان، وصف إفريقيا، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، ج2، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، لبنان، ص: 7-9.

[2]- ابن مريم، البستان، المصدر السابق، ص: 129.

[3]- عبد الحميد حاجيات، الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان، مجلة الأصالة، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، ع: 26، السنة الرابعة، رجب- شعبان1395ه/ جويلية-أوت1975م، ص: 136-157.

[4]- لطفي عبد البديع، التركيب اللغوي للأدب، مطبعة النهضة المصرية، القاهرة، 1969، ص: 83.

وطاعة من إليه الأمر فألزم وإن جاروا وكانوا مسلمينا
وإن كفروا ككفر بني عبيد فلا تسكن ديار الكافرينا
فربما يقوم الحق يوما فتهلك في غمار الهالكينا
تجد في الأرض متسعا فهاجر إلى دار الهداة الواصلينا [1]

أما فن ابن مريم الأدبي فيتميز بالإطناب والاستطراد، واستعمال الكلمات العامية مثل "سباطك"، و أرجوا(بمعنى انتظروا)، "الشكارة"، و"عازب"، وبأسلوب ضعيف وركيك أحيانا، ومن ذلك مثلا وهو يترجم لمحمد بن أحمد الشريف المليتي، قوله: "فقلت له، يا والدي يرحم لالاة مريم ترضى عنّي، وتحلل لي ما خدمت عليّ وما أقرأتني، فنظر إليّ أخي أحمد رحمه الله، وقال لي: لاش قلت هذا لأخي، واش على هذا ما يضرش، وقوله أيضا وهو يترجم لمحمد الأدغم السويدي حيث قال": هذا الرجل ليس هو ساكن عندنا، هذا هو سارق فعرفوه... ننظر آش يعمل لي، أخذ ضربة برصاصة[2].

يبقى إن نؤكد على القيمة العلمية الكبيرة لكتاب البستان، خاصة التاريخية والأدبية، فهو يذكر أخبار بطريقة تناسب الإطارين الزماني والمكاني.

المبحث الثاني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب في ذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، لأحمد المقري

ترجمة المؤلف: وفيها

اسمه ونسبه:

أثبت أحمد المقري نفسه، وكل من ترجم له من العلماء القدماء الذين عاصروه، والمحدثين الذين تناولوه بالدراسة والبحث على إنه"شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن يحي بن عبد الرحمن بن أبي العيش بن المقري التلمساني. [3]

1- ابن مريم، البستان، المصدر السابق، ص: 16.

2- نفسه، ص: 268.

3- أحمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب في ذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تح: حسان عباس، مج1، دار صادر، بيروت، لبنان، 1388ه/1968م، ص: من المقدمة، وأحمد المقري، روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيه من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، نشرد: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، ط2، المغرب الأقصى، 1403ه/1983م، ص: من مقدمته، وأحمد المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض، ضبطه وحققه وعلق عليه: مصطفى السقا وأخرون، مطبعة لجنة التأليف للترجمة والنشر، القاهرة، 1358ه/1939م، ص: من المقدمة، وأحمد المقري، فتح المتعال في مدح النعال، تح: علي عبد الوهاب وعبد المنعم فرج، دار القاضي عياض للتراث، القاهرة، ص: من المقدمة، ومحمد المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ج1، المطبعة الوهبية، دار صادر، بيروت، لبنان، 1284ه/1867م، ص: 302، ومحمد الإفراني، صفوة من إنتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، تق وتح: عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، ط1، الدار البيضاء،

تعود أصول الأسرة المقرية إلى القبيلة العربية "قريش"، فهو العربيُ القرشيُ، وقد أثبت ذلك أحمد المقري نفسه، وابن خلدون في تاريخه الكبير "العبر"، وابن الخطيب في "الإحاطة"، وابن مرزوق في "النور البدري في التعريف بالفقيه المقري" وابن الأحمر في "نثر الجمان"، وفي "شرح البردة" عند قوله: "لعل رحمة ربي حين

المغرب الأقصى، 1425ه/2004م، ص: 143-146، ومحمد الافراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، صححه: هوداس، طبعة بردين بمدينة إنجي، 1888، وجلال الدين السيوطي، اليواقيت الثمينة في صفات السمينة، ج1، تح: فرج الحوار، دار الميزان للنشر، ط1، حمام سوسة، تونس، (د ت)، ص: 29، ومحمد القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، ج1، طبعة فاس، المغرب الأقصى، 1310ه/1893م، ص: 157، وأحمد الخفاجي، ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، تح: عبد الفتاح محمد الحلو، ج2، طبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط1، القاهرة، 1386ه/1967م، ص: 174، ومحمد حجي، الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، المطبعة الوطنية بالرباط، المغرب الأقصى، 1964، ص: 108-113، ومحمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب على عهد السعديين، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة فضالة، ج2، القاهرة، 1977، ص: 246، وعبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس، تح: إحسان عباس، ج2، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، لبنان، 1402ه/1982م، ص: 574، ومحمد بن الطيب القادري، التقاط الدرر، تح: هاشم العلوي القاسمي، دار الأفاق الجديدة، ط1، المغرب،1424ه/1981م، ص: 94-95،ورشيد عطا الله الماروني، تاريخ الآداب العربية، تح:علي نجيب عظوي، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ط1،لبنان،1405ه/1985م،ص:267-270، وأبو القاسم الزياني، التُرجُمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا.."حفاظ المغرب في القرن الحادي عشر،ثلاثة"، حققه وعلق عليه: عبد الكريم الفيلالي، دار نشر المعرفة، ط2، المملكة المغربية،1412ه/1991م،ص:64، ومحمد المسفيوي(ابن المؤقت)، السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية، ج1، تق وتح: حسن جلاب واحمد متفكر، ط1، مراكش،1423ه/2002م،ص:177، ومحمد الحضيكي، طبقات الحضيكي،ج1، تق وتح: أحمد بومزكو، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب الأقصى،1427ه/2006م،ص:69، ومحمد الحجوي الفاسي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، ج2، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1416ه/1995م، ص: 328، والحبيب الجنحاني، المقري صاحب نفح الطيب دراسة تحليلية، ملتزم الطبع والنشر، دار الكتب الشرقية، ط1، تونس، 1374ه/1955م، ص: 27، وأبو سالم العياشي، الرحلة، المصدر السابق، ص: 193، ومحمد بن عبد الكريم، المقري وكتابه نفح الطيب، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، (د ت)، ومحمد عبد الغني حسن، المقري صاحب نفح الطيب، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، (د ت)، ص: 12، ومحمد صديق حسن خان، التاج المكلل، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط 1، قطر، 1428ه/2007م، ص: 324، وصدر الدين الحسيني، سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر، مكتبة الخانجي، مصر، 1324ه/، ص: 589، أبو القاسم الحفناوي، المرجع السابق، ج1، ص: 44، والزركلي، الأعلام، ج1، المرجع السابق، ص: 226، عادل نويهض، معجم أعلام. . . المرجع السابق، ص: 309، وإسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1951، ص: 157، والعباس بن ابراهيم السملالي، الأعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، ج2، راجعه: عبد الوهاب بن منصور، ط2، المكتبة الملكية، الرباط، 1413ه/1993م، ص: 308-312 ، وجرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، راجعه وعلق عليه: شوقي ضيف، ج3، دار الهلال، مصر، ص: 324، وأحمد الناصري، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح: محمد الناصري، دار الكتاب، المغرب الأقصى، ومحمد عبد الله عنان، تراجم إندلسية شرقية وإندلسية(المقري مؤرخ الأندلس)، مكتبة الخانجي، ط2، القاهرة، 1390ه/1970م، ص: 373، وابن مريم التلمساني، البستان. . . المصدر السابق، ص: 73، وأحمد المقري، رحلة المقري إلى المغرب والمشرق، تح: محمد بن معمر، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1425ه/2004م، ص: 5، ابن عباس رسام، تراجم الأعلام وعظماء التاريخ، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب،1991،ص:84، ومحمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص: 522،يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج2،دار الغرب الإسلامي،ط1، بيروت، لبنان،1995،ص:166).

ينشرها، والشيخ ابن غازي، والولي الصالح سيدي أحمد زروق، والعلامة زمانه سيدي أحمد الونشريسي، وغير ذلك، وكفى بلسان الدين شاهد مُزكى"[1].

ومن مدينة مقرة وهي المدينة الصغيرة الواقعة بمنطقة الزاب الجزائري بين مدينتي بريكة والمسيلة، والتي قال عنها ياقوت الحموي: "إنها مدينة بالمغرب في بر البربر قريبة من قلعة بني حماد بينها وبين طبنة ثمانية فراسخ"[2]، انتقل الجد الخامس لأحمد المقري وهو عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي المقري إلى مدينة تلمسان صحبة المتصوف الولي الصالح أبي مدين (الغوث) في القرن السادس الهجري[3]، حيث استقر، فامتدت جذور العائلة جاها ومكانة، وتأصلت ثقافة وعلما، وكسبت مالا وثروة. ومن أبرز وأشهر أفراد العائلة المقرية، أبو عبد الله محمد(ت759ه/1359م) شيخ لسان الدين بن الخطيب وابن خلدون، وقاضي فاس على عهد السلطان أبي عنان المريني، وأبو عثمان سعيد(ت 1030ه) شيخ ومربي أحمد المقري، وعالم تلمسان ومفتيها وخطيبها لأكثر من أربعين سنة، وأبو العباس أحمد المقري المؤرخ والأديب محور دراستنا في هذا البحث.

مولده ونشأته:

ولد المقري بتلمسان سنة986ه/1578م وبها نشأ، وعن ذلك يقول المقري: "وبها ولدت إنا وأبي وجدي وجد جدي، وقرأت بها، ونشأت إلى إن ارتحلت عنها في زمن الشبيبة إلى مدينة فاس سنة1009ه..."[4].

إذن بمدينة تلمسان العريقة التمدن، والكريمة المنبت، نشأ أحمد المقري، وأخذ العلم عن كبير مشايخها ومفتيها، عمه الشيخ سعيد المقري، الفقيه المحدث، فحفظ القرآن، ودرس صحيح البخاري سبع مرات، وروى عنه الكتب الستة بسنده. ولما كانت لعَمِه صلة وثيقة بفاس وبعلمائها، رغبه في الهجرة، فانتقل أحمد المقري إلى فاس التي دخلها في صفر من عام1009ه/1600م، وبها حضر مجلس الشيخ علي بن عمران السلاسي في جامع القرويين، وبعد مناقشته في بعض المسائل الفقهية، اعترف له بالتفوق وأقرّ له بقوة الحجة والنباهة. ولما حضر الفقيه إبراهيم الآيسي إلى فاس أعْجب به، فاصطحبه معه إلى مراكش وقَدمَه إلى السلطان أحمد المنصور الذهبي فَسُرّ بمقدمه وأكرمه وقرّبه، وفي منتصف ربيع الثاني سنة1010ه/سبتمبر1601م عاد إلى فاس، ثم غادرها في منتصف ذي القعدة إلى تلمسان، وفي أوائل سنة1013ه/1604م قصد فاس ثانية، فأسْندت إليه ولاية الفتوى والخطابة والإمامة في جامع القرويين بعد وفاة شيخه محمد الهواري، ولكن في أواخر

1- محمد عبد الغني حسن، المقري صاحب نفح الطيب، المرجع السابق، ص: 12، ولسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار...المصدر السابق، ص: 342.

2- ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، ط1، بيروت، لبنان، 1397ه/1993م، ص: 131.

3- أحمد المقري، نفح الطيب، ج 5، ص: 203، والزركلي، الأعلام، ج1، المرجع السابق، ص: 226.

4- أحمد المقري، نفح الطيب، ج7، المصدر السابق، ص: 135.

رمضان1027ه/1618م، قرر مغادرة فاس نهائيا نحو المشرق العربي. ومهما اختلفت الآراء، وتعددت أسباب خروجه من فاس، إلا إنه قال عند مغادرته فاس: "دخلت كمائها وخرجت كمائها"، وهي المقولة التي تعلل كل ما حدث من أباطيل كانت أم حقائق. [1]

أقام المقري في القاهرة أربعة عشر عاما ملأها وملأ أزهرها المعمور بعلمه ودروسه، وصنف فيها كتابه "نفح الطيب" كله من أوله إلى أخره، وظل ملازما في خدمة العلم الشريف، يتنقل بين مدن الحجاز(مكة والمدينة المنورة) وبيت المقدس، ودمشق بالشام خاصة التي تعلقت روحه بها، فقال عن ذلك: "محاسن الشام وأهله طويلة عريضة... مقر الأولياء والأنبياء، ولا يجهل فضله إلا الأغمار الأغبياء"[2].

أقوال العلماء فيه:

عاش المقري عيشة هانئة، بعيدة عن مشاق الحياة ومتاعبها، وخطف الأضواء أينما حل وارتحل، سواء لدى الحكام أو العلماء والأدباء، وهو ما تفسره المراسلات، والمخاطبات، وأقوال العلماء فيه، ولعلي أكون مبالغا إن رتبت أحمد المقري في صدارة المراتب الأولى للعلماء وما قيل في حقهم، ولكنني لا أكون كذلك وإنا أذكر العدد الكبير من الأقوال الموضوعية التي رتبت في حقه، ويكفيني من ذلك ما قاله البعض، ومنهم: صاحب كتاب"الزاوية الدلائية" الذي يقول عنه:"أحمد المقري أعْرف من إن يُعَرفُ به...فهو أستاذ تلمسان وفاس، ثم دمشق والقاهرة، عرفته الزاوية الدلائية طالباً متواضعا، يحضر مجالس التفسير والحديث للشيخ محمد الدلائي، وأستاذا مرموقا، يزدحم الطلبة في حلقات دروسه الدينية والأدبية... ابتدأت المدرسة الدلائية بأربع شخصيات بارزة عاشتا أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر(16-17م)،اثنان مغربيان صميمان هما"علي التامكروتي واحمد بن القاضي المكناسي"، واثنان مهاجران هما"أحمد بابا التنبكتي واحمد المقري التلمساني"،تخرج على يد سقين السفياني محدثون كثيرون،كان من تلاميذهم الشيوخ المعروفون في كتب التراجم بحفاظ المغرب الثلاثة: عبد الله السجلماسي، ومحمد بن أبي بكر الدلائي، وأحمد المقري التلمساني"[3].

الفقيه المؤرخ **أبو العباس بن القاضي**، والذي بعدما وصل أحمد المقري إلى فاس، وطار صيته كل مطار، وسار ذكره كل مسير، كتب إلى عمه بتلمسان، يشكره على إتحاف فاس بهذه الدرة الفريدة، والياقوتة الوهاجة، رسالة ضمنها قصيدة جاء فيها مخاطبا له: [3].

[1]- نفسه، ص: من المقدمة.

[2]- أحمد المقري، روضة الآس. . . المصدر السابق، ص: 21.

3-محمد حجي،الزاوية الدلائية...المرجع السابق،ص:78-92.

[3]- نفسه، ص: ي.

أرسلت للمغرب القصي بدرة	قد أبهرت وغلت له الأسوام
جمع العلوم على حداثة سنـــه	قد بارك الله به العــــــلام
أكرم به من عالم علامـــــــة	جمع العلا وزكت به الإفهام
فخيرت خيرا يا سعيد عن الورا	بابن أخ العلامة الصــــيصام
أدبته هذبته علـــــــــــمته	ما إن بفاس بعلمه بــــهرام
ضامت بكم يا ترى سما العلا	وعلا بكم بين الورا أقلام
دامت كرامتكم ودام في	أكنافكم ما جلت الأعلام[1].

- وقال فيه **علي السجلماسي**، وهو من أكبر مشايخ المغرب في اللغة والأدب في القرن الحادي عشر، بعد إن أقيل من كتابة الأمير زيدان: "... لقيته بفاس أخره الدهر، وحقه إن يقدم، وهدم بناء علمه وحقه ألا يهدم، شغل نفسه مدة بالتدريس في البيان والعربية، و لم تكن نفسه عن إدراك غايتهما بأبية..."[2].

- وقال عنه أيضا، **علي بن احمد الشامي الفاسي**(ت1032ه/1623م) الفقيه الأصولي والأديب الشاعر، في رسالة بعث بها إلى أحمد المقري بعدما هاجر إلى مصر عام1027ه/1618م، يمدحه ويذكر بعض مؤلفاته، مطلعها:

دعوا شفة المشتاق من سقمها تشفى	وترشف من آثار قرب الهدى رشفا
وتلثم تمثالا لنعل كريمة بها	الدهر يستسقي الغمام ويستسقى
ولا تصرفوها عن مناها وســـــولها	بعد لكم، فالعدل يمنـــــــــعها الصرفا[3].

وقال عنه شيخه **محمد بن أبي بكر الدلائي الصنهاجي** "حفاظ المغرب ثلاثة، حافظ ضابط ثقة وهو سيدي أحمد بن يوسف الفاسي، وحافظ ضابط غير ثقة وهو أحمد المقري، الذي تتلمذ عليه في الزاوية الدلائية، وحافظ غير ضابط ولا ثقة وعينه، وبالرغم من هذا الحكم، فإن العلاقة ظلت طيبة بين الرجلين إلى آخر حياتهما، فالشيخ الدلائي يثني على المقري ويشيد بقدرته العلمية وأدبه الرفيع، والمقري بدوره يراسل شيخه، ويبعث إليه بنسخ مما يؤلفه من الكتب[4]. ، وفي جواهر الأحداث لأبي عيسى المهدي بن الطاهر الفاسي نزيل تطوان[5].

1- عن ابن القاض وقصائده ينظر: محمد حجي، الزاوية الدلائية-فصل شيوخ الزاوية-المرجع السابق، ص: 86.

2- أحمد المقري، روضة الآس. . . المصدر السابق، ص: 340.

3- محمد حجي، الحركة الفكرية، ج2، المرجع السابق ص: 373.

4- محمد حجي، الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، المطبعة الوطنية، الرباط، 1348ه/1964م، ص: 109.

5-أبو سالم العياشي،الرحلة...المصدر السابق،ص:167.

ثلاثة قالوا حفاظ المغرب   المقري والفلالي فالمغربي
ثالثهم أبو العباس أحمد   بالعلم والسرد له تفرد
فالضبط في المقري ولا تبالي   والحفظ ى غيره في الفلالي
وفي ابن يوسف له قد جمعا   الضبط والثقة منذ صدى
هذا الذي روينا عن أعيان   أشياخ وقتنا زهر الزمان

قال عنه **الشيخ عبد القادر بن غصين:** "من قوة تواضع أحمد المقري، إنه لما جاء من مصر إلى الشام، جاء بكتاب من عند شيخ التجار بمصر أبو طاقية إلى والدي، فأنزله والدي عندنا وأكرمه غاية، ثم إن والدي أتاه بولده الصغير أخي عبد الرحمن وسأله إن يدعو له، ودعا له وبرك وكتب له وقفا في صحيفة من فضة وأمر بتعليقه، فحصل لذلك الولد جاه عظيم وحظوة كبيرة عند الأمراء وأرباب الدولة، وهو الأن شيخ التجار بتلك البلاد وكلمته نافذة عند العام والخاص، انتهى"[1].

وقد اتفق العديد من العلماء على وصفه بالحافظ، فقال عنه العياشي في رحلته "ماء الموائد" بحافظ المغرب، والقادري في"النشر الكبير" بقوله لا نعلم في وقت صاحب الترجمة أحفظ منه، بينما قال عنه أبي العباس البوسعيدي حين مغادرته فاس للمشرق، قوله "وخلت البلاد من مثله ومضاهيه"[2].

شيوخه:

إن الذي يتصفح كتابات أحمد المقري يجده دائم الاعتزاز بمشايخه الذين هم ينابيع علمه، وروافد ثقافته الموسوعية، ولعل أبرز دليل على قوة هذا الاعتزاز والحب، إنه كان كثير الاستدلال بكلامهم في كتاباته، ولاسيما التاريخية منها. فقد عاصر أحمد المقري مجموعة كبيرة من أكابر العلماء، ورجال الأدب، والفقه، سواء بالمغرب (تلمسان، فاس، مراكش)، أو بالمشرق العربي(القاهرة، الحجاز، دمشق)، ويحدثنا في مقدمة كتابه "أزهار الرياض" عن مجالس الدرس والرواية التي كان يتردد عليها ويلازمها، فيقول: "وقطعنا نبذة من الشباب في مواطن الأحباب، ما بين دراسة ودراية ورواية، وممارسة أمور تبعد عن طريق الغوية، وتحبير طروس وملازمة دروس، ومثول بين يدي أشياخ في مجالستهم نامية العروس، وخصوصا شيخهم الذي فَضْله لا يفتقر إلى دلالة، عمنا مفتيها سيدي سعيد بن أحمد المقري شكر الله خلاله"[3].

1- الكتاني، فهرس الفهارس، المصدر السابق،ج1،ص:401.

2- أحمد المقري، نفح الطيب، تح: إحسان عباس، ص: 5.

3- أحمد المقري، أزهار الرياض. . . المصدر السابق، ص: من المقدمة.

ولكن ونظرا لكثرة شيوخه، سأركز على الذين ابتدأ بهم حياته بالمغرب، والذين كانوا أسس هيكلته العلمية، والذين وفروا له ظروف التألق والإبداع(مجالس العلم، خزائن الكتب، كثرة العلماء) وفي طليعتهم:

– **أبا عثمان سعيد بن أحمد بن أبي يحي بن عبد الرحمن بن بلعيش المقري،** عالم تلمسان في وقته، ومفتيها لستين سنة، وخطيب مسجدها الأعظم خمسا وأربعين سنة، ولد ونشأ وتعلم بتلمسان، فأخذ العلم عن والده، وعن كبار علماء زمانه كعبد الواحد الونشريسي، قال عنه أحمد المقري في نفح الطيب: "رأيت في تلمسان المحروسة بخط عمي مفيدي، ولي الله تعالى العارف المعروف بشيخ الشيوخ، الإمام المفتي الخطيب سيدي سعيد بن احمد المقري صب الله عليه سجال الرضوان خطبة كخطبة القاضي أبي الفضل عياض... حسب اليفراني إنه توفي سنة1010ه/1602م، في حين ذكر ليفي بروفنسال إنه توفي سنة1030ه/1622م، أما ابن مريم وهو تلميذه، فيقول عنه كان حيا سنة1011ه[1].

– **أبو عبد الله محمد بن علي الوجدي الفاسي الملقب بالغماد** (ت 1033ه/1623م) الأديب الكبير، الشاعر الثائر، عَرَفه المقري بتلمسان، فكانت بينهما مكاتبات ومساجلات، كما التقاه ثانية وإنس بلقائه في رحلته الأولى بفاس عام1009ه/ وأثنى عليه، كانت له جولات أدبية مع كتاب البلاط، رسائله على عادة أبناء عصره، تستهل بأبيات شعرية، قد تبلغ العشرة والعشرين بيتا، من ذلك ما كتب به إلى أحمد المقري[2]:

تحية إخوان معطرة النشـــــر	تخص الإمام الأوحد السامي القدر
ويغشى الجناب المقري عبيرها	وتوليه منا أطيب الحمد والشك

– **أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي ثم الفاسي الشهير بابن القاضي** (ت1025ه/1616م)، الفقيه، الأديب والمؤرخ، صاحب التآليف المفيدة مثل: "درة الحجال في غرة أسماء الرجال"، و"جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس"، و"درة السلوك فيمن حوا الملك من الملوك"، و"المنتقى المقصور على محاسن الخليفة المنصور"، و"لفظ الفرائد من حقن الفوائد"، تولى التدريس في زاوية شيخه عبد الرحمن الفاسي بعد وفاته لمدة تزيد عن نصف قرن، فلا تجد عالما أو متعلما بإفريقية والمغرب إلا وهو من تلاميذه، ومن أبرزهم أحمد المقري وأبو القاسم بن أبي النعيم[3]، قال عنه تلميذه أحمد المقري وعن كتابه جذوة الاقتباس: "هو كتاب جامع طالعته فرأيت فيه عجائب تدل على غزارة حفظ مؤلفه"[4].

1- ابن مريم التلمساني، البستان. . . المرجع السابق، ص: 217.

2- محمد حجي، الحركة الفكرية، ج2... المصدر السابق، ص: 432-433.

3- الكتاني، سلوة الأنفاس، ج1، المصدر السابق، ص: 310.

4- أحمد المقري، روضة الأس، المصدر السابق، ص: 299.

-**أبو العباس أحمد بن أحمد بن عمر بن أقيت المسوفي التنبكتي المعروف ببابا السوداني** (ت1032ه/1624م)، الفقيه المصنف، المؤلف الذائع الصيت، بيته بيت علم وصلاح، توارث أهله العلم ببلدهم خمسمائة سنة، من أشهر مؤلفاته "نيل الابتهاج بتطريز الديباج"، يتضمن تراجم لاثنين وثمانمائة من أعلام المذهب المالكي في المغرب الإسلامي[1]، والذي يقول بشأنه: "لقيته بمراكش بحضرة أمير المؤمنين مولانا المنصور، وانتفعت به واستفدت منه، وكنت كثيرا ما أذهب معه إلى زيارة الصالحين بحضرة الإمامة مصحوبين بجملة أعلام، فنذاكر في طريقنا فنونا جمة، وأعارني جملة كتب من خزانته الفريدة"[2].

-**أحمد بن أبي القاسم الصومعي** (ت1013ه/1604م)، العالم المشارك والمؤلف المكثر، صاحب الزاوية الجديدة في الصومعة، بها مكتبة قيمة فيها أزيد من ألف مجلد، لقيه المقري بمراكش وكتب عنه ما يلي: "أخذت عنه واستفدت منه، وهو آية من آيات الله في المجاهدة، استغرق نهاره وليله في أنواع الطاعات من الصلاة وإقراء علوم الحقيقة، شاهدته وكثير من تآليفه تقرأ بين يديه، ويوم استجزته أخرج لي ستين مجلدا كلها من تصنيفه وأجازنيها..."[3]. من مؤلفاته المطبوعة "المعزى في أخبار الشيخ أبي يعزى"، وإن كان هذا الكتاب مخصصا لترجمة أبي يعزى، وهو من رجال القرن السادس الهجري(12م)، فإنه يستطرد فيه كثيرا من الأحداث التاريخية المفيدة المتعلقة بالقرون السابع-العاشر الهجري(13-16م)، توجد منه عدة نسخ مخطوطة بالمغرب الأقصى(الخزانة الملكية).

-**أبو عبد الله محمد الحاج بن محمد بن أبي بكر الدلائي**(ت1082ه/1671م)، عالم، حافظ، دراك، متوسع في علم التفسير ومعاني الحديث، وعلم الكلام، خاتمة مشايخ المغرب، انتهت إليه رئاسة الدين والدنيا، كان يروي بالسند المتسلسل إلى المؤلفين احد عشر تفسيرا للقرآن الكريم، وصحيحي البخاري ومسلم، وكُتُب السنن وغيرها، ويعرِف الروايات المختلفة، ورجال الإسناد مع كثير من الضبط والصدق والتحري. يذكر محمد حجي عنه قوله: ويمكننا إن ندرك مدى أهمية دروسه وسموها، إذا عرفنا إن ممن كان يحضرها ويستفيد منها أحمد المقري والعربي الفاسي وعلي الأنصاري وغيرهم من أعلام العلماء وأكابر الصلحاء[4].

تلاميذه:

مثلما تتلمذ المقري لجملة من الشيوخ، كان له عدد من التلاميذ النبهاء الذين أخذوا عنه العلم والأدب وفنونه، سواء بفاس ومراكش، كمحمد بن يوسف التملي الذي دَرس في مراكش على يد شيخه أحمد المقري،

---

[1]- الأعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، ج2، المصدر السابق، ص: 99، ونشر المثاني، ج1، المصدر السابق، ص: 151، وفهرس الفهارس والإثبات، ج1، المصدر السابق، ص: 76.

[2]- أحمد المقري، روضة الآس... المصدر السابق، ص: 17.

[3]- محمد حجي، جولات تاريخية، المرجع السابق، ص: 280.

[4]- محمد حجي، الزاوية الدلائية، المرجع السابق، ص: 72-75.

قواعد الرسم والضبط والتجويد، وبعد إن ارتحل إلى فاس أواسط ذي القعدة عام1026ه/1617م، بعث برسالة إلى شيخه المقري، يستهلها بقوله: "الحمد لله الذي ألف بين لطائف الأرواح، وإن تناءت الأشباح، وجعل المواصلة في ذاته والمحبة من أجله سبيلا كفيلا بنيل كل فلاح.... ولا زائد على ما نعرفكم به سوى ما ألهم الله بفضله من معاطاة كؤوس القراءات مع طلبة هذه الحظوة..."(الرسالة يذكرها أحمد المقري في كتابه فتح المتعال في مدح النعال). وعبد القادر بن الشيخ غصين الذي طلب من أحمد المقري التوسط لدى أمير غزة بأن يسمح له ببناء بيت ببعض رحاب مسجد المدينة يقرأ فيه ويقرئ فيه، فلبى الأمير طلب المقري، وسمح له ببناء البيت في المسجد، هذه القصة تبين مدى الاحترام والتقدير الذي كان المقري يتميز بهما[1]. أو بمصر ودمشق، ومنهم تلميذه الشيخ عبد الباقي الحنبلي الدمشقي الذي أثبت تاريخ وفاته سنة إحدى وأربعين، ودفنه بتربة المجاورين بمصر.[2]

مؤلفاته:

للمقري مؤلفات كثيرة قاربت الثلاثين على ما ذكر هو بنفسه في قوله[3]:

ولي تآليف على العِشرينَا	زادت ثَمانيا حَوت تعنينا
فليرويها إن شا بلا استثناء	والله أرجُو نيل قصد نائي

ألفها بتلمسان وفاس ومصر والحجاز والشام، في فنون الأدب، والفقه، والعقائد، والتاريخ تخصصه المفضل بلا مراء، احتوت على أحداث تاريخية وأدبية بتاريخ الأندلس والمغرب الأقصى في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين عموما، وبابن الخطيب والقاضي عياض خصوصا، ولعل مؤلفاته الكثيرة، ونوعية موضوعاته الواسعة، جعلته يُصنف من الفئة الأولى بين كبار العلماء والأدباء والكتّاب، وصُنفت كتاباته من أمهات المصادر، ونظرا للعدد الكبير، سأكتفي بأهمها وبأكثرها تداولا، والملاحظ إن معظمها تم تأليفه بالمشرق(القاهرة والحجاز ودمشق)، وبعضها يعتبر في مجال المفقود، ومنها:

- **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**، وهو أهم وأشهر كتب المقري، ألفه بالقاهرة عام1038ه/1629م، عبارة عن موسوعة أدبية وتاريخية، أرخ فيها لبلاد الأندلس وحضارتها الإسلامية من شتى جوانبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية والثقافية، وخاصة الأدبية منها، خلال فترة الوجود الإسلامي بها منذ الفتح حتى السّقوط. كما جمعت معلومات فريدة عن العلاقات بين العدوتين في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، وانفرد من بين سائر المصادر العربية المعاصرة بخبر الهجرة

1- محمد حجي، جولات تاريخية، المرجع السابق، ص: 311.

2- الكتاني، فهرست الفهارس والإثبات، ج2، المصدر السابق، ص: 13-15.

3- أحمد المقري، نفح الطيب، ج3، المصدر السابق، ص: 198.

الأندلسية الأخيرة إلى المغرب على إثر قرار الطرد من طرف الملك الاسباني فيليب الثالث، كما يُعرف بابن الخطيب من حيث النشأة والتدرج في المجد. ورغم الطابع الأندلسي للكتاب فإنه يشتمل على استطرادات كثيرة تتعلق بالمغرب السعدي، وفيه شيء غير قليل من أخبار ورسائل وقصائد لبعض رجالاته. هذه الموسوعة التي نشر القسم الأول منها المستشرق الهولندي دوزي، طبعت عدة مرات، منها طبعة سنة1968، بتحقيق إحسان عباس، تحتوي على ثمانية أجزاء بما فيها الفهارس، وهي أكمل وأحسن الطبعات السابقة

– **أزهار الرياض في أخبار عياض**، هو ثاني كتب المقري من حيث الأهمية، استطرد فيه كثير من أخبار الأندلس والمغرب في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، وعرّف فيه بالعالم المغربي الجليل الفقيه الكبير القاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي(ت544ه/1149م)، وببعض علماء عصره ورجال العصر السعدي ببعض القطع الشعرية والنثرية لهم، كما أثبت فيه نص الرسالة التي بعث بها آخر ملوك غرناطة إلى محمد الشيخ الوطاسي، وقد أتمه بمدينة فاس، لذلك نجد التملي يطلب منه إن يبعث إليه نسخة منه في رسالة كتبها له والمقري بفاس أواسط ذي الحجة عام ستة وعشرين وألف هجري. طبعت ثلاثة أجزاء من هذا الكتاب بمصر سنة1939م بتحقيق الأساتذة مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، ثم أعيد طبعه تاما بالمغرب في خمسة أجزاء بتحقيق أعراب وابن تاويت والهراس[1].

– **روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيه من أعلام الحضرتين مراكش وفاس**، وهو ثالث كتب المقري من حيث الأهمية التاريخية والأدبية بعد النفح، وأزهار الرياض، هو في الواقع رحلة كتبها على إثر زيارته الأولى للمغرب،سجل فيه أخبار رحلته الأولى ومشاهداته بالمغرب الأقصى عامي1009و1010ه/1600و1601م، ولكن ولكثرة ما حوت من تراجم لأكثر من ثلاثين اسما من أسماء العلماء والأدباء الذّين لقيهم بمدينتي فاس ومراكش، وشعراء البلاط السعدي وآثارهم النثرية والشعرية، جعلها أقرب إلى مجموع أدبي منها إلى رحلة، وجعل أيضا قطب دائرته السّلطان المنصور السعدي بذكر بعض مآثره، والتقاءه بأعلام عصره في أسلوب أدبي جميل. ألفه ما بين سنوات1011 و1013ه[2]. مخطوط بالخزانة الحسنية الملكية رقم220، حققه عبد الوهاب ابن منصور. طبع سنة1960، ثم سنة 1964م بالمطبعة الملكية بالرباط.

[1]– مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط، توجد منه عشرة نسخ منها نسخة كاملة تحت رقم784 عارية من تاريخ النسخ واسم الناسخ. ينظر: محمد عبد الله عنان وأخرون، فهارس الخزانة الحسنية، فهرس قسم التاريخ والرحلات والإجازات، إشراف ومراجعة: أحمد شوقي بنبين، الجامعة الملكية، الرباط، 1421ه/2000م، ص: 46.

[2]– أحمد المقري، نفح الطيب، ج4، . . . المصدر السابق، ص: 233.

- **النفحات العنبرية في نعل خير البرية**، ضم ألوانا من النثر والشعر، وهو عبارة عن رجز ختم به كتابه "فتح المتعال"، ثم أفرده في نسخة بعث بها إلى شيخه الدلائي. مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم565، كما توجد منه نسخ بالقاهرة وببعض الدول العربية والإسلامية، انتهى المقري من تأليفه سنة1030ه.

- **فتح المتعال في مدح النعال**، أحاط فيه المقري بكل ما تعلق بموضوع نعال الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام، من حديث ولغة وشعر وسيرة وتاريخ، ووصف للنعال، وبيان لأوضاعها وأشكالها عند المشارقة والمغاربة، أنهاه سنة1033ه، وطبع بالهند أولا ثم بالقاهرة بدار القاضي عياض للتراث، ونسخة من المخطوط موجودة بالخزانة الحسنية بالرباط[1].

- **إضاءة الدّجنة في اعتقاد أهل السنة**، وهو منظومة لكتاب العقائد السلفية، بدأ بتأليفها أثناء زيارته للحجاز سنة1029ه، وأتمها في القاهرة سنة1036ه/ ودرّسها في الحرمين الشريفين تم شرحه من طرف عدة علماء كالدّاء الشنقيطي وعبد الغني النابلسي. قال عبد القادر الغصين إنه كان السبب في تأليفها، قال: "فإني كنت أقرأ عليه صغرى الشيخ السنوسي بمصر، فسألنا منه نظما في العقائد، فكان كلّما قرأ درساً نظمه، فيقرأه غدا كذلك إلى إن ختمها"[2]. مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط، فهرس الكتب المخطوطة في العقيدة الإسلامية، رقم614، منشورات دار أبي رقراق، ط1، الرباط، 2011.

- **إعمال الذّهن والفكر في المسائل المتنوعة الأجناس**، الواردة من سيدي محمد بن أبي بكر بركة الزمان وبقية الناس، وهو عبارة عن عقائد وفقه، تتمثل في أجوبة عن أسئلة الشيخ محمد الدّلائي التي وجّهها إليه من الزاوية الدلائية أيام كان المقري مقيما بالقاهرة[3]. تاريخ تأليفه سنة1041ه بالقاهرة، وتوجد ضمن كتاب البدور الضاوية بخزانة الرباط.

-**رسائل المقري**، هي رسائل بطابع الاخوانيات ثم تُخرج عنه إلى مسائل علمية، كطلب الإجازة والفتوى، أو مسائل في التفسير والنحو والحديث، أو تقاريظ الكتب، أو مسائل أدبية فنية، سواء المفاكهات منها والألغاز أو المنظومات في مديح النبي صلى الله عليه وسلم، أو استعراض أبيات لجملة من الشعراء. هذه الرسائل مثالا أدبيا فنيا، وشاهدا تاريخيا على الكتابة الفنية في القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي، ودليلا كشافا لتطور معالم هذا الفن النثري مع ما كان عليه في عصره الذهبي. وهي الرسائل التي كانت للعلماء والأعيان

1- عبد الله الرجراجي، فهرس المخطوطات العربية المحفوظة في الخزانة العامة للكتب والوثائق، منشورات الخزانة الحسنية، الرباط، 1421ه/2001م، ص:98.

2- أبو سالم العياشي، الرحلة، ج2. . . المصدر السابق، ص: 306.

3- أحمد المقري، نفح الطيب، مج8... المصدر السابق، ص: 12.

الذين راسلهم المقري وراسلوه، والأفراد الذين سمع منهم وشاهدهم وأخذ عنهم، وطائفة الأمراء والملوك الذين تواصل معهم. لم تكن تلك الرسائل الأدبية العلمية مجرد قوالب إنشائية فنية صامتة، بل هي ناطقة عن روح ذلك القرن[1].

وظائفه:

أضحى أحمد المقري من طينة العلماء الكبار، فكان طبيعيا إن تسند إليه الوظائف الكبيرة والعالية في تلك الفترة، وخاصة بعد حادثة السلطان المأمون التي خرج منها منتصرا، أحرز فيها منصب الإفتاء والخطابة والإمامة بجامع القرويين بعد وفاة شيخه محمد الهواري سنة1022ه/1613م م، فقال عنه العياشي: إن المقري إذا أفتى في نازلة، فسئل عنها مرة أخرى، يمتنع عن الجواب ثانيا مخافة إن يكون في الثانية ما يقتضي الفتوى بما خالف الأولى فينسبه الكاشحون لما لا يليق. يضيف أبو سالم أيضا: وكنت إنا أجيب عن الثانية، وأنبه على إنه صدر مني عن أخرى بخلاف هذا لكذا. انتهى بالمعنى[1].

كما تولى التدريس والذي طبع حياته سواء بالمغرب أو بالمشرق، ففي مدينة فاس التي درّس بها طويلا كان آية الزمان في حفظ النقول والاطلاع على غرائب الفروع، مستحضرا للفقه والنوازل، متفننا، له ولوع بالأدب، فلا ترى بخطه إلا مسائل الأدب، وبجامع القرويين احتك بالعلماء والأدباء، فكان من أثر ذلك ما نجده في طريقته للتدريس، فقد كان يجتمع مع أبي القاسم بن أبي النعيم، وهو من أصحابه ومعاصريه في فاس زمن وجوده بها، في مجلس موحد عظيم بجامع القرويين، يحضره زيادة على نبهاء الطلبة، علماء المدينة وعدولها وعامتها، وتحمل إليه الكثير من المراجع المهمة المختارة من خزانة الجامع التي حبسها السلطان أحمد المنصور على الجامع المذكور، فيتناوب الشيخان في التقرير، بينما يشارك الحاضرون في التعليق والمقارنة. ومن أهم المواد التي كان المقري يدرسها، ما وصف به احد الطلبة الذين كانوا يحضرون هذا المجلس العلمي العالي، فقال: "سمعت عليهما معا صحيح البخاري نحو ست ختمات، كانا يجلسان بمجلس واحد... يحضرون شروحا وحواشي عديدة، فاستفادوا وأفادوا، إلى إن فرقهم الزمان وبادوا"[2].

- كانت طريقة حك المسائل في المجالس العلمية، هي الغالبة والسائدة بمدينة فاس (طريقة وصفت بالتعقيد والتحليل)، نظرا لاهتمام أصحابها بالإلحاح في بحث المسائل وتقليب أوجه النظر فيها، وإيراد المشكلات أو افتراضها، وجلب النقول المتناقضة ومناقشتها، لتتكون ملكة البحث عند المتعلمين، وقد أحسن أحد طلبة

1-رسائل المقري،در وتح:أسماء القاسمي الحسني، دار الخليل القاسمي للنشر والتوزيع،الجزائر، 1428د/2007م،ص:8-10.

1- أبو سالم العياشي، الرحلة... المصدر السابق، ص: 301

2- محمد ميارة الفاسي، نظم اللآلي والدرر في اختصار مقدمة ابن حجر أو معين القاري لصحيح البخاري، مخطوطة بمؤسسة الملك عبد العزيز، رقم516، الناسخ، إدريس بن محمد القادري، تاريخ النسخ1286ه، ص: 321، ونسخة أخرى بالخزانة العامة بالرباط رقم931ك،ومحمد حجي،ص:306.

العصر السعدي الأخير في مقارنة هذه الطريقة بطريقة أحمد المقري، إذ قال: "كنت أجلس بمجلس احمد المقري فأجد العلم كله واضحا، فإذا جلست بمجلس الشيخ ابن عاشر كان كله مشكلا"، وقد علق المؤرخ محمد الافراني على الطريقتين بقوله: "إن المقري كان حافظا لا يتعقب المسائل، وابن عاشر كان نقادا يحك المسائل حتى يستنبط منها أمورا تنشط الأنظار، وتحير الأفكار"[1]. أما بعد رجوعه إلى مراكش فقد درّس بالمدرسة الغالبية الشاطبية لامية الأفعال بعد العصر، والكراريس(عبارة عن المتون الصغرى المتعلقة برسم القرآن وضبطه بعد العشاء، ووقت التجويد من طلوع الشمس إلى العصر[2].

أما المرحلة الثانية من حياته التعليمية والتدريسية بالمشرق العربي، فيلخصه مشهد الدروس العلمية(العقائد والحديث) التي كان يلقيها بالجامع الأموي، ولما ضاق المسجد بالحضور، نقلت حلقة الدرس إلى صحن الجامع تحت القبة المعروفة بالباعونية، وهي القبة التي اختص بها كبار العلماء، وكان يوم ختمه سابع عشر من رمضان سنة1037ه/1628م من الأيام الخالدة في تاريخ الجامع الأموي، حيث لم يتفق لأحد من العلماء الذين زاروا دمشق من قبل ما اتفق له من الإقبال والقبول في ذلك اليوم[3].

وفاته:

ذكر كلا من المحبي صاحب كتاب"خلاصة الأثر"، وعلي بن معصوم في كتابه "سلافة العصر" إن أحمد المقري توفي بالقاهرة في جمادى الآخرة سنة1041ه ودفن بمقبرة المجاورين، وكل ما كتب حول مكان وتاريخ وفاته غير هذا فهو من أوهام المؤرخين، ومما يؤكد ذلك، الأديب الدمشقي الذي كان معاصرا للمقري، والذي عقد معه صلات الود أثناء زيارته لدمشق، والذي أرخ وفاته بتاريخ شعري يقول فيه: [4].

قد ختم الفضل به فأرخوه خاتم

ومجموع حروف كلمة خاتم بحساب الجمل هو: خ=600، الألف=1، التاء=400، الجيم=40، المجموع=1401

[1]- محمد الافراني، صفوة من إنتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، تق وتح: عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، ط1، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 1425ه/2004م، ص: 140.

[2]-هي مدرسة ابن يوسف الشهيرة بمركش إنشأها أبو الحسن المريني، وجدد بناءها عبد الله الغالب السعدي، فنسبت إليه.ينظر:الناصري، الاستقصا...،ج5، المصدر السابق،ص:39. والعربي الفاسي، مرآة المحاسن، ص: 148، ومحمد حجي، جولات تاريخية،ص:312.

[3]- المحبي، خلاصة الأثر، ج1، المصدر السابق، ص: 305.

[4]- المحبي، خلاصة الأثر، المصدر السابق، ص: 313.

الكتاب ونسبته إلى مؤلفه:

من عادة المقري إنه يسمي مؤلفاته خاصة في مقدمات كتبه، فمثلا عن كتابه "أزهار الرياض"، يذكره في المقدمة، فيقول: وسميته بأزهار الرياض في أخبار عياض، وما يناسبها مما يحصل به ارتياح وارتياض، تسمية وافقت إن شاء الله معناه، وناسبت مترله ومغناه"، ونفس الشيء يتكرر عند تسمية كتاب النفح، حيث أثبت في مقدمة الكتاب ذلك، قوله: "وقد كنت أولاً سمّيته ب– عرف الطيب، في التعريف بالوزير ابن الخطيب– ثم وسمته حين ألحقت أخبار الأندلس به ب– نفح الطيب، من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب[1]. وكل من ترجم للمقري اعتمد على ذلك سواء المؤرخين المشارقة أم المغاربة.

سبب تأليف الكتاب وموضوعه:

تتفق المصادر التاريخية على إن السبب المباشر في تأليف المقري لكتابه"نفح الطيب" الذي ختم به حياته، هو المحيط العلمي الدمشقي الذي أقام فيه أحمد المقري سنة1037ه/1628م، حيث لمس المقري شغفا علميا، واهتماما بالغا، وودا صافيا طاهرا، استحوذ على فؤاده في حديثه لهم عن الأندلس وعن لسان الدين بن الخطيب، وهو ما دفع بأحد العلماء الدمشقيين"ابن الشاهيني الصقلي" الطلب منه تأليفا في الموضوع، يقول أحمد المقري عن ذلك: "كنا في خلال الإقامة بدمشق المحوطة، وأثناء التأمّل في محاسن الجامع والمنازل والقصور والغوطة، كثيرا ما ننظم في سلك المذاكرة درر الأخبار الملقوطة، ونتفيأ من ظلال التبيان مع أولئك الأعيان في مجالس مغبوطة، نتجاذب فيها أهداب الآداب، ونشرب من سلسال الاسترسال، ونتهادى لباب الألباب... ونستدعي أعلام الأعلام، فينجرّ بنا الكلام والحديث شجون، وبالتفنن يبلغ المستفيدون ما يرجون، إلى ذكر البلاد الأندلسية، ووصف رياضها السندسية... فصرت أورد من بدائع بلغائها ما يجري على لساني، من الفيض الرحماني، وأسرد من كلام وزيرها لسان الدين بن الخطيب السلماني... ما تثيره المناسبة وتقتضيه، وتميل إليه الطباع السليمة وترتضيه من النظم الجزل في الجد والهزل... فلما تكرر ذلك غير مرة على أسماعهم لهجوا به دون غيره حتى صار كأنه كلمة إجماعهم، وعلق بقلوبهم، وأضحى منتهى مطلوبهم، ومنية آمالهم وأطماعهم... فطلب مني المولى أحمد الشاهيني إذ ذاك وهو الماجد المذكور، ذو السعي المشكور، إن أتصدى للتعريف بلسان الدين في مصنف يعرب عن بعض أحواله وإنبائه وبدائعه وصنائعه ووقائعه مع ملوك عصره وعلمائه وأدبائه..."، فحاول المقري الاعتذار، لكن صاحبه ألحّ، فلم يقوى على ردّ ملح لعزيز[2].

ولكن تبدوا هناك أسباب أخرى دفعته لذلك وهي: إحساس المقري بمدى إهمال المشارقة للتراث الأندلسي والمغربي، سواء اعتداد بالثقافة المشرقية على حساب الثقافة المغربية أو بسبب الضعف، وهذا ما ظهر جليا لدى المقري وهو يحدثهم عن ابن الخطيب، وما أدراك بابن الخطيب شهرة بالأندلس والمغرب، وهو نفس

[1]- أحمد المقري، نفح الطيب، ج1... المصدر السابق، ص: 117.

[2]- أحمد المقري، نفح الطيب...، المصدر السابق، ص: 21.

الإهمال الذي لاحظه ابن دحية الكلبي صاحب كتاب"المطرب"، والعلامة كنون صاحب كتاب "النبوغ"، وهو ما حدى بالمقري إلى تحقيق ما كان يجول في ذهنه مما يسمى بالترعة المغربية في نقل التراث الأندلسي والمغربي إلى المشارقة، خاصة وإن الفاتحين للأندلس وأهلها من عرب الشام، الذين اتخذوا من الأندلس وغرناطة وطناً مستأنفا وحضْرة جديدة، وسمّوها باسمها لشبهها، وقد قال الشقندي عن غرناطة بأنها دمشق بلاد الأندلس، وقال ابن الخطيب وما لمصر تفخر بنيلها وألف منه في شفيلها (هو نهر غرناطة). كما لا يفوتنا التنبيه بإعجاب المقري بابن الخطيب في طريقته الأنشائية وحفظه للكثير من أشعاره ورسائله، وفي ومنهجه البسيط والسهل والمفتوح[1].

موضوعات الكتاب:

اشتهر المقري بكتابه "نفح الطيب" الذي يعتبر أوسع وأنفع وأجمل كتبه بالفوائد، وأشملها للتاريخ والأدب، وهو تحفة أسلوبية ذات تميز عربي، وصورة فكرية وسياسية، استأثر ابن الخطيب بثلاثة مجلدات منه، ولو لم يكن للمقري غيره لكفاه ذلك فضلا. شرع في تأليفه بعد عودته من دمشق إلى القاهرة، وفرغ منه عشية يوم الأحد المسّفر صباحها من السابع والعشرين لرمضان سنة ثمان وثلاثين وألف(1038ه) بالقاهرة المحروسة، والحق فيه كثيرا في السنة بعدها، فيكون جميعه آخر الحجة تتمة سنة تسع وثلاثين وألف(1039ه)[2].

طبع كتاب النفح منذ أكثر من مائة سنة، في أولى طبعاته عام1279ه/1862م بمطبعة بولاق، ثم طبع سنة1302ه/1885م في المطبعة الأزهرية بالتفصيل، واستجابة لتلهف القراء عليه الذين عرفوا قدره، طبع مرة ثالثة عام1949م، وطبعته المطبعة الملكية بالرباط عام1383ه/1964م من تقديم عبد الوهاب بن منصور، وفي سنة1388ه/1968م حققه إحسان عباس وطبعته دار صادر ببيروت، وهي من أهم طبعاته.

قسم المقري كتابه إلى قسمين، وكل منهما مستقل بالمطلوب، فَيصِحُ إن يسمّيا باسمين.

استهل المقري كتابه بمقدمة في أول أجزاء نفحه، ذات قيمة علمية وأدبية كبيرة تعداد صفحاتها121 صفحة، وهي في الحقيقة ديباجة أدبية، يُذكِر فيها بالصفات الربانية وبالآداب الخُلقية، وفيها يكشف النقاب عن هويته ومراحل حياته ورحلاته، افتتحها بقوله: "يقول العبد الفقير، الذليل المضطر الحقير، من هو من صالح الأعمال عري... أحمد من عرّف من حُلي الأمصار وعُلي الأعيان، على تداول الإعصار وتطاول الأحيان، ما فيه ذكرى لأولي الأبصار وإرشاد إلى معرفة الدّيان، واعتبار بأخبار راع وصفها أوراق". ويكشف أيضا عن عنوان كتابه كما سبقت الإشارة إليه.

1- محمد عبد الغني حسن، كتاب المقري صاحب نفح الطيب، المرجع السابق، ص: 117.

2- أحمد المقري، نفح الطيب، ج7، المصدر السابق، ص: 518-519.

يتبين من خلال مقدمته، إن الكتاب رغم كونه أحد كتب تراجم، إلا إنه يجمع بين منهج كتب التراجم والمجامع الأدبية ذات الطابع الموسوعي، جاعلا من شخصية ابن الخطيب المركز الذي تدور حوله طائفة المعلومات والمعارف، في التاريخ والأدب والأخبار لدراسة التاريخ والحضارة الأندلسية بجوانبها المختلفة، ليس فقط في عصر لسان الدين ابن الخطيب(ق8ه/14م) الذي عاش فيه، بل الوجود الإسلامي ككل بالأندلس والذي استمر مدة ثمانية قرون. كما يؤكد على إن تأليفه جاء لقضاء دين، وليس تقربا إلى ملك، أو التماسا لعطاء من سلطان، وفي ذلك يقول: "ولم يكن جمعي-علم الله- هذا التأليف من استهديه، أو عرض نائل استجديه، بل لحق ود أوديه، ودين وعد أقدمه وأبديه"[1].

من جملة العناصر والمضامين التي احتوتها المقدمة أيضا، تعرضه إلى حنينه إلى الوطن، وبلوغه مصر، وزياراته إلى الحجاز وبيت المقدس ودمشق، واقتراح المجلس العلمي عليه تأليف كتابه، وقَبوله، ثم الشروع في التصنيف، وهذا عرف يُطرد في الكتابات الإسلامية المقدمة جميعها، وعقب ذلك أومأ الكاتب إلى أهمية مؤلفه، وذكر سبب تأليف"نفح الطيب" تحت عنوان "ابن شاهين يقترح على المؤلف تأليف كتاب عن لسان الدين"، وذكر منهجه في التأليف والترتيب وموضوعات نفحه، ومما امتازت به المقدمة من الناحية اللغوية والأسلوبية، غلبة ظاهرة السجع عليها، والإيجاز، والجمل القصيرة المتوازية، وحضور اللفظ الغريب، والجزل الفصيح بين ثناياها. [2].

خصص القسم الأول للحديث عن الأندلس وتاريخها وآدابها، وفيه من الأخبار المترعة، والأنباء المنتحية صوب الصواب، الرافلة من الإفادة في سوابغ الأثواب، وفيه يحسب القصد والاقتصار، وتحري التوسط في بعض المواضع دون الاختصار، وبه ثمانية من الأبواب. ففيها يصف الجزيرة الأندلسية جغرافية وسماءً، نباتا وجماداً، كما يذكر فتحها على يد المسلمين، وصيرورتها مجالا للعز الإسلامي، وقهرا للعدو المسيحي، وذكر بعض من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق، ومن وفد من المشرق إلى بلاد الأندلس، وكيف حازوا قصب السبق في ميدان العلم والمعرفة، وعرج في الباب الثامن على سقوط الأندلس بيد الصليب، وعودة التثليث والرأي الخبيث إليها، مع ملاحظة إن المقري لم يخلي بابا من هذا القسم من كلام لسان الدين بن الخطيب وإن قلّ.

أما القسم الثاني، فهو عبارة عن دراسة بيوغرافية في التعريف بلسان الدين ابن الخطيب، وذكر إنبائه التي يروق سماعها ويتأرج نفْحها ويطيب، وما يناسبها من أحوال العلماء والأعلام الذين قضى ذكرهم شجون الكلام والاستطراد، ومن المصنفات في الفنون والمؤلفات في الآمال والظنون، وفي ذكر مشايخه وتلامذته وأولاده، وقد قُسِم بدوره إلى ثمانية أبواب.

---

[1]- أحمد المقري، نفح الطيب، ج4، المصدر السابق، ص: 487.

[2]- أحمد المقري، نفح الطيب، ج1، المصدر السابق، ص: من المقدمة.

وفي "نفح الطيب" تراجم لكثير من الأعلام الذين عاشوا في الأندلس وفي المغرب، أو نزلوا بها، أو مروا بها، أو وفدوا عليها من مختلف عصور التاريخ الأندلسي الممتد، فاعتنى عناية خاصة بالترجمة لكبار العلماء والكتاب والشعراء ممن حايلوه، سواء في العدوة الأندلسية، أو في العدوة المغربية، وأورد لهم كثيرا من إنتاجهم الفكري شعرا ونثرا، وأفاض في النقول عن ابن خلدون من "تاريخه الكبير"، وعن ابن الخطيب نفسه من كتابه "الإحاطة"، وعن ذلك يقول: "ومن كتاب الإحاطة، قول: وما ذكره هؤلاء أكثره مأخوذ من كلامه عند تعريفه رحمه الله لنفسه آخر الإحاطة، ولنذكر ملخصه، إذ صاحب البيت أدرى بالذي فيه من الزيادة على ما سبق، وهي تُتم للطالب أمله وتوفّيه".[1]

يضم كتاب "نفح الطيب" بين دفتيه ترجمة زهاء سبع مائة شخصية، تتفاوت فيما بينها طولا وقصرا وأهمية، مع ملاحظة، إن أغلبها مركزّ وقصير، وإن ما كان يجنح منها إلى الطول نسبيا، هي في الغالب تلك المخصصة للشخصيات التي ذاع صيتها، سواء في السياسة والحكم كعبد الرحمن بن معاوية ابن أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بن مروان المعروف بالداخل، أو في الثقافة والفن مثلا كرئيس المغنين أبو الحسن علي بن نافع الملقب بزرياب، الشاعر المطبوع والمغني الموهوب[2].

بقي في الأخير، إن نشير إلى إن أهمية كتاب "نفح الطيب" تعود في درجة كبيرة إلى العدد الكبير من المصادر المتنوعة والمتباينة التي اعتمد عليها المقري، ومنها كتب ابن خلكان، والصفدي، وابن حجر العسقلاني، وابن الأثير، والزمخشري، وابن خلدون، وابن سعيد، وغيرها. كما إن بعض كتبه ضاعت بعد رحيله إلى المشرق العربي، ولو بقي البعض منها لفاقت أهمية من كتاب النفح.

منهج الكتاب وأبرز مميزاته:

يعتبر أحمد المقري من الشخصيات البارزة التي عاشت أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر(16-17م)، والذين ابتدأت بهم المدرسة التاريخية والأدبية في المغرب العربي، وخلفوا مؤلفات كثيرة في التاريخ والتراجم والرحلات، منها كتابه "نفح الطيب" محور دراستنا في هذا البحث. هذه المدرسة التي اصطبغت بصبغتين، صبغة الحفاظ على الأسلوب العربي الأصيل لغة وتركيبا وطريقة، وصبغة غلبة الطابع الأندلسي على أدبيات هذه المدرسة شعرا ونثرا، فالصلات التاريخية والأدبية المغربية والأندلسية مع إنها قديمة، إلا إنها امتزجت، خاصة بعد إن صار المغرب دار مقام المهاجرين الأندلسيين بدلا من الفردوس المفقود[3].

1- لمزيد من المعلومات حول نقول المقري، ينظر: ابن الخطيب، الإحاطة...المصدر السابق، ص: 398.

2- أحمد المقري، نفح الطيب، مج3... المصدر السابق، ص: 122.

3- محمد حجي، جولات تاريخية، المرجع السابق، ص: 211.

بداية، اتخذ أحمد المقري عنوانا لكتابه، اتسم بالكمال والشمولية، بحيث انطبق تماما مع محتوى ما أورده فيه من أقسام وأبواب وموضوعات، وحافظ على سنة من سبقه من العلماء والمؤلفين في اتخاذ مثل هذه العناوين المسجوعة لأسماء كتبهم ومصنفاتهم، على غرار ابن سعيد علي بن موسى الذي عنون كل مؤلفاته بهذا الشكل ومنها مثلا: تفريج الظلام وترصيع العالم بالأعلام، والحلة السيراء في طبقات الشعراء، والطالع السعيد في تاريخ بني سعيد، والقدح المعلى في التاريخ المحلى الذي اختصره أبو عبد الله محمد، وحققه إبراهيم الأبياري بالهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية بالقاهرة سنة1959م.

إن كتاب نفح الطيب في أخبار لسان الدين بن الخطيب تضمن ترجمة واسعة خصبة النواحي لعَلم مُفرد من أفذاذ الرجال في المغرب والأندلس، وقد استطاع المقري إن يجعل من صاحب الترجمة (ابن الخطيب) مركز لدائرة معارف تاريخية وأدبية تحوي أخبار عصره، لا، بل تستوعب كثيرا من أخبار الأجيال التي تعاقبت في الأندلس والمغرب إلى زمان وجوده. فالمقري يرسم للترجمة خطة واضحة، ويرتب عناصرها ترتيبا حسنا، ويتغلغل في التفاصيل ويتعمق، ويتتبع أخبار المترجم حتى قبل ولادته، ويتحسس عن أوليته وأسرته، ويبحث عن أسرته في صباه وشبابه وكهولته، ثم يذكر شيوخه الذين أخذ عنهم العلم، في كثير من التفاصيل والعناية بذكر مؤلفاتهم، ويخص بالعناية النتاج الأدبي للمترجم، ويذكر تأليفه، وتصرفه في الحياة، وعمله في خدمة السلطان، ووفاته، وآراء الناس فيهم. هذه الطريقة التي يبدو إنه استقاها من شيخه ابن القاض وتأثر بها في كتاباته، والعبارة التي أوردها ابن القاضي في كتابه تلخص ذلك، قوله "أذكر على ترتيب الحروف المعجم ملوكها(فاس) وعلماءها وأعلامها، وما لهم من نظم وتأليف ومن أخذوا عنه أو أخذ عنهم، سواء كان من الغرباء القادمين عليها أو من أهلها"[1].

لكن هناك من يرى بأن هذه الطريقة ليست تراجم بالمعنى المعروف، وإنما هي سجلات، فلا تعطي فكرة واضحة عن المترجم له، وبالتالي فإن قيمتها للتاريخ محدودة وفائدتها للدراسة قليلة[2].

إن منهج المقري في مؤلفه "نفح الطيب" متأثرا تأثرا ما بمنهج لسان الدين ابن الخطيب في كتابه "الإحاطة في أخبار غرناطة"، وبمناهج مؤلفات أخرى، أذكر على سبيل المثال لا الحصر "المغرب في حلى المغرب" لابن سعيد، و"البصائر والذخائر" لابن حيان التوحيدي، و"سرور النفس بمدارك الحواس الخمس" لابن منظور. إن هذه الكتب تتشابه في العناصر التي تتألف منها الترجمة، وفي أسلوب الأنشاء، إلا إن لسان الدين كان أميل إلى مجانبة الاستطراد الذي فشا في تواليف المقري ومنها كتابه هذا "نفح الطيب"، وطبعها بهذا الطابع الخاص،

1- ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، مكتبة لسان العرب، الرباط، 1973، ص: 17.

2- ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، ط3، القاهرة، 1955، ص: من مقدمة المحقق.

يقول عن ذلك: "في القسم الثاني، في التعريف بلسان الدين ابن الخطيب... والأعلام الذين اقتضى ذكرهم شجون الكلام والاستطراد"[1].

صحيح إن الاستطراد وبكل أنواعه يفكك الموضوع، ويذهب وحدته وانسجامه، ويحدث ارتباكا لدى القارئ والسامع، ولكنه في المقابل ظاهرة أدبية انتشرت في الكتابات النثرية في العصر العباسي، وكتابات الجاحظ أبرز الكتابات التي تتجلى فيها الظاهرة، وهو الذي يعترف بأنه يستطرد في كتبه، ومما ساعده في ذلك ثقافته الواسعة، وإلمامه بجميع معارف عصره، وقد تكلم عن ذلك في كتابه "الحيوان" وعلل بفعله ذلك فقال "كلام في الاستطراد"، وهو الأمر نفسه الذي يحرص عليه السخاوي عند إجلاله لشيخه وتقديره له، فيقول": وذكرت ذلك هنا استطرادا... وإنما أوردتها مع ما قبلها استطرادا... وكل هذه استطرادات..."[2]. وإذ أذكر ذلك، فإنما لأبين بأن كثرة الاستطراد عند احمد المقري، لم تحدث خللا لعمله العلمي، بل هي التي أضفت على كتابه "النفح" صفة الموسوعية العلمية الثقافية، والتاريخية الأدبية، فجاءت أبواب الكتاب وثيقة الصلة بعضها ببعض، وأقسامه واضحة العلاقة، بل حتى الفقرات التي جاءت في ثنايا الاستطراد تطلبها الهدف المراد الوصول إليه، وهو إزالة الغموض وإيضاح الفكرة.

إذا كان المقري قد ألف كتابه "أزهار الرياض" في مدينة فاس سنة1013هـ/1605م، وكان الباعث له على تأليفه رغبة أهالي بلده تلمسان في التعريف بالقاضي عياض، عالم المغرب الأوسط وقاضيه الأشهر، فإنه ألف كتاب"نفح الطيب" في القاهرة بعد سنة1028هـ/1619م استجابة لرغبة بعض أعيان دمشق وعلمائها ومنهم الشاهيني في التعريف بلسان الدين بن الخطيب، فذكر كثيرا من شؤون الأندلس في تفصيل وترتيب عجيبين، ومن أجل هذا، يظهر للمتأمل إن المؤلف كان مضطرا إن يكرر في نفح الطيب طائفة من الأخبار التي ذكرها من قبل في أزهار الرياض لبعد ما بين الأفقين اللذين ظهر فيهما الكتابان.

أشار المقري في مقدمة كتابه إلى بعض معالم منهاجه في تصنيف"نفح الطيب"، وهو منهاج يمتاز بالوضوح والإحكام في تراجمه إلى حد بعيد، يقول في ذلك: " فاقتدحت من القريحة زندا كان شحاحا، وجمعت من مقيداتي حسانا وصحاحا... ورقعت من إنباء لسان الدين بن الخطيب خللا... وسلكت في التعريف به مهامه تكل فيها واسعات الخطا وتقصر، فحدث لي بعد ذلك عزم على زيادة ذكر الأندلس، ومآثر أهلها المتناسقة...

1- أحمد المقري، نفح الطيب، ج1، المصدر السابق، ص: 115.

2- شمس الدين السخاوي، الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام بن حجر، تح: إبراهيم باجس عبد المجيد، ط1، دار ابن حزم، القاهرة، 1319هـ/1999م، ص: 14-15.

وجئت من النظم والنثر بنبذة توضح... وانتقيت جواهر، فوائدها للعقول بواهر... وجمعت كلِما، وأسجاعا تهتز لها الأعطاف، ومواعظ يعمل بمقتضاها من أتحفت به الألطاف، وقوافي موفورة القوادم والخوافي... "[1].

يسوغ المقري ترتيب تراجمه الذي ارتضاه لكتابه برغبته في إن يكون الابتداء بأكابر فقهاء غرناطة وعلمائها والاختتام بالمسك، وعمد إلى تقسيم كل فئة من المترجم لهم المشار إليهم في النص السابق تقسيما داخليا، إلى من سكن المدينة بحكم الأصالة والاستقرار كترجمة ابن الخطيب لوالده عبد الله بن سعيد بن أحمد علي السلماني أبو محمد الغرناطي الولادة والاستيطان، اللوشي الأصل طليطليه قرطبيه، وللقاضي أبي بكر ابن عاصم الغرناطي الأصل، أو طرأ عليها مما دخلها من التابعين الأوائل من الأقطار العربية الإسلامية المشرقية أو المغربية كالمنيذر اليماني الصحابي الذي دخل غازيا مع موسى بن نصير، وحسين بن عبد الله فشر الصفاني، وأبو عبد الله علي بن رباح اللخمي اليرموكي[2].

يُظهر أحمد المقري اهتمامه الكبير بالتاريخ، ويكشف عن ثقافته الموسوعية ودرايته بعلم التاريخ، وهو يتحدث عن أهمية علم التاريخ في مقدمة كتابه، فيقول: "... وأمر جل اسمه بالتدبر في إنباء من مضى، والنظر في عواقب أحوال الذين زال أمرهم وانقضى من صنوف الأمم، ووبخ من دجا قلبه بالإعراض عن ذلك وأظلم، وشتان ما بين اللاهي والمتذكر، والساهي والمتذكر، والناجي والهالك والمتحير، والداجي الحالك والمشرق النيّر..."، كما يظهر اهتمامه بالنسب، وهو يتحدث عن نسب المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى الجد الأعلى عدنان، وذلك في قوله: "... ذو الفضل العظيم الذي لم يختلف فيه من أهل العقول اثنان... المنتقى من محتد معد بن عدنان، المنتخب من خير عنصر وأطهر سلالة، شفيعا وملاذنا وعصمتنا ومعاذنا وثمالنا... وعمدتنا العظمى في الأولى والآخرة... وغيثنا وغوثنا وسيدنا ونبينا ومولأنا محمد الطيب المثابت والأعراق..."[3]. وهو في ذلك يسير على خطى ابن خلدون الذي أدرك إن له ولأجداده نسب وتاريخ، وحضارة عريقة مع عمق إيمانها بالإسلام، ضاربة في عمق وجذور التاريخ[4].

وانطلاقا من اهتماماته بالجانب التاريخي، ندرك القيمة الموسوعية لكتاب"النفح"، خاصة حينما يجمع بين التاريخ والأدب، كشيخ انطلاقا على سجيته يمزج التاريخ بالأدب، فيستطرد القصة والخبر، وينشد ما يستحضره من الشعر الذي يناسب الموضوع، وهنا تلتقي نظرته بنظرات شيوخه خاصة ممن درسوا بالزاوية الدلائية، وهي نقطة التشابه بينهم التي يقف عندها محمد حجي في كتابه "الزاوية الدلائية"، في ذكر الحكايات والقصائد والمقطعات المنشدة، والمُلَح الغريبة المستفاد منها، ليكون كذلك كالمعين على مطالعة الكتاب، لأن

---

[1]- أحمد المقري، نفح الطيب، ج1، المصدر السابق، ص: 105-106.

[2]- للمعلومات أكثر حول هذه الشخصيات، ينظر: أزهار الرياض، ج1، ص: 145، والإحاطة، ص: 200.

[3]- أحمد المقري، نفح الطيب، ج1، المصدر السابق، ص: 3-5.

[4]- عبد العزيز الدوري، أوراق في التاريخ والحضارة، ج1، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 2007، ص: 227.

النظر في فن واحد قد ترغب عنه النفوس، بخلاف ما إذا نمق بغيره، فقد يُسلي العبوس، وذلك ما يتوافق مع ما ذكره المقري في مقدمته عندما صرح في قوله: "وأوردت فيه من نظم وإنشاء، ما يكفي المقتصر عليه إن شاء، ومن أخبار ملوك ورؤساء وطبقات، من أحسن أو أساء، ما فيه اعتبار للمتأمل، واد كار للراحل المتحمل، وزينة للذاكر المتجمل"[1].

إذا كان أحمد المقري نبغ في كتابة النثر، فإنه برع أيضا في نظم الشعر، حيث احتوى كتابه على قصائد كثيرة تنوعت موضوعاتها الشعرية في الأدب العربي، فنظم في المدح والمدح النبوي الشريف خاصة، وفي الغزل، والزهد، والوصف، والاخوانيات، وفي الحنين إلى الوطن والأهل، بل وفي الألغاز، حتى ليتبادر إلى القارئ إنه أمام موسوعة أدبية. فكان شعره مرآة لحياته الخاصة، ولهذا يمكن إن نعد شعره سفرا يؤرخ للحوادث التي عايشها، وللمواقف التي لقيها، وسجلا للمشاعر التي انتابته (فرحا تارة وحزنا تارة أخرى)، فهو يعالج قضاياه التاريخية بالشعر، حيث يؤدي وظيفتي الشاعر والمؤرخ حينما يتعامل مع الأحداث والوقائع.

ففي منهجه دائما، إن الشعر هو الذي يُعنى بالتعبير عن الأحداث التي وقعت، أو التي يمكن إن تقع، أو حتى من المحتمل إن تقع، وهو الذي يرفع أو يحط، وبالتالي فإن المقري سار على منهج الفكر العربي الذي رفع كثيرا من شأن الشعر والشعراء، إذ كان الشعر عند العرب منذ الجاهلية "ديوان علمهم ومنتهى حكمهم، به يأخذون وإليه يصيرون"، وكان الشاعر هو المنافح والمدافع والمسجّل للمفاخر والأمجاد، والمهوّل على الأعداء[2].

إن الاعتماد على الشعر عند المقري جزء من منهج أسلوبه، وصورة من صور كتابته، وإن نظرة سريعة في كتاب "نفح الطيب" لتؤكد إدراك المقري للعلاقة الجدلية التي تربط الشعر بالتاريخ، وقد تتجلى هذه العلاقة عبر كامل فصول الكتاب، وللتمثيل على ذلك نشير إلى الموضوعات التي تطرق إليها، وهي:

المديح، الذي احتل حيزا كبيرا إلى جانب الأغراض الشعرية الأخرى، وقد انقسم إلى: مديح خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم، مصورا فيه حبه للنبي(ص)، ووصفه للأماكن المقدسة، وحنينه إليها كل مرة، على نحو ما كان يفعل شعراء المدائح النبوية في العصور المختلفة، وفي ذلك يقول مثلا[3].

هذا الرّؤوف بجاره ونزيله   هذا سراج الله في تنزيله
هذا الذي لا ريب في تفضيله   هذا حبيبُ الله وابن خليله

1- أحمد المقري، نفح الطيب...، ج1، المصدر السابق، ص: 118.

2- محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، شرح: محمود شاكر، ج1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1974، ص: 24.

3- أحمد المقري، المصدر السابق، ص: 49.

ومديح عام للأهل والأصدقاء من العلماء والأدباء، والشخصيات التي ترجم لها كالقاضي عياض ولسان الدين بن الخطيب، الذي يقول فيه[1].

أو ليسَ مثلي قاصرا عنْ وصفهِ	والحق نورُ واضحُ للمهتدي

للعلم، إن شعر المقري يتسم بالصّدق والإخلاص، وببساطة الألفاظ، وإحكام للعبارات، وعذوبة الأسلوب، بهدف إبراز المكانة العالية والدرجة السامية لممدوحه.

أما الموضوع الأدبي الثاني الذي أحتل مكانته في مؤلف المقري، هو الحنين إلى الأهل، والبلد، والوطن، وإن كان شعور عاطفي وجداني عادي يتولد لدى كل إنسان أدرك إحساس البعد والغربة، إلا إنه يتفاوت درجة ومشاعر، والمقري واحد من الذين أدركوا قيمة الفراق، واكتووا بالغربة، فراح يطلق العنان لمشاعره، عاجزا عن السيطرة على انفعالاته شوقا للأهل وللوطن وللذكريات القديمة. ولعل البيت الذي اخترته معبّرا به عن حنينه إلى أبناء الوطن لدليل على ذلك، وفي ذلك يقول[2].

إذا ظفرت من الدنيا بقربهم	فكل ذنبٍ جناهُ الدّهر مغفور

إلى جانب ذلك تناول الوصف الذي تأصلت ملكة فنه عنده، صفاءً ووجدانا، وتألق خيالٍ، وتدفق عاطفةٍ، فوصف المدينة المنورة تبركا بها وبصاحبها النبي الأكرم(ص)، كما وصف الطبيعة سواء بالمناطق التي عاش فيها أو التي مر بها. وتناول الزهد، والغزل، والاخوإنيات التي احتلت هي الأخرى حيزاً لا بأس به من شعره، على غرار درجة مساجلاته وعلاقاته مع أصدقاءه العلماء والأدباء من المغرب والمشرق، وتضمنت هذه المراسلات أغراضا مختلفة كالمديح، والعتاب، والشكوى، والاعتذار، ولعل المساجلات والمكاتبات الأدبية التي جمعته بمحمد بن علي الوجدي الملقب بالغماد، أصدق دليل، وهو الذي كتب إلى أحمد المقري يقول[3].

تحية إخوان معطرة أنشر تخص	الإمام الأوحد السامي القدر
ويغشى الجناب المقري عبيره	وتوليه منا أطيب الحمد والشك

وعليه، ومن خلال مقدمة كتاب"نفح الطيب"، يتجلى لنا إن المقري نهج في مؤلفه منهجا علميا فريدا في تقسيم هذه الموسوعة الأدبية التاريخية إلى أقسام وأبواب متناسقة ومتجانسة بعضها مع بعض، وهو المنهج الذي يتماشى مع أسس منهج البحث العلمي القويم وأهدافه، هذا المنهج الذي من سماته إن حدد فيه

1- نفسه، ص: 110.

2- نفسه، ص: 32.

3- محمد حجي، جولات تاريخية، المرجع السابق، ص: 162.

المكان والزمان اللذين خصهما بالتأليف، فالمكان هو الأندلس، والزمان هي الفترة التي عاشها المسلمون فيها، والتي استمرت نحوا من ثمانية قرون مع التركيز على القرن الثامن الهجري بصفة خاصة (عصر لسان الدين ابن الخطيب)، كما حدد ومن خلال مقدمة كتابه دائما، الأسباب التي حدت به إلى تصنيف كتابه، والعبارة التي انقلها تلخيصا مما ذكر تفي بذلك، قوله: "لما حصل لي كمال الاغتباط، نشرت بساط الأنبساط، وحدثت لي قوة النشاط، وانقشعت عني سحائب الكسل..."، يبدو إن المقري قد اقتبس هذه العبارة من البيت الشعري للقاضي عياض الذي صنف فيه كتابه[1]، وهو:

إذا ما نشرت بساط انبساط	فعنه فديتك فاطوِ المزاجا

ونخلص مما سبق، إلى إن المقري أدرك بوضوح قيمة النص الشعري في عملية التوثيق للأخبار التاريخية.

مصادره:

لقد أتيح للمقري من الكتب ما لم يتح لغيره، ووقع له من المصادر ما لا وجود له بالأمس أو باليوم، وقد كان للرجل عناية بالغة بالكتب، وأفاد من الخزائن الخاصة لكل من السلطان احمد المنصور التي أنشأ تحبيسها على جامع القرويين، وأبي المعالي زيدان السعدي سلطان المغرب في وقته فائدة عظيمة، وقد كانت تلك المكتبة تحتوي على ثلاثة آلاف سفر من أنفس الكتب، ولقد كان فضل المقري إنه استطاع في نفح الطيب إن يصور نقولا ونصوصا منها، كما أطلع بمكتبة العالم المراكشي عبد الواحد الرجراجي على كتب نادرة لم يسبق له العثور عليها كحواشي الإمام اللقاني على توضيح خليل، أهداه الرجراجي نسخا منها، كانت محط استغراب علماء تلمسان قاطبة.[2]

إذا لم يكن للمقري فضل المؤرخ الناقد كالعبدري وعبد الكريم الفكون، فله فضل الحافظ المدون كأبي راس الناصري مثلا، وهو فضل لايستهان به، وخاصة في تاريخ الأندلس التي ضاع كثير من تاريخها ومعالمها على إثر المحن والنكبات المتعاقبة التي توالت عليها، حتى خروج أهلها منها مجردين من كل شيء، إلا من ذكريات أمسهم الدابر وعزهم الغابر. وعلى هذا فإن المقري سخّر كل مادته لتصوير الحياة السياسية والاجتماعية والأدبية بالأندلس، وحرص على إن يستنقذ من يد النسيان والضياع كثيرا من الأخبار عن الأندلس والمغرب، وما يزال قسم كبير من كتابه منقولا عن أصول ضاعت و لم يعد لها وجود، يذكرها المقري منها كتاب "نشق الأزهار في عجائب الأقطار" والذي يعتقد فيه محقق الكتاب إحسان عباس إنه لصاحبه ابن إياس الحنفي المتوفي سنة930ه/1524م، وكتاب "روضة الأزهار وبهجة النفوس ونزهة الأبصار" المنقول من كتاب الذخيرة لابن حيان، ومستوعبا لأصول أخرى لا نجدها في سواه، ولذلك نجده كثيرا ما يشير إلى كتبه

[1]- الخريدة، ج3، ص: 504.

[2]- أحمد المقري، روضة الآس، المصدر السابق، ص: 315-316.

الكثيرة التي تركها وراءه بفاس بالمغرب الأقصى، وإنها لم تحضره بمصر ساعة تأليفه "النفح"، وعن ذلك يقول: "وقد ملكت بفاس مجلدا ضخما بخط مؤلفه، وهو أحد علماء مدينة فاس، ألفه برسم مولاي الجد، وسماه ب"الزهر الباسم"، وأطال فيه في مدح مولاي الجد والثناء عليه، والتنويه بقدره وذكر محاسنه، ولم يحضرني الأن، لكون تركته مع جملة كتبي بالمغرب"[1]

إن من يتصفح ويتمعن في كتاب النفح يدرك إن المقري لم تكن لديه نسخ من الكتب التي ذكرها كالذخيرة، أو المقتبس، أو زاد المسافر، أو الصلة، أو جذوة المقتبس، أوصلة الصلة، أو الذيل والتكملة، والحلة السيراء، وتحفة القادم، أو الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، وإذا ذكرها فهو إنما ينقل عنها بالواسطة، فأسرف في النقل منها لأنه لا يملك سواها. ولكن في المقابل وجدت لديه من مؤلفات المغاربة والمشارقة ما استعان بها كثيرا، كما إنه نقل كثيرا من المادة من كتابيه"أزهار الرياض" و"روضة الآس"، وهو الأمر الذي حفزه على الاضطلاع بذلك العبء الذي كلف به.

إن أولى مصادر أحمد المقري هي ملكة الحفظ التي تميز بها، وهو في ذلك يشبه الحميدي الذي استعان بحفظه، فمصادر كتابه "جذوة المقتبس" مما كان عنده من كتب ومما كان يحفظه، يدل على ذلك قوله: "بادرت إلى جمع المفترق الحاضر، وإخراج ما في الحفظ منه وإتعاب الخاطر"[2] أما المصادر المكتوبة فهي كثيرة ومتنوعة، ومن خلال ما ذكره، يمكن حصرها فيما يلي:

– **الإحاطة في أخبار غرناطة:** لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن أحمد السلماني الغرناطي الشهير بلسان الدين ابن الخطيب المتوفى بفاس عام776ه/1374م. يعتبر كتاب"الإحاطة" موسوعة تاريخية وأدبية وجغرافية، وهو أشهر وأضخم مؤلفات لسان الدين التي تزيد على الستين مؤلفا، التزم فيه مؤلفه بالترتيب الأبجدي لأصحاب التراجم لا الترتيب التاريخي، هو كتاب تراجم أكثر منه كتاب تاريخ. ينقل عنه أحمد المقري في العديد من المرات، وفي الكثير من المواضع، منها مثلا بعض الكلام له أجرى فيه ذكر مزايا البلاد الأندلسية، قوله: "خصّ الله تعالى بلاد الأندلس من الرّيع وعذق السُقيا، ولذاذة الأقوات، ونزاهة الحيوان، ودرور الفواكه... ونفوذ الإدراك، وإحكام التمدن والاعتمار، بما حُرِمهُ الكثير من الأقطار مما سواه"[3].

---

[1]- إن شوقي ضيف محقق كتاب المغرب في حلي المغرب لابن سعيد يتهم أحمد المقري بأنه أستل معظم كتابه "نفح الطيب" من المغرب، وهو الذي اشترط على من سأله تأليف كتابه، إن لا يشرع فيه إلا في القاهرة، لعلمه بوجود نسخة من كتاب المغرب فيها، وهي نسخة أخرى غير النسخة التي وصلت بقاياها بخط مؤلفها ابن سعيد والتي أهداها لابن العديم صاحب كتاب"بغية الطلب"، وقد آلت هذه النسخة إلى الصفدي صاحب "الوافي". ينظر: ابن سعيد، المغرب في حلي المغرب: تح: شوقي ضيف، ط3، دار المعارف، القاهرة، 1955، ص: 121، وأحمد المقري، نفح الطيب، ج3، ص: 175.

[2]- الحميدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، تح: إبراهيم الابياري، ط3، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1410ه/1989م، ص: 13.

[3]- أحمد المقري، نفح الطيب، ج1، المصدر السابق، ص: 126-148.

- العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر: لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون المتوفى سنة808ه/1406م، يتألف الكتاب من سبعة أجزاء، وجزء ثامن للفهارس. فالجزء الأول منه خصصه للمقدمة المشهورة، والتي تضمنت نظريته في التاريخ على إنه نوع من الفلسفة، وإنه لا بد من تحليل الحوادث التاريخية، أما بقية الأجزاء التالية، فهي أخبار العرب وأجيالهم ودولهم ومن عاصرهم من الدول المشاهير منذ بدء الخليقة إلى عصره، ثم أخبار البربر وأجيالهم، وما كان بديار المغرب خاصة والمشرق عامة من الملك والدول. ينقل عنه وهو يتحدث عن الأمم التي استوطنت الأندلس، قوله: "قال قاضي القضاة ابن خلدون الحضرمي في تاريخه الكبير، هذا القطر الأندلسي يسمى عند العجم الأندلوش، وتسكنه أمم من أفرنجة المغرب أشدهم وأكثرهم الجلالقة، وكان القوط قد تملكوه وغلبوا على أهله لمئين من السنين قبل الإسلام... ولما أخذ الروم واللطينيون بملة النصرانية حملوا من رواءهم بالمغرب من أمم الفرنجة والقوط عليها فدانوا بها... إلا إن جاء الله بالإسلام والفتح..."، والفقرة نفسها منقولة من العبر، ج4، ص: 116-117.[1]

- المغرب في حلي المغرب: لأبي الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسي المتوفى سنة685ه/1286م، يتكون كتابه من خمسة عشر قسما، ستة منها لمصر، وستة للأندلس، وثلاثة لبلاد المغرب، تحتوي هذه الأقسام على ذخائر ونفائس شعراء الأندلس والتي تنوعت بين المدح والهجاء والموشحات، وغيرها من ألوان الشعر الأندلسي. ينقل عنه المقري كثيرا خاصة في الجزء الأول من كتابه، تارة نقلا مباشرا قوله مثلا: قال ابن سعيد، أو وساق ابن سعيد في المغرب، وتارة أخرى نقلا غير مباشر، قوله: قال ابن سعيد نقلا عن ابن بشكوال، أو قوله في موضع آخر: وقال في المغرب عند تعرضه لذكر جامع قرطبة الأعظم ما نصه: "اعتمدت فيما انقله في هذا الفصل على كتاب ابن بشكوال"[2].

- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: لابن الحسن علي بن بسام الشنتريني المتوفى عام542ه/1148م، والذي خصص كتابه لأدباء عصره، حيث لم يذكر إلا من أدركه بنفسه، أو أدركه بعض معاصريه، ويعتبر كتابه أول مرجع لمعرفة حياة أدباء الأندلس في تلك الفترة، فضلا عما احتواه الكتاب من أخبار تاريخية نقلها عن مؤرخ الأندلس ابن حيان، قال عنه صاحبه: وقد أودعت هذا الديوان الذي سميته كتاب الذخيرة في محاسن أهل هذه الجزيرة من عجائب علمهم وغرائب نثرهم ونظمهم ما هو أحلى من مناجاة الأحبة [3]. يذكره، ويذكر عنوان

1- نفسه، ص: 147.

2- نفسه، ص: 562.

3- محمد ماهر حمادة، المصادر العربية والمعرّبة، مؤسسة الرسالة، ط6، بيروت، لبنان، 1407ه/1987م، ص: 259.

مؤلفه في جوانب مختلفة، منها قوله: "قال ابن بسام صاحب الذخيرة، ومن شعر الجزيري ما اندرج له أثناء نثره، الذي ملح فيه مخاطبته على ألسنة أسماء كرائمه بزهر رياضه"[1].

– **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي المتوفى عام346هـ/958م، هو أشهر من إن يعرف لشيوعه، وصف الخليقة وقصص الأنبياء مختصرا ، ثم وصف البحار والأرضيين وما بينهما من العجائب، ويدخل في ذلك تواريخ الأمم القديمة، ثم تاريخ الرسالة الإسلامية. ارتكز عليه المقري في نقوله في الوصف الجغرافي والاقتصاد الطبيعي للأندلس حيث يقول: "قال المسعودي في مروج الذهب، والعنبر كثير ببحر الأندلس، يجهز إلى مصر وغيرها، ويحمل إلى قرطبة من ساحل لها يقال له شنترين وشذوفة... وكذلك يحمل من بلاد الأندلس الزعفرإن وعروق الزنجبيل، وأصول الطيب خمسة أصناف: المسك، الكافور، العود، العنبر، الزعفران، وكلها تحمل من أرض الهند وما اتصل به إلا الزعفران والعنبر"[2].

–**جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**، لأبي عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله الحميدي المتوفى سنة488هـ/1095م، ألف هذا الكتاب بطلب من أحد البغداديين، واختلف المترجمون للحميدي الذاكرون كتابه في عنوانه، فسماه ابن جبير الاشبيلي ب"جذوة المقتبس في تاريخ الأندلس"، وسماه ياقوت الحموي ب"جذوة المقتبس في أخبار علماء الأندلس"، أما ابن النجار فسماه" تاريخ الأندلس"، نقل عنه المقري كثيرا عن تاريخ الفتح الإسلامي للأندلس نقلا مؤرخا دقيقا فيقول: "إن موسى بن نصير ولي إفريقية والمغرب سنة سبع وسبعين، فقدمها ومعه جماعة من الجند، فبلغه إن بأطراف البلاد من هو خارج عن الطاعة، فوجه ولده عبد الله فأتاه بمائة ألف رأس من السبايا، ثم ولده مروان إلى جهة أخرى فأتاه بمائة ألف رأس، قال الصفدي: لم أسمع في الإسلام بمثل سبايا موسى بن نصير"[3].

أهمية الكتاب وقيمته العلمية:

إن كتاب "نفح الطيب" يعتبر من أهم مصادر تاريخ المغرب الإسلامي، لما يتضمنه من معلومات ذات قيمة تاريخية وأدبية كبيرة أغلبها مقتبس من مصنفات عبثت بها أيادي الدهر و لم تصل إلينا، ولهذا جاء الكتاب حافلا بمعلومات تاريخية وجغرافية وأدبية قيمة ينفرد بها عن غيره من المؤرخين. فإذا كان المقري الموسوعي النظرة، الذي جمع بين الفقه والحديث والأدب، والوعظ والإرشاد، نادرة من نوادر الزمان، فإن كتابه "نفح الطيب" يعد من أشهر كتب القرن الحادي عشر الهجري وأهمها، وهو كتاب ضخم في التراجم والأدب والتاريخ وغيرها، فقد جمع من تاريخ الأندلس ومن تاريخ المسلمين فيها ما لا نجده في كتاب غيره، وقد أتاح

---

[1]– أحمد المقري، نفح الطيب، ج1، المصدر السابق، ص: 531.
[2]– نفسه، ص: 144.
[3]– نفسه، ص: 239.

له تأخر زمانه(في ق 11ه/17م) إن يصل من أخبار الأندلس ما انقطع بعد النكبة التي أصابتها، بل أصابت العالم الإسلامي في بقعة منه كانت في جنوب غرب أوربا[1].

تحدث العديد من العلماء والنقاد سواء من القدماء، أو من المحدثين عن شخص المقري وعلمه الغزير، وعن مؤلفه المتميز هذا، "نفح الطيب"، والذي يكتسي أهمية بالغة شملت كل أجزائه، وهي:

المقدمة، والتي كثيرا ما يكتفي القارئ بقراءتها دون إتمام بقية محتويات الكتاب، لأنها وببساطة تكشف عادة عما يعالجه هذا الكتاب من قضايا، وخطة، ومنهج. لذا حرص العلماء الأوائل على اهتمامهم الشديد بأن تكون فواتح كتبهم ومصنفاتهم بمقدمات ذات قدر كبير من الدقة والإتقان، وهذا ولا ريب ما يهدف إليه اليوم منهج البحث العلمي وطرائقه. وهكذا فإن شهرة مقدمات بعض الكتب قد تفوق في بعض الأحايين شهرة الكتاب نفسه، وخير مثال على ذلك، مقدمة"العبر" للعلامة ابن خلدون التي طغت بشهرتها على شهرة كتابه، في حين إن بعض الكتب حملت اسم المقدّمات مختصرا من بقية اسم الكتاب كاملا، ككتاب المقدّمات الممهّدات لبيان مما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات... في الفقه المالكي لأبي الوليد ابن رشد القرطبي(ت520ه/ 1126م)[2].

إن مقدمة "نفح الطيب" للمقري، توصف بإحدى المقدمات ذات الطابع الموسوعي(121صفحة) فهي تعبر تعبيرا دقيقا عن الهوية البيوغرافية والثقافية لمؤلفها، وعن منهجه العلمي، وأسلوبه الأدبي، فقد كشف المقري في مقدمته عن اسمه الكامل، مولده ونشأته، مذهبه، وعن عنوانه الكامل والشامل والذي ينطبق تماما مع محتوى ومضمون الكتاب وموضوعاته.

لا تخفى أهمية كتاب نفح الطيب على باحث ولا مطالع، فهو قد عرفنا بشخصيات لم نكن نعرفها، وبنشاط الحركة العلمية والأدبية في أيامه، ووسع معلوماتنا ومعرفتنا بآخرين كنا لا نعرف إلا أسماءهم، أو لا نعرف عنهم إلا القليل، ولو عددنا الشخصيات التي عرّف بها كابن سلبطور وابن راجح وأبي عبد الله اليتيم وغير ذلك، لعَلِمْنا أي معروف أسداه المقري بهذا الكتاب إلى هذه الأمة. وبالإضافة إلى الرجال الذين عرّف بهم وأطلعنا على بعض أخبارهم، يحتوي الكتاب على مجموعة من القصائد والموشحات والقطعات التي لم يرد لها ذكر فيما يتناوله الناس على هذه الكتب المطبوعة والمخطوطة على السواء، وهذه المجموعة الشعرية وإن كانت لم تبلغ كلها القيمة البلاغية، فهي تنمي الثروة الأدبية من جهة أولى، وتربط حلقات العصور الأدبية

---

[1]- محمد المنوني، المرجع السابق، ص: 68، ومحمد حجي، جولات تاريخية، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 1995، ص: 7.

[2]- للمزيد من المعلومات ينظر: ابن رشد القرطبي، المقدّمات الممهدات لبيان مما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات والتحصيلات المحاكمات لأمهات مسائلها المشكلات، تح: محمد حجي، ج1، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 1988.

بالمغرب من جهة ثانية، ويتبين لنا من جهة ثالثة ما بلغ إليه من رخاء وبذخ على عهد المنصور. وفي الحقيقة هناك من بينها قصائد ومقطعات حلقت في أفاق البلاغة، وبلغت منتهى السمو، وإنا لنجترئ بمثال واحد منها، وهو القصيدة التي قالها عبد العزيز الفشتالي الذي مدح فيها سيد الوجود صلى الله عليه وسلم، والسلطان المنصور بالله أبي العباس احمد الحسني، وهي القصيدة التي بذّت شعراء اليتيمة والخريدة. ذكر المقري هذه القصيدة شوقا إلى شبابه بمراكش بحضور السلطان المنصور بالله، وهو يردد قوله" فلله فيها عيش ما نسيناه، وعز طالما اقتبستاه، نور الهدى من طور سيناه. تقع القصيدة في113بيتا، مطلعها: [1].

هم سلبوني الصبر والصبر من شأني	وهم حرموا من لذة الغمض أجفاني
وهم أخفروا في مهجتي ذمم الهوى	فلم يثنهم عن سفكها في الجاني

وما كان أروع المقري وهو يصف لنا في سطور قليلة ولكنها مزدحمة بالمعاني، خروج آخر سلاطين الأندلس منها بعد ما ضاع ملكه، ونزوله بمليلة ثم بفاس، وما كان أشد الأسى في عبارته وهو يصف لنا بعد ذلك ذرية سلاطين الأندلس وهم بمدينة فاس بالمغرب على عهده يأخذون من أوقاف الفقراء والمساكين، ويعدون من الشحاذين[2].

ومن عجيب قضاء الله إن أبا العباس المقري الذي أفاد كل مؤرخ للأندلس، وكل كاتب عنها من كتاب نفح الطيب، لم ينل من عناية المؤرخين المعاصرين والمحدثين إلا قليلا لا يفي بفضله، ولا يجزئ في الترجمة له، والتعريف به.

---

[1]- المقري، روضة الآس، المصدر السابق، ص: 120.

[2]- محمد حجي، جولات تاريخية، المرجع السابق، ص: 9.

المبحث الثالث: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية لعبد الكريم الفكون

أولا: ترجمة المؤلف: وفيها

اسمه ونسبه:

أبو محمد عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن قاسم بن يحي الفكون التميمي القسنطيني[1].

وإذا كان العياشي يذكره ب"سيدي محمد" تارة، حيث يقول: "سيدي محمد بن العلامة الفهامة... سيدي عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الفكُون"، وتارة أخرى ب"سيدي عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم"، فإن مقصوده كان واحدا، حتى وإن كان قد عرف والده من قبل[2].

هو ابن أحد أعرق وأشهر البيوتات العلمية في مدينة قسنطينة: بيت آل الفكُون والتي تنتسب لقبيلة ابن تميم العربية، إذ إن أفراد عائلة الفكون يذكرون هذه النسبة (التميمي) مع أسماءهم، ومن ثم فهي من العائلات العربية العريقة، كما يذكر عبد الكريم الفكون إن جده من قِبل أمه كان من الأشراف الحسينيين، تولى وظيفة مزوار الشرفاء. تعود جذور تواجد هذه العائلة بمدينة قسنطينة إلى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، فأجداده مدفونون بها، ولهم زاوية تحمل اسمهم، ومدرسة لتعليم العلم للطلبة من الجزائر وغيرها. وقد ذكره معاصره الأديب أحمد المقري، ونوه بأسرته نظما ونثرا بقوله: "فهو العالم الذي ورث المجد لا عن كلالة، وتحقق الكل إن بيته شهير الجلالة، بيت بني فكون، هضاب العلم والوقار والسكون، لا زال الخلف منهم يحيون مآثر السلف"

---

[1]- عبد الكريم الفكون، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تقديم وتحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 1408هـ/1987م، ص: 7، ومحمد الإفراني، صفوة من إنتشر... المصدر السابق، ص: 251-252، وعبد السلام القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق: محمد حجي وأحمد التوفيق، ج2، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1397هـ/1977م، ص: 130-132 ، أبي سالم العياشي، اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر، فهرس العياشي، 11هـ/17م، تحقيق ودراسة: نفيسة الذهبي، منشورات كلية الآداب والعلوم الأنسانية، الرباط، 1996، ص: 163-164، أحمد المقري، نفح الطيب، ج2، المصدر السابق، ص: 480، عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس، ج 1، ص: 501، كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية: عبد الحليم النجار، دار المعارف، القاهرة، ص: 357، محمد مخلوف، شجرة النور... المصدر السابق، ص: 428، أحمد التنبكتي، نيل الابتهاج... المصدر السابق، ص، 321، أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1406هـ/1986م، ص: 11، وعادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، المرجع السابق، ص: 254، الحفناوي، تعريف الخلف... المرجع السابق، ص: 162، الزركلي، الأعلام، ج4، المرجع السابق، ص: 180.

[2]- أبو سالم العياشي، الرحلة، ج2، المرجع السابق، ص ص: 206-390.

ودام عبد الكريم فردا في العلم والزهد والولاية
فهو الذي حاز فضل سبق وصار في الزمان آية
عليه أزكى الصلاة تترى لدى ابتداء وفي النهاية[1].

في حين إن عبد القادر الراشدي يذكر إن نسب هذه الأسرة ينتهي إلى فكونة، وفي ذلك يقول: "وأولاد نعمون من توابع الحفاصة من هنتاتة وأولاد المسبح من بني مرداس بن عوف السلمي وأولاد الخيتمي من ختيمة قرية بأوراس وأولاد الفقون من فكونة قرية بأوراس أيضا[2].

ويظهر من كلام الرحالة المغربي محمد العبدري إن عبد الكريم الفكون من سلالة الأديب أبي علي حسن بن علي بن عمر القسنطيني المعروف بأن الفكون، فذكر إنه أثناء توقفه بالجزائر خلال رحلته من المغرب إلى المشرق، سأل عنه، و لم يحفظ له مولدا ولا وفاة، ورُمت إن أحد من يروي عنه قصيدته المشهورة في رحلته من قسنطينة إلى مراكش، فلم أجده، فقيدتها هنالك غير مروية، وكان القسنطيني كتب بها إلى أبي بدر بن مردفيتش وهو بقسنطينة، والقصيدة تقع في اثنان وثلاثين بيت[3].

نشأته ومولده:

ولد عبد الكريم الفكون بمدينة قسنطينة عام988ه/1580م، وهي السنة نفسها التي توفي فيها جده عبد الكريم بن قاسم الفكون، فسمي باسمه[4].

ونشأ في زمن لم يكن مستقرا سياسيا ولا مزدهرا اجتماعيا، فعاش عصر التصوف المزعوم والدروشة الخرافية، والسلطة الجاهلة الطاغية الغريبة (هذا ما يصف به بعض الحكام العثمانيين). في ظل كل هذه الأوضاع، كان المجتمع القسنطيني مجتمعا حضريا متماسكا، لعبت فيه العائلات الكبيرة، ولاسيما الدينية، دوراً فعالا وناقدا، كعائلة ابن باديس، وابن نعمون، وابن الفكون، التي كانت تنظم العلاقات العامة، بل وهي التي تعارض أو تبارك النظام الإداري للمدينة[5] في ظل عائلة عاشت على العلم، وعلى تنشئة أبنائها على حفظ القرآن، وتولية القضاء والتدريس، واعتناق المذاهب الصوفية، وبناء المدارس والزوايا، تربى وترعرع عبد الكريم

1- عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، المصدر السابق، ص: 231.

2- أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 1406ه/1986م، ص: 8-9، وعبد القادر الراشدي، عقد اللآلئ المستضيئة لنفي ظلام التلبيس، هذا الكتاب ذكر في: تعريف الخلف برجال السلف، ص: 228، وفي تاريخ الأدب العربي، ص: 542، وفي تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص: 65.

3- محمد العبدري البلنسي، الرحلة المغربية، تق: سعد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، 1428ه/2007م، ص: 60-62.

4- أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام. . . المرجع السابق، ص: 8.

5- نفسه، ص: 22، وفاطمة قشي، قسنطينة المدينة والمجتمع في النصف الأول من القرن13ه/أواخر القرن18 إلى النصف الأول من القرن. 19م، رسالة دكتوراه، كلية العلوم الأنسانية والاجتماعية، تونس، 1419ه/1998م، ص: 37.

الفكون، حيث فازت عائلته بخطة إمارة ركب الحج منذ سنة968ه/1638م، ثم بوظيفة شيخ البلد في القرن الثامن عشر الميلادي، واستمرت في ورثتهم حتى سقوط المدينة تحت الاحتلال الفرنسي عام 1838م، كما فازت بمجالات الخطابة، الإمامة، القضاء والعدالة، ولعل الصفات التي وصفه بها العياشي أكبر دلالة على الدرجة العالية التي تقلدها عبد الكريم الفكون في المجتمع القسنطيني والعربي الإسلامي، حيث يقول عنه: "الشيخ الفقيه المشارك النبيه الفهامة الناسك الخاشع الجامع بين علمي الظاهر والباطن سيدي عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الفكون القسنطيني"[1].

يعتز عبد الكريم الفكون بنسبه كثيرا، وبأجداده أكثر، فيذكرهم بالولاية والصلاح، وبملازمة الأذكار وقيام الليل، يقول عن جده محمد الفكون الذي تولى إمامة الجامع الأعظم بقسنطينة إنه كان من الفقهاء، كما يعتز أيضا بمصاهرة عائلته

مع كبار العائلات بقسنطينة ومنها عائلة ابن باديس وابن نعمون. أما عن الثروة التي امتلكتها العائلة فهي كثيرة ومتعددة، منها الأملاك بقسنطينة وبريفها (أراضي-بساتين-عقارات)، بالإضافة إلى أوقاف الجامع الكبير، ووظيفة ركب الحجاج التي تولاها عبد الكريم الفكون لسنوات طويلة[2]

أقوال العلماء فيه:

تعتبر شخصية عبد الكريم الفكون من الشخصيات الشهيرة والمميزة، ليس في المجتمع القسنطيني فقط، بل وفي المجتمع المغاربي الإسلامي، بحكم المركز العلمي له ولعائلته، وبحكم المناصب التي تولاها ومنها أمير ركب الحجيج. كل ذلك صنع له رصيد احترام وتقدير لدى العلماء والصلحاء الذين اختلفت أرائهم فيه، ومنهم:

أحمد المقري معاصره نزيل فاس ثم القاهرة، نوه به قائلا: "عالم قسنطينة وصالحها، وكبيرها ومفتيها، سلالة العلماء الأكابر، ووارث المجد كابر عن كابر، المؤلف العلامة سيدي الشيخ عبد الكريم الفكون"[3].

وعرّفه محمد مخلوف بقوله: "أبو محمد عبد الكريم بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الفكون القسنطيني الإمام العلامة، العمدة القدوة الفهامة، الجامع بين علمي الظاهر والباطن، التزم عقب كل شاهد ذكر حديث مناسب للشاهد"[4].

1- عبد الله العياشي، الرحلة العياشية، المصدر السابق، ص: 512.

2 - Vayssettes, Recueil, Histoire des deys de Constantine, 1867, p : 321.

3- أحمد المقري، نفح الطيب. . . المصدر السابق، ص: 380.

4- محمد مخلوف، شجرة النور. . . المصدر السابق، ص: 448.

أما أبو سالم العياشي الذي التقاه وعرفه وعايشه، قال عنه: "وممن لقيته بطرابلس الخاشع الجامع بين علمي الظاهر والباطن رضي الله عنه، نفعا ونفعنا به، قدِمها حاجا وهو أمير ركب الجزائر وقسنطينة وتلك النواحي على نهج أبيه، وعادته محافظا على سلوك سيرة والده من التؤدة والحلم والوقار، فأحبته القلوب، ومالت إليه النفوس... كانت لنا به رضي الله عنه وصلة وانتساب بالخدمة والولاء، والاعتقاد الصالح لما حججنا معه في سنة1064ه... وكان رضي الله عنه في غاية الأنقباض والأنزواء عن الحق ومجانبة علوم أهل الرسوم، بعدما كان إماما يقتدي به فيها، وله فيها تآليف كثيرة، شهد له فيها بالتقدم أهل عصره، وألقى الله في قلبه ترك ذلك والعكوف على حضرته بالقلب والقالب، والتردد إلى الحرمين الشريفين، مع كبر السن، وكان يقول إذا ذكر له شيء من هذه العلوم، قرأناها لله وتركناها لله"[1].

وقال عنه تلميذه أبي مهدي عيسى الثعالبي: "لقد استوى عند شيخنا المدح والذم، وإنه كان متجنبا أهل الولايات الدنيوية، ولقد سيقت إليه بمصر أموال ضخام وهدايا نفيسة حين قفوله من الحج، وأقبل عليه أهلها على اختلاف طبقاهم، ونزل إليه الباشا فمن دونه، فما استفزه شيء من ذلك، ولا اكترث به، ولم يقبل منه ديناراً ولا درهماً"[2]. [3]

شيوخه:

تلقى عبد الكريم الفكون ثقافة علمية فقهية وأدبية واسعة، وكان ذا إطلاع واسع بالفقه المالكي خاصة، وحتى وإن كانت ثقافته تقوم على المجهود الشخصي والعائلي(التكوين والتعليم داخل العائلة)، فإن لها نسبا، وهو أخذه عن الشيوخ الأجلاء والعلماء الأكفاء خاصة من المجتمع القسنطيني آنذاك.

يُكِن عبد الكريم الفكون احتراما كبيرا لمشايخه، ويفتخر بكثرتهم، بنسبهم وبعلمهم، ولذلك نجده أفرد لهم فصلا خاصا في كتابه "منشور الهداية"، وهو الفصل الأول، يقول عن ذلك فيهم: "فيمن لقيناه من العلماء والصلحاء المقتدى بهم، ومن قبل زمنهم ممن نقلت إلينا أحوالهم وصفاتهم تواترا، أردنا التنبيه عليهم، وذكر ما

1- العياشي، الرحلة، المصدر السابق، ص: 498-518.

2- أبي مهدي عيسى الثعالبي، أما من الشيوخ المعاصرين الذين تناولوه بالبحث والدراسة، المهدي البوعبدلي رحمه الله، يذكره ويبجل مكانته، فقال عنه: " فكان يذهب إلى الديار المقدسة سنويا، كانت خطة إمارة ركب الحج لا تستند إلا لأمثل عالم، تراعي فيه عدة مقاييس، أهمها التبحر في العلم والاستقامة، إذ هو الممثل لبلاده ولنخبة علمائها، حيث يجتمع بجل علماء الأقطار الإسلامية، ويتبادل معهم الإجازات والتأليف، ويشارك في المناظرات العلمية التي كانت تعقد لحل المشاكل العويصة. فكانت مهمة أمير الركب في رحلاته الإفادة والاستفادة".

3- المهدي البوعبدلي، عبد الكريم بن الفقون القسنطيني(988ه/1073م) والتعريف بتأليفه" منشور الهداية في كشف حال من ادعى الولاية"، مجلة الأصالة، ع: 51، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، السنة السادسة، الجزائر، ذو القعدة1397ه/نوفمبر1977، ص: 15.

كانوا عليه، وزمانهم، وتواريخ وفاتهم، فيذكر كراماتهم تبركا بهم، داعيا الله إن يفتح عليه بما فتح به عليهم"[1]. ومن بين شيوخه:

أبي عبد الله محمد الفكون، والده وهو أول شيوخه، حفظ على يديه القرآن الكريم، وتلقى المبادئ الأولية للعلوم في زاوية العائلة، يصفه بالفقيه الصوفي، المفتي المالكي، والذي كان ذا سمت وتعفف وأوراد، تولى وظائف عدة كالإمامة والخطابة بالجامع الأعظم بقسنطينة، وقد توفي أثناء رجوعه من أداء فريضة الحج بمنطقة بين الحجاز ومصر سنة1045ه/1645م[2].

أبو عبد الله محمد بن مزيان التواتي المغربي ، والذي وفد إلى مدينة قسنطينة من المغرب لتدريس النحو والفقه خصوصا، فلم يستغني عن الذهاب لطلب العلم بمنطقة زواوة التي اشتهرت بالقراءات السبع، يعتز الفكون به وبعلمه كثيرا، وهو حسب ما استخلصناه من ترجمته له، أشهر شيوخه، يشير إلى نسبه وأصله، إلى علومه، وشيوخه الفاسيين، يصفه بالحافظ، ويثني على صفاته الخلقية، قوله: "وكان ذا خلق حسنة وبساطة، وكان متواتر الكلام في علمه لا يتلعثم، ولا يفصل بين اللفظين، ولا يتروّي إلا قليلا"، ولما كان محمد التواتي نحويا ولقب بسيبويه زمنه، فقد قرأ عليه شرح ألفية بن مالك للمرادي[3].

أبو الربيع سليمان بن أحمد القشي، الذي انتفع به خلق كثير، لبساطة كلامه، وحسن نيته، وكثرة توفيره، وحلو الفكاهة والمحادثة، منبسطا يداعب الصغار والكبار، ملازما للذكر كثير التلاوة، يقول عنه الفكون: "قرأت عليه أوائل الرسالة، وحضرت باقيها، وقرأت شرح الصغرى والقطر والجرومية، وبعض أوائل الألفية"[4].

أبو فارس عبد العزيز النفاتي القسنطيني الذي قرأ عليه الحساب وبعض الفرائض، كان كاتبا لدار إمارة قسنطينة، وصاحب رأي ومشورة ودهاء عظيم، يقول عنه: "كان من أحبائنا لله، رحمه الله وغفر له"[5].

أبو عبد الله محمد بن راشد الزواوي، الذي كان سببا في تعلق الفكون بعلم النحو بملازمته قراءة كتاب المرادي، في حلقات دروس الشيخ محمد التواتي، يقول عنه: "فلما رأى مني الحرص والالتفات الكلي إلى هذا

1- أبو القاسم سعد الله، منشور الهداية، المصدر السابق، ص: 35-37.

2- نفسه، ص: 52.

3- نفسه، ص: 58.

4- نفسه، ص: 60.

5- نفسه، ص: 61.

الفن صار يحُثني على الحضور معه في درس شيخنا التواتي" وقد قيد ابن راشد تقاييد على شيخه التواتي وكانت لي معه مراسلات بعد عودته إلى وطنه[1].

وظائفه:

تولى عبد الكريم الفكون وظائف عصره، وهي التدريس والإمامة والخطابة، وهي وظائف تقليدية وراثية في الأسرة، تولاها أبائه وأجداده من قبله، منهم أحد أجداده الذي درس بتونس وتولى فيها التدريس والخطابة والإمامة، وكان ذلك زمن تبعية قسنطينة للحفصيين، كما كانت لأسرة الفكون مدرسة وزاوية خاصة باسمهم لتعليم العلم للطلبة والنزول عندهم، كل ذلك أهله لتولي هذه الوظائف، وزيادة على ذلك، فإنه نال شرف التتلمذة على شيوخ عصره، ساعده في ذلك طموح كبير لطالما أشار إليه في معرض حديثه عن شيوخه وتفوقه على بعضهم في حل بعض المسائل، بالإضافة إلى حركة التأليف، فقد ترك مؤلفات كثيرة تنوعت موضوعاتها بين الأدب والنحو والفقه، وهو ما سنتطرق إليه في معرض الحديث عن مؤلفاته.

لكن الوظيفة الأساسية والتي لم يتولاها أحد من أفراد عائلته من قبل، هي وظيفة" أمير ركب الحجيج"، والتي كان يتم التعيين فيها من طرف أعلى سلطة في البلاد وهو الباشا، فقد كانت السلطة العليا تشترط فيمن يتولى إمارة ركب الحجيج، الجاه العريض، والثروة الكبيرة، والعلاقة الحسنة بالحكام، والعلم، وهي ولا ريب الشروط التي تمتعت بها أسرة الفكون في المجتمع القسنطيني خاصة بعد تبعيتها للأتراك العثمانيين منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي، وهي التي أهلتها لتولي إمارة ركب الحجيج منذ القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي، وتحتفظ بلقب شيخ الإسلام إلى غاية سنة 1838م، حين ألغت السلطات الفرنسية ذلك[2].

إن أول من تولى إمارة ركب الحجيج هو عبد الكريم الفكون(الحفيد) صاحب كتاب منشور الهداية، إذ لم تمنح لا لأجداده ولا لأبيه من قبل، بمرسوم مؤرخ في أوائل رمضان1048ه/1638م، ومما ورد في هذا المرسوم ما يلي: "الحمد لله، ليعلم من يقف على هذا الأمر الكريم... من القواد والعمال والخاص والعام ببلد قسنطينة... وبعد، فإن الشيخ العالم القدوة التقي سيدي عبد الكريم الفكون، جددنا له على مقتضى مما بيده من الأوامر، كلما كان توجهه للأرض المشرّفة، وزار قبر المصطفى عليه الصلاة والسلام... لأنه أحق بها ويقوم بحقها، موصي فيما سعى وتعد إليه الطريق فيما اقتدى واهتدى، والرفق بالرفيق والسائق المزمل للبيت العتيق،

1- نفسه، ص: 108-109.

2- أبو القاسم سعد الله، مجتمع قسنطينة في كتاب منشور الهداية، ص: 394.

يسير على قدر سيرهم، ولا يؤثر البعض على بعضهم... كتب بأمر عبد الله المجاهد في سبيل الله أبي الحسن علي باشا أيده الله وبتاريخ أوائل رمضان المعظم عام ثمانية وأربعين وألف"[1]

للعلم، إن عبد الكريم الفكون خرج لأول مرة كأمير لركب الحجيج ستني1047-1048هـ/1638-1638م، وظل يتولاها إلى وفاته سنة1073هـ/1663م، وأسندت المهمة لابنه محمد الفكون من بعده بمرسوم آخر صدر عام1075هـ/1664م، وقد نصت هذه المراسيم على التأكيد على امتيازات الأمير الممنوحة له، ووجوب حرمه واحترامه واحترام جميع خدامه وأصحابه وخماسيه وشركائه بالحرم الوافر، وكما إن جميع ما يدخله ذباب البلد المذكور، أو يخرجه سرحان قايد الباب... جريا في ذلك على عادته وعادة أسلافه قبله[2].

مؤلفاته:

من خلال الاطلاع على قائمة مؤلفات الفكون، يظهر إنها تتوزع في مجالات مختلفة، فقد كتب في الحديث والفقه واللغة، كما نظم الشعر، وهناك ملاحظة يجب التنبيه إليها وهي إن عبد الكريم الفكون ألف معظم إن لم أقل كل مؤلفاته في فترة حياة والده، أي قبل سنة1045هـ، ومن بين أهم مؤلفاته ما يلي:

– **منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية،** هو كتاب تراجم تعرض فيه لترجمة أكثر من سبعين شخصية، ألفه على فترات في شكل مذكرات، انتهى منه بعد سنة1045هـ/1635م، تاريخ بداية كتابته غير محدد، يحتمل في عشرينات القرن الحادي عشر الهجر/السابع عشر الميلادي، هو تقييد هام يصور طبيعة البيئة في قسنطينة زمن هيمنة عقلية الخرافة، كما أرخ لأحداث مدينته وما جاورها. إن التراجم التي عرضها في كتابه لم يقصد بها التعريف بمناقب المترجم لهم، وإنما أراد بها نقد أحوال أدعياء العلم والتصوف في وقته، استنادا لخلفية إصلاحية تنويرية. يسميه تأليفا، تقييدا، وأحيانا ديوانا. حياة الناس المترجم لهم يسميها تارة ترجمة، أو فهرسة، أو سيرة. الكتاب به معلومات هامة عن الحياة الاجتماعية في قسنطينة[3].

– **سربال الردة في من جعل السبعين لرواد الإقرا عدة،** هو في الحقيقة تأليف في القراءات، غني بالآراء والنقول، وقد نص صاحبه على إنه لا يتجاوز كراسة، وإنه وضعه بعد واقعة وقعت له مع أحد علماء قسنطينة، وهو أحمد بن حسن الغربي، عالج فيه أنواع القراءات ورواتها، ومما يتصل بأوجه القراءات طريقة النطق بالتكبير والصلاة على النبي(ص) عند الختم. وهو كتاب مخطوط بباريس[4].

1- Mercier, Constantine au 17ème Siecle : élévation de la famille el-fagoun, p : 17-28.

2- نفسه، ص: 28.

3- نفسه، ص: 15-16.

4- ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، ، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، لبنان، لبنان، ص: 25.

– **فتح الهادي في شرح جمل المجرادي ومخارج الحروف من الشاطبية**. وهو مؤلف في القراءات أيضا.

– **الدرر في شرح المختصر،** والمقصود به مختصر عبد الرحمن الأخضري الذي تعرض فيه إلى مسائل فقه العبادات على مذهب الإمام مالك، ومنذ إن ألفه والفقهاء مقبلون عليه شرحا وتعليقا ونظما، منها شرح الفكون هذا. يقول عنه مؤلفه" نبهنا على فوائد فيه لم توجد في المطولات، ونكت حسان قلّ إن تلقى في غيره، وتنبيهات أخذناها من فحوى خطابه، وفروع كملنا بها ما لم يفصح به كلامه رضي الله عنه وأرضاه، وربما نبهنا على ما طغى به قلم شارحه المذكور أو هفا فيه"[1].

– **شرح البسط والتعريف في علم التصريف،** ألفه سنة1048ه/1638م، وهو شرح للأرجوزة المشهورة لصاحبها النحوي عبد الرحمن المكودي الفاسي(ت807ه/1405م)، وقد التزم فيه عقب كل شاهد ذكر حديث مناسب للشاهد معنى وإعرابا. يقول عنه أبو سالم العياشي: هو مجلد أجاد فيه غاية الإجادة، وأحسن كل الإحسان، وأعطى النقل والبحث فيه حقهما، ولم يهمل شيئا مما يقتضيه لفظ المشروح ومعناه إلا تكلم عليه، وأجاد كما هو شأنه، وأول خطبته: "الحمد لله الذي أجرى تصاريف المقادير بواسطة أمثلة الأفعال، وأوضح البيان افتقارها إليه بتغيير حالاتها من حركة وصحة وإعلال ونوع وأشكال وعين وجودها إلى ضم الأنضمام إليه، وكسر الأنكسار لديه، وفتح الأنفتاح في مشاهدة العظمة والجلال"، ويضيف العياشي بعض المعلومات عن المؤلف بقوله" ولا يخفى عليك ما اشتمل عليه هذا المطلع من براعة الافتتاح، ولطيف الإشارة إلى أنواع الإعراب والتصريف، وقد فرغ من تأليفه أوائل صفر عام1048ه... وشرح الفكون هذا أوسع نقلا، وأكثر بحثا، وأتم تحريرا من شرح العلامة سيدي محمد المرابط الدلائي(ت1089ه)

وبعدما وازن بين الشرح وشرح العلامة المغربي... مضيفا ولا أدري أيهما سبق إلى شرحه"[2]. والكتاب طبعه محمد صالح موسى حسين، صادر عن مؤسسة الرسالة ببيروت عام 1430ه/2009م.

– **فتح المولى في شرح شواهد الشريف بن يعلى،** وهو الكتاب الذي رصد فيه منتخبات الشواهد الشعرية، التي وظفها الشريف أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يعلى الحسني، وشرحه يسمى" الدرة النحوية في شرح الاجرومية"، وهو أول شرح لمتن" الأجرومية"[3]

– **شرح لامية الجمل النحوية للمجراد السلاوي،** وهو شرح على المنظومة المسماة بلامية الجمل النحوية لناظمها أبي عبد الله محمد بن محمد بن عمران (الفزازي) السلاوي المعروف بابن المجراد (ت778ه/1377م)

1– ابن الفكون، منشور الهداية...، المصدر السابق، ص: 46.

2– العياشي، الرحلة...، المصدر السابق، ص: 391.

3– مخطوط بمكتبة القاسمية، بزاوية الهامل ببوسعادة(الجزائر)، حسب فهرسة مخطوطات خزائن القاسميين، لمحمد فؤاد الخليل القاسمي الحسني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2006، ونسخة بالمكتبة الوطنية بتونس تحت رقم406.

وهو على ما يبدو مخطوط بمكتبة الموهوب أولحبيب ببجاية (الجزائر)، ضمن فهرسة مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن التي أعدها جمال الدين مشهد عام2004م).

– **محدد السنان في نحور أخوان الدخان**، ويسمى أيضا "**محدد اللسان**"، وهو تقييد مفيد يرد فيه على دعاة شرب عشبة التبغ، وعلى رأسهم العالم المصري الاجهوري، وقد أورد فيه معالجة فقهية جامعة لهذه الظاهرة الغريبة، مبينا بالحجج والبراهين حرمتها ومضارها، وهي من العادات السيئة التي بدأت تنتشر في عصره، وهو مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم6929.

– **كتاب في حوادث فقراء الوقت**، لعله هو كتاب منشور الهداية في حال من ادعى العلم والولاية حسب ما يذكره بعض من ترجم لعبد الكريم الفكون[1].

– **فتح المالك في شرح ألفية ابن مالك**، وهو شرح على لامية ابن مالك في التصريف، وللألفية شروح عديدة وكثيرة، أشهرها بالمغرب: شرح المكودي بحاشية ابن حمدون- شرح عبد الله ابن عقيل- شرح ابن عقيل مع حاشية الخضري- شرح الأشموني-شرح السيوطي- شرح الشاطبي- شرح الوزاني-شرح ابن هشام (أوضح المسالك إلى ألفية بن مالك)- شرح خالد الأزهري(التصريح على التوضيح)- شرح ابن طولون على ألفية بن مالك- شرح القواعد الأساسية للغة العربية حسب منهج متن الألفية لابن مالك، لأحمد الهاشمي[2].

– **ديوان شعري**، يذكر أبو القاسم سعد الله في مقدمة كتاب"منشور الهداية" إن عبد الكريم الفكون كان يتعاطي الشعر ويمارسه سليقة، وكان يعارض به ما يرد عليه في رسائل المراسلين له أمثال المقري، وتاج العارفين، والسوسي المغربي، كما يذكر أحمد الجزيري الذي زار مدينة قسنطينة، إنه كان يحفظ متن المنشور للفكون مادة شعرية، والتي كانت متناثرة بين فقرات التراجم، وبلغ عدُ أبياتها خمسة وثلاثين ومائة، الكثير منها في القراءات، منها ما هو صادر عن المؤلف، وبعضها لغيره، وهو ديوان في مدح النبي صلى الله عليه وسلم المرتب على حروف المعجم، والتزم إن جعل مبدأ كل شطر حرفا من حروف: إلا هي، بحق الممدوح أشفني، آمين، وجملة ذلك خمس وعشرون حرفا، ففي كل قصيدة مثلها أبيات، وهي من البحر الطويل، يقول في مطلعها:

أبدر أيدت في الخافقين سعوده	ونورا به الأكوان أضحت تلألأ
له في العلا أعلى العلا رتبة	وفي مراقي ذوي العرفان قدما مبدأ

---

[1]- الزركلي، الاعلام، ج4، المرجع السابق، ص: 180، ومعجم المؤلفين، ج10، ص: 191، وهدية العارفين، ج2، ص: 189.

[2]- محمد الشوكاني، أدب الطلب ومنتهى الإرب، در وتح: محمد عثمان الخشت، مكتبة القرآن للنشر والتوزيع، القاهرة، 2002 ص: 180.

وبنفس هذا الشيخ المبارك رضي الله عنه، وبآخرها بخطه تم بحمد الله وحسن عونه هذا المديح في المصطفى الفصيح، في ليلة الجمعة وقت العشاء، منها ليلة ثلاثة وعشرين من جمادى الأخيرة من سنة إحدى وثلاثين وألف، وأسأله بحرمة المديح والجاه إن يعجل بالشفاء الذي لا سقم معه، ويتحف بالمطلوب، وما هو لي فيه مرغوب، إنه سميع مجيب[1].

وفاته: عاش عبد الكريم الفكون بقية حياته منقبضا عن الناس، وترك الاشتغال بالعلوم، توفي بالطاعون عشية الخميس 27 ذي الحجة1073ه/ 3 أوت1663م عن عمر يناهز خمس وثمانين سنة. [2].

ثانيا: دراسة الكتاب ومحتواه:

الكتاب ونسبته إلى مؤلفه:

إن إثبات صحة نسبة العنوان لمؤلفه جزئية من المباحث الهامة في فهرسة المخطوطات، وفي تأليف الكتب، وفي تحقيق النصوص. هناك جملة من المواضع التي يتسنى للمؤلف تحديد عنوانه من خلالها، سواء في مقدمة الكتاب، أو ضمن المتون، أو حتى في خواتم المؤلفات، والأمثلة في ذلك كثيرة ومتنوعة. فعبد الكريم الفكون من الذين أجادوا واعتنوا بهذه المسألة (إثبات نسبة العنوان لمؤلفه)، حيث جاء العنوان صحيحا واضحا في الصفحة الأولى من المخطوط، وكتب بالعبارة التالية" الحمد لله وصلى الله منشور الهداية في كشف حال من أدّعى العلم والولاية، تأليف العبد الفقير إلى الله تعالى الشيخ الولي الصالح النحرير سيدي عبد الكريم الفكون، غفر الله له ورحمه ونفعنا ببركاته وبركات أمثاله آمين آمين آمين" انتهى ما كتب من عنوان بخط المؤلف.

ويضيف محقق الكتاب أبو القاسم سعد الله إنه استخرج معلومات من أسفل الصفحة الأولى مكتوب عليها بخط دقيق فيه محو يكاد لا يقرأ العبارة التالية" الحمد لله (؟) في نوبة... الورى لربه محمد بن عبد(؟) بن بدر الدين بن محمد بن عبد الكريم مؤلفه بن محمد بن عبد الكريم بن يحي بن محمد الفكون، كان الله له في الحركات والسكون، آمين"[3].

وسواء كتبت هذه العبارة بخط المؤلف، أو أضيفت من الناسخ، فهي من الدلائل التي يستدل بها على إثبات صحة نسبة العنوان لمؤلفه، فقد طرحه في خطبة الكتاب(الصفحة الأولى)، ولا توجد أية محاولة للتعديل أو الشطب أو التحوير والتبديل، ولذلك كل من ترجم للشيخ الفكون ذكره من ضمن مصنفاته، ومنهم الكاتب الفرنسي فايسات(vay ssettes) الذي أشار إليه في مصنفه "تاريخ بايات قسنطينة" الذي ألفه في

1- العياشي، الرحلة، المصدر السابق، ص: 518.

2- الحفناوي، تعريف الخلف... المرجع السابق، ص: 166.

3- أبو القاسم سعد الله، منشور الهداية... المصدر السابق، ص: 29.

النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، حيث ذكر إنه عَلِم به، وعرف أهميته ولكنه لم يطلع إلاّ على بضع أوراق منه(فايسات، روكاي لسنة1868م). أما الكاتب الفرنسي الثاني شيربونو(cherbonneau) والذي كتب عن تاريخ مدينة قسنطينة في العهد العثماني، والذي أشار أشارة غامضة وغير واضحة مكتفيا بقوله، بأن الكتاب يتناول طرق الصلاح وتاريخ المرابطين في شمال افريقية(المجلة الأسيوية لسنة1858م)، ولكن في اعتقادنا ونظرا لحاجتنا فهي أشارة يعتمد عليها إلى حين... وإن كنت اكتفيت بهذين الرأيين، فلأنني ذكرت كل من ترجم للفكون في العنوان الخاص ب"اسمه ونسبه".

سبب تأليف الكتاب وموضوعه:

لقد دأب العلماء والصلحاء على التصنيف والتأليف، وجل التصانيف تكون لأسباب، والقليل منها يكون لغرض مجرد التأليف. وذكر الأسباب، إنما هو في الحقيقة للحاجة والأهمية والضرورة، والتحذير تجنبا للوقوع في الخطأ والزيغ، وتقديم النصيحة والإصلاح والتربية، والشعور بالمسؤولية والتأثر، والأنتصار للمبدأ أو المذهب، والتصدي للمنكرات، وهي من دون شك أهم الدوافع والتأليف عند المسلمين عامة[1].

يذكر عبد الكريم الفكون دوافع تأليف مؤلفه بالتفصيل، مشددا لهجته، محذرا متحسرا، ناصحا أمينا، خاصة وإنه ذو ثقافة واسعة، كان على دراية بأمور السياسة والسلطة، ومطلع على أحوال المسلمين، ويمكنني تلخيص دوافعه فيما يلي:

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الرجوع إلى الدين الصحيح لإحياء سيرة العلماء، وتجديد ذكرهم، وتبيان مبادئهم.

- التصدي للجهلة الضالين المضلين المعإندين، المبتدعة الدجالين الكذابين على طرق الصوفية المرضيين، والتحذير منهم في كل زمإن ومكان.

- غيرته على دائرة الكمال من أهل حضرته المتصوفين، وصفوته المتعلمين، الأصحاب الأحباب من أهل الخير والصلاح.

- الدعوة إلى العمل بالعلم الصحيح والتعمق فيه لفهم الحياة فهما عقليا، والشعور بالآلام وإدراك الأخطار، والتفكير في أسباب الداء ووصف الدواء[2].

1- محمد خير رمضان يوسف، دوافع البحث والتأليف عند المسلمين، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، 1426ه/2005م، ص: 97.

2- هي تقريبا نفس الدوافع والأهداف والأساليب التي نادى بها مجموعة من العلماء المصلحين في العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر كمدحت باشا وعبد الرحمن الكواكبي ومحمد عبده وغيرهم، للمزيد من المعلومات حول ذلك ينظر: أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1979.

أما موضوعات الكتاب، فإنه يحتوي على أربعة أصناف من التراجم، لكل صنف فصل خاص به:

الفصل الأول من مؤلفه خصصه للعلماء والصلحاء المقتدى بهم الذين التقى بهم، أو سمع عنهم، وعددهم أربع وعشرون، أشهرهم عمر الوزان، الأوراسي، محمد العطار أحمد الغربي، بركات المسبح، محمد التواتي، ويضيف إليهم أجداده المتقدمين ومنهم يحي وقاسم عبد الكريم الجد ووالده محمد.

أما الفصل الثاني، فقد أفرده لمن تولوا المنصب الشرعي وهم غير أهل له، فكانوا مدعين العلم، أو متشبهين بالعلماء، باستثناء القليل منهم الذين تتوفر فيهم شروط تولي الخطابة والتدريس حسب رأي الفكون، وعددهم اثنان وعشرون، أشهرهم: محمد بن القاسم الشريف، يحي بن باديس، أحمد الجزيري، محمد السنوسي المغربي، محمد بن نعمون.

الفصل الثالث، فهو عبارة عن تراجم لمن ادعى الولاية، والذين وصفهم بالدجاجلة الكذابين، والمتشدقة المبتدعة الضالين المضلين، وعددهم خمسة عشرة، اشتهر منهم أحمد بوعكاز، الحاج الصحراوي، عبد المالك السناني، وقد ألحق بهم محمد السادي البوني، رغم علمه وورعه، وقد أخذ عليه تصرفات بدرت منه ونسبت إليه[1].

أما الخاتمة، فهي في الحقيقة فصل ختامي، خصصه ابن الفكون لذكر بعض الأصحاب والأحباب الذين وصفهم بإخوان العصر، ويقصد بذلك الذين عايشهم وعاصرهم وعددهم أحد عشر، أغلبهم وأشهرهم من خارج مدينة قسنطينة كأحمد المقري، محمد بن ناجي، بلغيت القشاش، محمد بن الموهوب، علي بن عثمان الزواوي وأحمد بن الحاجة الميلي.

يضم مؤلف"منشور الهداية" معلومات كثيرة ومهمة مست جميع الميادين تقريبا، في الفترة الممتدة ما بين القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة/ السادس عشر والسابع عشر للميلاد، حيث نستطيع التعرف من خلاله على:

- الواقع الثقافي ونشاط العلماء، وعلاقاتهم بالحكام العثمانيين، كما يبرز الكاتب نفوذ العائلات الكبيرة التي توارثت العلم والجاه، واشتهرت بالتصوف، وتأثيرها على الحياة الثقافية من حيث طرق التدريس والإجازة، والإشراف على الكتاتيب والزوايا، ومراسلات العلماء فيما بينهم.

- الواقع الاجتماعي الذي يتضمن أسماء القبائل والأعراش والعائلات، بالإضافة إلى طبيعة السلطة المحلية وعلاقتها بالسكان من جهة، وبالعلماء من جهة ثانية.

1- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، المرجع السابق، ص: 356.

– الواقع السياسي وفيه يذكر الثورات والتمردات العديدة، وما ارتبط بها من عمليات قمع واضطهاد للسكان من قبل السلطة، حيث أشار الكاتب إلى تمرد يحي الشاوي سنة988ه/1545م، وتمرد خالد بن نصر شرق مدينة قسنطينة قبل عام1045ه/1636م، ومحمد بن الأحسن النقاوسي، وأحمد السوسي المغربي، وإلى مهاجمة سكان قسنطينة للحامية التركية عام1575ه/1567م.

– كل هذه المعلومات التي احتواها الكتاب، جعلته محط إنظار العديد من الباحثين والمؤلفين، فقد ذكره كلا من فايسات(vayssettes) وشاربينو (cherbonneau)، كما نقل عنه أبو القاسم الحفناوي في كتابه "تعريف الخلف برجال السلف"، وأشاد به أبو سالم العياشي وأحمد المقري.

منهج الكتابة وأبرز ميزاته:

رغم الأهمية الكبيرة التي اكتسبتها جميع مؤلفات ابن الفكون، إلا إن كتابه "منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية"، قد احتل مكانة هامة لدى الباحثين والدارسين في الأدب الجزائري عامة وأدب التراجم خاصة، فقد تضمن مجموعة من التراجم، والتي بلغت حوالي خمس وسبعون ترجمة لعلماء مدينة قسنطينة وما جاورها في القرنين العشر والحادي عشر، وهي الفترة التي يصفها كثير من المؤرخين والباحثين وفي مقدمتهم أبو القاسم سعد الله بالضعف العلمي والجمود الفكري والتأخر الثقافي.

سجل الفكون تراجمه في شكل مذكرات وتقاييد على مراحل، مما جعلها قد تقصر أو تطول، ولا تخلو من التكرار والاستطراد، وذلك راجع إلى طبيعة المترجم له وتخصصه، وطبيعة المادة المنتقى منها هذه الترجمة، ونوعية المصدر سواء كان مكتوبا أو مسموعا، بالإضافة إلى أساس الشهرة والشمول النوعي والشمول المكاني، مع العلم، إن مثل هذه العناصر قد لا تجتمع بالضرورة في ترجمة واحدة، فقد ترد جملة في ترجمة، بينما تتوزع الباقية على كثير من الترجمات.

انتهج في كتابته طريقة خاصة، تتضمن أخبارا لطيفة وأراء شخصية صريحة اعتمدت على ثنائية المدح والهجاء دون اعتبار لأدنى صلة القرابة أو الصداقة أو الحظوة المجتمعية، وهو ما تسبب له بعد ذلك في مضايقات ومشاحنات، وهذا ما أشار إليه في قوله: "رمتني من أجله العيون، وإنحقد عليّ بغيضي القلوب وأكثرت الشؤون"[1].

يتحسر ابن الفكون على مجتمعه الذي انتشر فيه الجهل والفساد والزندقة والنصب والاحتيال، وتلاشت فيه القيم والمبادئ، وفي ذلك يصف أهل زمانه بقوله: "لما رأيت الزمان بأهله تعثر، وسفائن النجاة من أمواج البدع تنكسر، وسحائب الجهل قد أظلته، وأسواق العلم قد كسدت، فصار الجاهل رئيسا، والعالم في منزلة

[1]– نفسه، ص: 31.

يدعى من أجلها خسيسا، وصاحب أهل الطريقة قد أصبح وأعلام الزندقة على رأس لائحة، وروايح السلب والطرد من المولى عليه فائحة"[1].

يهدف من خلال مؤلفه "منشور الهداية" إلى لعب دور المصلح الاجتماعي، وهو ما يجعله يتصدى لما كان يسميه بالطائفة البدعية، مبديا غيرته على الدين والأخلاق، فاعتبر ما كتبه واجبا بل جهادا، فيقول: "هذا الجهاد هو الذي أحد من السيف في نحور أعداء الله، وناهيك بهم أعداء... فعظم الباحث على النصح بهذا التقييد"، كما يعتبر ذلك أيضا دعوة سلفية ضد الذين حادوا عن سبيل الشرع الصحيح ومسلك الجماعة، مفصحا عن هدفه هذا بقوله: "والبر بتأليفه أردت، وإرشاد الأمة ونصحها قصدته"[2].

كما إن نزعته الصوفية كانت سلاحا حارب به من دنسوا صفاء المنظومة الروحية الصادقة، وبلغة أخرى دافع عن نوع صوفي معين(الفكون من أتباع الطريقة الزروقية)، هو "الصوفية العالمة" أو "الولاية العالمة" التي تنير بهدي المنقول المتواتر، يقول عن ذلك: "فالعالم ولي الله، والولي لا يكون إلا عالما"، وقد قال الشافعي: "إذا لم يكن العلماء أولياء الله، فليس لله ولي، وأما الولي بلا علم، فالعداوة أقرب إليه من المحبة".

لعل من أوجه الشبه في منهج الكتابة عند الفكون، ما نجده عند محمد العبدري البلنسي(ت725ه/1358م)، والمتمثل في نقداته اللاذعة، حيث يبدوا إن الفكون كان متشائما، ويراعي مقاييس لا تتفق مع واقعها، إلا إنه لا ينبغي إن نغفل عن دقة ملاحظاته، فهو لا يغتر بالمظاهر، وقد اختص بميزة في كتابته لم يشاركه فيها أحد، وهي الجرأة في التعبير عن رأيه وشعوره، وكان مذهبه: إن الناس هم الذين يُعلِمون الشاعر الهجاء بسوء أخلاقهم.

عني عبد الكريم الفكون عناية فائقة بتحبير الأوضاع والتقاليد التي كان يرى في موضوعاتها ورصدها ما يخدم أهدافه التعليمية والتربوية والدينية بصفة عامة. وتآليفه العديدة تفصح عن باعه الطويل في العلم واقتداره على ممارسة الكتابة بجدارة واستحقاق. ولقد وظف قلمه بحق في الدفاع عن آراءه ومعتقداته، محاربا أهل إدعاء، منتصرا لأهل الاقتداء والورع، وما كتابه "منشور الهداية" إلا برهان على ذلك، وهو بالتالي وثيقة من الوثائق التاريخية المهمة التي أرخت لفترة القرنين10و11 الهجريين.

ومن خلال الإطلاع على تآليف الفكون يظهر إنه كانت له مشاركة تتوزع مجالات مختلفة كانت مناط العناية والاهتمام آنذاك. فقد كتب في الفقه والنحو والصرف واللغة، وسأهم أيضا في ميدان نظم القريض. ومما يجدر التذكير به في هذا السياق، عناية الفكون واهتمامه بنصوص المغاربة، ذلك بأن كتب التراجم تذكر إن

1- عبد الكريم الفكون، منشور الهداية...، المصدر السابق، ص: 31-32.

2- نفسه، ص: 33.

صاحبنا رصد في بعض أوضاعه نصوص بعض المشاهير من أهل المغرب كالمكودي وابن آجروم من خلال أعمال الشريف بن يعلى الذي شرح الآجرومية، والجرادي السلاوي.

مصادره:

اعتمد عبد الكريم الفكون على جملة من المصادر المختلفة والمتنوعة، سواء من المؤلفات التي كانت رائجة في الوسط العلمي وفي حلقات الدروس في زمانه، أو التي سبقته شهرة، ومن بينها:

المدخل، لمحمد بن الحاج أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي (ت737ه) هو كتاب مدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والفوائد التي انتحلت وبيان شناعتها وقبحها.[1]

الرد على المبتدعة، للحسن بن أحمد بن عبد الله بن البنا الحنبلي الطرطوشي البغدادي، كتاب أراد صاحبه به التقرب إلى الله بقمع أهل البدع والأهواء وكشف عوارهم وهتك أستارهم، وأعتبر إن ترك الساحة للمبتدعة يعثون بدون حسيب ولا رقيب شر عظيم[2] .

الأجرومية أو متن الأجرومية، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن داود الصنهاجي المعروف بابن اجروم (ت723ه/1323م)، فقيه نحوي مغربي، تحدث فيه عن أنواع الكلام وإعرابه، يعتبر من أهم متون النحو العربي، كما أوجز مؤلفه فيه كتاب الجمل في النحو، فكان أساس الدراسات النحوية في زمانه[3]

المنظومة القدسية، لأبي زيد عبد الرحمن بن سيدي محمد الصغير بن محمد الأخضري البنطيوسي(ت953ه/1546م) صاحب الجوهر المكنون في علم البلاغة، هي منظومة بديعة في آداب السلوك، وتسمى بالمنظومة القدسية في طريق السنة، تذكر أحوال المتصوفين في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، وتدعو إلى التمسك بالعلم ونبذ البدعة والعمل بالكتاب والسنة، والجمع بين علمي الظاهر والباطن جمعا صحيحا واضحا، تحتوي على 364 بيتا، طبعت ضمن مجموعة الرسائل المنيرية[4].

الحكم العطائية، هي مجموعة من الحكم عددها264 حكمة، كتبها أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري، من أهم الشروحات للحكم العطائية، شرح احمد زروق في كتاب"قرة العين في شرح حكم العارف بالله ابن عطاء الله السكندري"[4].

1- محمد العبدري الفاسي، المدخل، مكتبة دار التراث،(د ط)، القاهرة، مصر،(د ت)،ص:127.

2- الحسن الحنبلي، الرد على المبتدعة، تحقيق: عبد المنعم عبد الغفور، (د د ن)، ص: من المقدمة.

3- أبن أجروم، متن الاجرومية، دار الصميعي للنشر والتوزيع، ط1، الرياض، 1419ه/1998م،ص:121. .

4-عبد الكريم الفكون، منشور الهداية...،المصدر السابق، ص: 229-234.

4-أحمد الزروق،قرة العين في شرح حكم العارف بالله ابن عطاء الله السكندري،تر وتح:محمود بن الشريف،دار التراث العربي،القاهرة،1998.

كما أستشهد بفتاوي الشاطبي وأراء الغزالي ومقولات البسطامي ورسائل زروق وبمرويات أبي الحسن الشاذلي وغيرهما.

أهمية الكتاب وقيمته العلمية:

إن مؤلف"منشور الهداية" يندرج في أدب التراجم، وهو ذو قيم متعددة، منها: تصوير طبيعة البيئة في مدينة قسنطينة زمن هيمنة عقلية الخرافة والهرطقة، والتي منها انطلق المؤلف في حملته الإصلاحية التنويرية لمحاولة كشف الزيف والزور، والذود عن الشريعة والدفاع عن أهلها الأصفياء الأتقياء الخلص، وهو ما يلخصه في هذا الموقف الحازم الثنائي المعالم. معلم الحسرة على ما آلت إليه الأوضاع من سلب وطرد وروائح الجهل، ومعلم الغيرة والتحذير من ذلك، والتصدي لهم في كل زمان وأوان. ويمكننا استبطان ملفوظاته وأحاسيسه الوجدانية وحقيقة مشاعره من خلال خطابه، وهو ما يثبت ما صرح به عبد الكريم الفكون بخصوص صراحته في معالجة النصح والتصحيح الديني العقيدي والاجتماعي.

كما يقدم المؤلف معلومات قيّمة عن أعيان عصره ممن سكنوا حاضرة قسنطينة، أو ممن استقروا بها من الأجانب، أو حتى ممن مروا بها، وقد فاق عددهم في المؤلف المائة ترجمة. صحيح إنها ليست مرتبة ترتيبا منهجيا واضحا، وبها خلط في إقحام ترجمة متقدمة في ترجمة متأخرة، ولكنها لا تخلو من فوائد وإضافات، ومنها تحلية بعض من ترجم لهم بما هو أهلا له، كقوله مثلا عن والده: "كان فقيها صوفيا، وكان ذا سمت وتعفف وأوراد..."، وعن عبد الله بوكلب قال: "وأما استعماله لأداء الفرض فلا تراه أبدا مصليا ولا متوضيا، ولا يفرق بين معروف ومنكر"[1].

والكتاب مليء بذكر أماكن الدروس وحلقات العلم بالحواضر الكبرى منها، مدينة الجزائر، عنابة، زواوة(بجاية)، الزيتونة بتونس، والقرويين بفاس، الأزهر بالقاهرة، فيقول وهو يترجم لبعض العلماء مثلا: "أبو العباس أحمد المقري... كان خطيبا بجامع القرويين بفاس، وأصله من تلمسان... ثم سافر للمشرق، واجتاز على تونس، وصحبه منها إمام جامع الزيتونة... وأقام بمصر ودرّس بها بجامعها الأزهر..."[2].

يشير كتاب "منشور الهداية" إلى ظاهرة حجم المقروءات من العلوم والمؤلفات بالترتيب وحسب الأولوية والتي كانت محل عناية من قبل العلماء والمتعلِمين، الفقهاء والمدّرسين، على الرغم من إن الفكون يعترف بالإعراض عن التعلم والتفقه في عصره، إلا ما شذ كما يقول. ومن جملة المقروءات التي اهتم بها أعلام مدينة قسنطينة، متون الفقه المالكي والنحو والفرائض والتصوف.

1- نفسه، ص: 52-176.

2- نفسه، ص: 224.

ففيما يخص الفقه، نجد في مقدمة المؤلفات التي تردد صداها مختصر الشيخ خليل[1]، لأن هذا المتن الفقهي كان مناط الدرس والإقراء، وعناية العلماء به، وعكوف طلبة العلم عليه، ليس فقط في مراكز العلم بحاضرة قسنطينة، بل في معظم الحواضر والمدارس بالمغرب الأوسط (الجزائر)، ومنها مدرسة مازونة التي نبغ فيها أسرار خليل، وتم نوره في الأقطار.

ومن العوامل التي جعلت هذا المختصر يسود على باقي المختصرات، إنه من أشهر المختصرات الفقهية على مذهب السادة المالكية، بل ربما كان أشهرها على الإطلاق في القرون الأخيرة، وهو كتاب جامع مانع، مختصر يقتصر على ما تكون به الفتوى من الأقوال وترك بقيتها، لذلك اقتصر الفقهاء عليه في حلقاتهم، وكان إذا أطلق اسم المختصر على متن، فإن المقصود "مختصر خليل"، كما كانت هناك متون فقهية أخرى كـ"الرسالة" لأبي زيد القيرواني، و"فروع" ابن الحاجب، و"مختصر" الشيخ عبد الرحمن الأخضري، كل هذه المتون خدمت الفقه المالكي بالمغرب الأوسط عامة وبدينة قسنطينة خاصة.

أما في كتب النحو، فكانت ألفية ابن مالك بشرح المرادي والمكودي هي المعتمدة في إقراء الدروس النحوية بقسنطينة، حيث درَّسها عبد الكريم الفكون مرة بتعاليق المرادي وأخرى بتفسيرات المكودي، يقول في ذلك: "فلما رأيت من حرصه (يقصد أبي الحسن علي بن عثمان) ما رأيت ساعفته واستعنت بالله، فقرأ عليّ المكودي، واستعان بالتقييد، وبعد ختمه قرأ عليّ المرادي، وقيّد عليّ فيه كثيرا ممّا فتح الله به من الأبحاث"[2].

كما لقيت مقدمة الأجرومية، وعلم القراءات، والمنتخبات الشعرية عناية كبيرة، واهتمام بالغ في مؤلف الفكون، ففيما يخص الشعر يحفظ متن "منشور الهداية" مادة شعرية قليلة متناثرة بين فقرات التراجم، منها ما هو من إنتاج المؤلف(ص237)، ومنها ما هو من قصائد أخرى أعجب به الفكون كالقصيدة القدسية لعبد الرحمن الاخضري التي نقل عنها كثيرا(122).

ومهما يكن من أمر، فإن كتاب"منشور الهداية" هو أقرب إلى المؤلفات الأدبية والاجتماعية والإصلاحية منها إلى مصنفات التراجم، وذلك على الرغم من إن المؤلف يزودنا بتراجم كثيرة مهمة للغاية، وبأخبار الأولياء

1- هو كتاب الناس شرقا وغربا، ليس من شروح ابن الحاجب على كثرتها ما هو إنفع منه ولا أشهر، اعتمد عليه أئمة المغرب وتناولوه بالشروح والتعاليق، حتى وضع عليه أكثر من مائة تعليق ما بين شرح وحاشية، ومنها: مواهب الجليل لشرح مختصر خليل، وشرح الخرشي على مختصر سيدي خليل، وجواهر الإكليل شرح مختصر الشيخ خليل. ينظر: خليل بن إسحاق المالكي، مختصر خليل، صححه وعلق عليه: الطاهر أحمد الزاوي، دار المدار الإسلامي، ط2، لبنان، 2004، ص: من المقدمة.

2- عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، المصدر السابق، ص: 207.

والمتصوفة الذين يلتمس فيهم الفكون البركة والولاية والصلاح، فيذكر الكرامات والمقامات والمنامات ونفحات لبعض الشيوخ منها كرامات الشيخ الوزان[1].

ونظرة عابرة إلى هذا النص تقنعنا بأن اهتمام المؤلف لا تتجه إلى مشاهد الحضرة التي يصفها بالمظاهر الجنونية المتمردة على ضوابط الذكر ومروءة الأنسان، وإنما هو يتجه إلى تراجم العلماء والصلحاء والأدباء الصادقين. والحق إن الكتاب اقترب إلى إن يكون تقريرا نقديا يعكس إلى حد ما الحركة الأدبية والعلمية في مدينة قسنطينة وما جاورها، وهو في تقديرنا من المصادر الصوفية المهمة والمتميزة لما يحتويه من رؤى تنظيرية تصحيحية، أراد من خلالها المؤلف تجديد المعرفة الصوفية اعتقادا وانقيادا، سائرا على خطى سلفه وشيوخه خاصة الشيخ زروق الذي أكثر من النقول عنه ومن رسائله لبعض إخوانه[2] ومن كتابه البدع[3].

استنتاج:

احتلت كتابة السير والتراجم عند المؤرخين الجزائريين مكانتها بين باقي الكتابات التاريخية الأخرى على غرار الرحلات مثلا، واتخذت أهمية كبرى، ذلك إن تأثير العلماء كان فعالا في هذا الاتجاه، فقد أتاح لكثير من الباحثين معرفة سير الأعلام وترجمة حياتهم، واستقصاء مناهجهم، ومن خلال دراستنا لكتب تراجم المقري والفكون وابن مريم أمكننا الوقوف على بعض الركائز والسمات لكتاباتهم، ومنها:

–النهج العلمي الذي طرحه كتاب التراجم في مؤلفاتهم، ويظهر ذلك من خلال التنظيم الفهرسي للمؤلفات، فمثلا أحمد المقري قسم موسوعته التاريخية والأدبية إلى قسمين، وكل قسم إلى عدد من الأبواب(ثمانية أبواب)، متناسقة ومنسجمة فيما بينها تاريخا وموضوعاً.

–ذكر الأسباب التي حدت بهم إلى تصنيف مؤلفاتهم، والإبانة عن الموضوعات التي ضمنها الكِتاب، والكشف عن هوية الكاتب، ودوافع التأليف في المقدِمات، ومن ذلك ما ذكره مثلا عبد الكريم الفكون في مقدمة كتابه.

–اختيار العناوين المناسبة والكاملة والشاملة، بحيث انطبقت تمام المطابقة مع محتوى ما ورد في المضامين من أقسام وأبواب وفصول.

1– نفسه، ص: 37.

2– نفسه، ص: 194-195.

3– مخطوط بالخزانة العلوية بالمغرب تحت رقم1657، حققه الصادق الغرياني، ولصادر عن دار ابن حزم، لبنان، 1427هـ/2006م.

-كثرة الاستطرادات التي ميزت كتب التراجم الجزائرية، وهو ما يفصح عنه المقري وهو بصدد الحديث عن ابن الخطيب وذكر إنبائه التي يروق سماعها، والذي اقتضى ذكره شجون الكلام والاستطراد على حد قوله.

-كثرة الاقتباسات من القرآن الكريم والسنة النبوية والأشعار خاصة، حتى يخيل للقارئ وكأنه في مؤلف أدبي أكثر منه تاريخي، ومرد ذلك للثقافة الموسوعية الدينية والأدبية والتاريخية لكتاب التراجم الجزائريين، واعتمادهم على مصادر نادرة وذات قيم علمية وأدبية كبيرة، استطاع المؤلف إن يجمع فيه بين منهج كتب التراجم والمجامع الأدبية ذات الطابع الموسوعي.

-وفي الأخير، نقول إذا كانت كتب التراجم عند العرب قد بلغت مكانة واحتلت مرتبة متقدمة لم تبلغه و لم تحتله شعوب أخرى، فإن كتابة التراجم في الجزائر خلال العصر الحديث هي الإطار الذي حَبك فيه المؤرخ الجزائري قصة عمل امتد في فترة زمنية، وأتاح لنا وللباحثين معرفة سير أعلام وأولياء وعلماء كنا نجهلهم.

الفصل الثالث

مناهج الكتابة التاريخية عند مؤرخي الجزائر في كتب الرحلات

(ق10-14ه/16-20م)

المبحث الأول: مفهوم الرحلة بين أدب المؤرخين وتاريخ الأدباء

المبحث الثاني: رحلة الورتيلاني" نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"

المبحث الثالث: رحلة ابن حماوش" لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"

المبحث الرابع: رحلة الناصري المعسكري" حلتي ونحلتي في تعداد رحلتي".

تقديم:

إن الرحلات منابع ثّرة لمختلف العلوم، وهي بمجموعها سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مر العصور، فالرحّالة وهو يطوي الأرض إثناء رحلته يغطي في نفس الوقت ملاحظة مظاهر مختلفة في الحياة، يشاهدها أو يسمعها أحيانا وينقلها في رحلته.

وإذا كان الرحالة الجزائريون يختلفون فيما بينهم في درجة صدقهم وأمانتهم، وفي تنوع فهمهم للأمور وفقا للظروف التي يخضعون لها، فإننا ننظر من هذه الناحية إلى الرحلات كمبدأ وككل مهما كان بينها من اختلاف وتنوع في الاتجاه والتقدير.

للرحلة قيم متعددة لما تحتويه من كثير من المعارف الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها، مما يدونه الرحالة تدوين المعاين من جراء اتصاله المباشر بالطبيعة وبالناس وبالحياة خلال رحلته. وفي هذا الإطار قدم الرحالة العرب على مر العصور خدمات جلية في دراسة أحوال البلاد العربية من مختلف نواحيها، بحيث لا يقلل كثيراً من قيمة ما كتبه الرحالة الجزائريون في المادة الجغرافية مما أسهموا به عن طريق تقديم مواد جغرافية جديدة وذات قيمة عظيمة، كما تتجلى قيمة الرحلات الجزائرية في الجانب الأدبي فيما تعرض فيه موادها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب. وبهذه المميزات والخصائص للرحلات وموضوعها الشمولي الغني بما فيه من علم وأدب وخرافة وأسطورة يمكننا اعتبار الرحلة نمطا خاصا من أنماط الكتابة التاريخية، ومنهجا معينا من مناهج المؤرخين الجزائريين في العصر الحديث.

المبحث الأول: مفهوم الرحلة بين أدب المؤرخين وتاريخ الأدباء

شكلت الرحلة في حياة الشعوب عامة، وفي حياة العرب والمسلمين خاصة، عاملا هاما عبر مراحل التاريخ، وازدادت هذه الأهمية قوة خلال أزهى عقود الإسلام، حيث كانت الأغراض من الرحلة مختلفة، فمنهم من كان يتجول عبر المدائن والبلدان في رحلات طويلة وشاقة أغلب الأحيان، قاصدا التجارة وجلب السلع، ومنهم من قضى أياما طويلة لزيارة الأماكن المقدّسة في أرض الحجاز، قصد أداء الركن الخامس من أركان الإسلام، وهو فريضة الحج، ومنهم من كان يقطع المسافات ويتحمل الصعاب، لزيارة حواضر العلم للجلوس إلى العلماء، والتروي بسائر العلوم. وإلى جانب التجار والحجّاج وطلاب العلم، كان الرحّالون والمغامرون المتحمسون لروح الاكتشاف يجوبون المسالك والممالك، ويقفون على أحوال وطبائع شعوبها ويسجلون أخبارهم[1].

ولما كانت للرحلة أهمية كبيرة، فإن مشتقات مادة"رحل" كثيرة ومتعددة، حيث حظيت بشرح وافٍ في العديد من المعاجم العربية، تدل كلها على الحركة، لأن الرحلة في الحقيقة ما هي إلا حركة وانتقال، وسلوك إنساني عرفه منذ إن دأب على الأرض متحديا كل الصعوبات ومتجاوزا كل الوقائع[2]، ولعلي أجد في مرادف كلمة الرحلة التي استعملها الإمام أبو حامد الغزالي"السفر"ما يحقق المعنى لغة واصطلاحا، فقال:"السفر قد يكون لغرض دنيوي كالمال والجاه، أو ديني، والديني إما علم وإما عمل، والعلم أما علم في العلوم الدينية، وأما علم بأخلاق نفسه وصفاته على سبيل التجربة، وأما علم بآيات الأرض وعجائبها، والعمل أما عبادة وأما زيارة، والعبادة هو الحج والعمرة والجهاد، والزيارة لمكة والمدينة وبيت المقدس"[2]، وهو الأمر الذي دفع بصاحب كتاب"معجم البلدان" إلى عَد الحركة من الرحلة، حيث قال:"الحركة من دلائل الحياة، والسُكون من دلائل الموت، وإن تتحرك حركة ضعيفة يُؤمل إن تقوى أحب من إن تسكن"[3]،كما إن المسعودي ترجم ذلك أيضا بقوله:"ليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نمي إليه من الأخبار عن إقليمه، كمن قسمَ عمره على قطع الأقطار، ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار، واستخراج كل دقيق من معدنه، وإنارة كل نفيس من مكمنه"[4]

ولهذا جاءت **الرحلة في اللغة** بعدة معان منها: الترحيل والإرحال بمعنى الإشخاص والإزعاج.

---

[1]- محمد بن أحمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، ط3، القاهرة، مصر، 1411ه/1991م، ص:137، وزكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، شركة نوابغ الفكر للنشر والتوزيع، ط1، مصر، 1429ه/2008م، ص:7.

[2]- ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع، مكتبة الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، مصر، 1995، ص:23.

2-أبو حامد الغزالي، احياء علوم الدين،ج6، ص:108.

[3]- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، دار صادر (د ط)، بيروت، لبنان، 1977، ص:420.

[4]- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تق: محمد السويدي، ج1، موفم للنشر (د ط)، الجزائر، 1989، ص:03.

يقال: رحل الرجلُ إذا سار، ورحل رحُول، وقوم رُحل أي يرتحلون كثيرا. ورجُل رحّال: عالم بذلك مجيد له، وإبل رُحله: عليها رحالها، وهي أيضا التي وضعت عنها رحالها، والرحلة هنا بمعنى السير والضرب في الأرض[1].

والرحلة هي أيضا الأنتقال من مكان لآخر: ارتحل البعير رحْلة: سار فمضى، وارتحل القوم عن المكان: انتقلوا، كترحلوا، ثم جرى ذلك في المنطق حتى قيل: ارتحل القوم عن المكان ارتحالا، ورحل عن المكان يرحل وهو راحل من قوم رُحل: انتقل[2].

والرحلة بمعنى آخر، هي الجهة التي يقصدها الأنسان، وذلك لتحقيق هدف معين مادياً أو معنوياً: الرّحلة، الارتحال، والرّحلة بالضم: الوجه الذي تأخذ فيه وتريده، تقول: أنتم رحلتي أي الذين ارتحل إليهم، وتطلق الرحلة على السّفرة الواحدة[3].

إن الرحلة ظاهرة قديمة قِدم الأنسان، ومتصلة بتاريخه منذ أقدم العصور، فقد رحل الأنبياء كنوح وموسى وإبراهيم عليهم السلام، ولم تتوقف رحلات البشر، فرحل التجار المصريين إلى آسيا، والملوك إلى إفريقيا، كرحلة الملكة حتشبسوت من ملوك الأسرة الثامنة عشرة إلى بلاد بونت في الجنوب(بلاد الصومال)، كما رحلت شعوب بأكملها، ومنهم الفينيقيون الذين خاضوا عباب البحار والمحيطات، وكل ذلك يدخل في سياق فطرة الأنسان التي فطر الله عليها، والتي تشير بوضوح إلى إن الأنسان خُلق راحلا، ومحبا للتنقل والرحلة، وإن أعجزته الرحلة تخيل رحلات غير محسوسة في عالم الخيال[4].

إن تعدد أغراض الرحلة أفرز فن نثري عُرِفَ ب"أدب الرحلات"، الذي شَكّل ثروة معرفية كبيرة، ومخزنا للقصص والظواهر والأفكار، والذي يعرفه سعيد بن سعيد العلوي بقوله:"إنه جنس أدبي له من الصفات والخصائص ما يكفي لتمييزه عن الأجناس الأدبية، كونُه خطاب مخصوص له منطقه الذاتي، وبناؤه ومكوناته وعناصره، يجمع بين الإفادة عندما يخبرنا عما يراه، والإمتاع لِمَا يرصد لنا ما هو عجيب"[5].

الجدير بالذكر، إن الرحلة سجلت انتشارا واسعاً عند العرب منذ القدم، وما أشارات العديد من الشعراء إلى رحلات قاموا بها إلا دليل على ذلك، ومن بينهم على سبيل المثال"النابغة الذبياني"، الذي يقول:

1- ابن منظور، لسان العرب، ج11، دار صادر، ط3، بيروت، لبنان، 1414ه/1994م، ص:276-277.

2- الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج3، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، (د ت)، ص:394.

3- ابن منظور، المصدر السابق، ص:278-279.

4- محمد رضي الرحمن القاسمي، الرحلة وآدابها في اللغة العربية-دراسة تاريخية- مجلة الداعي، منشورات دار العلوم ديوبند، جمادى الثانية-رجب1434ه/أبريل-يونيو2013م، عدد6-7، السنة37، ص: 57-63.

5- سعيد بن سعيد العلوي، أوربا في مرآة الرحلة: صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة، مطبعة النجاح الجديدة، ط1، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 1995، ص:14.

كأني شددت الرحل يوم تشذرت   على قارح مما تضمن عاقل[1]

إلا إن هذه الرحلات لم تتخذ شكل أدب الرحلة، وإنما أحد العناصر الأساسية في بناء القصيدة الجاهلية، وهو ما أشار إليه ابن قتيبة بقوله:"فالشاعر المجيد من سَلكَ هذه الأساليب، وعدل بين هذه الأقسام..."[2].

وعلى ما يبدو إن هذه التسمية"أدب الرحلات" تسمية وليدة هذا العصر، وما شهده من دراسات ومصطلحات وتقسيمات لفنون وألوان المعرفة الأدبية، ولكن فن الكتابة في الرحلة فن قديم، خاصة أدب الرحلة الشفوي الذي كان ومازال يساير الرحلات منذ أقدم العصور كما تشير إليه الأساطير الأولى، علما إن أدب الرحلات المدَونْ والمكتُوب كان يَظهر تحت خانة"كتب التاريخ" أو"كتب الجغرافيا" أو"السيرة الذاتية" أو"أدب الاعتراف"، ولم يكن يقال إن هذا المصنف في حقل أدب الرحلة على الإطلاق. ولكن الرحلة بعد عصر الإسلام اتخذت منحى آخر، فصارت فنا عربياً أصيلاً في النثر العربي، له سماته التاريخية والجغرافية، ومضمونه الفكري والاجتماعي، وأسلوبه الأدبي المتميز، ولغتها الخاصة، وملامح بناءها الفني المستقل[3].

وإذا كانت الرحلة ميدان واسع يتنافس فيه التاريخ والأدب وعلوم أخرى، فإنها في بعض أشكالها فن أدبي خالص، أو أقرب إلى الفن الأدبي، وعلى هذا النمط سارت وتسير الرحلة فنا مختلطا لا يجمع شتاته سوى صاحب الرحلة، وللكاتب الحرية إن يكتب ما يشاء، وبالطريقة التي يريدها، ومن هنا فإن الرحلة أقرب في الحقيقة إلى المذكرات التي يدون فيها كاتبها وبشكل عفوي ما حدث له أو سمعه أو شاهده في فترة معينة من حياته، والرحلة فترة في حياة إنسان، وهي غالبا ما تبدأ بتاريخ وتنتهي بتاريخ، وقد تستمر شهور أو سنوات[4].

وعليه، فإذا كانت الرحلة نوع من الأدب الذي يصور فيه الكاتب ما جرى له من أحداث، وما صادفه من أمور في أثناء رحلة قام بها إلى أحد البلدان، أو يملي مشاهداته ومشاعره تجاه ما سمع وما رأى، فإن كتابات الإغريق تعد أولى المصنفات في حقل أدب الرحلة، ومنها رحلة هيرودوت الذي زار قبرص وفينيقيا ومصر وآشور وبلاد فارس، وسجل له التاريخ إسهاماته التاريخية والجغرافية بكتاب سماه"التواريخ" الذي كُتِبَ في

1- ديوان النابغة الذبياني، مطبعة الهلال، مصر، 1991، ص:84.

2- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج1، تح: محمد شاكر، دار المعارف(د ط)، القاهرة (د ت)، ص:75-76.

3- سيد حامد النساج، أدب الرحلات في حياتنا الثقافية، مجلة العربي، الكويت، يناير1987، ص:113.

4- منصور الحازمي، رحلات العرب في جزيرة العرب، البلاد العربية1901-1972، مجلة الدارة، منشورات دارة الملك عبد العزيز العدد:3، الرياض، المملكة العربية السعودية، ربيع الاخر1400ه/مارس1980م، ص:30.

القرن الخامس قبل ميلاد المسيح عليه السلام، وكتاب"سفرنامه هند" للرحالة الإغريقي مِكَس ثمنيز الذي أُلِفَ في عام330 ق م، هذا الكتاب الذي يعد من الكتب الوثائقية المعتمدة لتاريخ وثقافة الهند في عصره[1].

وبالموازاة مع ذلك، فقد عرف العرب والمسلمين أدب الرحلة منذ الأزل، وكان للعلماء العرب والمسلمين السّبق في هذا المضمار كما وكيفا، وكانت عنايتهم به عظيمة في سائر العصور، فكتبوا رحلاتهم مبسوطة ومختصرة، منثورة ومنظومة، خاصة فيما يتعلق بالرّحلات الحجازية التي سّموها تارة فهرستا، وتارة برنامجا، وتارة اختاروا لها عنوانا، وتارة ألمحوا لمعنى الرّحلة في العنوان، وتارة لم يخلوه من لفظ الرّحلة.

إن الإسلام لم يدع وسيلة من الوسائل التي تفيد الأنسان إلا وحثه على فعلها، ومنها الرحلة، فالرؤية الجديدة التي هيأها الإسلام للرحلة، كانت من أهم الأسباب التي أعانت على استمرارها وانتشارها على نحو خالفت فيه الرحلة الجاهلية، من حيث سُمو المقصد وجدية الهدف، فأخذت الرحلة في الإسلام أبعادا جديدة منها الرحلة للحج، وللتجارة، وطلب العلم، والجهاد في سبيل الله، والاتعاظ من آثار الأمم البائدة، بل وأعلى من شأنها، وأجزل لصاحبها الثواب، فكانت عنصرا قويا في حياة المجتمع الإسلامي في عصوره الزاهرة[2].

إن المتتبع لتاريخ أدب الرحلة العربي والإسلامي يقف على محطات هامة وجديرة بالاهتمام، فإذا كان القرنين الأول والثاني الهجريين/السابع والثامن الميلاديين عرف نماذج من الرحلات الإسلامية،كهجرة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة، وهجرة أصحابه إلى الحبشة، فإن القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، هو بداية عصر النضج والازدهار في أدب الرحلة بشكل عام، حيث سأهم المسلمون في هذا الفن أكثر من غيرهم، ومن أشهر ما كُتب في هذا القرن، كتاب" الأقاليم والبلدان الكبير والبلدان الصغير وأنساب البلدان" لهشام الكلبي(ت حوالي206ه/822م).

وإذا كان منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي شهد صفحة جديدة بدخول بعض رحاليي وجغرافيي المغرب الإسلامي منهم أبو عبيد عبد الله البكري(ت487ه/1094م) صاحب كتاب"المسالك والممالك"، فإن القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي يعد اللبنة الأولى لأنتاج أدب الرحلات، حيث أصبح تيارا موازيا للأدب الجغرافي، يضارعه ويتممه، ويضفي بالغ الفائدة والمتعة على تراث الأدب العربي والإسلامي، نظرا لقوة الرحّالة وأهمية آثارهم التي خلفوها، والمناهج التي اتبعوها في جمع المادة وتدوينها، ومن أشهر الرحلات في هذا القرن، كتاب"نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" للشريف الإدريسي (ت560ه/1165م)، وكتاب "الرحلات" لأبي بكر العربي (ت543ه/1148م)، الذي كان أول من استخدم لفظ رحلة في عنوان مؤلفه، وأول من وضع أسس أدب الرحلات بالصورة الفنية المأمولة،بينما يرى

[1]- شوقي ضيف، الرحلات، دار المعارف، ط4، القاهرة، مصر، 1987، ص:7-11.

[2]- زيادة نقولا، الجغرافيا والرحلات عند العرب، الأهلية للنشر والتوزيع، ط3، بيروت، لبنان، 1982، ص:15.

محمد العبدري إن أول من أطلق كلمة رحلة على مؤلفه هو ابن جبير، فيقول: "أول من سمى هذا النوع من الكتابة رحلة، هو أحمد بن جبير، فهو إذن مؤسس فن الرحلة" مستدلا بعناوين لبعض المؤلفات ومنها"مروج الذهب...وتحقيق ما للهند من مقولة مقبولة أو مرذولة...[1].

من الأكيد إن رحلة كلا من ابن جبير الأندلسي (ت614ه/1217م)، وابن بطوطة المغربي (ت779ه/1377م) مثالا لقمة التطور الأدبي، لما تحملاه من مشاهد لذكريات دقيقة لمظاهر الحياة، من عادات وتقاليد لشعوب البلدان التي ارتحلا إليها، ومن المؤكد أكثر إن ابن جبير هو الذي اكتملت على يديه ملامح أدب الرحلة العربي، حينما دوّن مذكراته ومشاهداته يوم بيوم متجنبا ذكر الغرائب والعجائب التي يميل غيره إليها.[2].

إذا كان الإقبال على الرِحْلة من الرحّالة الأندلسيين والمغاربة بصفة عامة قد قّل وتراجع في أواخر العصور الوسطى بسبب فتاوي العلماء الذين أفتوا بتقديم الجهاد على الحج، ومنها فتوى الإمام ابن رشد كما جاء في كتاب الإستقصا للناصري[3] وهو ما يؤكده صاحب كتاب"تاج المفرق" بقوله:" إن رحلاتهم الحجازية ضعُفت في القرنين الثامن والتاسع الهجريين/الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين بسبب دعوة العلماء إلى الجهاد وإيثاره على الحج[4]، فإن معينها لم يركد ولم ينضب، حيث انبعثت في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين/السادس عشر والسابع عشر الميلاديين.

وإذا كان من أهم بواعث الرحلة وأعظمها شأنا عند المغاربة تأدية فريضة الحج، وهي ولا ريب لا تختلف كثيرا عن أغراض وبواعث الرحّالة المشارقة، حيث يذكر الفاسي في هذا الصدد:" بأن الرحلة الحجازية في المقام الأول، والرحلة السياحية والتي تقتصر في كثير من الأحيان على العدوتين الأندلس والمغرب، ثم الرحلة الرسمية..."[5]، فإن الرغبة في ارتياد مراكز العلم في بلاد المشرق للاتصال بكبار العلماء، والأخذ عنهم واستجازتهم، والرواية عنهم، والحرص على الإسناد العالي، كان من أهم وأشد الدوافع أيضا، وفي ذلك يقول ابن خلدون:"إن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم...فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون

1- محمد العبدري، الرحلة المغربية، تح : أحمد بن جدو، مطبعة البعث، ط1، نشر كلية الآداب الجزائرية، الجزائر، ص: من المقدمة.

2- أحمد رمضان احمد، الرّحلة والرحالة المسلمون-باب الرحلة المغاربة- دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ص319-386، ومحمد الفاسي، ابن عبد الصادق مشاهدات سفير مغربي باسبانيا في القرن الثامن عشر، مطبعة الرسالة، منشورات مجلة البحث العلمي، العدد2، الرباط، 1964م، ص:174.

3- أحمد الناصري السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق ونشر: جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج7، دار الكتاب، دار البيضاء، المغرب الأقصى، 1418ه/1997م، ص:8.

4- خالد البلوي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، نشر وتحقيق: الحسن السائح، ج1، مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعية، فاس، المغرب الأقصى، 1970، ص:55.

5- أحمد رمضان أحمد، الرّحلة والرحالة المسلمون، المرجع السابق، ص:319.

حصول الملكات ورسوخها، فالرحلة لابد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال"[1]، وفضلا عن ذلك، كان دافع التجارة التي يُجنى من ورائها النفع والكسب المادي.

لقد كان العَالِم المغربي والجزائري خصوصا يحس بأن الفضاء الذي يعيش فيه لم يكن كافيا لإرضاء كل رغباته، ولذلك، كان عليه إن يسعى لرؤية العالم الآخر، عالم المشرق الذي كان مصدر إلهامه، والذي كان يتصدره قطب البيت الحرام (مكة)، فكثير من العلماء الجزائريين ممن كانوا يرون إن شخصياتهم تكتمل عندما يذكرون إن لهم رحلة إلى المشرق، وإنهم قصدوا مكة المكرمة بالذات، وحرصوا على إن يأخذوا عن شيوخها، مُنوهِين بذكر أسماءهم، ومُسجلين إجازتهم، وذاكرين مصنفاتهم التي أطلعوا عليها، وأهم المشاهد المقدسة[2].

ومن دون أدنى شك، إن الرحلات الحجازية شاعت وتأصلت في المغرب العربي في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين/السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، وأصبحت فنا قائما بذاته من حيث تدوينه بأسلوب مميز في سفر يشمل تاريخ الخروج والوصول إلى كل مدينة، مع إعطاء لمحة وافية عنها، وقائمة بأسماء ومراحل السفر، ومراكز الماء إلى الحجاز، كما يشمل وصفا مفصلا لمكة المكرمة والمدينة المنورة في جميع النواحي، ومناسك الحج، وعقب أداء الفريضة يتابعون طريقهم إلى المراكز العلمية الأخرى، لتلقي المزيد من العلم فيها مع إعطاء وصف شامل لها، كما عدّت أيضا من أصدق المصادر التاريخية، وأكثرها عناية بما يتعلق بالحجاز، مما تفتقر إليه المصادر الأخرى[3].

ورغم إن الرحّالة اتصفوا بالتفاوت في دقة الملاحظة، والوصف، والتقصي، وتسجيل مشاهداتهم بأمانة وصدق، إلا إن أغلب الرحّالة سجلوا مشاهداتهم ومعاينتهم للأقاليم المختلفة التي وطئوها، واعتبرت الرحلات مصادر أساسية من مصادر التاريخ، لاحتوائها على معلومات ذات قدر كبير من الأهمية، ومن أوفى المصادر وأوثقها، بل وأشملها فيما يتعلق بالنواحي التاريخية والجغرافية، الاقتصادية والاجتماعية، الأنتروبولوجية والثقافية، وأنفرد هذا النوع من المصادر بأهمية خاصة، فإلى جانب إن مصنفي الرحّلات اتسمت منهجيتهم بتسجيل ارتساما تهم عن مشاهداتهم، فقد اتسع أفق أساليب هذه الرحلات الأدبية الرفيعة إلى عالم الأدب الغني بموضوعاته، تكمن فيه المتعة والفائدة التي لا تخلو من المتعة الذهنية، والخيال الفني الرفيع[4].

---

[1]- ابن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص:406-407.

[2]- عواطف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجري، دراسة تحليلية مقارنة، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1417د/ ص:52.

[3]- للمزيد من المعلومات حول الرحلات المغاربية الحجازية ودورها، ينظر: المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية، اختيار وفهرسة وتبويب: محمد موسى الشريف، دار الأندلس الخضراء، ط1، المملكة العربية السعودية، 1421د/2000م، ص:221-269-353.

[4]- حسين محمود حسني، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، مصر(د ت)، ص:10.

ومن بين أهم الرحلات الحجازية التي اشتهرت بالمغرب الأوسط(الجزائر) في العصر الحديث، والتي نحن بصدد دراستها: رحلات حسين الورتيلاني، وابن حمادوش، وأبو راس الناصري، ولعل من الأسباب التي دفعتني لاختيار هذه المؤلفات، إنها رحلات متوفرة كاملة، وجاءت في فترات زمنية متلاحقة مترابطة، فقد ألفوا رحلاتهم في القرن12ه/18م تقريبا. وإذا كانت رحلة الورتيلاني أهم رحلة تعتني بالوصف الجغرافي والسّرد التاريخي، وأكبر رحلة حجما، فإن رحلة ابن حمادوش صبت اهتماماتها على المسائل العلمية، بالإضافة إلى الأخبار السياسية والاجتماعية، بينما رحلة الناصري المعسكري هي خاتمة رحلات الفترة العثمانية علما وأدبا ودينا، كما إن فن كتابة الرحلات شمل كل القطر الجزائري، فمن الشرق حسين الورتيلاني، ومن الشمال عبد الرزاق ابن حمادوش، ومن الغرب أبو راس الناصري.

المبحث الثاني: رحلة الورتيلاني (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار) لحسين الورتيلاني

اسمه ونسبه:

هو الحسين بن محمد السعيد بن الحسين بن محمد بن عبد القادر بن يحي بن أحمد الشريف بن علي البكاي البجائي الحسني من شرفاء تافيلالت الورتيلاني(نسبة لبني ورتيلأن)، وهي قبيلة أمازيغية بمنطقة بجاية ببلاد زواوة في المغرب الأوسط[1].

من بين الحقائق التي وقفنا عليها خلال دراستنا للعديد من المؤرخين الجزائريين الذين عاصروا تلك الفترة (القرنين الحادي عشر والثاني عشر)، هي ظاهرة التأكيد على النسب الشريف[1].

---

[1] – حسين الورتيلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، دار الكتاب العربي، ط2، بيروت، لبنان، 1394ه/1974م، ص:05، حسين الورتيلاني، نزهة الأنظار في علم التاريخ والأخبار، ج1، تعليقات: ابن مهنا القسنطيني، ضبط: محفوظ بوكراع وعمار بشطة، دار المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص:32، ومحمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ...المرجع السابق، ص:357، وعمر رضا كحالة، معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، ج4، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان، 1414ه/1993م، ص:51، ومحمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق: محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 1392ه/1972م، ص:78، ويوسف إلياس سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعرّبة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 1998، ص:1913، وإيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، صححه وطبعه: رفعت بيلكه الكليسي، ج2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ص:392، وفهرس دار الكتب المصرية، قسم الفهارس العربية، ج6، مطبعة دار الكتب المصرية، ط1، القاهرة، مصر، 1352ه/1933م، ص:64، وعبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس، ج3، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، لبنان، 1982، ص:239، وحسين محمد نصار وآخرون، الموسوعة العربية الميسرة، المكتبة العصرية، (صيدا-بيروت)، لبنان، 1431ه/2010م، ص:1947، ورحلة الرحلات...المصدر السابق، ص:375، عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، ط2، بيروت، لبنان، 1400ه/1980م، ص:340، وأبو القاسم الحفناوي، ج2، المرجع السابق، ص:133، والزركلي، الأعلام، ج2، المرجع السابق، ص:281، ابن عباس مصطفى رسام، تراجم الأعلام وعظماء التاريخ، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 1991، ص:86، المختار من الرحلات...المرجع السابق، ص:353، و hadj sadok, a travers la berberie orientale du 18è siecle avec le voyageur al- warthilani, R.A, vol 95, année, 1951, pp :315-396.

فأبو راس الناصري مثلا يصل نسبه إلى آل البيت النبوي، ونفس الشيء يحرص عليه حسين الورتيلاني حينما يذكر نسبه الشريف أباً عن جدٍ فيقول:"الولي الصّالح جدّنا سيدي أحمد الشّريف نسباً، إذ ثَبت ذلك، وهو الشريف الحسني، والذي سمعناه من أعالي أسلافنا إنه من شرفاء تفلالت...ومن أولاده، الفاضل الكامل، الفقيه الورع، سيدي الحسين جدّي، إذ كان مدرّسا دائما، يحفظ الشيخ سالما، ينسخ منه كلّ ليلة نصف كراسة في القالب الكبير، أخبرتني بذلك زوجتُه والدة أبي، وهي من الصالحات، شريفة كوالدتي أيضا، وهو يدرّسُ إلى إن مات...وكذا أبي في غاية الأتباع أكثر من أبيه، تؤخذ السّنة من كلامه ومن أفعاله"، كما يذكر حادثة دخوله على سلطان مكة الذي سأله عن وطنه ونسبه، فأجابه بما حاصله:"إني من عمالة الجزائر، وإني شريف"[2].

أود فقط إن أقف عند هذه المسألة قليلا، لأقول إن نسبة الأشراف في الجزائر حقيقة قائمة، ومؤكدة علميا وتاريخيا، ولهم وجود، وهي حقيقة لا يتجاوزها عاقل، ولا يجحد حكمتها إلا جاهل، وإن الأنسان يُكرمُ بخلقه الشخصي، وينبل بعمله الذاتي، والغيوم التي لا تعد بالمطر بلهاء، والأنهار التي لا ترنو للخصب عمياء، والمرء حيث يضع نفسه لا حيث يضع نسبه. وعليه، عندما يفتح باب الأنتساب يجب إن لا يُفتح لعصبية قبلية مرفوضة في منطق العصر، ولا لفخر مرذول في رفات الأحداث والدِّمن، وإنما لكي ينتمي الناس إلى الجذور، فتستقي النسب الطيب، وتزدهي بالأمثولة القدوة، وتعتز بالمآثر والمكرمات، والتاريخ كما يُرى وأرى روح لا جسد، ومعنى لا صورة، ودافع إلى مستقبل لا جاذب إلى خلف...والناس أمناء على أنسابهم، فمن انتمى إلى طيء فهو طائي، ومن أنتسب إلى تميم فهو تميمي، ولا حرج في ذلك[3].

مولده ونشأته

ولد حسين الورتيلاني عام1125ه/1713م، ونشأ في قبيلة بني ورتيلأن من أسرة فقيرة دعامتها التقشف الصوفي، وأساسها الصلاح والشرف العلمي، فأبوهُ وجَده ُكانا عالِمين كبيرين في المنطقة التي يدعوها

[1]– إن الأنتماء لمكانة الشرف والاعتزاز بالنسب ظاهرة طبيعية إنسانية تاريخية عالمية، فشرف الفرد في الجاهلية كان يتبع شرف القبيلة وينبع منه، وكان يرتكز على كثرة الولد، ووفرة المال والثراء، وتوافر الجاه، ولما جاء الإسلام عمل على تعديل مفهوم الشرف، وجعله يستند إلى الفضيلة والكرامة والتقوى. صحيح إن شرف الخُلُق يكمل الشرف والنسب، فقد أخرج الإمامان مسلم والترمذي إن النبي صلى الله عليه وسلم، قال:" إن الله اصطفى كنانة من بني إسماعيل، واصطفى من كنانة قريشا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم"، وعن ذلك علق الإمام النووي بقوله:"الفضيلة في الإسلام بالتقوى، لكن إذا إنضم إليها شرف النسب ازدادت فضلاً".ينظر:محمد فؤاد عبد الباقي، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، مصر، (د ت)، ص:685-686، وعبد الله العامري، الإسلام وشرف الأنساب، مجلة الحق، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ع:260، ربيع النبوي1407ه/نوفمبر1986م، الرباط، المغرب الأقصى، ص:39.

[2]– الورتيلاني، المصدر السابق، ص:158-177-181-327.

[3]– إنور عبد الحميد الشّمري، قبيلة البكّارَة الكبرى–النسب..الماضي..الحاضر، منشورات دار المعارف بحمص، ط1، سوريا، 1416ه/1996م، ص:من المقدمة.

بعرشنا"بني ورتيلأن". تردد حسين الورتيلاني كغيره من أطفال القرية على المدرسة القرآنية التي كان يشرف عليها والده، وعلى الزوايا أين تضلع في الفقه وعلم التوحيد، إلى جانب اهتمامه بالتصوف الروحي، والتبحر في اللغة العربية وآدابها والنحو، ودراسة التاريخ، كما أخذ عن علماء وفقهاء منطقة زواوة، وعنهم يقول:"هؤلاء فقهاء مدرّسون متّبعون للسّنة، وقد ظهرت عليهم آثار الفضل، وأنوار الحق مشرقة عليهم، وقد صحِبتُهم وأحببْتُهم، وشهِدتُ من جميعهم ما يدلّ على ذلك"[1].

تزوج حسين الورتيلاني من امرأة تدعى عويشة تنسب إلى عائلة المسعود بن عبد الرحمن، وعن ذلك يقول: "وقد زوّجني سيدي بركات بنت سيدي محمد السّعيد، كما زوّج أبو بكر رضي الله عنه بنته النبيَّ صلى الله عليه وسلم عائشة من غير كُلفةٍ ولا مشقّةٍ"، بعدها تفرغ للعلم والتصوف على الطريقة الشاذلية، محاربا بقُوةٍ البدع المنتشرة التي نسبت إلى الدين، كما دعا إلى تعاليم ومبادئ الإسلام الصحيحة، إلى إن بدأت رحلاته إلى المشرق العربي، فحج ثلاث مرات، الأولى سنة 1153ه/1740م رفقة زوجته وابنه محمد الصالح، والثانية سنة 1166ه/1753م رفقة الشيخ ابن عمار، والثالثة سنة1179ه/1766م، ولعل هذه الحجة قد أثّرت فيه كثيراً، وخلفت لديه انطباعا طيبا، أما الحجة الرابعة فلم تكتمل،" وهو القائل عن ذلك: "وقد سافرنا معه" يقصد الشيخ أحمد زروق" إلى تونس نريد الحجّ فلم يتيسّر لنا ولا له ذلك العام". زار العديد من المدن والمناطق بتونس وطرابلس الغرب ومصر والحجاز والتقى بعديد العلماء، ثم عاد إلى وطنه، ليواصل رسالة التعليم والتأليف والدعوة إلى الله بنشر تعاليم الدين الإسلامي[2].

أقوال العلماء فيه:

قال عنه صاحب كتاب معجم أعلام الجزائر: "رحالة، مؤرخ، فقيه، مال إلى التصوف، ولد ونشأ في قبيلة بني ورتيلأن...رحل إلى المشرق فحج وأخذ عن علماء مصر والحجاز... ثم رجع إلى وطنه"[3].

وقال عنه صاحب كتاب شجرة النور الزكية:" العلامة المحقق، المؤلف المدّقق، الصوفي الزكي، الفاضل العارف بالله، الواصل الولي، الصالح القدوة، الناصح من بيت مشهود بالعلم والفضل، أخذ عن والده وشيوخ وطنه، وكان كثير الكرامات، صادق اللهجة، مستقيم الحجة، قصد بيت الله الحرام، وحج ثلاث مرات...واجتمع بأعلام وأفاد واستفاد، وأخذ العلوم عن أسُودٍ أسْيادٍ...له تآليف منها رحلة سماها"نزهة الأنظار في علم التاريخ والأخبار"[4].

---

[1]- حسين الورتيلاني، طبعة دار المعرفة الدولية، المصدر السابق، ص:45.

[2]- معجم أعلام الجزائر...، المرجع السابق، ص:340.

[3]- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر...ص:340.

[4]- محمد مخلوف، شجرة النور الزكية،... المرجع السابق ص:357.

أما أبو القاسم الحفناوي فيطنب في وصفه قائلا: "الإمام العالم، العامل العلاّمة، الكامل الأستاذ الهمام، شيخ مشايخ الأعلام، الورع الزّاهد، الصّالح العابد، المتبع لأثر الرسول، الجامع بين المعقول والمنقول، بحر الحقائق وكتر الدقائق، مفيد الطالبين ومربي السالكين، وقدوة العلماء العاملين وبقية السلف الصالحين، محي السّنة والطاعن في نحور مخالفيها...نادرة الزمان وبركة المسلمين في كل عصر وأوان، الجامع بين العلمين، والكامل في النسبتين، حامل لواء الشريعة والحقيقة، ومعدن السلوك والطريقة..."[1].

أما المؤرخ المغربي فقد لخص رأيه في هذه العبارة الدالة، قوله:"هو الحسين بن محمد الورتيلاني عالم ورحالة مغربي، من قبيلة بني ورتيلأن، رحل إلى المشرق وحج سنة1765م، أقام في مصر واستفاد من علمائها، وصف رحلته إلى الحجاز في كتابه نزهة الأنظار في علم التاريخ والأخبار"[2].

شيوخه:

لعل الكلمات التي تتسم بأسمى الآداب والأخلاق التي استعملها حسين الورتيلاني مثل:سيدي، الولي الصالح، شيخنا القطب الكامل... والتي أجاد فيها الورتيلاني كل الإجادة عند ذكر مشايخه، لدليل على مدى الاحترام الذي يكنه لهم رغم كثرتهم داخل الوطن وخارجه. ومن الشيوخ الذين تتلمذ عليهم بوطنه:

والده محمد السّعيد، الذي حفظ القرآن الكريم على يده، والشيخ **أحمد بن يحي** الفقيه المفتي الحافظ للأنفال، والشيخ **أحمد بن عمر**، والشيخ **الحسين بن أعراب**، والشيخ **أحمد ابن باباس الفليسي**، والشيخ **أحمد بن عمر التدليسي**، والذين أخذ عنهم الفقه والنحو والأدب، وصحبهم وأحَبَهم وشَهِد من جميعهم كما ذكرنا سابقا، وهم الشيوخ الذين ابتدأ بهم مسيرته العلمية، كما تتلمذ على شيوخ آخرين في مناطق متفرقة من وطنه، ومنهم الشيخ الموهوب، والشيخ أحمد بن عبد العظيم من قرية أمولة، والعلامة الفاضل علي بن أحمد ذو الطريقة الناصرية الشاذلية الذي تعلم الألفية عليه، وعبد المالك وإن لم يكن مثلهم في العلم، والشيخ محمّد الذي قال في حقه:[3]

بحر الندّى والعلم من شيخ	برز شيخ الحقيقة لدينا مُكتَنَز
وجوده كعلمه فيما دنا	من قطرنا على الذي به اغتنى
نار القرى وعلمه لم يستتر	وشمسه مشرقة على الدرر

أما من شيوخه خارج الوطن، فمنهم:

[1]- أبو القاسم الحفناوي، المرجع السابق، ج2، ص:133.

[2]- ابن عباس رسام، تراجم الأعلام.....المرجع السابق، ص:86.

[3]- حسين الورتيلاني، المصدر السابق، ص ص:17-18-145-146.

الشيخ عبد الرحمن ابن الصباغ الجزائري(ق9ه/14م) هو الشيخ العارف بالله، الزاهد الورع، الفقيه المحدّث، نشأ بمدينة بجاية، وأخذ عن خيرة علمائها، وهو من أشهر تلامذة الشيخ يحي العيدلي، من تآليفه: مناقب سيدي أحمد بن يوسف، ومناقب الشّاذلي، وشرح على متن الوغليسية في الفقه، وهو مخطوط بخط مغربي، نسخه محمد بن القاسم اليعمري بتاريخ1191ه/1776م، والذي وصفه الشيخ حسين الورتيلاني بقوله:"وأمّا سيدي عبد الرحمن ابن الصّباغ، فتآليفه تنبئ عنه، وكلامه يدلّ عليه، فليس إلاّ من أهل الشّأن والتّصريف، وهو من القرن التاسع9ه/14م، نفعنا الله بكلّهم بمنّه وكرمه"وقال عنه أيضا في موضع آخر وهو يتحدث عن شيخه يحي العيدلي، فيقول: "وقد شهد بقطبانيته الشيخ الولي الصّالح، ذو التصانيف المفيدة، سيدي عبد الرحمن ابن الصّباغ شارح الوغليسية، وقد شرح البردة أيضا، بأن اختصر شرح الإمام ابن مرزوق التلمساني عليها بعلوم سبعة، ورثاه عند موته بقصيدة عظيمة، وشهد له أيضا بالعلم الظّاهر والباطن، وإن له كرامات عظيمة"[1].

– **أبو العباس احمد بن مصطفى بن أحمد الصباغ السكندري المصري المالكي**(ت1162ه/1749م)، قال عنه الزبادي في رحلته"لم أرى في علماء عصرنا أكثر منه خشوعا، ولا أغزر منه دموعا إلى أخلاق حسان، كان مولعا بأحوال النبي صلى الله عليه وسلم، معتنيا بسنته وسيرته، عارفا بأحوال الصالحين والعلماء العارفين، وكان يقول عليكم بعلوم الشرع: الفقه والحديث والتفسير"[2]، ويقول عنه الورتيلاني:"وفي الحجّة الأولى اجتمعت مع الولّي الصّالح، والعالم الواضح، فكان ديدنه وشأنه الهجرة للعلم من داره في الإسكندرية، إذ كان ملازما لإعطاء العلم في الأزهر، وكان فاضلا فقيها، متكلما بيانيا، مفسّرا أصوليا، نحويا لغويا أديبا، حاصله، قد جمع المعقول والمنقول، والحقيقة والشّريعة، واعيا للمذاهب، الشيخ الصّبّاغ الإسكندري[3].

– **أبو الحسن علي بن أحمد بن مكرم الصعيدي العدوي** (ت1189ه/1775م)، يعرف عنه بشيخ المشائخ، وقد تمت مشيخته على جميع من بمصر والجامع الأزهر، أحد أعلام الشيوخ الفقهاء، الزهاد الفقراء، والحذاق المالكيين المصريين لجامع الأزهر، له دروس في خزرجية العروض وحواشي في الفقه، كما له في الحديث حاشية على شرح زكريا على"الألفية الاصطلاحية" في مجلد ضخم، و"ثبت مختصر من ثبت ابن عقيلة" جمعه له تلميذه محمد الأمير الكبير وحلاه[4].

1- نفسه، ص:46-86.

2- محمد مخلوف، شجرة النور...المصدر السابق، ص:338، والجبرتي، المرجع السابق، ج2، ص:141، ط، 1965.

3- نفسه، ج2، ص:108-109.

4- عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، تح:إحسان عباس، ج2، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، لبنان، 1402ه/1982م، ص:712. ومحمد الحضيكي، الرحلة الحجازية، ضبط وتعليق: عبد العالي لمدبر، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، ط2، الرباط، المغرب، 1432ه/2011م، ص:184 والأعلام، ج5، ص:66.

يقول عنه الورتيلاني:"وممّن زرته أيضا وحضرت مجلسه، وهو من المؤلفين، والعلماء المحقّقين، وقد صنّف كثيرا، وإليه النّظر في وقتنا هذا في الجامع الأزهر، بل إليه تُشدُّ رحال الطلبة بمصر من كلّ جانب، وقد بلغ صيتُ عِلمِه مشارق الأرض ومغاربها:شيخنا سيدي علي الصّعيدي، وقد أجازني بخطّ يده في جميع العلوم" غير إن الورتيلاني يضيف بأنه استدرك في نص الإجازة وتواضعا منه إضافة عبارة:"لستُ أهلاً لأن أُجازَ فضلاً عن إن أُجيز"، وذلك بسبب اعتراض الورتيلاني عليه في بعض المسائل الفقهية فيما يخص غلطته وإكثاره من قوله "كلام الشيخ الخرشي فاسد" وبعد تقديم البيان سلّمَ، وصار بعد ذلك لا يكتب قولةً على الشيخ الخرشي إلاّ بعد إن يُعْلِمَني بالبحث فيها[1].

– **أبو حفص عمر بن علي بن يحي الطحلاوي المالكي المصري**(ت1181ه/ 1768م)، محدّث له ثبت، كان يستفتح مجلسه كل يوم بنحو ثلاثة أحاديث أو أكثر من صحيح البخاري، درّس التفسير في جامع الحسين، ومختصر خليل، له ثبت نسبه له بصريّ المكناسي في ثبته، حلاه الحافظ الزبيدي في معجمه ب"الإمام الثبت العلامة، سمع الحديث على الشهاب أحمد العماري وأبي الحسن علي الحريشي الفاسي وغيرهما، وكان للناس فيه اعتقاد حسن وعليه هيبة ووقار[2]، يقول عنه الورتيلاني:"وممن حضرت درسه، الشيخ عمر الطحلاوي، وقد جمع المعقول والمنقول...وسمعت منه بعض الرّسالة الوضعية وبعض التفسير، وهو ذو الجلالين"، ولكن على عكس الشيخ الصّعيدي، صار يغالط الورتيلاني بكلام ليس من العلم، وهي المغالطة الخارجية على حد قوله، بسبب عجزه عن الجواب حول مسألة فقهية، فيذكر الورتيلاني بأنه قرر عدم الرجوع إلى مجلسه[3].

– **علي بن خضر بن احمد العمروسي**(ت1173ه/1760م)، فقيه من فقهاء المالكية، درّس الفقه بالأزهر، اختصر المختصر الخليلي في نحو الربع ثم شرحه، وحاشية على إتحاف المريد في شرح جوهرة التوحيد، أخذ عن محمد السلموني والشهاب النفراوي ومحمد الزرقاني، كان إنسانا منجمعا عن الناس مقبلا على شأنه[4]، قال عنه الورتيلاني:"وزرت أيضا:الشيخ الفقيه المنّور، العارف بالله تعالى، إذْ شرح خليلا شرحا مختصرا بالمزج، وقد رأيته في داره، وهو شرح مباركُ لا بأس به، وهذا الشيخ هو شيخنا الإمام العمروسي، وقد أجازني أيضا، غير

1 – الورتيلاني، المصدر السابق، ص:90-91.

2 – عبد الحي الكتاني، ج1، المرجع السابق، ص:468، والحضيكي، المرجع السابق، ص:182.

3 – الورتيلاني، المصدر السابق، ص104.

4 – عبد الرحمن الجبرتي، تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تح: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، تق: عبد العظيم رمضان، ج1، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1997، ص:219.

إنه زبرَ الإجازة بعضُ تلامذتِهِ بإذنه وإملائه عليه، وقد ختمها، وكتب على ذلك بخط يده، وطبع عليه بطابعه[1].

– **محمد بن محمد بن محمد الحسني الشريف البليدي**(ت1176ه/1763م) عالم فاضل محقق مؤّلف، كان من أعيان المالكية بجامع الأزهر، عالم بالعربية والتفسير والقراءات، مولع بعلم المنطق، له شرح كبير على مختصر خليل، التزم فيه تتبع كلام الشيخ عبد الباقي في شرحه، ورسالة في المقولات، يقول عنه الورتيلاني:"أجازني في العلوم كلّها، وزَبَرَ ذلك بخطّ يده، وقد حضرتُ عليه في الحجة الأولى بعض الدّروس في الرّسالة"[2].

– **أحمد بن غنيم بن سالم بن أحمد النفراوي أبو النجا المالكي**(ت1168ه/1755م)، فقيه مالكي جليل، كانت حلقاته من أكبر الحلقات في جامع الأزهر يحدق بها أكابر المالكية، وكان ممن ترفع إليه المسائل ويقصد بالفتوى، له باع طويل في علم البيان والأصول، من مؤلفاته"الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني"[3]، يذكره الورتيلاني ب"الفاضل، والعالم الكامل، إمام الجامع، الحافظ على الإطلاق، والناقل بالاتّفاق، شيخ الجميع وإمام التحقيق على ما تقرّر واشتهر، أخذ عنه كل من كان في زمنه من الشافعية والحنفية والمالكية وغيرهم...لا يسأله أحد في المجلس...وأما إنا فأسأله دائماً، وهو يجيبني من غير غضب ولا عنف، لكوني غريبا من آل المصطفى صلى الله عليه وسلم"[4].

– **علي بن حجازي البيومي الشريف الحسني الشافعي**(ت1108ه/1697م)، العامل العالم والقدوة الكامل، شيخ الشريعة والحقيقة، وإمام الطريقة، ومرشد السالكين، ومربي المريدين، الملقب بسلطان الموحدين، ذي الكرامات الباهرة والمناقب الفاخرة، من تصانيفه:"رسالة الفوز والأنتباه"، و"رسالة فتح الرحمن"[5]، يقول عنه الورتيلاني:"وهو يصفه ب"الفاضل العارف بالله، ذو الأحوال المرضية، والمحبة الصّافية، والحقيقة النّبوية، والواردات الإلهية، والعلوم والفتوحات الربانية...وهو ممّن يرقصُ، وقد أنكر عليه أهل زمانه ذلك، غير إنه لم يكترث بذلك، وممّن أنكر عليه شيخنا الحفناوي وغيره...وقد حققت منه الكشف غيرَ ما مرة، وقد نهاني عن الصّوم، إذ كنت أسْرُدهُ، فلم يتيسّر لي بعد إلاّ الفرض، وقد أخذت عنه أيضا[6].

– **أحمد بن الحسن بن عبد الكريم الخالدي الجوهري الشافعي**(ت1182ه/1768م)، فاضل مصري أزهري، كان أبوه يبيع الجوهر فنسب إليه، درّس الصغرى في العقائد للإمام السنوسي، وصحيح البخاري، والسلم

1– الورتيلاني، نزهة الأنظار... ج2، المصدر السابق،ص:88-89.

2– نفسه، ص:88.

3– محمد الخضيكي، المصدر السابق، ص:184.

4– الورتيلاني، ج2، المصدر السابق، ص:105.

5– الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج1، ص:231.

6– الورتيلاني، ج2، المصدر السابق، ص:92-94.

للأخضري، كان كثير الاعتناء بعلم الكلام، ومتبحرا في علم التّوحيد، من كتبه"منقذة العبيد من ربقة التقليد"في التوحيد، ورسالة في"الغرائيق" وثبت في أسماء شيوخه[1]، يقول عنه الورتيلاني:"وقد زرنا في هذه الحجة الشيخ الصالح والبدر الواضح، نخبة العارفين، ودّرة الموحدين الشيخ الجوهري"[2].

– **محمد بن صالح أبي السعود السباعي الحفناوي الشافعي المصري**(ت1268ه/1852م) نسبة إلى قرية حفنة من قرى مصر، وهو ممن جمع بين العلم والعمل والولاية الكبرى، سلطان العارفين، وإمام المحققين، كان فاضلا كاملا، جامعاً للعلوم النّقلية والعقلية، وجامعا بين الحقيقة والشّريعة، يكاد إن يكون ممّن يجدّد الدين، له حاشية على تفسير الجلالين، يقول عنه الورتيلاني:"لقّنني الذّكر على طريق أشياخه، وأذن لنا في الإعطاء والإذن...وما رأيت أحسن منه في إقراء العلم، كان الجواهر تخرج من فيه...وقد حضرت في مجلسه المعلوم عند إقرائه الرّحبية بالشنشوري...أجازني، وكتب لي الإجازة بخطّ يده في المعقول والمنقول"[3]

– **أحمد بن عبد الفتاح المجيري الملوي**(ت1182ه/1769م)، الإمام العلامة المتقن المعمر حسن الوقت، ولد بمصر عام1088ه/1677م، الشافعي المذهب، ألحق الأحفاد بالأجداد، وأخذ عن الكبار من ذوي الإسناد العالي، كأبي السفر العجمي والزرقاني شارح المواهب، وعبد الرؤوف البشيشي، وأبي الأنس المليحي، وأجازه البصري والنخلي وأبو طاهر الكوراني، ومن غرائبه: روايته لحديث الأولية والصحيح وغيره من الكتب السّنة، له تصانيف بلغت نحو العشرين مصنفا منها:شرحه على السّلم، وشرحه على السّمرقندية،وثبت صغير أدمج فيه ثبت أبي السعود الفاسي[4]، يقول عنه الورتيلاني:"الشيخ العلامة، والفاضل الفهامة، الشيخ المؤلّف، ذا التصانيف المفيدة، والتآليف العديدة، شيخنا الملوي، وقد أجازني في سائر العلوم...وهو ممن له الذّوق السّليم، والطّبع المستقيم[5].

تلاميذه:

ما من شك من إن عدد تلاميذ الشيخ الورتيلاني خلال رحلته التعليمية كثيرون جداً، فقد كان يُعلِم الناس في كل مكان يحل فيه، وفي كل مجلس يدعى إليه، لأن التعليم كان شغله الشاغل، وحتى وإن لم يذكرهم بنفس الطريقة التي ذكر بها شيوخه، إلا إنه يُكِنُ لهم نفس الاحترام والتقدير، ولعل الموقفين التاليين للشيخ الورتيلاني مع طلبته صورة واضحة عن العلاقة المتينة التي كانت تربط الورتيلاني بطلبته. فالموقف الأول بوطنه زواوة، وفيه ينصح طلبته بقوله:"فلمّا حان السّفر وإن، جمعت طلبتي وأمرتهم بالاشتغال بالعلم، والمودّة بينهم،

[1]– فهرس الفهارس، ج1، ص:221، والأعلام، ج1، ص:112.
[2]– الورتيلاني، المصدر السابق، ص:84.
[3]– نفسه، ص:101.
[4]– فهرس الفهارس، ج2، المصدر السابق، ص:318.
[5]– الورتيلاني، ج2، المصدر السابق، ص:89-90.

والطاعة لله تعالى، عمّرهم الله تعالى على الدّوام بالعلم والعمل مع أولادنا الذّكور إلى غابر الدّهر-بجاه من ذكرنا آمين"[1].

أما الموقف الثاني بجامع الأزهر بمصر، فهو موقف امتحان واختبار لملكات الشيخ الورتيلاني، يذكر عن ذلك ما يلي:"ثم اجتمعتِ الطّلبة وكلّموني على مسألة الجوهر الفَرْدِ، إذ عندنا معشر أهل السّنة موجودٌ، وأمّا عند غيرنا فمستحيلٌ، لشبهات أوردها مَنْ مَنَعَ، فردّها أهل السّنة بأمور معلومة نصّ عليها غير واحد كابن التلمساني في شرح المعالم، والسّعد، والإمام السنوسي وغيرهم، غير إن البعض ممنْ يدّعي التحقيق من الأفاضل المحقّقين يُسلّمُ أدلّة المنع، ويمنع أجوبة أهل السّنة، لتمكّن الشّبهة في قلبه، فلّما أوردوا تلك الأدلّة، فمنهم من فهم الشّبهة فمنع جواب أهلِ السُّنة في قلبه، ومنهم من لم يفهم الشُّبهة ولا الجواب عنها، ففتح اللهُ عَلَيَّ بِسدِّ تلك الثّلمة، ومنعِ تلك الشّبهة من أصلها، ورفع ما عسى إن يردَ من المحال على وجود الجوهر الفرد، فأشرقَ عليَّ نور العرفان حتىّ علِمَ الحقَّ كلّ من حضر، وتعجب الكلّ في ردعِ المفصح بها، فصعق من حضر ذلك المجلس.نعم، بعد ذلك طلب منيِّ جميعهم قراءة الكبرى للشيخ السنوسي، وقالوا: لا بدّ إن تُحضرَ الشّيخ علي الصّعيدي وقت إقرائه إيّاها، وإنك لا بد إن تشتّي عندنا، فوافقتهم على إقرائها، ومساعدتي لهم عليها، فكلّ من سمع من الطّلبة فرح وسّر بذلك[2].

ومن أبرز تلاميذه الذين ذكرهم في مؤلفه في مناسبات مختلفة، وفي مواضع متنوعة، نذكر الفقرات التالية الدالة على ذلك، قوله:"**سيدي محمد بن الفقيه** محقّق في الكلام، فاضل صالح مشتغل بنفسه، وقد أخذ عنّي الصّغرى بأن قرأناها قراءة تحقيق بحاشية المحقق المراكشي، وكذا أخذ منّي الفقيه الفاضل العالم الأديب الحسيب **يحي بن حمزة**...فنبّهنا عليه لأنه من أجلّ الفضلاء...وتلميذي **سيدي محمّد السّكلاوي الجزائري**، إذ كان يقرأ عليّ كبرى الشيخ السنوسي بالشيخ اليوسي قراءة تحقيق في أيام الزيارة وغيرها...فلمّا ذهبت إلى الوادي سمِع بي جماعة من فضلائها، منهم العلامة الفاضل قاضيها، تلميذنا **سيدي أبو القاسم** نجل الكامل سيدي إبراهيم والفقيه المفتي سيدي محمد...وكنت كلّ عام أصوم فيها رمضان ناويا للرّباط مع تعليمي الطّلبة راجياً إن يكون لي حظّ وافر منهم، ونصيب كامل من عندهم...وأولاد الشّيخ سيدي الموهوب فيهم الخير والعلم والأدب، خصوصا تلميذنا **سيدي عبد القادر بن أحمد**، وكذا غيرهم...كما يذكر تلميذه **محمد الجوادي** وهو يتحدث عن شيخه الهاشمي المغربي[3].

1- نفسه، ج1، ص:87.

2- نفسه، ج2، ص:87.

3- نفسه، ص ص:61-65-115-142-160.

مؤلفاته:

اهتم الورتيلاني بجمع العلوم الفقهية وأصول الذّكر على الطريقة الصوفية الشاذلية، كما انشغل بالتفسير وكتابة القصائد، فخلف آثارا عديدة معظمها شروح، وإن كان معظمها في عداد المفقود، من أهمها وأشهرها وأكبرها، رحلتة المعروفة بالرحلة الورتيلانية، والموسومة ب

"**نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار**"، وهي الرحلة التي تمت سنة1179ه/1766م، فقد خرجت إلى الطبع مع تعليقات بن مهنا القسنطيني سنة1321ه/1903م بحاضرة تونس، ثم نشرها وحققها لأول مرة محمد العربي بن أبي شنب سنة1229ه/1908م بمطبعة بيير فونتانا الشرقية بالجزائر، وأعادت مطبعة دار الكتاب العربي ببيروت طبعها للمرة الثانية سنة1394ه/1974م، وهي عبارة عن موسوعة وصف فيها الدول والمدن، والمناطق وأهلها، وعلمائها وعاداتها التي مر بها في رحلاته التي حج فيها ثلاث مرات، فقد وصف المدن الجزائرية كسيدي خالد وسيدي عقبة فأولاد جلال، كما وصف قابس التونسية، طرابلس وبرقة في ليبيا، ومدن وقرى البحر الأحمر، وصولا إلى مكة والمدينة في أيام الحج.

فكتاب"نزهة الأنظار" أراده الورتيلاني كتاباً تاريخيا للرحلة وأدبها في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، فهو مزين بأخبار مفصلة عن الخلافة الإسلامية، وعن فتح البلدان، كما يجمع تراجم عن علماء وأولياء ومشايخ المغرب والمشرق، وهو مصدراً من مصادر التاريخ الإسلامي في الفترة المذكورة سابقاً، بما يمكن إن يكون موسوعة تاريخية تضاف إلى مؤلفات الرحالة المغاربة، فهي حصن الحصين ودرع متين وقد كان الفراغ من نسخها ضحى يوم الاثنين الفاتح لشهر شعبان1182ه/1769م [1]. كما ترك مؤلفات أخرى منها:

شرح المنظومة القدسية للشيخ عبد الرحمن الأخضري في التصوف، وهي منظومة في آداب السلوك في طريق السنة، نظمها عام944ه/1538م، تناول فيها المسائل المتعلقة بالتصوف في تطهير النفس والروح وما يتعلق بمجتمعاتنا من إتباع البدع والخرافات، وقد تأثر بها الورتيلاني كما تأثر بها عبد الكريم الفكون من قبله، واستشهد بها في العديد من المواضع في مؤلفه، شَرحَها الورتيلاني في كتاب يسمى"الكواكب العرفانية والشوارق الأنسية في شرح ألفاظ القدسية". وهو مخطوط بمكتبة تطوان بالمغرب الأقصى تحت رقم115.

كتاب شوارق الأنوار في تحرير معاني الأذكار، موضوعه الأوراد والأذكار، موجود بالمكتبة العامة والمخفوظات بتطوان المغربية تحت رقم155[2].

1– عبد الهادي التازي، رحلة الرحلات...المرجع السابق، ص:375.

2– المهدي الدليرو ومحمد بوخبزة، فهرس مخطوطات مكتبة تطوان، مطابع الشويخ، تطوان، 1981، ص:15.

شرح محصل المقاصد، للإمام أبي العباس أحمد بن زكري التلمساني، ويبدوا إنه لبعض الأبيات العرفانية، موضوعه الأخلاق والتصوف، مخطوط بمؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود بالدار البيضاء، رقم475/3.[1].

بالإضافة إلى مؤلفات أخرى منها:

شرح كتاب الصلاة

كتاب الرحلة السّنية

حاشية على كتاب المرادي

شرح بردة البوصيري

شرح خطبة الصغرى للسنوسي

حاشية على حاشية الكتاني على شرح السنوسي

حاشية على حاشية المحقق السكتاني على أم البراهين

رسالة في قول بعض الأولياء" نسجت برنسا من ماء، وأخرى" وقفت(خضت بحرا وقفت الأنبياء بساحله) على ساحل وقفت الأنبياء دونه".

و"رسالة في حل اللغز" الذي أرسله احمد بن يوسف الملياني إلى علماء فاس فعجزوا عنه.

قصيدة ميمية في نحو 500 بيت في مدح النبي صلى الله عليه وسلم كالهمزية.

قصائد أخرى في الرِّثاء لبعض الرجّال من المتصوفة، منها قصيدة مشهورة رثا فيها أحمد زروق البرنوسي

ملاحظة: من الكتب التي تشبه عناوينها بهذا الاسم، كتاب:"نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار" لمحمود مقديش، فهو كتاب تاريخ وأسطورة، ومعتقد ديني، وأخبار اجتماعية، يقرأ ويحكى، صَاحِب الكتاب أرخ لمدينته صفاقس بناءً على طلب، وفي اتجاه معين، يستجيب لميول دينية وبطولية وملحمية. وهو الكتاب الوحيد في شكله الذي يداعب شعور أهل مدينته صفاقس ويستجليهم للبحث فيه، ذاتهم وأصولهم، كما يعتبر مرجع للبحث في التاريخ، بما لم يسبقه إليه أحد غيره، ولا من لحق بعده من المؤرخين[2]

1- محمد القادري وآخرون، فهرس المخطوطات العربية والأمازيغية، ج2، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الأنسانية، الدار البيضاء، 1985، ص:548.

2- محمود مقديش، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تح:علي الزواوي ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 1988، ص:6.

وفاته:

توفي حسين الورتيلاني عام1193ه/1779م بمسقط رأسه في قرية بني ورتيلأن، ودفن في مقبرتها، قرب زاويته ولا يزال قبره قائما إلى يومنا هذا[1]، ونفس التاريخ يؤكده عبد الهادي التازي[2].

ثانيا: دراسة الكتاب ومحتواه

الكتاب ونسبته إلى مؤلفه: لقد اختار حسين الورتيلاني لرحلته عنوانا دالا لغة واصطلاحا، جذابا يوحي بمضمونها، وهو"نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، وهي رحلة كاملة مطبوعة، قدم لها محمد بن أبي شنب رائد نشر التراث العربي بالجزائر، والذي سأهم بقسط كبير في نشر كثير من المخطوطات ومن أبرزها" الرحلة الورتيلانية" التي نحن بصدد دراستها.

إن كتاب"نزهة الأنظار" نتاج لرحلاته الحجازية التي قام بها الورتيلاني، والملفت للنظر، إن بين كل رحلة وأخرى مدة ثلاثة عشرة سنة، مكنت الورتيلاني من ترتيب حلقات مؤلفه، وهو ما يذكره أبو القاسم سعد الله في كتابه "تاريخ الجزائر الثقافي". للعلم، إن كل من ترجم للورتيلأني يثبت نسبة الكتاب له، وسأكتفي بواحد ممن عاشوا في القرن الثاني عشر الهجري/18م، عاصره ولازمه ودرس عليه الورتيلاني كثيراً، إنه محمد بن ميمون الذي يعتبر في نظرنا من الشخصيات الجزائرية التي تستوجب الوثوق بها فيما يرويه للتاريخ، وعن ذلك يقول:"من مؤلفات حسين الورتيلاني- نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار-، وقد اشتهر هذا التأليف باسم الرحلة الورتيلانية"[3].كما إن حسين الورتيلاني نفسه يذكر في آخر صفحة من مخطوطه نسبة الرحلة بقوله: "انتهت الرحلة المباركة تأليف الشيخ سيدي الحسين بن محمد السعيد الشريف الورتيلاني".

سبب تأليف الكتاب وموضوعه:

من الأمور التي يجب التنويه بها في هذا الشأن، هي الوعي التام والإدراك الكامل للورتيلأني بالنقص الكبير في التأليف في الجزائر بصفة عامة، وانعدام الاهتمام بالتاريخ بهذه الديار بصفة خاصة، فأراد ملء هذا الفراغ بتأليف في علم التاريخ، وعن ذلك يقول:"فإن علم التاريخ منعدم فيهم، وساقط عندهم، فيحسبونه كالاستهزاء، أو انشغالا بما لا يعني، أو من المضحكة المنهي عنها"[4].

1- حسين الورتيلاني، المصدر السابق، ص:من المقدمة.

2- عبد الهادي التازي، رحلة الرحلات-مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، مراجعة: عباس صالح طاشكندي، ج1، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، المملكة العربية السعودية، 1426ه/2005م، ص:375.

3- محمد بن ميمون، المصدر السابق، ص:78.

4- حسين الورتيلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تق: محمد بن أبي شنب، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1908، ص:713.

وعليه، فإن الورتيلاني ضبط في مقدمة كتابه وبكل دقة ووضوح دوافع تأليفه، الناتج عن شغفه الكبير بما رأى وشاهد أثناء رحلته، ويظهر جليا من خلال كتاباته، درجة السعادة العالية والحب الصادق لمن لاقاهم، أو سمع عنهم من العلماء والصلحاء خلال زياراته إلى بلدان المغرب والمشرق العربيين، وعن ذلك يقول:"وبعد: فإني لما تعلق قلبي بتلك الرسوم والآثار، والرّباع والقفار والديار، والمواطن والمياه والبساتين والأرياف والقرى، والمزارع والأمصار، والعلماء والفضلاء والنجباء والأدباء من كل مكان من الفقهاء والمحدّثين والمفسّرين الأخيار، والأشياخ العارفين، والإخوان والمحبين المحبوبين من المجاذيب المقرّبين والأبرار،من المشرق إلى المغرب سيما أهل الصَّحو والمحو، إذ ليس لهم مع غير الله قرار،أنشأت رحلة عظيمة يستعظمها البادي، ويستحسنها الشادي، فإنها تزهو بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار، مبينا فيها بعض الأحكام الغريبة، والحكايات المستحسنة، والغرائب العجيبة، وبعض الأحكام الشرعية مع ما فيها من التصوف ممَّا فتح به عليّ، أو منقولا من الكتب المعتبرة..."[1].

موضوعات الكتاب:

إن المتصفح لمؤلف الورتيلاني يقف على محتويات الكتاب بالتفاصيل، ولعل ما يذكره تحت عنوان"تتمة" يوضح مقصده، فيقول:"إنما نذكر من ذكر الإخوان والمحبين، وبيان أوصافهم ليتحقق السامع بأحوالهم...وأما ذكر أوصاف الطريق وبيان المواضع، فإن فيه اعتبارا ودلالة على آثار قدرة الله تعالى، وتسخير الأكوان لنا...وزيارة الأخوان والقيام بحقوقهم...وشرف العلم بشرف معلومه، ولم يكن شيء أعز من بيت الله تعالى، ولا أعظم من الطريق الموصلة إلى رب البيت، وأما ذكر المدن والقرى وبيان أوصافها، فهي أمور خاصة بمؤلف الرحلة...لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأخذ الزاد، ويلاقي الرفاق، ويصحب الرفقة، ويترل على الماء، ويتزود منه"[2].

وعليه، فإن من المواضيع البارزة في الرحلة الورتيلانية هو الوصف الجغرافي والسرد التاريخي الخاصين بالبلاد العربية التي مرت بها الرحلة، فقد امتاز الوصف الجغرافي عند الورتيلاني بالتأكيد على الجانبين البشري والطبيعي، وهذا ما وفر للرحلة جانبا علميا مهما، لأن الظروف الجغرافية البشرية متغيرة، في حين إن الجوانب الطبيعية ثابتة، وقد فرضت هذه التغيرات إن يكون للزمن دوره في إعطاء الأوصاف مكانتها.

لقد حرص الورتيلاني على وصف كل المناطق التي شاهدها وزارها بملاحظات دقيقة، غير إن زيارته لمصر وإقامته بها(يبدو إنه مكث مدة بمصر ليست بالقصيرة) تحمل بالنظر للأبواب التي خصها بالذكر في الرحلة

1- نفسه، الرحلة...ج1394د/1974م، ص:3.

2- نفسه، ج1، ص:290-293.

انطباعا متفرداً ومتميزاً كله كثير الإعجاب، فقد وصف عادات وتقاليد أهلها، أسواق وأزقة مدنها، وذكر مساجدها ومناراتها كمنارة الإسكندرية، ومقاماتها كمقامة السيدة نفيسة.

أما جامع الأزهر فكان من الأماكن التي شوقته بغية لقاء علمائه، ولا أدل على ذلك من قوله:"وبالجملة فمصر أم البلاد شرقاً وغرباً، لا تستغرب شيئا مما يحكى عنها من خيرٍ أو شرٍّ...فهي تغني عن الغير، ولا يستغني الغير عنها"[1].

أما الموضوع الثاني في الرحلة، فهي سرد قائمة طويلة من التراجم للأولياء والعلماء والفقهاء الأحياء منهم والأموات، سواء بوطنه أو بالمناطق والمدن التي زارها خلال رحلته، فقد حصر اهتمامه أكثر على التراجم، وذكر الأحوال والأخبار على مدى فترات، بحيث لم يقتصر على فترة معينة، أو طائفة من الناس، كما لم يختص بمذهب من المذاهب، أو فن من الفنون، وعن دواعي تراجمه لصلحاء وطنه مثلا يقول:"غير إن صلحاء بلدنا لم يتعرّض لهم أحدٌ قبلُ ولا بعدُ، لعدم الاعتناء وضيق المعيشة، أردت التّنبيه عليهم على سبيل الإيجاز والاختصار، مع البيان والاستفسار.نعم أذكر مادون "وادي آقبو"، وأما"جبل زواوة" فهو منفرد، وأولياؤه شُهرتُهم تُغني عن ذكرهم، وتعظيمهم يقوم مقام بيانهم وتبيانهم وجميل آثارهم"، وكأني به وهو في هذه الحال، كحال الأدفوي الذي عرّف برجال مدينته ومكان نشأته ليتباهى بهم أمام رجالات باقي المدن الأخرى في كتابه، حيث قال:"ولما كان صعيد قوص الموضع الذي منه نشأتي، والمكان الذي إليه نسبتي، فأحببت إن أحيي ما مات من علم علمائها، وأنشر ما انطوى من فضل فضلائها...فالأنسان يكرم بكرامة أهله، كما يعظم بنبله وفضله[2].

أما عن أولياء مصر، فيقول:"مصر قد حُشِيتْ بأولياء الله، وإنهم فيها كالنجوم في السّماء، فالمستور فيها أكثر من الظّاهر، إذ الخامل فيها أكثر من إن يحصى[3].

ولما كانت عزيمة الورتيلاني على تدوين رحلة هامة، يفتخر بها، ويصحح بها أيضا موقف أهل بلاده، فقد زيّن مؤلفه بأخبار مفصلة عن الخلافة الإسلامية وعن الفتح الإسلامي لبعض البلدان، مع مقارنة نصوصه ببعض ما أوردته المصادر التاريخية السابقة والمعاصرة لرحلته.

---

[1]- نفسه، ج2، ص:24 وما بعدها.

[2]- كمال الدين الأدفوي، الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تر: أمين عبد العزيز، مطبعة الجمالية، ط1، القاهرة، مصر، 1914، ص:4-5.

[3]- الورتيلاني، ص:98-120.

ومن هذا الجانب اعتبرنا إن رحلة الورتيلاني رحلة تاريخية، فهو يتطرق إلى الفتح الإسلامي لإفريقية منذ عهد عقبة بن نافع الذي ولاه معاوية بن أبي سفيان، ذاكراً معلومات ذات قدر كبير من الأهمية، خاصة ما تعلق بالنواحي الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية وحتى الثقافية للمنطقة[1].

منهج الكتابة وأبرز مميزاته:

تعتبر الرحلة الورتيلانية من بين أبرز الرحلات التي شهدتها الجزائر في الفترة العثمانية خلال القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، حيث جمعت بين التحصيل العلمي ومقاصد الحج، فهي عبارة عن سجل لما عاشه وشاهده في طريقه، سواء تعلق الأمر بركب الحج، أو بالحياة العلمية والاجتماعية والاقتصادية للبلاد التي مر بها منذ اعتزامه على الرحلة، إلى غاية بداية تدوين ما جمعه في النهاية إلى عمل تاريخي سنة1182ه/1769م. فهذه الرحلة شبيهة برحلات العياشي والناصري، فقد ظل مشدوداً إلى كتاباتهم، وفاسحا المجال واسعا لما سبق ذكره من هؤلاء، فاشتملت على معلومات تتعلق بالمسالك والممالك، وذكر العلماء سواء الذين التقاهم وأخذ عنهم، أو الذين سمع عنهم، اشتهروا في مستهل القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي[2].

ولذلك، فإن أول ميزة في منهج الكتابة عند الورتيلاني، هي كشفه لنا عن نوعية وقيمة رحلته بوصفها مصدراً مهما من مصادر تاريخ التاريخ الجزائري، فقد اظهر ميولاته القوية نحو علم التاريخ، وأكّد على مكانته بين العلوم الأخرى، وأهميته في فهم الحياة، واستيعاب العبر من التجارب، وإنه العلم الذي يزيد من قيمة الإنسان وفضله، وإن مترلة العالم، إنما تقاس بمدى إلمامه بالتاريخ وأخبار الأمم والحضارات، بل وأكثر من ذلك، إذ هو الطريق وبيانها كبيان الطريق الموصلة إلى الله تعالى، لأن الرحلة توصل إلى بيته، بل توصل إلى رضاه، وأي علم أشرف من هذا العلم وفائدته ظاهرة، هذا وإن علم أمور الرحلة وبعض علم التاريخ يرجع إلى علم السيرة النبوية، فهي تجمع عدة مزايا تجعل دراستها متعة روحية وعقلية وتاريخية، بطرق علمية وثبوت قوي، لا يترك مجالاً للشك في وقائعها وأحداثها الكبرى، خاصة وإنها أصح سيرة لتاريخ الرسل والأنبياء[3].

من بين الإشارات التي لمسناها في رحلة الورتيلاني، هي طريقة التدوين التي لا تختلف كثيراً عن طريقة تدوين كتب التراجم والمناقب وغيرها، فإذا كانت الرحلات العامة لا تشتمل إلا على ذكر ما يُشاهد وما يُسمع أيام السفر، فإن الرحلات الحجازية تتضمن عادة بجانب الوصف، تراجم العلماء والفقهاء الذين صادفهم أصحاب تلك الرحلات أثناء حلهم وترحالهم، فهي من هذه الوجهة أشبه بقواميس تبوغرافية، ويكفي شهيدا

1- نفسه، ص:213 وما بعدها.

2- ليفي بروفنسال، مؤرخو الشرفاء...، المصدر السابق، ص:206.

3- مصطفى السباعي، السيرة النبوية دروس وعبر، منشورات المكتب الإسلامي، ط8، بيروت، لبنان، 1405ه/1985م، ص:16.

على ذلك ما وصلت إليه رحلة العياشي من شهرة في الأوساط المغربية، ورحلة الورتيلاني في الأوساط الجزائرية، نظرا لاشتمالهما على تراجم عدد لا يستهان به من علماء المشرق خاصة[1].

وفي هذا الإطار دائما، فإن رحلة الورتيلاني نسجت على منوال السلف من حيث المعنى لا المبنى، لأن كل الرحالة المغاربة متشابهون على وجه التقريب في مشاربهم الثقافية. يستعمل الورتيلاني الأسلوب القرآني في العديد من العبارات، داعيا إلى التحلي بالصفات الحميدة، لأن فيها الاعتبار والدلالة على قدرة الله تعالى، من ذلك مثلا دعوته للصبر عند البلاء، مذكراً بصبر أولوا العزم من الرسّل ليسهُل حمل أعباء المصائب، ويستشهد بالأحاديث النبوية في الكثير من المناسبات، رغبة إن يعمل بها من وقف عليها، ويوظف الشعر كوسيلة في الدلالة على الحقائق التاريخية والأدبية سواء من نسج غيره أو من وحيه، ومن ذلك مثلا، الموقف الذي يتخذه من دُعاة النسب، بقوله" والناس في أنساهم مصدّقون...إذ الأنساب كالحيازة في الأموال"، فيقول:

سريرة الجدّ تحِقُ في الولد	ونوره حقّا عليه يعتمد
فخيرة الخلق من أصل طيّب	شذا معطّر إني من أعجب
وحسن أخلاق كذا قد ينتخب	وأمره غريب ليس يحتجب[2].

إن أسلوب الورتيلاني واضح وبعيد عن التكلف، متضمنا لمفردات وعبارات متداولة عند الجميع، وإن كان لا يخلو من الطلاوة والتنميق عند تحلية أفاضل الأعلام الذين ترجم لهم، كما إنه يضحي بكل قوالب الأدب بعض المرات عندما يعتني بتوضيح الوقائع التاريخية. حاصله إن الرحلة الورتيلانية ليست نصا تاريخيا فحسب، ولا هي نص أدبي فقط، بل هي كذلك متن يحتجز أفكار الشيخ الإصلاحية، ومواقفه الصريحة في مختلف القضايا السياسية والاجتماعية والفقهية.

يرسم الورتيلاني مسار لرحلته، وهي في حقيقتها خريطة جغرافية، تُكتشفُ من خلال يوميات خط الرحلة، هذا الخط المصحوب بالتواريخ التفصيلية، بحيث إنه يربط بين التواريخ والأماكن ربطاً محكما، وذلك بتحديد الزمن والمسافة المقطوعة بين منطقتين، وهو الأمر الذي يُمكِن من معرفة المناطق والمدن التي أطال فيها أو العكس، كما إنه يزاوج بين التاريخ الهجري والتاريخ الميلادي، وهي أشارات ثابتة بالأيام والشهور والسنة لبداية تاريخ الرحلة، والمدة التي استغرقتها ذهاباً وإياباً، ومدة مناسك الحج.

مع العلم، إن مدة الإقامة بين المراكز تباينت لعدة أسباب، منها: الحاجة إلى الراحة والتزود بالماء، وأهمية المركز من الناحية الاقتصادية لقضاء الحاجيات من بيع وشراء، ومراعاة الظروف الأمنية (اللصوص وقطاع

[1]- محمد الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تح: عبد الله الكامل الكتاني وآخرون، ج1، دار الثقافة، ط1، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 1425ه/2004م، ص:3.

[2]- الورتيلاني، ج1، ص:128.

الطرق) والظروف الطبيعية، بالإضافة إلى الناحية العلمية التي شغلت الورتيلاني، فجاور مصر وعلماء الأزهر مدة تفوق الشهر.

وهنا أود الأشارة إلى ملاحظة، وهي إن الرحلات الحجازية المغاربية (الفاسية، الجزائرية،التونسية، الليبية) كانت تسير وفق خط سير موحد ومشترك، بدليل إن كل الركاب الحجاج كانوا يلتقون في مراكز معينة، مع تأخير أو تقديم للبعض تارة، وهذا ما يذكره الورتيلاني في رحلته بقوله:"وبعد ذلك نزلنا "الزّعفران"(هي مركز بمدينة برقة الليبية)، وفي ذلك الموضع تلاقينا مع الرّكب الفاسي والفيلالي مغرِّبين، ووقفنا مع أميرهما ساعة زمانية استخباراً عن مصر وأرض الحجاز"[1].

صحيح إن الورتيلاني متمسك بالعقيدة الإسلامية كدين، ويؤمن بالعالم الإسلامي كفضاء لجميع المسلمين، ولكن غريزة حب الوطن في نفسه تحركت، فتحدث عن الوطن، يقول الجرجاني في التعريفات" الوطن هو مولد ونشأة الرجل، والبلد الذي هو فيه"، ووطن الورتيلاني مدينة بجاية مسقط رأسه، وعنه يقول:"فوطننا طيّب فيه العلم وبعض الكرم للغريب، وفيه الزّيتون والعنب والتّين بكثرة، والحرث، غير إن الوطن عزيزُ غالٍ، وسبب ذلك كثرة النّاس، غير إنه خال من السّلطان وأحكامه، فالوطن سائبُ-عمّره الله بالأحكام الشرعية-، وأزال منه الفتنة، وبدّل ذلك بالعافية الدّائمة، وكذلك الغالب عليها البردُ والثّلج، وبالجملة نسأل الله تعالى إن يعمره على يد سلطان عدل"[2]

مصادره:

لقد اعتمد الورتيلاني في تدوين رحلته على نوعين من المصادر، وهي: المصادر الشفوية مما شاهده وسمعه، والتي سجل فيها كل ما رآه ومما سمعه خلال رحلاته من علماء أفاضل، ومشايخ أجلاء، وفي المدن والأمصار، وعن الشعوب بعاداتهم وتقاليدهم، وعن هذه المصادر يذكر مثلا ما شاهده وما سمعه بمنطقة"التميمي" بليبيا، فيقول:" وقد **شاهدنا** الجميع مراراً، والشكر لمن له المنّة والفضل، فلا تحسب الوفد خاليا فتكون فارغاً"، ويقول في موضع آخر"فكان الرجل يبيع أولاده، وكذا المرأة تبيع أولادها إن كانت أيّماً، وقد **شاهدنا** ذلك فنهينا الجميع عمّا هنالك"، أما عن ما سمعه من شيوخه تارة، وعن الناس تارة أخرى، فالأمثلة كثيرة وكثيرة، ولعل ما يذكره في بعض المواضع لدليل على ذلك، قوله:"وقد **سمعت** من العارف بالله الصّدر الأعظم، والعالم الأفخم، والورع الفهم، الجامع بين الشريعة والحقيقة سيدي محمد المغربي الطرابلسي عام أربعة وخمسين ومائة وألف".في حين إنه يعتمد على بعض المصادر بالمخاطبة مباشرة، قوله:"وقد **أخبرني** شيخنا سيدي أبو مهدي عيسى

1- الورتيلاني، ج1، ص:412، وللمزيد من المعلومات حول جغرافية الرحلات المغاربية، ينظر:أحمد الدرعي، الرحلة الناصرية1709-، تح وتق: عبد الحفيظ ملوكي، ج1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية، 2011، ص:15-17.

2- نفسه، ص:87.

الثعالبي أيّام كنت أتردّد معه إلى مجلس شيخنا شهاب الدين الخفاجي"، وقوله في موضع آخر:"**وأخبرنا** شيخنا أبو مهدي، إنه خرج ذات مرّة للتحنث بهذا الغار(يقصد غار جبل ثور)، وكان يخرج إليه بهذا القصد قبل ذلك، وخرج إليه في هذه المرة مع ثلاثة من أصحابه من الهنود"[(1)].

كما اعتمد على كثير من المصادر الأخرى المكتوبة، والتي يذكر البعض منها في مقدمة مؤلفه حيث يقول :"وإن اعتمادي في ذلك على رحلة شيخنا وقدوتنا ومن على الله، ثمّ عليه اعتمادنا سيدي أحمد بن محمد بن ناصر الدّرعي الجعفري، هذا وإني إنقل أيضا من بعض كتب التاريخ كنبذة المحتاجة في ذكر ملوك صنهاجة، ومختصر الجمإن في أخبار أهل الزمان، وكذا حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، وغيرهما مما يناسب المحلّ"[(2)].

أما المجموعة الأخرى من المصادر، والتي اعتمدها وهي الأخرى كثيرة ومتنوعة فقد استخرجناها من المتون، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: كتاب"مروج الذهب ومعادن الجوهر" لأبي الحسن المسعودي، وكتاب"شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام" لتقي الدين الفاسي المكي، وكتاب"طبقات علماء المغرب" لابن فرحون، وكتاب رحلة ابن بطوطة التي تعرف ب "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، وكتاب "وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى" لنور الدين السمهودي، وكتاب" الاستبصار في أخبار الأمصار" لابن عبد ربه المراكشي، وكتاب"المواهب اللدنية بالمنح المحمدية" لأحمد بن محمد القسطلاني.

للعلم، سأذكر المصادر التي اعتمدها الورتيلاني مراراً بالترتيب حسب الأولوية من حيث عدد المرات التي استخدمها، ومنها:

الرحلة العياشية (**ماء الموائد**) **1661-1663م**، لأبي العباس عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي (ت1090ه/1679م)، وهو أحد أعيان العلماء بالمغرب، ومن الذين تركوا بصمات بارزة في التاريخ المغربي، حج ثلاث مرات سنوات1059ه/1649م،و1064ه/1654م، 1072ه/1662م، وفي الحجة الثالثة ألف رحلته التي استوعبت سفرين، وتعرف بالرحلة الكبرى [(3)]، ولازالت مكتبة زاوية سيدي حمزة بالريش بالجنوب الشرقي المغربي تحتفظ بالنسخة الأصلية لهذه الرحلة"ماء الموائد" بخط الشيخ أبي سالم العياشي نفسه.[(4)]

1- نفسه، ص:428-437.

2- نفسه، ص:36-37.

3- نشرت بالمطبعة بفاس سنة1316ه/1898-1899م، وقد أعادت نشرها دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر في الرباط بالأونيست، وقد أعادت نسخها سنة1397ه/1977م.

4- أحمد شوقي بنبين، المؤسسات الثقافية في المغرب(خزائن الكتب العلمية)، مجلة التاريخ المغربي، ع35، المغرب الأقصى، 2005، ص:57.

تشكل هذه الرحلة موسوعة ثقافية، ودائرة معارف إسلامية، لأنها ديوان علم، شمل الرسائل والملّخصات والأسانيد، والطرق الصوفية، وعلوم المسالك والممالك، كما تعتبر مصدرا عن كل الجوانب التي تعرضت إلى الحياة الفكرية والاجتماعية والتاريخية والاقتصادية في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي، سواء في المغرب أو المشرق العربيين، ومصدر لكثير من النصوص الأدبية والشعرية وخاصة من الإخوانيات والمديح النبوي.

تعد هذه الرحلة من أهم الرحلات المغربية وأكثرها انتشارا، لأنها أكثر مادة وتنوعا، فقد طفق الرحالون من اللاحقين ينقلون عنها، ومن بينهم حسين الورتيلاني الذي اعتمد على هذه الرحلة أكثر من تسعين مرة مما أحصيناه، فقد نقل عنه الأخبار التاريخية، والأوصاف الجغرافية للمدن والشعوب، ومنها ما يذكره عن مدينة طرابلس قوله:"قال أبو سالم العياشي في رحلته: وافتكها منهم درغوث باشا، وكان بجربة ومراد باشا في مسلانة، وبقي بها درغوث إلى إن توفي بها، وقبره الآن بها مزار وعليه بناء عظيم، وسبب أخذها من العدو، إن مراكب المسلمين جاءت من اسطنبول مدداً للعمارة المحاصرة لحلق الوادي بتونس، فمرت بساحل طرابلس فكلمهم أهل السواحل في إعانتهم على النصارى..."[1]، كما ينقل عنه في مواضع أخرى واصفا الظروف الأمنية لطرق ومسالك الحجاج عند مرورهم بأراض الشعوب والدول لخط الرحلة الحجازية، فيقول مثلا:"قال الإمام أبو سالم: وقد كانوا في غالب السّنين يكثرون عليهم في الرّكب المغربي فرارا من جور عساكر المصريّ، فيكثر ضجيجهم وخصوماتهم، فلا يكاد ينضبط للرّكب المغربي أمرُ من كثرتهم فيه، فيرحلون في غير إبان الرّحيل ويتبع الآخِرُ الأوّل من غير تأن، لاسيما في محل الضيق والخوف، ولا يبالون بما اتلفوا من أنفسهم وأموالهم خشية التّأخُّر، والمزاحمة على القرب من أوّل الرّكب لغلبة الجبن والخوف عليهم..."[2].

- الرحلة الناصرية1709 -1710م، لأبي العباس أحمد بن محمد بن الحسين ابن الإمام الشهير أبي عبد الله محمد بن ناصر بن عمر الدرعي ثم الأغلاني(ت1129ه/1717م)، والذي كان ظاهرة في زمانه، حج أربع مرات سنوات1082ه/1672، و1096ه/1685م، و109ه/1697م، و1121ه/1709م، وإذا كانت الرحلات الثلاث الأولى لم تنل شهرة، فإن الرحلة الرابعة كانت من الشهرة بمكان، وهي الموجودة بين يدي القراء[3].

1- الورتيلاني، المصدر السابق، ج1، ص:332.

2- الورتيلاني، ج2، ص:165.

3- طبعت هذه الرحلة على الحجر سنة1320ه/1902م في جزأين اثنين وتُرجم قسم منها إلى الفرنسية من لدن المستشرق الفرنسي باربروجير ونشرت بالمجلة الأفريقية بالجزائر. يُفصلُ الدرعي قصة رحلته البرية البحرية إلى الأراضي المقدسة بعد إن خرج من مقره بالزاوية الناصرية يوم24 جمادى الاولى1121ه/أول أغسطس1709م. ينظر:عبد الهادي التازي، رحلة الرحلات مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، مراجعة: عباس صالح طاشكندي، ج1، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مكة المكرمة، 1426ه/2005م، ص:200-201.

هي رحلة حجازية تعود إلى أوائل القرن الثامن عشر(1709-1710م)، تمتاز بوفرة المعلومات المستمدة من المعاينة الشخصية والملاحظة المباشرة في قراءة الأحوال السياسية والاجتماعية والثقافية للبلدان التي زارها في طريقه من المغرب إلى المشرق. يقدم الدرعي صورة عن التاريخ الاجتماعي والسياسي للمناطق التي شملها خط الرحلة في المغرب والمشرق، فضلا عن ملامح عن تفاعل الثقافتين المغربية والمشرقية، وتشتمل الرحلة على كمية كبيرة من الشعر سواء من نظمه، أو من نظم شعراء آخرين.

اعتمد الورتيلاني عليه في عشرين موضعا خاصة في وصف المناطق والأقاليم، وتحديد المدن والمسافات، ومن ذلك ما يذكره مثلا عن مدن طرابلس الغرب، قوله:"ودرنة مدينة على ساحل البحر بها مرسى، بينها وبين التميمي مسافة يوم ونصف من غربيّه، وكانت خالية منذ زمان إلى إن عمّرها الأندلس قرب الأربعين والألف...ومرسى هذه المدينة عجيبة، تنزل بها السفن الجائية من الإسكندرية ومن طرابلس ومن برّ الروم...والمعاش فيها متيسّرٌ كثيرٌ، لجمعها بين البادية والحاضرة"[1]، وفي موضع آخر يقول:"وبلاد سرت هذه من أخصب البلاد وأَمْراهَا، أي أكثر أرزاقها، ذات مزارع كثيرة بالبعل-أي بلا سقي-، وإنما تُسقَى بالمطر، وعربُها أهل رفاهية، إلا إن الجور أجلاهم من بلادهم وشتّت شملهم..."[2].

- **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة،** لعبد الرحمن بن الكمال بن أبي بكر بن محمد سابق الدين الخضيري الأسيوطي، المشهور باسم جلال الدين السيوطي(ت911ه/1505م)، مؤلف ضخم في مجلدين ضمنه تاريخ رجالات مصر وأثارها، وعرّف بكل من حل بمصر من الأعلام في معاجم لم يسبق إلى حسن ترتيبها وتنسيقها، وقدم لمعاجمه بمقدمة حافلة، آتى فيها على ذكر ما ورد في شأن مصر في القرآن الكريم والحديث الشريف، واتبع ذلك بذكر تاريخ مصر في عهدها القديم على حسب ما كان شائعا في عصره، ثم تناول الفتح الإسلامي وما صاحبه من وقائع وأحداث، ثم أورد معاجمه التاريخية في المجلد الأول، بينما أورد في المجلد الثاني سلاسل مفصلة لولاتها، وقضاتها، ووزرائها، وخططها، ومدارسها وجوامعها، ونيلها وبساتينها، وعادات أهلها، وما اشتهر من الحوادث الغريبة والأوبئة في تاريخها، وختم بمختارات من الشعر حول أزهار وفواكه مصر.

أشاد الورتيلاني بالكتاب وبما فيه في وصف مصر، وذكر أخبارها خاصة، فقال:"وأخبار مصر وما فيها من العجائب وجميع ما يحتاج إليه من أحوالهم مُستوفَى في كُتُبٍ تواريخها فلا نطيل بكثير منه" وقوله أيضا في

---

[1]- الورتيلاني، ج2، ص:5-6.

[2]- نفسه، ج1، ص:413.

نفس الإطار:" وأحسن كتاب جامع في أخبار مصر والقاهرة للجلال السيوطي، فإنه مفيد جدًّا، ومن أجاد مطالعته لم يفته من أخبارها إلا المعاينة، أو أشياء قليلة من العوارض المشخّصات"[1].

- **المسالك والممالك،** لأبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو البكري الأندلسي(ت487ه/1094م)، هو كتاب جامع بين التاريخ والجغرافيا، يعد من أهم المصادر التاريخية لجنوب غرب أفريقيا وشمال غربها، حيث يقدم وصفا دقيقا لطرق التجارة في الصحراء الكبرى بإفريقيا، كما يصف فيه البكري جغرافية الأندلس وأوربا وأفريقيا الشمالية.

بدأ البكري كتابه بمقدمة تاريخية تدور حول مبدأ الخلق وتاريخ الأنبياء من آدم عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم، ثم انتقل إلى الحديث عن المعتقدات الدينية عند الأمم، فالحديث عن البحار السبعة وأهم الأنهار، ويتطرق إلى التراث الشعبي الموروث لعدد من الشعوب في أرجاء العالم، وأبرز العادات والتقاليد الغريبة، رافضا ما يتنافى مع العقل والمنطق. ينقل عنه ما تعلق بمراحل ركب الحجيج بالتراب المصري خاصة، مع ملاحظة، إنه كلما نقل عنه في موضع معين إلا وأردف كلامه بأبيات شعرية، من ذلك ما يذكره وهو بصدد الحديث عن المراحل من منطقة"المويلح" إلى"الوجه" ما نصه: "قال الشيخ البكري، ثم سرنا من"المويلح" إلى"دار السلطان"، التي هي لعرب البادية أوطان، ونزلنا بوادي"سلمى"و"كفافة"، وحصل مزيد الأمن بعد المخافة، وخلف جبلها الغربي البحر الأصيل، وبجانبه القسطل البرّيّ، وهو كثير طويل كالنّخيل، وحفائر مائها عذب، يشرب منه الغادي والوارد، قال الشاعر[2].

إن وادي سلمى هيّ هيج	حيث فيه قبر الولي المسمّى
صاحب السّر والمعارف مرزوق	الكفافي طاب روحا وجسما

كتاب مباهج الفكر ومناهج العبر، لأبي إسحاق برهان الدين محمد بن إبراهيم بن يحي بن علي المعروف بالوطواط (ت718ه/1318م)، يعتبر إحدى موسوعات العلوم الطبيعية والجغرافية المكتوبة في العصر المملوكي، إلا إن الطابع الأدبي غالب عليه. قسمها الوطواط إلى أربعة فنون، هي:الفلك والجغرافيا والحيوان والنبات، وقسم كل فن إلى تسعة أبواب، ثم اختصره في كتاب سماه"نزهة العيون في أربعة فنون". تناول فيه الوطواط معظم العلوم البشرية المعروفة في عصره.

ففي المجال الأدبي، اهتم بالأنساب والتواريخ والجغرافية، بما فيها من وصف الأقاليم وذكر مسالك البلدان، أما في المجال العلمي، فاهتم بفروع العلوم الطبيعية كالنبات والحيوان والفلاحة والمعادن والجواهر،

1- نفسه، ج2، :28-29.

2- نفسه، ص:191.

بالإضافة إلى المعارف الفلكية والكونية. ينقل عنه قوله:" ومن عجائب مباني أرض مصر كما قال صاحب مباهج الفكر: منارة الإسكندرية وهي مدينة مبنية بحجارة مهندمة مطلية على قناطير من زجاج، والقناطير على ظهر أسطوانات من نحاس، وفيها نحو ثلاثمائة بيت بعضها فوق بعض، تصعد الدابة بحملها إلى سائر البيوت من داخلها، وللبيوت طاقات ينظر منها إلى البحر"[1].

- مختصر الجمان في أخبار أهل الزمان(الجمان في أخبار الزمان)، لمحمد بن علي الحاج الشطيبي الأندلسي (ت963هـ/1555م)، وهو من التواريخ العامة، كما إن الشطيبي ألف عشرات الكتب والرسائل في مختلف الموضوعات الفقهية والصوفية والتاريخية والفلكية والفلاحة[2].

نقل عنه الورتيلاني في المجال التاريخي القصصي خاصة في فتح مصر، يقول عن ذلك:"ومن عجائب ما وقع في فتح مصر في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما ذكره صاحب عقود الجمان في مختصر أخبار الزمان للعلامة الشيخ محمد الشاطبي ما نصه: ويذكر عادة المصريين في إلقاء جارية حسنة بحليها وحللها ليفيض النيل زمن الجفاف، فأبطلها الإسلام على يد الخليفة عمر بن الخطاب في زمن ولاية عمرو بن العاص رضي الله عنهما"[3].

شرح الشقراطسية، لمحمد بن يحي بن علي بن عمر الشقراطيسي المعروف بابن الشباط التوزري (ت466هـ/1074م)، العالم الرياضي، والأديب المؤرخ، كان فذا في زمانه، آية بين أقرانه، اختص بمعرفة اللسان من لغة ونحو وصرف وإعراب وبيان، حافظا مجيدا، ذا غوص على غرائب المعاني، جيد النظم، وُلِيَ قضاء توزر فحُمِدت سيرته وشُكِرت طريقته، ترجم لنفسه في شرحه لقصيدة الشقراطيسي المسمى"حلة السمط" فقال:"إن أصله من روم توزر الذين أسلموا ومنّ الله عليهم بهذا الدين القويم"، اقتبس عنه في موضع واحد فقط، قوله:"وذكر شارح الشقراطسية الشيخ محمد بن علي"برقة" فقال: أمّا وصفها، فقال البكري رحمه الله: واسم برقة بالرومية الإغريقية "بنطابلس" تفسيره: خمس مدن...وأمّا فتحها، فاعلم إن عمرو بن العاص افتتحها في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذلك سنة إحدى وعشرين للهجرة"[4].

- العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، لعبد الرحمن بن محمد ابن خلدون،أبو زيد ولي الدين الحضرمي الأشبيلي(ت808هـ/1406م)، يقع الكتاب الضخم في أربعة أقسام، اشتمل القسم الأول على مقدمة في فضل علم التاريخ، وفي طبيعة العمران والخليقة،

1- نفسه، ج3، ص:165-166.

2- محمد حجي، جولات تاريخية، المرجع السابق، ص:140.

3- الورتيلاني، ج3، ص:185.

4- نفسه، ج1، ص:420.

ألفه سنة1377م، تناول فيه جميع ميادين المعرفة من الشريعة والتاريخ والجغرافيا والاقتصاد والعمران والاجتماع والسياسة والطب،كما تناول بالدراسة تطور الأمم والشعوب، ونشوء الدولة وأسباب انهيارها مركزا في تفسير ذلك على مفهوم العصبية.

ينقل عنه فيما يخص تاريخ مصر فيُصدِقه ويُثبتُ كلامه بالدليل التاريخي، وعن ذلك يقول:"وقد ذكر ابن خلدون: إن مصر لا بد إن تشتمل على طائفتين، إحداهما في غاية العُتُوِّ والاستكبار، والأخرى في غاية الذّل والاستحقار، وقد صَدَق، لقد كان بها فرعون وملؤه، فلم ينته دون إن قال: إنا ربكم الأعلى، وبنو إسرائيل إذ ذاك مستضعفون في الأرض...ثم لم تزل كذلك، وإنها في زماننا بل قبله بأزمان لَعَلىَ ذلك الوصف، وينقل عنه في موضع آخر قوله:"وقد ذكر ابن خلدون في كتابه"منتهى العبر":إن بعض ملوك المغرب سأل بعض العلماء مّمن حجّ عن مصر، فقال له:أقول لك فيها قولا وأختصر: من المعلوم إن دائرة الخيال أوسع من دائرة الحسِّ، فغالب ما يتخيله الإنسان قبل رؤيته إذا رآه وجده دون ما يتخيلُ، وفي مصر بخلاف ذلك، كلما تخيلت فيها فإذا دخلتها وجدت أكثر من ذلك"[1].

– **المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار المعروف ب"الخطط"**، لتقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي المقريزي(ت845هـ/1442م) الذي تمتع بشخصية مرموقة بين سائر المؤرخين المصريين، من حيث دقته في الرواية، وسعة دائرة أبحاثه ودراساته، واهتمامه الفائق بالجانب الاجتماعي، والإحصائيات السكانية التاريخية. يدخل موضوع هذا الكتاب في مجال فن كتابة الخطط الطبوغرافيا، وهو فرع من الجغرافيا التاريخية الإقليمية، تناول فيه مؤلفه الظواهر التاريخية والعمرانية والطبوغرافية لمدينة القاهرة في العصر الإسلامي، كما يقدم عرضا شاملا لتاريخ مصر الإسلامية منذ الفتح الإسلامي حتى القرن السابع الهجري/ الخامس عشر الميلادي.

يعتبر هذا المؤلف من أجّل تآليف المقريزي وأشهرها، بلغ فيه ذروة الافتتان والاستيعاب والروعة، قدم له بمقدمة جليلة تعد من نفائس المقدمات وسماها بالرؤوس الثمانية، وأفاد إنها عادة القدماء، ومن نوادره: موجز تاريخ الأقباط في مصر منذ ولادة المسيح عليه السلام حتى آخر رجب عام755م[2].

نقل عنه الورتيلاني وهو يحاول اقتفاء أثر قرية أيلة القديمة التي اختلف المفسرون في تحديدها، يذكرها زمن خروج ركب الحجيج من مصر ونزوله بمناطق الحمراء وعجرود والسويس، وعن ذلك يقول: وفي خطط المقريزي:إن "أيلة" مدينة في شاطئ البحر المالح، سميت ب:أيلة ابنة مدين بن إبراهيم عليه السلام، وقد كانت مدينة جليلة القدر، بها التّجارة الكبيرة، وأهلها أخلاط من النّاس، وكانت حدّ مملكة الرّوم في الزمان

[1]- نفسه، ج2، ص:23-26.

[2]- حسن عبد الوهاب، دراسات عن المقريزي، الهيئة العامة للتأليف والنشر، القاهرة، مصر، 1971، ص:49-79.

الفائت...وبين أيلة وبين القدس ستّ مراحل، والطّور الذي كلّم الله تعالى-عليه موسى عليه الصلاة والسلام- على يوم وليلة من أيلة، وكانت في الإسلام مترل بني أمية..."[1].

- **رحلة التيجاني،** لأبي محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التيجاني(ت717ه/1317م)، تعتبر هذه الرحلة من غرر المصنفات التونسية، ومن أهم المصادر في وصف البلاد الإفريقية، والتعريف بعمرانها في أوائل القرن الثامن الهجري[2] وهو أحد القرون الغامضة الأنباء في تاريخ تونس الاجتماعي والسياسي لندرة النصوص، كما تتمثل فيها صورة البلاد التونسية من حيث عناصر السكان وهيئتهم الاجتماعية والاقتصادية، علاوة على تفصيل جغرافية القطر وتاريخه، وتراجم مشاهير أبنائه، مع التعرض للنباتات الخاصة بكل جهة من جهاته. ومن طرائف هذه الرحلة ما أودعه من تفاصيل مما يرد عليه من رسائل ومكاتبات، ومما أودعه أيضا من وثائق تاريخية بنصها الأصلي، ومن أهمها ذلك السجّل الصادر عن الحسن بن علي آخر الأمراء الصنهاجيين المعلن بانتصاره على جيش النورمانديين في وقعة الديماس بالساحل التونسي.

ينقل الورتيلاني من هذه الرحلة في موضوع واحد فقط، وهو تحديد جغرافية المدائن والقرى بطرابلس الغرب خاصة عندما يربط الأحداث الواردة في رحلة الدرعي ويتممها برحلة التيجاني، قوله:" قال أحمد بن ناصر الدرعي في رحلته ما نصه:أقول"تاجورة" بوزن "باكروة"، قال التيجاني:"وهي قرية عامرة، وبها قصر متّسعُ يجتمع على دور كثيرة، وفي وسط هذا القصر حصن أقدم منه بناء"[3].

أهمية الرحلة وقيمتها العلمية:

إن كتاب"نزهة الأنظار" هو في الحقيقة كتاب في التاريخ، حيث يعد من بين أكبر الأعمال التي أنجزها الورتيلاني في عصره على خلاف معاصريه من الرحالة، وهو يستوعب أحداث وأخبار لثلاث حجات قام بها المؤلف خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري/النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي، كان المؤلف يدّون ويسجّل كل ملاحظاته مما شاهده أو سمعه في أوراق وكتيبات، وبعد عودته إلى الجزائر، شرع في ترتيبها وتنظيمها وكتابتها، فتحولت رحلته الحجازية العلمية إن صح التعبير إلى أدب مكتوب على شكل

---

[1]- الورتيلاني، ص:177.

[2]- طبعت هذه الرحلة لأول مرة عام1345د/1927م من قبل المستشرق وليم مارسي، بعدما وقع اختيارها من قبل اللجنة التي شكلتها إدارة المعارف في تونس عام1923م لتحقيق المخطوطات ونشرها وترجمتها إلى الفرنسية، وفي عام1377د/1958م تولى حسن حسني عبد الوهاب إعادة طبعها، ولندرة هذه الرحلة فإن محمد الوزير السراج أتى على غالب الرحلة وادمجها في كتابه"الحلل السندسية في الأخبار التونسية".

[3]- الورتيلاني، ج1، ص:341.

مذكرات يومية، تناول فيها المؤلف بالوصف والتقرير انطباعاته ومشاهداته خلال مشوار الرحلة، سائراً على نهج ابن جبير الذي أصّل لهذا اللون من الأدب[1].

يكتسي كتاب "الرحلة الورتيلانية" أهمية كبيرة نظرا لقيمة المعلومات التي احتواها، فهو يقدم صورة شبه مكتملة عن الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي ميزت عصره، فضلا عن أخبار تعلقت بتاريخ المغرب العربي عامة، وبعض بلدان المشرق العربي التي زارها كمصر والحجاز خاصة. فالرحلة زاخرة بالكثير من المعلومات التي تهم المؤرخ والجغرافي وعالم الاقتصاد وعالم الاجتماع. ولا شك إن المتمعن في محتويات الرحلة يجد بعض الاختلافات بينها وبين الرحلات المغاربية الأخرى، وذلك راجع لتفاوت درجة الملاحظة والاهتمام ببعض النواحي دون الأخرى، ومن هنا تظهر لنا أهميتها في النواحي التالية:

القيمة العلمية والأدبية للرحلة الورتيلانية:

يعد مؤلف الرحلة مصدرا أساسيا لدراسة البلدان الواقعة في طريق ركب الحجيج (تونس، ليبيا، مصر، والحجاز، بما فيها المدن الجزائرية) التي مر بها خلال رحلته، كما يفيد كثيرا في دراسة المغرب العربي خاصة في العصرين الوسيط والحديث، نظرا لاعتماده أولا على الأخذ والعطاء بمجالسة كبار العلماء، والرواية عنهم، والحصول على إجازاتهم العلمية في المراكز التي وصل إليها، وثانيا على مصادر تعود لتلك الفترة، ومنها كتاب"النبذ المحتاجة في ملوك صنهاجة" لابن حمادو الصنهاجي، وكتاب" عقود الجمان في مختصر أخبار الزمان" للشاطبي، وكتاب" شرح الشقراطسية" لابن الشباط التوزري، وكتاب"الأدلة السنية النورانية على مفاخر الدولة الحفصية"، وبهذا أصبح الورتيلاني رسول علم ومعرفة، وحلقة اتصال، وتبادل فكري وعلمي بين المشرق والمغرب الأوسط. فمن هذه الناحية، تعد الرحلة الورتيلانية من أهم الكتب التي تكشف عن الأصول والمنابع التي استقى منها الورتيلاني علومه، كما تعد من أهم المصادر عن الحركة العلمية في الحجاز ومصر.

إذا اعتبرنا إن الرحلات الحجازية ظاهرة تاريخية واضحة وجلية، فإنها أيضا ظاهرة أدبية وفن قائم بذاته على حد تعبير صاحب كتاب"أدب الرحلة عند العرب"، وهذا ما ترصده لنا الرحلة الورتيلانية التي تمثل لوحات فنية، ومشاعر حميمة وخلجات وجدانية فياضة،خواطر وانطباعات وصور ترصد المرئيات، حدس شاعري وابتكاراتي، وجمل في التعبير، خيال يعانق الواقع ويوقظ الذاكرة، فيأتي بالممتع والمدهش، مرايا تتعاكس، أماكن جديدة تستكشف يرتادها الحجاج المغامرين العاشقين للطبيعة، وكأنهم يتأملون أنفسهم في مرايا...تلك هي رحلة الورتيلاني. ومن هنا يبدأ الاكتشاف والتغيير، اكتشاف المكان الذات واكتشاف الذات سعيا وراء فهم حقيقي لها. هكذا تنبثق الرؤى من معاشرة المدن والأنهار والجبال، وترتسم في صياغات جديدة

[1]- ينظر: كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تر: صلاح الدين هاشم، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، لبنان، 1987م، ص:293 وما بعدها.

للوجدان والنظر والتعبير في نصوص حية عابرة للزمان، كما هي عابرة للمكان، فالرحلة سفر في الأرض وسفر في المخيلة، وبالتالي فإن نصوصها مغامرة في اللغة وفي الوجود[1].

القيمة الاجتماعية للرحلة الورتيلانية:

شكلت الناحية الاجتماعية جانبا لا يستهان به في كتب الرحالة المغاربة، لأنهم كانوا يختلطون بأفراد المجتمعات، ويجالسونهم، ويتحدثون إليهم، مما جعلهم على إطلاع واسع بأحوالهم وعاداتهم وأنماط سلوكهم، والرحلة الورتيلانية سجل حافل بأخبار الناس وعاداتهم وتقاليدهم، وعلى الأخص لأهل الحجاز، حيث أنصب الورتيلاني على إظهار الجوانب الحسنة للمجتمع الحجازي وباركها، والمشهد الذي يذكره عن أتباع الشيخ العيدروسي رضي الله عنه السالكين طريقته، نموذجا فيقول:" يعملون هنالك سماعاً وقراءة وتلاوة، ويجتمع فيه خلق كثير، وقد فرش المشهد كلّه وما حوله، وأعدّت للحاضرين أطعمة وأشربة، ويستكثرون هنالك من المصابيح، فهو من المشاهد المشهورة بمكة، والمزارات المعظّمة"، كما أظهر الجوانب السيئة وأنتقدها، ومن بين المشاهد التي أنكرها، قوله:"ومن جملة خرافاتهم المتعلّقة بتلك اللّيلة في ذلك: إنهم يأخذون معهم نوى التمر، فيدفنونه بالأرض في ذلك الجبل تلك الليلة، ويزعمون إن من دفن شيئا حصل له في تلك السّنة بعدده ريالا أو دنانير"[2].

نستنتج، إن انتقاداته عنيفة نوعا ما كانتقادات العبدري تارة، ومؤيدة داعية بإصلاح الأحوال كدعوة ابن جبير تارة أخرى، ولكننا وفي كل الحالات نقف عند ما يذكره عن البقاع المقدسة(مكة المكرمة والمدينة المنورة) باعتبار إن رحلته حجازية عكست رؤاه، ورسّمت وجدانه، وعبّر عن ذلك، بقوله:"فدخلنا مكة فلم نغادر في النفس ترحة، وأزالت عن الجفون كل فرحة، فدخلناها في زحمة عظيمة كادت النفوس إن تزهق، غير إن سرورها بالوصول إليها خفّف بعض الألم، بل قد زال التعب والنصب، كان النفوس في وليمة عظيمة لا يعلمها وما فيها من الفرح إلا من منحه الله تلك النعمة"[3].

بقي في الأخير، الإشارة إلى ملاحظة، وهي إن المنهج نفسه اتبعه الرحالة المغاربة والجزائريون، ومنهم محمد الحضيكي السوسي (ت1189ه/1775م)، والحسين الورتيلاني، بحيث أوردوا جملة من الأخبار في جوانب معرفية مختلفة، تاريخية وجغرافية، وقضايا فقهية، وبعض الظواهر الاقتصادية والاجتماعية، والعادات والتقاليد التي لاحظوها أثناء رحلاتهم، ومما أستوقفني مثلا، هو رصد كلا من محمد الحضيكي وحسين الورتيلاني لظاهرة خروج النساء بمنطقة عين ماضي بالأغواط في الجزائر إلى الأسواق للتجارة والاختلاط

1- حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، بيروت، لبنان، 1403ه/1983م، ص:8.

2- الورتيلاني، ص:353-354.

3- الورتيلاني، ج1، ص:259.

بالرجال، واستنكارهم لها، وهو الأمر الذي يدعونا إلى احتمال إن الرجلين التقيا في إحدى الرحلات، خاصة وإنهم عاشوا في نفس الفترة الزمنية[1].

المبحث الثالث: رحلة ابن حمادوش(لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال)، لعبد الرزاق بن حمادوش الجزائري

اسمه ونسبه:

هو أبو الحسن عبد الرزاق بن الحاج محمد بن امحمد المعروف بأن حمادوش الجزائري الدار، الأشعري عقيدة، المالكي مذهبا، الشريف نسبا، مؤرخ، نسابة، وطبيب[2]

وعن نسبه يذكر شهادة شيخه أحمد الورززي الذي كَاتَبَ القائم بمصالح الجباية بمرسى تطوان الذي تعرض لابن حمادوش وطلب منه دفع المكْس على سلعه، يدعوه إلى عدم التعرض له قائلا:"إن هذا اجتمعت فيه ثلاث خصال، وهي:

النسب، فهو رجل شريف من آل بيت النبوة، ورجل عالم، وقلة ذات اليد [3]

---

[1]- للمزيد من المعلومات ينظر: محمد الحضيكي، الرحلة الحجازية، ضبط وتعليق: عبد العالي لمدبر، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث المغربي، ط1، المغرب الأقصى، 1432د/2011م، ص:186، والحسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج1، منشورات عكاظ، الرباط، المغرب الأقصى، 1990، ص:540.

[2]- عبد الرزاق ابن حمادوش، لسان المقال في النّبأ عن النّسب والحَسب والحال، تق وتح وتع: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص:29، وكارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، المصدر السابق، ومحمد داود، تاريخ تطوان، مراجعة: حسناء محمد داود، جمعية تطوان أسمير ومطبعة الخليج العربي، ط1، تطوان، المغرب، 1431د/2010م، ص:37، وعبد السلام ابن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، بنان، 1418د/1997م، ص:248، وخالد البلوي، تاج المفرق تحلية علماء المشرق، نشر وتحقيق: الحسن السائح، مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعية، فاس، المغرب الأقصى، 1964، ص:49، ابن الكردبوس، الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تح: صالح الغامدي، ج1، منشورات الجامعة الإسلامية، ط1، المملكة السعودية، 1429د/2008، ص:69، وعادل نويهض، المرجع السابق، ص:365، وخير الدين الزركلي، الأعلام، ج3، المرجع السابق، ص:352، أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف...ص:471، مجلة العرب، السنة15، ع7و8، محرم -صفر1401ه/ نوفمبر-ديسمبر1980م، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، ص:715، تاريخ الطب عند العرب، مجلة مجمع اللغة، ع5، كانون الثاني1343د/1925م، مدونة لسان العرب بدمشق، سوريا، ص:322، والمخطوطات المصورة التاريخ2 القسم الرابع، ص:355، وبشير ضيف، فهرسة معلمة التراث الجزائري بين القديم والحديث، مراجعة:عثمان بدري، ط2، منشورات ثالة، الجزائر، 2007، ص:322، عثمان بوحجرة، الطب والمجتمع في الجزائر خلال العهد العثماني1519-1830، مقاربة احتماعية، مذكرة ماجستير، جامعة وهران، 2014-2015، ص:28).

Mostefa, khiati, histoire de la médecine en Algérie-de l'antiquité à nos jours-la médécine dans l'Algérie ottomane du xv au début du xix siècle, dar Houma, anep, 2012, Algérie, pp: 101-177.

[3] -Mostefa, khiati, histoire de la médecine en Algérie-de l'antiquité à nos jours-la médécine dans l'Algérie ottomane du xv au début du xix siècle, dar Houma, anep, 2012, Algérie, pp :101-177.

كما يدخل نفسه أيضا في جملة الأشراف العلويين، حينما يتقدم بقصيدة إلى السلطان المغربي مولاي عبد الله، يقول في احد أبياتها: [1].

وقلت لعلي أدرك العز عنده	واترك أولادي وأهلي بذي قفر
فنعم النزيل لا يخيب نزيله	ولا يشتكي فقرا ولا أزمة الدهر
كذلك هم دار النبوة كلما	ألم بهم شخص تهيأ لليسر
هم اللؤلؤ المكنون في صدف التقى	وإنهم الياقوت فينا إلى الحشر

من خلال ذلك يتضح بأن ابن حمادوش حرص حرصا كبيراً على إثبات نسبه، واعتبر ذلك من مقاصد الإسلام الكلية التي لا تستقيم الحياة بدونها، وهي حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل، وحفاظاً على مكانته وكرامته.

مولده ونشأته:

ولد عبد الرزاق ابن حمادوش سنة1107ه/1695م بمدينة الجزائر، وهو ما يذكره المؤلف بنفسه، بقوله:"ثم الأجه أحمد عام1107 سبعة ومائة وألف. وفي هذه السنة في رجب كانت ولادتي"[2]، كما يشير في العديد من المناسبات إلى ذلك حينما يُذكِّر بسنّه، قوله: "إلى يوم الخميس ثالث صفر الموافق ثالث عشر فبراير تمت لي خمسون سنة عجمية، وافتتحت سنة51عجمية من ولادتي، وفقني الله للهدى"[3]. كما يستعمل ابن حمادوش هذه العبارة للدلالة على مولده:"وأول درجة من الساعة الرابعة من افتتاح سنة48 ثمانية وأربعين عجمية من ولادتي قبل غروب الشمس بثلاث ساعات، اعتدالية من يوم الأحد، فيسبق افتتاح سني العجمية على سنة العرب بثلاث ساعات. وهذه نصبتها، وضعت لتحويل الشمس لنقطتها لوقت ولادة كاتبه لمضي سبعة وثلاثون درجة ونصف من زوال يوم الأحد فيكون لمضي عشرة أدراج وسدس من ساعة الزهرة، ومعنى ذلك إنه ولد في سنة1107ه/1695م[4]

درس وأتم تعليمه الأول بوطنه، كما حصل على قدر كبير من العلوم الشرعية من معاصريه، قراءةً وإجازةً، في الفقه والأدب والتاريخ والتصوف، غير إنه كان ميالا للجانب العلمي، فدرس العلوم الطبية

ابن حمادوش، لسان المقال، ص:112،

Gabriel,Colin, A bderrezaq El-jezairi, un médecin arabe du xii siècle de l'Algérie, Imprimerie Delord.(-Boehm et martial éditeurs du Montpellier médical, Montpellier, 1905,p :37)

[1]- ابن حمادوش، ص:117.

[2]- ابن حمادوش، لسان المقال...ص:226.

[3]- نفسه، ص:253.

[4]- نفسه، ص:251.

والرياضيات والفلك، ولهذه الميول العلمية التي ميزته، واسترساله في الكتابة عنها، جعلت مؤلفاته ذات طابع مخالف لما شاع عند معاصريه الذين عرفهم كمحمد ابن ميمون، وأحمد بن عمار، والمفتي ابن علي، ومحمد الطيب بن محمد الفاسي مثلا.

تزوج مرتين، الأولى من ابنة عمه فاطمة بنت الحاج أحمد الدباغ أوائل شعبان عام1125ه/1713م، أما الثانية، فكانت من زهرة بنت محمد الصفار أوائل شوال من عام1153ه/1740م، التي أنجبت له ولدان الحسن والحسين، مارس حرفة التجارة، واشتغل ببعض الوظائف، وعن ذلك يقول عن نفسه:"إنا عشاب وصيدلاني وطبيب في بعض الأمراض"، كما تقلد إحدى أهم الوظائف في الجامع الكبير بالعاصمة، وهي تدريس البخاري، وهو ما يؤكده حينما يقول:"وفي تاسع شعبان أذن لي في إن أرجع إلى وظيفي من حضور البخاري[1].

تنقل كثيرا منذ العشرينات من عمره، فزار بلدان المشرق العربي في رحلات، منها الأولى التي ابتدأها بأداء فريضة الحج سنة1125ه/1713م، والثانية سنة1130ه/1718م، كما رحل إلى المغرب الأقصى في عدة مناسبات، منها رحلات سنة1145ه/1732م، وسنة1156ه/1743م، حيث سجل ملاحظاته وأجازاته وأحكامه ومشاهداته في كتاب رحلة أسماه:"لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"، قال عنه أبن سودة: يقع في مجلدين، أطال فيه في وصف المغرب، وبلغني إن منها نسخة بالخزانة الكتانية بفاس[2].

تمثلت ثقافته في ثقافة العصر(العلوم الشرعية واللغوية)، ولكنه انفرد عنهم بالتخصص في الجانب العلمي، ومَالَ إلى العلوم العقلية وخاصة الطبية منها، فقد ألف في الطب والحساب والفلك والرياضيات والمنطق، كما لم ينقطع عن الاهتمام بالفقه والتصوف والأدب والتاريخ[3].

أقوال العلماء فيه:

يقول عنه صاحب كتاب"الزاوية الدلائية" في موضعين يكاد خطيهما يتوازى، ما يلي:"العلامة الكبير، الأديب البارع، المؤلف الشهير، كان أعجوبة الزمان في القدرة على الكتابة المسجعة المنمّقة، وقرض الشعر المحلي بأنواع البديع، كما كان فقيها محدثا، إلا إن يقول: الحفاظ ثلاثة، حافظ ضابط ثقة، وحافظ ضابط غير ثقة، وحافظ لا ضابط ولا ثقة، ويرتب ابن حمادوش من الصنف الثاني[4].

---

[1]- نفسه، ص:121-164.

[2]- عبد السلام ابن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان، 1418ه/1997م، ص:248.

[3]- ينظر:أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة، ابن حمادوش الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص:39.

[4]- محمد حجي، الزاوية الدلائية...، المرجع السابق، ص:115.

وقال عنه لوسيان لوكليرك:" إنه آخر من مثّل الطب العربي"[1]

بينما يقول عنه صاحب كتاب الأعلام:"عشاب، فقيه، رحالة من أهل الجزائر، قام برحلات إلى المغرب، وأشار في رحلة أخرى إلى إنه زار بلاد العرب والعجم والترك، وروى في مدينة رشيد بمصر سنة1161ه، وصنف كتبا"[2].

مكانته بين علماء عصره وممن جاء بعده:

حتى وإن كان ابن حمادوش انفرد عن معاصريه بالتخصص في الجانب العلمي، وإن موضوعاته انصبت على المسائل الطبية والحسابية والفلكية، فإن ثقافته هي ثقافة معاصريه، فقد دَرسَ العلوم الشرعية واللغوية، وأخذ العلم أيضا قراءةً وإجازةً، إلا إن كتاباته لم تكن معروفة لمعاصريه أو للجيل الذي جاء بعدهم، ورغم معرفته الشخصية للعديد من العلماء الجزائريين الذين عاصرهم خاصة الرحالة، فإنهم لم يذكروه في كتاباتهم، أو قل، ذكرا سطحيا لا يتعدى الإشارات البسيطة.

من بين العلماء الجزائريين الذين عرفهم ابن حمادوش معرفة شخصية أحمد بن عمار، الذي لم يذكره لا في الجزء المنشور من رحلته"نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب"، ولا في المجموعة الشعرية التي يفترض إنها جزء من كتابه المفقود"لواء النصر في فضلاء العصر"، ولكن بقدر ما كان حريصا على الترجمة لغيره، بقدر ما أهمل نفسه وغيره على حد تعبير أبو القاسم سعد الله، كما إن حسين الورتيلاني المعاصر لابن حمادوش، وصاحب الرحلة الورتيلانية لم يتعرض لا من قريب ولا من بعيد لابن حمادوش في مؤلفه"نزهة الأنظار"، ونفس الشيء يقال عن أبي راس الناصري الذي إنتقل إلى مدينة الجزائر واجتمع بعدد من هؤلاء العلماء، وناقشهم وأكرموه، لم يذكر شيئا بخصوص ابن حمادوش، ولا ابن المفتي بخصوص تقاييده.

للعلم، فإن الكثير من الكتاب والمهتمين بآثار ابن حمادوش، سواء من جيل النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري(التاسع عشر الميلادي)، وسواء من المسلمين المغاربة أومن الأوربيين، فقد اهتموا اهتماما بالغا بما كتب ابن حمادوش، منهم عبد الحي الكتاني الذي وجد في رحلته بعض الإجازات والأسانيد، ومحمد داود صاحب كتاب"تاريخ تطوان" الذي أهتم بالرحلة لأنها احتوت على أخبار هامة عن تاريخ مدينة تطوان[3].

وإذا كان هؤلاء العلماء اهتموا برحلة ابن حمادوش لما فيها من أخبار سياسية واجتماعية ودينية، فإن الكُتاب الفرنسيين خاصة في العهد الاستعماري اهتموا بآثاره العلمية، لأنه ألف في الطب الشعبي العربي،

---

[1] - Leclerc lucien, histoire de la médecine arabe, édition du ministère des habous et des affaires islamiques, Rabat, Maroc, 1980, Tome2, p: 310.

[2] - الزركلي، الأعلام...، ج3، المرجع السابق، ص:352.

[3] - ابن حمادوش، الرحلة...المصدر السابق، ص:73.

فتناولوها بالدراسة والتحقيق، ومنهم غابريال كولين[1] ولوسيان لوكليرك[2].الذي ترجم الجزء الخاص بالأعشاب إلى اللغة الفرنسية والمعروف ب"كشف الرموز"، ثم درس حياة ابن حمادوش وعرض أفكاره وملاحظاته وعلق عليها. ويبقى إن نشير في الأخير إلى الدور الكبير الذي قام به السيد رودوسي قدور بن مراد التركي صاحب المطبعة الثعالبية بالجزائر الذي نشر الجزء الرابع"كشف الرموز" من تأليف ابن حمادوش الذي أسماه"الجوهر المكنون من بحر القانون"، وبفضل ذلك أصبح ابن حمادوش معروفا عند العلماء المسلمين والأوربيين على السواء.

شيوخه:

يذكر ابن حمادوش شيوخه الذين أخذ عنهم بمزيد من الإجلال والإكبار والتعظيم، والذين يعتبرهم سنده، محققا أثر ابن المبارك في قوله:"طالب العلم بلا سند كراقي السطح بلا سلم"، وكقول الشافعي" الذي يطلب العلم بلا سند كحاطب ليل يحمل حزمة الحطب وفيها أفعى وهو لا يدري"، فقد رتب قائمة مرتبة ترتيبا عدديا لشيوخه، وذكر ما قرأ عليهم، ومن أجازه منهم، ومدة ملازمتهم، وكل ذلك تبركا بهم، وتعلقا بأذيالهم وسببهم، وتأكيد للانتساب إليهم بالنسج على منوالهم على حد تعبيره، واضعا أيضا قول الإمام النووي نصب عينيه الذي يقول فيه:"شيوخ الإنسان في العلم آباء في الدين، ووصلة بينه وبين رب العالمين، فيقبح به جهلهم، وكيف لا يقبح جهل الأنساب، وهم الوصلة بينهم وبين ربه الكريم الوهاب، مع إنه مأمور بالدعاء لهم وبرهم وذكر مآثرهم والثناء عليهم"[3].

ومما لاحظناه إن ابن حمادوش يكثر من الاستطراد إلى درجة الإطناب في نعت شيوخه العلماء بشتى الأوصاف، وإن معظم العلماء الذين أخذ عنهم من المغرب الأقصى، والذين حلاهم بأوصاف وجدناها تقريبا نفسها في بعض المصادر التي عُدْنا إليها، ولعل أهمها وأكبرها، موسوعة تراجم أعلام المغرب لمحمد حجي والتي جمعت عدد كبيراً من العلماء تثبت ذلك، ومن بين شيوخه ما يلي:

-أبو عبد الله محمد بن الشيخ الإمام الشهير بالبركة أبي محمد سيدي عبد القادر أمحمد البناني الفاسي(ت1116ه/1705م) يذكره أولا، وأولى شيوخه بالتقديم، قائلا عنه:" الشيخ الإمام حسنة الليالي

1- غابريال كولين 1825-1896، طبيب بيطري، وعضو الأكاديمية الطبية، تحصل على شهادة الدكتوراه في الطب بجامعة مونبلييه عام1905م، ودكتوراه في الآداب بباريس عام1911م، درّس اللغة العربية المعاصرة بجامعة الجزائر، من كتاباته: عبد الرزاق الجزائري الطبيب العربي في القرن الثاني عشر الهجري.

2- لوسيان لوكليرك 1816-1893 طبيب عسكري، مترجم، مؤرخ، مارس طب الجراحة بالجزائر سنوات1840-1844، واهتم بتاريخ الطب العربي الإسلامي المشرقي والمغاربي على السواء، من أهم كتاباته: "تاريخ الطب العربي" و"مهمة طبية في بلاد القبائل.

François, Pouillon, dictionnaire des orientalistes de langue françaises, éd, Karthala, paris, 2008.

3- محي الدين النووي، منهاج الطالبين وعمدة المفتين، اعتنى به: محمد محمد طاهر شعبان، دار المنهاج للنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان، 1426ه/2005م، ص: 231.

والأيام، نجم الأمة، وتاج الأئمة، العارف بالله، والدال على الله، الذي ربأني وأحسن بي التربية، وغذاني بنفائس علومه ودقائق فهو مه وأحسن في التغذية، مذكر الغافل والناسي سيدي ومولاي، قرأت عليه صحيح البخاري، وبعض تفسير القرآن، وجميع الحكم العطائية، وكتاب دلائل الخيرات، وكتاب الاكتفاء للكلاعي، وبعض صحيح مسلم، وجميع الشمائل، وبعض سنن أبي داود والترمذي، ومختصر الشيخ خليل، والرسالة وتهذيب البردعي، ومختصري ابن الحاجب الأصلي والفرعي، وبعض شرح المحلي على جمع الجوامع وهو الثلث الأخير منه، وألفية العراقي في ألقاب الحديث، وأحزابا وأذكارا وأوراد، وغير ذلك مما هذا الذي ذكرته قل من كثُر...كان أول يوم حضرت درسه من بعد صلاة الصبح إلى طلوع الشمس، وكان يدرس بجامع زاوية سيدي احمد بن ناصر، وجدته في كتاب الدعوات...فأول ما سمع له قول الشيخ البخاري رحمه الله، باب ما يكره من السجع في الدعاء، فكان الشيخ يتبع من المتن ما شاء، ويترك السند لا يتعرض له أصلاً...وكان له درس في الضحى، يقرأ سيدي خليل في فقه الإمام مالك رحمه الله، فصرت احضره، فوجدته في آخر النذر...وفي يوم الأحد الموالي لهذا السبت ابتدأ ختمة في صغرى سيدي أمحمد السنوسي، فكان يحقق العقائد للناس، ويبدو من خلال المواد التي درسها عليه إنه لازمه طويلا واخذ عنه كثيرا[1].

– **أبو الفضل أحمد بن العربي بن محمد بن الحاج السلمي المرداسي الفاسي** (ت1109ه/1698م)، هو ثاني شيوخ ابن حمادوش، وأحد أبرز العلماء الذي نالوا شرف كرسي الحديث وكرسي التفسير على أول عهد العلويين، فقد كانت مجالسه بمدرسة الخصة، ومدرسة العطارين، وجامع القرويين الذي كان يدرّس به صحيح البخاري على الكرسي الكائن ظهر الخصة[2].

قرأ عليه المختصر الخليلي، والألفية، والتسهيل، وجل المغني، وقواعد الإعراب بشرحها للأزهري، وصحيح البخاري، وجميع الرسالة، وبعض من مختصر بن الحاجب الفرعي، وصحيح البخاري، وصحيح مسلم، والشمائل، وجميع موطأ الإمام مالك، والأصول في الحديث للدبيع، وجميع المواهب اللدنية، والحكم العطائية، وبعض كتاب الأحياء للغزالي وغير ذلك[3].

– **أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الله الورززي ثم الفاسي المالكي**(ت1166ه/1753م)، يذكر ابن حمادوش زمان ومكان اللقاء به، وصورة ما كتب له من إجازة بحروفه وبخطه، فيقول عن ذلك:"وفي يوم الخميس لقيت الشيخ الورززي في جامع لكاش، فأتاني بالبخاري ومسلم وموطأ مالك، ثم أجازني بقوله:"إن الشريف الفاضل العلامة سيدنا ومولانا عبد الرزاق بن محمد بن أحمدوش الجزائري داراً ومنشأ، رغب إن

1- ابن حمادوش، الرحلة...المصدر السابق، ص:34-40.

2- محمد الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تح: عبد الله الكتاني وآخرون، ج1، دار الثقافة، ط1، المغرب الأقصى، 1425ه/2004م، ص:153.

3- ابن حمادوش...، المصدر السابق،ص:42.

يسمع مني ما سهّل الله سبحانه من الحديث مما سمعته عن أشياخي رحمنا الله وإياهم، فأسعفته في رغبته، فأسمعته بعض موطأ مالك بن إنس من رواية يحي بن يحي الليثي وأجزته سائره، وأسمعته بعض صحيح مسلم بن الحجاج القشيري وأجزته سائره، ورغبني أيضا إن أجيزه في كل ما صحت لي روايته من مسموع ومجاز فأسعفته، فأجزته إن يروي عني الكتب الستة، أعني البخاري ومسلما وأبا داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وموطأ مالك ومسند أحمد بن حنبل... وأطلب من الشريف المجاز إن يجعل لي شفاعته يوم القيمة...وكتب أحمد المذكور،ضحى الخميس سابع عشر المحرم عام1156 بمدينة تطاون..."[1].

- **أبو عبد الله محمد بن احمد القسنطيني الشريف الحسني الشهير بابن الكماد** (ت1116ه/1705م)، هو الشيخ العديم النظير، ذو الفهم الرايق، والحفظ الدافق، والبحث والتحرير، الإمام العلامة النحرير الذكي، الألمعي الزكي...وهو من عائلة شهيرة بالعلم والشرف، اشتهر بالحفظ، وأخذ عن محمد بن سعيد قدورة، وارتحل إلى فاس لملاقاة الحسن اليوسي[2]، قرأ عليه ابن حمادوش المختصر مرتين، والكبرى والصغرى والمقدمات للشيخ السنوسي، وتهذيب السعد للشمسي في علم المنطق، وصحيح البخاري، وسمع منه مذكرات في مسائل كثيرة لا تحصى،[3].

- **أبو عبد الله محمد العربي بن احمد بردلة المدجّن الأندلسي الفاسي**(1133ه/1702م)، هو الفقيه العلامة النوازلي، المفتي البركة، الأمثل القاضي، الخطيب الضابط، الثقة المتبحر الأكمل، إمام فاس وفقيهها، وشيخ الجماعة بها وقاضيها العادل، وأستاذها الفاضل، تقلد عدة مناصب علمية بفاس، أبرزها مشيخة الجماعة، وانفرد بخطبة جامعها الأعظم بالقرويين، كما ولي قضاء فاس والفتوى بها عدة مرات، كان شديد الحدّة قلق العبارة[4]، ووصفه ابن حمادوش بقوله:" كان آية الله عز وجل في التبحر في العلم والتصرف فيه، واستحضار نوازل الفقه وقضايا التاريخ، مجلسه كثير الفوائد، عظيم الفرائد، مليح الحكايات...لازمت مجلسه في التسهيل لابن مالك، وتلخيص المفتاح، وشرح العضد على مختصر ابن الحاجب الأصلي أعواما كثيرة، وقرأت عليه بلفظي نحوا من نصف صحيح البخاري، وسمعت عليه كثيراً من تفسير كتاب الله عز وجل، والحكم العطائية، ورسالة الشيخ ابن أبي زيد، وحل المدونة بحاشية ابن ناجي، وكثيراً من الموطأ تفننا وتفقها"[5].

1- نفسه، ص:35-37.

2- صفوة من إنتشر...، المصدر السابق، ص:359.

3- ابن حمادوش،الرحلة...المصدر السابق، ص:43.

4- عبد الكبير بن المجذوب الفاسي، تذكرة المحسنين بوفيات الأعيان وحوادث السنين، ضمن موسوعة أعلام المغرب، تحقيق وتنسيق: محمد حجي، ج1، 1-700ه، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1996م، ص:1973.

5- ابن حمادوش، الرحلة...المصدر السابق، ص:44.

- **أبو علي الحسن بن مسعود بن محمد بن علي بن يوسف بن أحمد بن إبراهيم اليدراسني اليوسي** (1102هـ/1691م)، من أشهر العلماء الذين أنجبتهم الزاوية الدلائية حتى ارتبط اسمه باسمها، وظن البعض إنه واحد من أبنائها، امتاز هذا العالم بقوة العارضة، وشدة التحصيل، وجدة الأسلوب في التدريس والتأليف، كان له تجاوب كبير مع تلاميذه الكثيرون، يستهويهم علمه وخلقه، قال عنه القادري"الإمام الكبير، المحقق الشهير، أعجوبة الدهر ونادرة العصر، سيف السنة، القائم على وجود أهل عصره بجزيل المنة، له تآليف عديدة ورسائل كثيرة فقهية وعقدية، ومنظومات شعرية في مدح خير البرية، وشروح وأجوبة وتقاييد ومجموعات وكنانيش[1]، يقول عنه ابن حمادوش:"برز في علم المعقول والمنقول، وإليه المرجع فيهما، وكان آية الله سبحانه في النبل والإدراك، مع الحظ الوافر في الأدب، وحفظ دواوين الشعر، يستحضر ديوان أبي تمام، وأبي الطيب والمعري، ويسرد قصائدها عن ظهر قلب، قرأت عليه صحيح البخاري من أوله إلى آخره، وحضرت مجلس درسه لحاشيته على المختصر المنطقي، وشرحه على قصيدته الدالية، ولقني الذكر، وأضافني بالأسودين...وناولني صحيح مسلم، والموطأ، والشفا، وجامع الأصول لابن كثير وأجازني في جميع ذلك[2].

- **أبو مدين بن الحسن السوسي المكناسي**(ت1123هـ/1711م)، صنفه ابن حمادوش من نخبة الفضلاء وواسطة عقد النبلاء حسنة الليالي والأيام، وواحد العلماء الأعلام، المعقولي البياني، الدراك الحافظ، الجامع المؤلف، القاضي الأعدل، الأمثل الأحفل، قرأ عليه الشمائل، وحضر مجالسه العلمية في كثير من الكتب، واستفاد منه مسائل وأشعارا وحكايات، وسرد بين يديه مسائل كثيرة من شرحه على السلم للأخضر...وأجازني فيه وغيره[3].

- **أبو محمد عبد السلام بن الطيب القادري الحسني**(ت1110هـ/1699م)، ولد ونشأ بفاس، اشتهر بكثرة الحفظ ودقة الفهم، ونهل علوما متعددة كالحديث والأصول والمنطق، دَرسَ بعدة مساجد بفاس كمسجد الأندلس ومدرسة الصهريج، تجلت ثقافته الموسوعية في إنتاجه الفكري كما وكيفا، وأكبر درايته كانت بعلم الأنساب[4]، قرأ عليه ابن حمادوش الألفية، وتلخيص المفتاح والخزرجية، وسمع من فوائده وأشعاره وقصائده الحديثية والسيرية كثيراً، ولم يستجزه[5].

1- محمد حجي، الزاوية الدلائية، المرجع السابق، ص:113-114، واليوسي، المحاضرات، تقديم وتحقيق وفهرسة: حميد حماني اليوسي، مطبعة دار الوفاق لنشر الحديث، ط1، المغرب الأقصى، 2008، ص:16.

2- ابن حمادوش، الرحلة...،المصدر السابق، ص:45-46.

3- نفسه، ص:46-47.

4- نشر المثاني...، ج3، المصدر السابق، ص:91-93.

5- نفسه، ص:47.

- **أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بركة التطاوني الأندلسي**(ت1121ه/1709م)، عاش في كنف العلم والتعليم والصلاح والتقوى، أخذ العلم بتطوان، ثم انتقل إلى فاس للأخذ من كبار علمائها كالشيخ عبد القادر الفاسي الذي أجازه إجازة عامة، عاد إلى تطوان فتصدر للتدريس بجامع السوق الفوقي، وكان خطيبا به، فاكتسب صيت كبير وذكر شهير، طغت به شهرته مدينة تطوان ونواحيها[1].ويصفه ابن حمادوش ب"الشيخ العلامة الناسك، العابد المنقطع، الزاهد المفرد، المكثر العبادة، المتصف بصفات الورع والزهادة...قرأت عليه جميع الأربعين النووية، وبعض صحيحي البخاري ومسلم، والموطأ والشمائل، وأسمعني الحديث المسلسل بالأولية...وأجازني بسائر مروياته عن سائر شيوخه شرقا وغربا، وكتب لي ذلك بخطه مرتين، وأسمعني من إنشادا ته وإنشاءاته[2].

- **أبو عثمان سعيد بن أبي القاسم العميري**(ت1131ه/1719م)، وصفه ابن حمادوش بالشيخ الإمام المعقولي البياني، خاتمة النبلاء، وواسطة عقد النبهاء، العلامة الزكي، ويقول عنه:"قرأت عليه الألفية وتلخيص المفتاح، وابن السبكي، وشرح العضد على مختصر ابن الحاجب الأصلي جله، وتذاكرت معه في مسائل فقهية وأمور علمية، وحضرت مجلسه لتفسير القرآن العظيم، وفي صحيح البخاري، وقرأت عليه أوائل الكتب الستة المحمديتية، وألفيتي العراقي الحديثية والسيرية، وبعض الاكتفاء، وعيون الأثر، ونور النبراس من إنشادا ته كثيراً، ومنها ما يقول في بعضها.[3]

تعلم ما استطعت لقصد وجهي	فإن العلم من سفن النجاة
وليس العلم في الدنيا بفخر	إذا ما حل في غير الثقاة
ومن طلب العلوم لغير وجهي	بعيدا إن تراه من الهداة

- **أبو عبد الله محمد بن الفقيه المجود أبي العباس احمد ابن المسناوي الدلائي البكري** (ت1136ه/1724م)، نزيل فاس منبع العلم والعلماء، أخذ عن أجلة علمائها وفي مقدمتهم عبد القادر الفاسي(ت1090ه/1679م)، تصدر التدريس بفاس في علم التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام والسير وعلم المعقول، كما تولى الإمامة والخطابة بالمدرسة العنانية، ثم بمسجد المولى إدريس، فكانت خطبه تسحر

---

[1]- محمد داود، تاريخ تطوان، ج1، مراجعة وإضافات: حسناء محمد داود، مطبعة الخليج العربي، تطوان، المغرب الأقصى، 1431ه/2010م، ص:347-383.

[2]- نفسه، ص:48.

[3]- نفسه، ص:49.

الألباب إتقانا ولفظا، بيانا وحفظا، بما تحتوي من العجب العجاب، من تآليفه:"نصرة القبض والرد على من إنها مشروعيته في صلاة الفرض"[1].

يقول عنه ابن حمادوش:"شيخنا العاشر المهذب الأخلاق، الطيب الأعراق، العلامة الأبهر، الفهامة الماجد الأطهر، الفصيح اللسان، الثبت الجنان..آية الله تعالى في الحفظ والإتقان والضبط، ما رأت عيناي قط مثله خلقا وخلقا، ومروءة وتواضعا، ووقارا واحتمالا، وحياء وصبرا، وصدق لهجة وسخاء وإيثارا، مع تبحر في علم النحو وبلوغه منه مبلغا لم يصل إليه أحد من أترابه، مع المشاركة في سائر العلوم العقلية والنقلية والحديثية، وحسن الإدراك وقوة الفهم، وحب الخير لجميع المسلمين...لازمته في قراءة الألفية والتلخيص البياني ومختصر الشيخ خليل، وقراءة الصغرى والمقدمة للشيخ السنوسي، وغير ذلك من الكتب العلمية والدواوين الفقهية وأناشيد شعرية وأحاديث نبوية، ومما أسمعنيه بلفظه حديث أبي ذر الطويل، قال لي أجزتك فيه وفي غيره من سائر مروياتي ومقروءاتي، وكتب ذلك بخطه في إجازته[2].

- **أبو عبد الله محمد بن ميمون الزواوي التّجار الجزائري،** بسبب إهمال المصادر لترجمة حياته، فلا يعلم له تاريخ الميلاد ولا الوفاة، ولما عاصر ثلة من الفقهاء والأدباء ذكر البعض منهم في كتابه"التحفة المرضية"، ووفاة الداي محمد بكداش، يرجح إنه توفي في النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادي. فهو الفقيه، الصوفي، الأديب، المؤرخ، والسياسي، نشأ بمدينة الجزائر، وأصله من زواوة، قيل عنه إنه حفيد أبي العباس أحمد بن عبد الله الزواوي، جمع علوم وفنون عصره، ولكن غَلبَ عليه التصوف الداعي إلى التسليم، وطابع الفقهاء المقلدين، أما أدبه فقد امتاز بأسلوب صادق العاطفة، وأمانة الشعور، وحقيقة الإحساس، وتقصّي الأخبار، ونوادر الروايات، وتزويق الألفاظ، وتكرار العبارات، والشعر المسجوع، يمدح فيه حاكما تارة، ويذم آخر تارة أخرى[3].

يبدو من خلال شهادات ابن حمادوش إنه لازمه كثيرا في داره تارة، وفي الجامع الكبير تارة أخرى، يقول عن ذلك:"وفي يوم الاثنين ثامن ربيع الأول موافق تاسع أبريل بعث لي شيخنا ابن ميمون بعد العصر، تذاكرنا في داره إلى غروب الشمس، مسائل علمية من أدب وغيره...وفي يوم الأحد آخر هذا الشهر،قرأ عَليَ القلصادي فختمناه...وبعد يومين ابتدأنا سرد الكردبوس...وفي أول جمادى الأولى من عام1158ه سرد عَليَ عيان ابن حجة في الأدب...وفي يوم الأحد تاسع عشر جمادى الأخيرة موافق سابع يوليه سرد عَليَ قصيدة مالك بن المرحل... وفي يوم الأربعاء عرض عليَ الشيخ الإتقان في علوم القرآن للسيوطي...وفي يوم الأحد

[1] - محمد الحضيكي، طبقاته، ج2، ص:362.

[2] - نفسه، ص:50.

[3] - محمد ابن ميمون، المصدر السابق، ص:13-، وأحمد راجع، مقامات محمد بن ميمون الجزائري-دراسة معجمية ودلالية، مذكرة ماجستير في اللغات، جامعة أحمد دراية، أدرار، 2010، ص:143.

حادي عشر رجب الموافق لثامن وعشرين يوليه ابتدأنا سرد صحيح البخاري في الجامع الكبير...وفتح أبي زيد البسطامي...[1]

– **أبو العباس أحمد بن المبارك ابن محمد بن علي السجلماسي اللَمَطي**(ت1156ه/1743م)، الشيخ المتبحر، الإمام الحجة المتصدر، انتهت إليه الرياسة في جميع العلوم، واستكمل أدوات الاجتهاد على الخصوص والعموم، كان له باع طويل وتبحر في البيان، والأصول، والحديث، والقراءات، والتفسير، وله عارضة في المقابلة بين أقاويل العلماء والبحث معهم، ويصرح لنفسه بالاجتهاد، ويرد على الأكابر من المتقدمين والمتأخرين، ويصرح بأنهم لو أدركوه لانتفعوا به[2]، يقول عنه ابن حمادوش:"قرأت عليه مختصر السنوسي في المنطق، ولم أر مثله في تحقيق المسائل وتحريرها، لأنها كلها نصب عينيه، ويعلم السقيم والسليم، ويحب البحوث وينبسط له...قال فيه قصيدة مطلعها:[3]

أيا شيخنا شيخ البرية كلهــــــا	أسيد أحمد المبارك في الدهـــــــري
علوت على أعلا ذرى المجد رفعة	فكنت في أوج العز كالكوكب الدري

– **أبو الوليد عبد المالك بن محمد التاجموعتي**(ت**1118ه/1706م**)، العلامة الأديب، المحدث الخطيب البليغ، النوازلي الحسن، قاضي سجلماسة، وقطب رحاها، برز في العلوم وحوى المنطوق والمفهوم أصولا وفروعا، وفي المنطق عقلا ونقلا، انتقل إلى المشرق العربي في رحلة حجازية، لقي فيها عددا من الشيوخ منهم عبد الباقي الزرقاني، ثم عاد إلى سجلماسة ليتولى القضاء بها، والذي لم يثنيه عن التدريس والتأليف وتنظيم الشعر، له فهرسة نسبها له تلميذه الشيخ المسناوي في إجازته[4]. يقول عنه ابن حمادوش:"لقيته فسرني لقاؤه وواليته مدة أقامته بفاس سنة سبع ومائة وألف، فنفعني ولاؤه ومحاضرته، فرافقني فهمه وذكاؤه...فسمعت وقرأت عليه أحاديث عشرة من الموطأ، وعشرة من جامع البخاري، وعشرة من صحيح مسلم، ومن سنن أبي داوود، وجامع الترمذي، ومن سنن النسائي الكبرى، ومن سنن الدارقطني...وأجازني في جميع ذلك وفي سائر مروياته، وكتب لي بخطه مرتين"[5].

– **شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الطيب بن محمد بن موسى الصميلي الفاسي** (1170ه/1757م) الشهير بابن الطيب الشرقي، نسبة إلى شراقة على مرحلة من فاس، حصل مبادئي العلوم كلها بفاس، واخذ

1-ابن حمادوش، الرحلة... المصدر السابق، ص:216

2- الكتاني، سلوة الأنفاس، ج2..المصدر السابق، ص:237.

3- ابن حمادوش، المصدر السابق، ص:83.

4- دليل مؤرخ المغرب، المصدر السابق، ص:316، والتقاط الدرر، ص:295.

5- ابن حمادوش، الرحلة...المصدر السابق، ص:53.

العلم عن جلة علمائها كالسناوي والوجاري والبناني وغيرهم، ثم رحل إلى المشرق العربي فزار عدد من البلدان العربية الإسلامية، وجاور المدينة المشرفة، فتولى بها الإمامة والخطبة بالمسجد النبوي، إمام اللغة في زمانه، وصاحب التصانيف الجليلة، له مشاركة ورواية واسعة في سائر العلوم، من قرأ على يده نجب[1]. يقول عنه ابن حمادوش:"برع في العلوم العقلية والنقلية، والمسائل الحديثية والفقهية، وله الفتاوي العجيبة والتعاليق الغريبة...قرأت عليه الكبرى والصغرى، والمقدمات، وقواعد عز الدين ابن عبد السلام قراءة بحث وتحقيق، وشرح المحلي على الجمع، وجواهر العضد، ومختصر ابن الحاجب الأصلي بشرح العضد عليه، وحواشي السيد، ومطول السعد..وجامع البخاري، وصحيح مسلم، والشمائل، وجملة وافرة من بقية الكتب الستة[2].

– **محمد بن عبد الباقي بن يوسف بن أحمد بن محمد بن علوان الزرقاني المصري المالكي** (ت1099ه/1688م)، اعتبره المؤرخون خاتمة الحفاظ والمحدثين، ومن مجددي المائة الحادية عشر من المالكية، الإمام الحجة، التحق بحلقات العلم بالجامع الأزهر، أخذ المتون والشروح على يد علماء منهم الشيخ ياسين الحمصي، والنور الشبراملسي، وحضر في دروس البابلي الحديثية، وتلقى الذكر من أبي الإكرام بن وفى، ولازم المنور الاجهوري مدة، وأجازوه، فتصدر للإقراء بالأزهر، له مؤلفات منها: شرح مختصر خليل، توفي في رمضان سنة تسع وتسعين وألف، وصلى عليه إماما بالناس الشيخ محمد قوشي[3]، وهو من علماء المشرق الذين أجازوه.

– **حسن بن علي بن يحي أبو البقاء وأبو الأسرار العجيمي الحنفي المكي** (ت1113ه/1702م)، الإمام الشهير بشيخ الشيوخ، محدث الحجاز، وأحد الشيوخ الثلاثة الذين ينتهي إليهم غالب أسانيد من بعدهم من العلماء في الحجاز واليمن ومصر والشام وغيرها من البلدان، قرأ في المناسخات، وأخذ علم الحكمة، وعلم الهندسة، وعلم الميقات، ومفردات العلم، أجيز بالتدريس، فتصدر له في بيته أولا، وبالمسجد الحرام ثانية. له تآليف عديدة وأسانيد كثيرة، جمعها تلميذه تاج الدين احمد الدهان في كتاب اسماه"كفاية المستطلع ونهاية المتطلع"[4]، كتب لابن حمادوش بالإجازة من مكة، وهو يروي عن أبي مهدي عيسى الثعالبي، والصفي القشاشي، والطبري، والبابلي، ونور الدين الربيع، والميموني وغيرهم[5].

---

[1]– عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، مج1، دار الكتاب اللبناني، ط2، بيروت، لبنان، 1962، ص:291.

[2]– ابن حمادوش، الرحلة... المصدر السابق،ص:57.

[3]– الجبرتي، عجائب الآثار...المصدر السابق، ص:123.

[4]– محمد الحبيب الهيلة، التاريخ والمؤرخون بمكة من القرن الثالث الهجري إلى القرن الثالث عشر، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ط1، مكة المكرمة، 1994، ص:370، ومرداد أبو الخير، المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر، تح: محمد سعيد العامودي وأحمد علي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، جدة، 1406ه/1986م، ص:194.

[5]– ابن حمادوش،الرحلة... المصدر السابق، ص:60.

ونظرا لكثرة عدد مشايخه، نكتفي بهذه القائمة، علما إنه يروي عن طريق الإجازة عن مشايخ منهم عبد القادر الفاسي، وأبو سالم العياشي، وأحمد السرائري وغيرهم.

تلاميذه:

لا يذكر ابن حمادوش تلاميذه مثلما يذكر شيوخه الذين خصص لهم حيزا كبيرا في مؤلفه، فقد يتعرض لبعضهم من حين لأخر، وهو يستعرض الأحداث التاريخية والسياسية والعلمية التي عاشها، بمقتطفات مقتضبة حسم بها علاقته بطلبته القليلون، وسأذكر اثنين ممن تلقوا عليه العلم، الأول من المغاربة بتطوان والذين ورد ذكرهم في كتابه وهو"**عبد الله جنان**" والذي درّسه"روضة الأزهار"[1] وعنه يقول:" وكان الذي ابتدأت معه الروضة اسمه سيدي عبد الله من ذرية جنان، محشى سيدي خليل المكناسي، وكان مزاحا، فصار يطلب إن لا أسافر حتى ينال من القراءة ما يريد...فبقيت حتى ختمت معه الروضة...وقرأت معه ما أذكر"[2] [3].

أما الثاني فهو من بين تلاميذه بالجزائر، وهو"**محمد الحفني**" قاضي مدينة قسنطينة، قدم إلى مدينة الجزائر زائرا، فدرس على الشيخ ابن حمادوش، وعن ذلك يقول:"وفي أول يوم من ربيع الثاني، ثاني مايه، يوم الأربعاء، ابتدأت تدريس الحباك وشرحه لسيدي محمد السنوسي عن الإسطرلاب...وفي خامس جمادى الأولى سافر سيدي محمد الحفني، ولم يختم كتاب الحباك، وكان رابع يونيه...[4].كما يشير إلى إنه درّس موقت الجامع الكبير بتطوان(دون ذكر اسمه) ختمة في الإسطرلاب...كما سيذكر إنه درّس أيضا بعد عودته إلى تطوان.

مؤلفاته:

اهتم ابن حمادوش بالعديد من العلوم العقلية والنقلية، كان كثير المطالعة لكتب الطب القديمة عربية وأجنبية، فقد دَرسَ لعلماء اليونان والمسلمين على السواء، كالقلصادي في الحساب، وشرح محمد السنوسي على الحباك في الإسطرلاب، والقانون والطلاسم لابن سينا، ومقالات إقليدس، وشرح ابن رشد على منظومة ابن سينا وغيرهم، وكتب عن نفسه سنة1145ه/1733م بأنه أصبح طبيبا وصيدليا وعشابا، وافتخر بأن

---

[1] – هو عنوان لرجز وضعه عبد الرحمن بن محمد بن يوسف بن عطية المديوني ثم الجادري المتوفي سنة818د/1415م بفاس، الذي وُليَ توقيت منار جامع القرويين بها، وكان أحد الأعلام بها، فقيها محصلا، ومتفننا مقرئا، نحويا حسوبيا، وعنوان رجزه الكامل هو"روضة الأزهار في علم وقت الليل والنهار".

[2] – ابن حمادوش، الرحلة...، المصدر السابق،ص:103-104.

[3] – من غرائب الزمن إن ابن حمادوش يستصغره ويصفه ب"لا عقل له"، ويعده من"شرار الطلبة"، بل ورفض تدريسه، فقال"وما ظننت إنه يستجاب له في لما رأى من حاله إنه غير مستقيم"، أصبح من أبرز علماء فاس، وإمام مسجد الشرفاء بها، العلامة أبو عبد الله محمد بن احمد الجنان الأندلسي الفاسي، ولد سنة953د/1546م، وتوفي سنة1050د/1640م، له حاشية على"مختصر خليل"مختصرة جداً، يروي عن المنجور والحميدي والبدري وأبي عبد الله الحضري وغيرهم، له فهرسة ذكرها له ابن سعيد المرغيتي صاحب"المُقنع" في إجازته لأبي علي اليوسي". ينظر:خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ج2، المرجع السابق، ص:56.

[4] –ابن حمادوش، الرحلة...، المصدر السابق، ص:119-120.

الأعشاب التي قيدها في تآليفه كلها معروفة لديه، ولهذه الميول التي ميزته جعلت مؤلفاته يغلب عليها الطابع العلمي.

ونظرا لعدد المؤلفات في الطب والمنطق والأدب والنحو والشعر، ولعدم ذكر عناوينها في العديد من المواضع، سنقتصر على ذكر المؤلفات المعروفة وفي مقدمتها "الرحلة" والتي نحن بصدد دراستها.

لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال(الرحلة)، يجمع أغلب الدارسين والمهتمين بتاريخ الرحلات الجزائرية، إن ابن حمادوش يعد من أشهر الرحالين الجزائريين في الفترة الحديثة، وإن رحلته تحتوي على موضوعات كثيرة منها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية غير المترابطة، وهذا ما يلاحظه القارئ وهو يتصفح عناوين الرحلة، كما تعد من المصادر الهامة لحياة المؤلف نفسه، وجزء من التراث العلمي والأدبي الجزائري للقرن الثاني عشر الهجري/القرن الثامن عشر الميلادي [1]. وتجدر الإشارة إلى إن رحلة ابن حمادوش لم تكن نحو المشرق العربي على عادة الرحالة الجزائريين، بل نحو المغرب الأقصى، والذي لم يكن أول جزائري يتوجه إلى المغرب، فقد سبقه كثيرون كعبد الرحمن بن جلال المغراوي، وابن الوقاد، وابن القنفذ، والونشريسي، وأحمد المقري، كما لحقه أيضا كثيرون كالأمير عبد القادر والعربي المشرفي وغيرهم، ولكنه أول جزائري ترك وصفا دقيقا لبعض مدن المغرب الأقصى كتطوان ومكناس وأحوالهما الاجتماعية والاقتصادية والثقافية خلال القرن الثاني عشر الهجري/18م[2].

كشف الرموز في بيان الأعشاب، هو المؤلف الرئيسي لعبد الرزاق ابن حمادوش، وكان أول من اكتشفه الطبيب الفرنسي لوسيان لوكليرك الذي عَرفَه بواسطة أحد الجزائريين سنة 1861م، وإن الكتاب كتب بالجزائر بعنوان"كشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب"، وطبع أولا بباريس سنة1874م في 397صفحة، ثم طبع بالمطبعة الثعالبية بالجزائر على القاعدة المغربية وعلى ذمة السيد رودوسي قدور بن مراد التركي ومعه فهرست ألفاظه، وبعدها ترجم إلى اللغة الفرنسية في الجزائر سنة1321ه/1903م، وطبعته مطبعة ديلورد برهيم ومرنيال باعتناء المستشرق جبريت كولين سنة1323ه/1905،[3]

الجوهر المكنون من بحر القانون، وهو تأليف في الطب، وقد رتبه على أربعة كتب:

1- ينظر: عمر بن قينة، اتجاهات الرحالة الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1416د/1996م، ص:59.

2- محمد بوشنافي، هجرة العلماء الجزائريين إلى المغرب الأقصى وبلدان المشرق العربي خلال العهد العثماني(1520-1830)، مجلة المواقف للدراسات والبحوث في المجتمع والتاريخ، ع04، جامعة معسكر، ديسمبر2009، ص:99-108.

3- Abderrezak, El-jezairi,op-cit,p :34-37,

وأثبته الكاتب هملتون سمبسون في كتابه:

،Hilton,simpson,arab médecine and surgery ,A study of the healing algéria,édition,london oxford university press,hmphrey milford,1922,p :7.

الكتاب الأول: في السموم وذوات السموم وعلاجاتها.

الكتاب الثاني: في الترقيات وما يجري مجراها إن وجد من الباذ زهرات وبعض المعاجين الذي يظهر إليه المرء.

الكتاب الثالث: في الأمراض، مرتبا ذلك على جدول حنين ابن إسحاق الطبيب والمؤرخ والمترجم البغدادي.

الكتاب الرابع: وهو كتاب في حل ألفاظ المفردات وتعريبها ما أمكن، قال عنه في رحلته"فهذا جوهر مكنون من بحر القانون، يتوشح به الأصاغر، ولا تمجه الأكابر...وقد جعلته مرتبا على أربعة كتب...تأليف حسن في الطب"[1]. يرجح إن هذا الجزء الرابع هو الكتاب المطبوع بعنوان"كشف الرموز"، وهو عبارة عن قاموس طبي شعبي، ضمنه أوصاف طبية، وأسماء لنباتات وعقاقير، ومعادن وحيوانات، سار فيه ابن حمادوش على طريقة المعاجم الأبجدية.[2]

تعديل المزاج بسبب قوانين العلاج: هو في الحقيقة عبارة عن رسالة تناول فيها المزاج البشري وأحواله، وأسباب علاجه، ألفها ابن حمادوش وهو بمدينة الرشيد بمصر سنة1161ه/1748م، موضوعها الرئيسي هو وظائف الأعضاء التناسلية والاضطرابات التي تصيبها، وعلاجها وكيفية المحافظة عليها. وخلافا للمصادر الأخرى، فإن ابن حمادوش اعتمد فيه على الطب النبوي من الأحاديث النبوية.

بغية الأديب في علم التكعيب الذي أتمه سنة1143ه/1731م.

ولابن حمادوش تآليف أخرى في مواضيع مختلفة، فقد ألف في علم الفلك، وفي الإسطرلاب(الربع المقنطر)، وفي القوس لرصد حركة الشمس، وفي الروزنامة، وفي الرخامة الظلية بالحساب، وفي علم البلوط(معرفة الطرق البحرية)، وفي الطاركة لرسم اتجاهات رياح البحر، وألف في صورة الكرة الأرضية، وتعليق على ألفاظ الديباجة الواردة في منظومة ابن سينا وغيرها من المؤلفات التي ذكرها في الجزء الثاني من رحلته، ولكنها غير معروفة وفي حكم المفقود.

وفاته: يذكر أبو القاسم سعد الله ومن ترجم لابن حمادوش إنه عاش إلى حوالي تسعين سنة، وإنه توفي في مكان وتاريخ مجهولين، ولكن أغلب الظن إن المنية وافته وهو بالمشرق بين سنوات1197ه/1783م، و1200ه/1786م.

ثانيا: دراسة الكتاب ومحتواه

---

[1] - ابن حمادوش، الرحلة...المصدر السابق:ص:161.

[2] - Gabriel, Colin,op-cit,p :37.

نسبة الكتاب إلى مؤلفه:

لم يختلف من نسب هذا الكتاب لعبد الرزاق ابن حمادوش، أو استشهد به في ذكره بهذا الاسم، واسم الكتاب ذائع ذكره عند أصحاب التراجم والعلماء الفقهاء في إسنادهم إليه واستشهادهم به، ومشهور في نسبته إلى مؤلفه"ابن حمادوش"رغم إن العنون"لسان المقال في النبأ عن الحسب والنسب والحال" لم يورد ذكره في الجزء الثاني من الرحلة التي نحن بصدد دراستها، والظاهر إنه منقول من الجزء الأول المفقود، ولذلك اتفقت المصادر التي تعرضت لذكره على تسميته تسمية واحدة، فأسموه" رحلة ابن حمادوش"، وهذه التسمية نفسها الثابتة على طرة نسخ المخطوطة.

ومما يؤكد صحة نسبة الكتاب لابن حمادوش نقل بعض المؤرخين عنه، مثل عبد الحي الكتاني الذي نقل ما احتوت عليه الرحلة على بعض الإجازات والأسانيد، كما يؤكد صحة نسبته إليه أيضا اهتمام محمد داود صاحب كتاب"تاريخ تطوان"، لأن ابن حمادوش أورد أخبارا هامة عن تطوان في رحلته، بالإضافة إلى العديد من الإشارات التي وردت في متن الرحلة والتي تثبت نسبة كتاب"الرحلة" إلى مؤلفها ببعض التواريخ أو بذكر أحداث دالة على الرحلة نفسها، ومن ذلك مثلا تاريخ خروج ابن حمادوش من الجزائر، ودخوله مدينة تطوان بالمغرب الأقصى، وعن ذلك يقول:"وفي هذه الساعة كنا على ظهر البحر قريبا من غرناطة، وكان عاشر يوم خروجنا من الجزائر" وهو ما يوافق تاريخ1156ه/1743م". وإن كنت أشرت إلى هذه المسألة الزمنية التوقيتية لبداية رحلة ابن حمادوش إلى المغرب الأقصى، فذلك تكملة لما سبقني إليه كثيرا المؤرخين والباحثين المهتمين بتراث ابن حمادوش، وقد أشرت سابقا إلى البعض منهم كعبد الحي الكتاني ومحمد داود ومحقق الرحلة أبو القاسم سعد الله.

ولكن إذا كان كلا من عبد الحي الكتاني صاحب كتابه"دليل الحج والسياحة"، ومحمد داود صاحب كتاب"تاريخ تطوان" يؤكد أن الرحلة هي بخط ابن حمادوش، وابن حمادوش نفسه يستعمل مصطلح رحلة عندما ينسبها إلى نفسه فيقول"رحلتي"، فإن أبو القاسم سعد الله يشكك في ذلك، ويذكر إن الجزء الخاص بالمغرب الأقصى هو الذي يجب إن يطلق عليه اسم الرحلة فقط من ص:3 إلى ص75، أما ما تبقى من ص75 إلى ص278 فهو عبارة عن يوميات ومذكرات المؤلف.

ومهما يكن فإن كتاب الرحلة"لسان المقال..." ينسب لابن حمادوش، والعبارات التالية التي يوردها تدل على ذلك، ومنها قوله:"وفي يوم الخميس ثالث وعشرين رمضان، موافق ثامن عشر أكتوبر، تممت الجزء الأول من هذا التأليف"، وقوله أيضا:" وكتبت هذا الخميس ثاني وثالث جمادى الأولى عام1160ه موافق آخر أفريل

وأول يوم من مايو عام1747م رزقنا الله الهدى فيما تبقى، وسامح وعفى فيما مضى. وتبدأ حوادث الرحلة بتاريخ محدد وهو 1156ه/1743م"[1].

محتوى الكتاب وموضوعاته:

إن نظام فهرسة الكتب نظام قديم عند الكتاب العرب والمسلمين، والفهرسة هي عملية تسجيل وتصنيف مقتنيات مجموعة معينة، وهي أيضا مفتاح المكتبة والكتاب على حد سواء، ودليل يحدد أماكن المواد والعناوين للكتاب، بحيث يستطيع القارئ من خلالها إلقاء نظرة حول المواضيع التي يتناولها الكتاب، ولذلك استخدم ابن النديم لفظ فهرسة عندما أطلقه على كتابه"الفهرست"عام377ه/987م.

ومن هذا المنطلق، نقول إن الفهرسة تعد من صميم التنظيم الفني للكتب، والتي بدونها تعد المكتبات مجرد مخازن مليئة بالكنوز، ويكون الكتاب أيضا مجرد معلومات وأحداث خالية من البيانات التي تسهل للقارئ استخدامها على خير وجه. وإذا ما نظرنا إلى فهرسة كتاب ابن حمادوش"لسان المقال" لوجدناه مقسم إلى عناوين كثيرة حاول فيها ضبط الأحداث زمنيا، وهذا ما أنعكس على المواضيع التي احتواها.

وقبل الخوض في فهرسة(مواضيع) الكتاب، أشير فقط إلى إن رحلة ابن حمادوش تعتبر مصدراً مميزا لاشتمالها على الإثارة المتأتية من طرافة الوصف تارة، والسرد تارة أخرى للأحداث والوقائع، وحتى للعواطف المحركة للبشر والنابعة أصلا من الشخصيات التي تظهرها، بحيث تبدوا للقارئ متوافقة في كثير من نزعاتها ومختلفة في جوانب أخرى، ليحتفظ كل منها بميزاتها الفردية. والطريف إن ابن حمادوش طاف في العديد من مدن وأمصار العالم العربي الإسلامي(المغرب الأقصى، مصر، الشام، تركيا...)، وهي على اتساعها فيها الكثير من المشترك بينها بحكم إنها تدين بالإسلام، ولذا فإن المشترك من القيم التي تجمع هذه الأقاليم بتقاربها أو تنائيها كبير، وأيضا فيها الكثير من العادات والتقاليد التي تعود في أصولها إلى الإسلام والعروبة(عادات العيد الأضحى بمدينتي فاس والجزائر العاصمة مثلا)، وهذا ما نرصده في كتاب ابن حمادوش"لسان المقال"، وقد فاضل ابن حمادوش الذي جاب أقطار الإسلام بين الذات الإسلامية القاطنة في البلدان المختلفة ووصفها من منطلق ثقافي مشترك، مثلما فاضل بين المدن داخل البلد الواحد ووصفها، أي إنه وصف من الداخل، وهو في ذلك يسير على خطى العديد من الرحالة المغاربة والمشارقة على السواء كالمسعودي سابقا والعياشي لاحقا[2].

إن رحلة ابن حمادوش تعتبر أيضا من الرحلات المفيدة تاريخيا وأدبيا وعلميا، فقد تعرض للأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وحتى الطبيعية كظاهرة كسوف القمر. يذكر أبو القاسم سعد الله محقق الرحلة فائدتها، بقوله:"وإذا كان علماء المسلمين قد اهتموا برحلة ابن حمادوش لما فيها من أخبار سياسية أو

1- ابن حمادوش، الرحلة...، المصدر السابق، ص:124، وعليه فإن الرحلة تكون قد غطت سنوات:1156-1161ه/1743-1748م.

2- حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989، ص:196-197.

دينية أو اجتماعية، فإن العلماء الأوربيين قد اهتموا بآثاره العلمية على الخصوص"[1]، ومما يزيد في فائدتها إن ابن حمادوش كان شاهدا على الأحداث بأم عينيه، وحسب فرانز روزنتال إن المؤرخ الذي يشاهد الحدث تكون رواياته أرجح من معاصره الذي ينقل الأخبار مشافهة عن طريق السماع، وإن أهمية أي تاريخ إسلامي كمصدر تاريخي يقررها قدمه وقربه من الحوادث التي يصفها، أو استخدامه لكتب مفقودة قديمة أو قريبة من المعاصرة[2].

لقد أخذ الجانب التاريخي قسما كبيرا من الرحلة، مثلما أخذ التجوال والترحال قسما من حياته، فركز على التاريخ المحلي المغاربي والجزائري خاصة خلال العهد العثماني، وهي الفترة التي عاصرها تقريبا، ذكر مراحل حكم الباشوات بالجزائر ترتيبا زمنيا حسب المدة التي قضاها كل باشا في الحكم ومن جاء بعده، دون تقديم أية معلومات أو استفسارات.للعلم إنه يحصي فقط سبعين حاكما من فترة الباشوات الذين حكموا الجزائر بين سنوات1064ه/1654م، و1145ه/1733م، وهي الفترة التي تغطي أواخر عهد الباشوات، وفترة الأغوات، وجزء كبير من مرحلة الدايات، كما تعرض لحكام تونس والمغرب الأقصى، تخلل ذلك بعض الأحداث التي عايشها، ومنها على سبيل المثال: ثورة زواوة بالجزائر التي جرت في ربيع الأول من سنة1158ه/1745م على القايد محمد قائد سباو، والتي انتهت بالقضاء عليهم، وتشتيت شملهم بواسطة قوة الصبايحية ونحو مائتين من اليولداش، وثورة الباشا أحمد بن علي الريفي قايد تطوان على مولاي عبد الله في فاس المتوفي سنة1156ه/1743م، وقد شهد بنفسه هذه الثورة وكاد إن يذهب ضحية لها وهو بالمغرب الأقصى[3].

أما التاريخ الخارجي، فيتعرض فيه إلى جزء من تاريخ الدولتين الأموية والعباسية، ذاكرا بعضا من خلفاء بني العباس على طريقة التراجم، مبتدءا بأبي جعفر المنصور ومنتهيا بالراشد، ويبدو إن النسخة التي كانت بحوزته لابن الكردبوس مبتورة الآخر، وعليه لم يكمل باقي الخلفاء الذين وصل عددهم إلى تسعة وثلاثين خليفة، ويتعرض لسلاطين الدولة العثمانية من أولهم وهو "عثمان خان" الذي تولى الخلافة العثمانية عام641ه/1244م إلى الخامس والعشرين من ملوكهم وهو"محمود خان" الذي تولى الخلافة عام1143ه/1730م، وهي السنة التي انتهى فيها ابن حمادوش من كتابة ذلك، وعن ذلك يقول:"خامس وعشرين من ملوكهم السلطان محمود تولى عام1143ه، وهو باق إلى الآن...فهذه ملوك بني عثمان، وليسوا هم من ذرية عثمان بن عفان رضي الله عنه، وإنما هم من ذرية هذا التركي الذي توصل إلى الملك"[4].

1- ابن حمادوش، الرحلة، تق وتح: أبو القاسم سعد الله، الجزائر، 1983، ص:11.

2- فرانز روزنتال، مفهوم التاريخ عند المسلمين، تر: صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت، لبنان، 1983، ص:57.

3- ابن حمادوش، الرحلة...، المصدر السابق، ص:97.

4- نفسه، ص:235.

أما الجانب الاقتصادي والاجتماعي فهو الآخر أخذ حيزا من الرحلة من خلال ذكره مثلا لحصاد الشعير، وعملية الانتقال على القوارب المصنوعة من حزم البردي، ونوع العملة المتداولة بتطوان في عهده وهي"الموزونة"، وضريبة المكس على السلع بميناء تطوان، كما يذكر بعض العادات والتقاليد الاجتماعية في المواسم الدينية، ومنها عادة أهل الجزائر ليلة القدر، وقد حضر ذلك بمدينة الجزائر، وعن ذلك يقول:"وهذه عادة الجزائر دائما، فيذهب الناس إلى خارج باب الواد، إلى قبر سيدي عبد الرحمن الثعالبي، نفعنا الله ببركاته، فيحضرون ختم البخاري أيضا على هذه الصفة، ويتهيأ ون إلى العيد. وإنا حضرت في الموضعين مع عامة المسلمين"[1].

منهج الكتابة عند ابن حمادوش وأبرز مميزاته:

إن أهم ما يميز هذه الرحلة عن الرحلات الجزائرية الأخرى هي كونها رحلة مغربية علمية وتجارية، وليست مشرقية حجازية، كرحلة حسين الورتيلاني المليئة بالقصص، أو كرحلة أحمد المقري ذات التفاصيل التاريخية الواسعة، أو حتى كرحلة أحمد بن عمار التي لجأ فيها إلى الصنعة الأدبية، فأسلوبه اللغوي سهل وبسيط جدا، وعباراته فصيحة، وكثيرا ما يسوق الجملة سوقا عاميا لا يخضع لقواعد الإعراب، كما إن طريقة عرض الحوادث كثيرا ما يتخللها الانتقال والاستطراد ثم العودة إلى الموضوع الرئيسي، ويظهر ذلك مثلا عندما يرد طريقة قراءة البخاري في الجزائر تحت عنوان"العودة إلى قراءة البخاري" فيطرح بعض المعالم الزمانية والموضوعاتية قوله:" وفي يوم السبت وقفنا على كتاب القدر...وفي يوم الأحد وقفنا على باب من أجرا أمر الأمصار على ما يتعارفون، وفي يوم الاثنين وقفنا على كتاب الاستقراض وأداء الديون"، يتخلل ذلك عنوانا لحكاية العنقاء مع سيدنا سليمان، وفي ذلك نتساءل عن سبب إدراج ابن حمادوش هذه القصة في هذا الموضع؟ من المعلوم إن القصة تلخص قاعدة وهي:"لا حيلة في دفع قضاء الله تعالى وقدره لا بفعل ولا بعلم، وعلمه السابق الكائن من خير وشر"، وبغض النظر من الواقع أم الخيال، فإن الأسطورة كما ذكرها المؤرخ هيرودوت كان لها صدى واسع في التراث الشعبي القديم لدى الكثير من الشعوب القديمة كالمصريين والإغريق والفرس والفينيقيين، وما زال لها تأثير في الأدب والثقافات والكتابات المعاصرة كرمز للتجدد[2].

ومن بين الميزات أيضا إن الرحلة تفتقر إلى وحدة الموضوع والترابط العضوي، فهي كشكول، فيه خليط من الحوادث والأفكار والنقول والمذكرات، مليئة بالاستطراد الثقيل، بمعلومات غير منسقة، ولا يجمعها إلى بعضها من حيث المنهج سوى الترتيب الزمني، ذلك إن المؤلف يسير على طريقة الحوليات أو السنوات التي يرتب من خلالها الأحداث المنتهية ليبدأ في ذكر أحداث سنة جديدة، باستعمال عنوان"دخول محرم" والعبارة التالية تبين ذلك قوله:"وفي يوم الجمعة سابع عشر أي الجمعة ختمت رسالة القشيري، وهذا آخر هذه

---

[1]- نفسه، ص:126.

[2]- شهاب الدين النويري، نهاية الإرب في فنون الأدب، ج14، دار الكتب والوثائق القومية، ط1، القاهرة، مصر، 1423د/ ص:92.

السنة(محرم1159) لدخول محرم فاتح عام1160-يناير فاتح سنة1747 مسيحية، كلأهما بالخميس، اتفقا مدخلا"[1].

يستعمل ابن حمادوش في رحلته التاريخ الإسلامي الهجري، وفي معظم الأحيان يذكر معه التاريخ الميلادي الشرقي أو الفلاحي، وأحيانا يذكر أيضا التاريخ السكندري، ويستعمل كلمة عجمي للتاريخ المسيحي، وعن استعمال هذه التواريخ يذكر التوضيح التالي:"وفي يوم الجمعة سادس وعشرين ذي القعدة ابتدأت تأليفا في علم الفلك، جمعت فيه غريب ما أتعلم. فمنها سبعة تواريخ فيه كلها تعلمتها: العربي والمسيحي والسكندري، كنت تعلمتها قبله، (وهي التي يستعملها في كتابه الرحلة)، وزدت فيه الفارسي والملكي والقبطي والعبري"[2]، أما العبارة التالية فهي أصدق دليل على استعمال هذه التواريخ والتي يقول فيها:"الجزء الثاني من رحلته(لسان المقال في النبأ عن الحسب والنسب والحال) مبدؤه من أول ليلة الاثنين فاتح عام1156 عربية الموافق رابع عشر فبراير ثاني شهور سنة1743 مسيحية، وخامس شهور سنة2054 أسكندرية"[3].

ولما كان الشعر العربي بمختلف عصوره يعتبر مصدرا قيّما من المصادر التي تكشف كثيرا من الجوانب التاريخية والاجتماعية وحتى الدينية، ولأنه السجل المحفوظ المتداول بين الناس، فإن ابن حمادوش قد اعتمد عليه كثيراً، واستخدمه بصفة عامة، وكان عنوانا رمى من خلاله إلى تحقيق عدة أهداف، أهمها:

-تدعيم مصادره، وتوضيح الحقائق التاريخية التي ذكرها بإدراج الشواهد من الشعر عليها، والأمثلة على ذلك كثيرة، ويكفي إن نورد مثال أو مثالين للإيضاح، قال ابن حمادوش وهو يريد إثبات إجازة الشيخ الحسن بن مسعود اليوسي له:"قرأت عليه صحيح البخاري من أوله إلى آخره مرة، وحضرت مجلس درسه لحاشيته على المختصر المنطقي، وشرحه على قصيدته الدالية، ولقنني الذكر، وأضافني بالأسودين"التمر والماء" وكتاب الهيللة له وديوان شعره، وأجازني في جميع ذلك، وسمعته ينشد في مجلس درسه لصحيح البخاري:[4].

ألا أيها النيام ويحكم هبوا	أسائلكم هل يقتل الرجل الحب

أما الحادثة التاريخية الثانية التي يجتمع فيها التاريخ بالشعر، فهو ما يرويه إبراهيم الموصلي عن قصة الجارية التي أراد جعفر البرمكي شراءها من مولاها، فإذا به أي مولاها يعتقها لوجه الله ويتزوجها بعد إن خطبها من جعفر البرمكي، فأنشدت شعرا واندفعت تغنيه في قصيدة مطلعها:

1- ابن حمادوش،الرحلة...، المصدر السابق، ص:264.

2- نفسه، ص:264.

3- نفسه، ص:29.

4- حواشي السنوسي على شرح كبرى السنوسي، تقديم وتحقيق وفهرسة: حميد حماني اليوسي، مطبعة دار الفرقان للنشر الحديث، ط1، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 2008، ص:16.

إن يمس حبلك بعد طول وصاله	خلقا ويصبح بيتكم مهجور
فلقد أراني، والحديد إذا بلى	دهر بوصلك راضيا مسرور
جذلا بمالي عندكم لأبتغي	بوصلك خلة خلنها وعشير
كنت المنا وأعز من وطيء الثرا	عندي وكنت بذاك عنه جدير[1]

-دعم وإثبات الآراء التي يميل إليها، أو أرائه الخاصة، أو أراء بعض العلماء الذين يوافقهم أو يعارضهم، مثل ما ذكره في مسألة حل اللغز الذي مطلعه" ألا أيها الغادي على ظهر أجود..." بعدما طرح أراء بعض العلماء ومنهم الشيخ محمد الشافعي التونسي الذي عارضه بقوله إنه بعيد عن الصواب، في حين يورد شعرا لسحنون الونشريسي في اللغز يؤيد به رأيه، قوله:

فلغزك هو الرأس من نسل آدم	حوى سبعة وسبعة بتفرد
هو الأب والسبع تفرد خلقها	هي العين فيها سبعة بت(عدد)؟[2].

-إيضاح بعض المعتقدات والأساطير الخرافية، أو القصص والحكايات التاريخية أو تفنيدها، ومثال ذلك ما ذكره ابن حمادوش من بعض اللطائف لأخبار الموسيقى والمغنين، كون إن أول من اتخذ العود في الموسيقى هو لامك بن متوشلخ ابن خنوخ بن برد بن مهاييل حينما اتخذ من بعض أوصال طفله بعد موته أدوات وأوتار، ثم ضرب به وناح عليه فنطق العود مجاوبا له على شأنه، فقال الحميدي:[3]

وناطق بلسان لا ضمـــــــير له	كأنه فخذ نطيت إلى قدم
يبدي ضمير سواه في الحديث كما	يبدي ضمير سواه الخط بالقلم

وإلى غير ذلك من الأهداف التي قصد بها ابن حمادوش التعبير عن قدراته الأدبية، والتحدث عن أخلاق الناس وعاداتهم وتقاليدهم وخرافاتهم، كما نلاحظ إن الشعر لا يكاد يختفي في أثناء عرضه المادة التاريخية خاصة في الأجزاء المتعلقة بطرح مقاماته وحديثه عن مشايخه، وفي هذه الأجزاء يبرز الطابع الأدبي لابن حمادوش بصورة واضحة.

كما يلاحظ إنه يميل في استشهادا ته إلى قصائد الورع والزهديات، وإلى أغراض معينة من الشعر خاصة الرثاء، فقد رثى شيخه أحمد ابن المبارك بقصيدة قال فيها:

1- ابن حمادوش، الرحلة...المصدر السابق، ص:172.

2- سحنون الونشريسي، تحرير المقال في الحمد لله والصلاة والسلام عل سيد الارسال، تق وتع: بشير ضيف، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان، 2009، ص:37.

3- الحميدي، جذوة المقتبس...المصدر السابق،ص:327.

أيا شيخنا شيخ الجماعة احمد	انجل مبارك وصلت ذو الرحم
بذلت علوما كنت فيها مبرزا	فلست بمناع العفات من الفهم
إذا آنت عبرت المسائل نالها	غبي، وإن صورت أدركها الأمي[1].

مصادره:

تنوعت مصادره بتنوع معارفه، فقد درس لابن سينا وإقليدس والقلصادي، كما نقل عن الأدباء كأبي إسحاق التونسي، وعن المؤرخين مثل عبد الرحمن الحنبلي المقدسيُ، وقرأ لعلماء وصلحاء الجزائر كأحمد ساسي البوني، ونقل من كتب التفاسير كالكشاف والوسيط، ومن كتب الحديث كالموطأ ومسند أبي حنيفة، والسنن وكتب أخرى، ونظرا للقائمة الطويلة، اخترت نماذج منها، خاصة المصادر التي ركز عليها ابن حمادوش كثيرا، ولتفادي التكرار تحاشيت المصادر نفسها التي سبق ذكرها، ومن أهم ما اعتمد عليه ابن حمادوش في مؤلفه ما يلي:

الاكتفاء في أخبار الخلفاء: لأبي مروان عبد المالك بن أبي القاسم التوزري التونسي المعروف بابن الكردبوس(ت610هـ/1214م)، احتوى هذا الكتاب على موضوعات كثيرة ومتنوعة ولكنها غير مترابطة، وهي وسط بين الإيجاز والإطناب، بحيث عالج التأريخ الإسلامي منذ فجر الرسالة المحمدية وحتى قبيل وفاته في العقد الأول من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، وقد رتب مادة كتابه في المقدمة على مراحل، وهي: ذكر النبي صلى الله عليه وسلم، وصحابته الكرام الخلفاء الأربعة الأعلام، ثم ذكر من وُلي أمر الأمة الإسلامية من الخلفاء الأمويين والعباسيين جيل بعد جيل، وقرنا بعد قرن. وأما ما كتبه عن تاريخ الأندلس، فقد تميز بخصوبة مادته، وقيمتها العلمية ودقتها، وعمق نظرتها، بل إنه في كثير من الأحيان ما يأتي بمعلومات جديدة قد لا نجدها في المصادر التاريخية الأخرى[2]، قرأه ابن حمادوش مع شيخه محمد بن ميمون في داره، وعن ذلك يقول:"وفي يوم الأحد آخر هذا الشهر، بعث لي شيخنا ابن ميمون خادمه، فأخذني إلى داره كعادته قبل...فابتدأت سرد الكردبوس، تاريخ في خلافة العبابسة، فبقي الخادم يأخذني كل عشية إلى يوم، أي يوم الثلاثاء سادس عشر جمادى الأولى قرأنا ولاية جعفر المقتدر بالله ابن المعتضد بالله، وهو الثامن عشر من ملوك بني العباس، فساق فيه ما أجرى الله من عادته ما أجرى"[3].

تاريخ إنس الجليل بتاريخ القدس والخليل: لعبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن العليمي الحنبلي المقدسي، أبو اليمن مجير الدين العمّري(ت928هـ/1521م)، يعد هذا الكتاب من أوسع المصنفات التي تناولت

[1]- ابن حمادوش، الرحلة...المصدر السابق، ص:87.

[2]- ابن الكردبوس التوزري، الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تح: صالح بن عبد الله الغامدي، ج1، منشورات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط1، المملكة السعودية، 1429هـ/2008م، ص:من المقدمة، وابن الأبار، التكملة، ج2، ص:591.

[3]- ابن حمادوش، الرحلة...المصدر السابق،ص:166.

تاريخ بيت المقدس منذ فجر الخليقة وحتى سنة910ه/1494م، كما يعد من أوفر المصادر التي تناولت التاريخ المحلي لمدينتي القدس والخليل، وإبراز المكانة الروحية لكلا المدينتين، وارتباطهما بالأنبياء خاصة الذين لهم علاقة بالأرض المقدسة كداود وسليمان ويونس عليهم الصلاة والسلام. الكتاب يتناول أيضا الحياة الدينية والعلمية في بيت المقدس، ويصف مدارسها ومساجدها وزواياها، وذكر تراجم لعدد كبير من علمائها وفقهائها، والعلماء الوافدين إليها الذين شاركوا في الحركة الثقافية في فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي[1]. ينقل عنه صفحات نقلا حرفيا قوله:" ثم بدا لي إن أضم إليه ما كنت أختصر عام سبع وأربعين(1147ه) من إنس الجليل تاريخ القدس والخليل، ذكر الهجرة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، وهي ابتداء التاريخ الإسلامي"[2].

كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ: لأبي إسحاق إبراهيم بن إسماعيل بن أحمد بن عبد الله اللواتي الطرابلسي المشهور بابن الأجدابي(470ه/1078م)، كان موسوعي المعرفة، قال عنه التجاني"كان أبو إسحاق هذا من أعلم أهل زمانه بجميع العلوم، كلاما، وفقها، ونحوا، ولغة، وعروضا، وله تآليف جليلة، وأسئلة مفيدة في الفقه وغيره، وقد روي إنه سئل:من أين لك هذا العلم و لم تفارق طرابلس؟ فقال:أخذته من بابي هوارة وزناتة، وهو يشير إلى لقاءه بالعلماء الذين يمرون بهذه المدينة". وإجابته وإن كانت بنوع من الحدة، فإن فيها نوع من التهكم بالسائل الذي يعتبر إن العلم لا يمكن تحصيله إلا بالرحلة وطول السفر[3].يذكر ابن حمادوش إنه أتمه يوم الثلاثاء محرم عام1159ه/1746م دون معرفة مؤلفه.

النجاة في المنطق والإلهيات، لأبي علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا(ت427ه/1027م)، هو العالم الفيلسوف والطبيب الشاعر، عُرف باسم الشيخ الرئيس، وبأرسطو الإسلام، والمعلم الثالث بعد أرسطو والفارابي، وسماه الغربيون بأمير الأطباء. يعتبر كتابه هذا من أمهات الكتب في علم المنطق والإلهيات، وهو ترجمة صادقة لخلاصة الفلسفة اليونانية، ويحتوي على الكثير من خلاصة الحكمة، ومن تطاحن العقول، ومجادلة العلماء للوصول إلى الرأي الأمثل في علمي المنطق والحكمة الإلهية، وهو لم يكتبه للعامة ولكنه كتبه إلى خاصة الخاصة الذين يتميزون بعقل المعي والحكمة الباهرة، وبهذه الصورة، يعتبر الكتاب موسوعة علمية كبيرة، حوت أمهات العلوم التي أنتجها العقل البشري في تاريخه[4]. وهو من النسخ

---

[1]- مجير الدين العليمي، كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، إعداد وتقديم:عدنان يونس، إشراف: محمود علي عطا الله، مكتبة دنديس، ط1، الأردن، 1420ه/1999، ص:32.

[2]- ابن حمادوش، الرحلة...المصدر السابق، ص:202.

[3]- أبو إسحاق الطرابلسي، كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ، تح: السائح علي حسين، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ليبيا، (د ت)، ص:8.

[4]- ابن سينا، النجاة في المنطق والطبيعيات والإلهيات، تح: محمد عثمان، مكتبة الثقافة الدينية، 2013، ص:؛ وعبد الرحمن عميرة، النجاة في المنطق والطبيعيات والإلهيات، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، 1992.

التي اعتمدها ابن حمادوش في الدراسة والمطالعة، وعن ذلك يشير بقوله:"وفي سادس عشرة موافق أول يوم فصل الصيف، ابتدأت نسخ كتاب الجدل، وفي عشرين منه تممت شرح الجدل، وفي حادي وعشرين منه ابتدأت كتاب النجاح لابن سينا في المنطق..."[1].

المجسطي، لأبي الوفاء محمد بن محمد بن يحي بن اسماعيل بن العباس البوزجاني (ت388ه/998م)، عالم رياضيات وفلك، له فضل كبير في تقدم العلوم الرياضية، ومن أشهر رياضيي المسلمين، صاحب كتاب"المجسطي" الذي يتضمن ثلاث مجالات رئيسية: مجال الرياضيات، وهو الأهم لما جاء فيه من إسهامات في علمي المثلثات المسطحة والكروية، وإن كثيرا من القوانين الحديثة في حساب المثلثات ترجع لأبي الوفاء.ففي مجسطيته أخذت الدالات المثلثية شكلا جديدا، وبوضعه للشكل الظلي الكروي وتطبيقاته له في الفلك جعل أبو الوفاء الظل وتمامه مثل الجيب وتمامه والقاطع وتمامه[2]، يقدم نبذة عن حياته، ويُذكِر بكتابه"المجسطي" وبتفسيره لكتاب ديوفنطوس في الجبر والمقابلة.

تاريخ مختصر الدول، لغريغوريوس ابن أهرون بن توما الملطي أبو الفرج، المعروف بابن العبري (ت685ه/1286م)، مؤرخ واسع الاطلاع، متقنا لكثير من العلوم واللغات، معروفا بالبحث عن الأخبار، فروى كل ما روى عن خبرة، فكأنه أخذ صور الوقائع والسير والتراجم على ضياء الشمس. من أشهر كتبه"تاريخ مختصر الدول" طبع لأول مرة سنة1663م في أكسفورد بالعربية واللاتينية بمراجعة العلامة بوكول، ثم ترجمه بور إلى الألمانية سنة1783م، وفي الطبعة الثالثة زُود الكتاب بفهرس مرتب على حروف المعجم يشمل كل أسماء الأعلام والأمكنة التي ورد ذكرها في الكتاب[3]. ينقل من الكتاب بطبعته الأولى، وعامل الزمن يوضح ذلك، وعن ذلك يقول:"وفي هذه الأيام رأيت واطلعت على كتاب الملطي في تاريخ الدول، وهو نطراني، ولم أرى مثله في التراكيب العربية وأساليبها فيما عرف من كتب النصارى. ذكر فيه تواريخ العلماء والأطباء، فمما نقلت منه تاريخ سابور بن سهل صاحب بيمارستان جنديسابور"، ويضيف تعليقا فيه تحذير من الكتاب قائلا" هو كتاب عجيب التأليف، حسن الصنيع، لولا إنه محشو كفرا تزل فيه الأقدام، فيجب التحذير منه" [4].

المناظر في مجموع الرسائل، لنصير الدين محمد بن محمد بن الحسن الطوسي (ت672ه/1274م)، الكتاب لإقليدس السكندري، مؤسس علم الحساب الهندسي وأبو الهندسة، حرّره الطوسي وهو عبارة عن 64شكلا، يذكر في بعض أشكاله" العين يحدث باستحداث من الأجرام المنيرة في الجسم الشفاف المتوسط

[1]- ابن حمادوش، الرحلة...المصدر السابق، ص:120.

[2]- للمزيد من المعلومات ينظر:علي موسى، مجسطي أبي الوفاء البوزجاني، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، مصر، ص: من المقدمة.

[3]- ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، تح: إنطون صالحاني اليسوعي، دار الشرق، ط3، بيروت، لبنان، 1992، ص:57.

[4]- ابن حمادوش، الرحلة...المصدر السابق، ص:138-139-143.

بينهما، وبين المبصرات كالهواء وما شاكله شعاعا لما تحدثه الأجرام النيرة"[1]، يبدوا إن ابن حمادوش تفرغ كثيرا لهذا المخطوط مطالعة ودراسة كاملة، يظهر ذلك من خلال المدة الزمنية التي خصصها له، وعن ذلك يقول ابن حمادوش:"ابتدأت في أواخر شوال من عام1156ه/1743م، ختمة في النهار في منظومة ابن سينا بشروحها لابن رشد... وفي الليل إقليدس، أحقق مسائله ولا أتجاوز فيه. ففي ليلة السبت ثاني وعشرين ذي القعدة ختمت المقالة الأولى منه ونظمت عدد مقالاته وعدد أشكاله...وفي يوم السبت من الشهر المذكور تممت المقالة الثانية...وفي ليلة الثلاثاء ثامن ينير ختمت المقالة الثالثة...وفي ليلة السبت ختمت المقالة الرابعة...وفي ليلة الخميس ختمت المقالة الخامسة...وإلى يوم الخميس آخر ربيع الأولعام1159ه/1146م تممت المقالة السادسة...وإلى يوم الاثنين رابع ربيع الثاني الموافق رابع عشر ابريل تممت المقامة السابعة وعدد صفحاتها185...إلى تاسعه تممت المقالة الثامنة...إلى يوم الأحد سابع عشر ختمت المقالة التاسعة...وفي سادس عشر من جمادى الأولى خامس وعشرين ماية تممت العاشرة من أقليدس، وبتمامها تم من صفحاته324، وجملة صفحات الكتاب453، مؤلفه وهو الطوسي الذي جمع مقالات إقليدس"[2].

مقامات الحريري، لأبي محمد بن القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري الحرامي البصري (ت516ه/1112م)، وهي من أشهر المقامات التي تنتمي إلى فن من فنون الكتابة العربية، الذي ابتكره بديع الزمان الهمذاني، وهو نوع من القصص القصيرة، تحفل بالحركة التمثيلية. كتاب المقامات الحريرية ثاني كتب المقامات شهرة وأجلها أثرا، لم يلقى واحد منها ما لقيه من عناية العلماء به، وتنافس الأمراء باقتناء نسخه، يضم خمسين مقامة، قال عنه الزمخشري في مدحه، وهو من معاصري الحريري"أُقْسِمُ بالله وآياته مُشعِرِ الحج وميقاته، إن الحريري حري بأن تُكتب بالتبر مقاماته، وهو الكتاب الرابع من كتب المقامات حسب التسلسل التاريخي".أما عن تاريخ دخول مقامات الحريري إلى المغرب والأندلس، فقد ذكر القاضي عياض في كتابه"التعريف بالقاضي عياض"، قوله: فقد أدخلها من أخذها مباشرة من الحريري، حيث أقبل من الأندلس فريق من علمائها لقراءة المقامات عليه، ثم عادوا إلى بلادهم حيث تلقوها عنهم العلماء والأدباء، وتناولوها رواية وحفظا ومدارسة وشرحا.[3]، يذكر ابن حمادوش إنه قرأها قراءة كاملة، وعن ذلك يقول:"وفي يوم الاثنين قدم الباشا حميد الذي ولاه عبد الله مكناس، وتهيأت البلاد والناس، وفي يوم الثلاثاء ختمت المقامات الحريرية التي كنت ابتدأتها في تطاون في بيتي"، ولعله سار على نهجه الحريري في تنظيم مقاماته، ومنها المقامة

---

[1] - كتاب المناظر في مجموع الرسائل لإقليدس، حرّرد:محمد الطوسي، مكتبة احمد الثالث، استانبول، تركيا، ص:55 وما بعدها.

[2] - ابن حمادوش، الرحلة...المصدر السابق، ص:160-161-255.

[3] - إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي-عصر الطوائف والمرابطين، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط1، عمان، 2008، ص:303، وياقوت الحموي، معجم الأدباء، تح:إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993، ص:127.

التي ألفها يوم الخميس السادس والعشرين ربيع الثاني1158ه التي رمز بها إلى زوجته الثانية أم أولاده، وهي من أجود المقامات التي ألفها ابن حمادوش[1].

العقائد السنوسية، لأبي عبد الله محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي(ت895ه/1490م)،تعتبر عقائد أهل السنة التي صنفها الإمام السنوسي من أحب الكتب العقدية إلى العلماء، لدقتها وجودتها وحسن نية صاحبها، وقد كان للعلماء عناية كبيرة بكتب السنوسي التي صنفها إلى:

عقيدة كبرى: وهي عقيدة أهل التوحيد والتسديد المخرجة من ظلمات الجهل وربقة التقليد المرغمة أنف كل مبتدع عنيد، والمشهورة بكبرى السنوسي وشرحها وسمّاها"عمدة أهل التوفيق والتسديد في عقيدة أهل التوحيد.

أم البراهين: وهي العقيدة الصغرى، والمشهورة بالسنوسية الصغرى، وهي مختصر مفيد وفيها جميع عقائد التوحيد.

المقدمات في التوحيد: وهي مقدمات على العقيدة الصغرى، وهي ثماني مقدمات في أصول الفقه والدين.

مقدمة صغرى الصغرى: وهي اختصار للعقيدة الصغرى، ثم شرحه عليها.

ونظرا لجودتها ودقتها على غيرها في دراسة علم أصول الدين، كتب العلماء عليها شروحات وتعليقات، واستخرجوا منها ما يتعلق بمنطوقها ومفهومها[2]. أخذ منها ابن حمادوش كلها وهو بجامع الأزهر بالقاهرة عام1123ه/1711م، وعن ذلك يقول:"وكذا أخذت العقيدة المعروفة بالسنوسية، وأم البراهين، والمقدمة المعروفة بالمقدمات، والمقدمة المعروفة بصغرى الصغرى ثلاثتهم للإمام أبي عبد الله محمد السنوسي، وشروحهم على خلق كثير...وأخذت الكبرى له وشرحها له، والمختصر المنطقي وشرحه للمؤلف المذكور..."[3].

الجامع الحسن الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، الشهير بصحيح البخاري، للإمام أبي عبد الله محمد بن اسماعيل بن المغيرة الجعفي البخاري(256ه/870م) رتب البخاري كتابه ترتيبا يندرج تحته أبواب، وتحت كل باب عدد من النصوص يقل أو يكثر حسبما يتفنن المؤلف في إيراده، وتناول سائر أحكام الشرع العلمية والإعتقادية، كما جاءت مادة الكتاب مقسمة على97 كتابا بدأها بكتاب بدأ الوحي وختمه بكتاب التوحيد. بلغت أحاديث البخاري بالمكرر سوى المعلقات

---

[1]- ابن حمادوش، المصدر السابق، ص:80-164.

[2]- ابن القاضي المكناسي، درّة الحجّال في أسماء الرجال، تح: محمد الأحمدي أبو النور، ج2، دار التراث القاهرة، المكتبة العتيقة، تونس، ص:142.

[3]- ابن حمادوش،الرحلة...المصدر السابق، ص:273-274.

والمتابعات7593 حديثا، ولأهمية الكتاب عند المسلمين اعتنى العلماء بشرحه، فكثرت الكتب المتعلقة به مثل الشروح والحواشي وشرح الغريب...[1].ركز ابن حمادوش كثيرا على هذا الكتاب، فقرأه، ودرّسه، وختمه، وقدم تفاصيل عن عدد الأحاديث، وأخبار عن رواة كتاب صحيح البخاري، وأبواب الكتاب، وطريقة سرد البخاري في الجزائر، وعن نفسه يقول:"وفي يوم الأحد حادي عشر رجب الموافق ثامن وعشرين يوليه ابتدأنا سرد صحيح البخاري في الجامع الكبير، وقفنا على كتاب الوضوء...وفي يوم الاثنين وقفنا على باب الصلاة...وفي يوم السبت وقفنا على باب صيام يوم وإفطار يوم... إلى إن يقول"وفي يوم السبت ثامن وعشرين رمضان وقفنا على باب ونضع الموازين القسط، وهو ختمنا البخاري"[2].

أهمية الكتاب وقيمته:

قد لا يكفي المؤرخ والباحث إن يكون معاصرا للحدث لتكسب رواياته قيمة، ولتعتمد كتاباته بوصفها مصدرا أوليا، مالم تتمتع بالثقة والمصداقية، واعتماده على مشاهدة الأحداث عيانا أو سماع، أخبارها عن أناس اشتركوا فيها أو شاهدوها. إن قيمة الكتابات التي يدونها المؤرخ مشاهدة تكمن في إنه سينفرد بذكرها على الأغلب، ولذلك قال المسعودي في وصفه لكتاب"الأوراق في أخبار الخلفاء" للصولي:"إنه ذكر فيه غرائب لم تقع لغيره، وأشياء تفرد بها لأنه شاهدها بنفسه"[3].

لقد شكلت الرحلة رافدا مهما من روافد ابن حمادوش، وأضفت على كتابته وأحكامه أصالة وحيوية، واستفاد منها في منهجه التاريخي، حيث اكتسب دقة الملاحظة، لأنه انطلق في كثير من أحكامه وملاحظاته من مبدأ المشاهدة والمعاينة المباشرة، ومن لقاءاته بالعلماء الذين قابلهم في أثناء رحلاته وتنقلاته بين المدن والبلدان المتعددة، ومن الكتب المختلفة التي عاد إليها.

كما كانت الرحلة الميدان التجريبي الطبيعي الذي استمده من رحلاته وأسفاره وما وقع له فيها، وما تحصل له من تجارب وملاحظات، لأن العصر الذي عاش فيه ابن حمادوش كانت فيه الرحلة لطلب العلم من المكونات الحقيقة لطالب العلم، إذ لا يستطيع إن يلم بمختلف الفنون والثقافات وهو ثاوٍ في قطر من الأقطار، فلا بد له إن يشد الرحال ليتصل بالعلماء كي يستفيد من عِلمهم، ويَدرس على أيديهم، ويَسمع منهم، وصدق ابن خلدون وهو يقول:"والإنسان الذي يتشوف بفطرته إلى العلم لا بد له من الرحلة في طلبه"[4].

1- محمد أبو زهو، الحديث والمحدثون، دار الفكر العربي، ج1، القاهرة، 1378د/1959م، ص:378.

2- ابن حمادوش، الرحلة...المصدر السابق، ص ص:216-217-235.

3- سليمان المديد السويكت، منهج المسعودي في كتابة التاريخ، منشورات كلية العلوم الاجتماعية بجامعة محمد بن سعود الإسلامية، ط1، المملكة السعودية، 1407د/1986م، ص:56.

4- ابن خلدون، المقدمة، طبعة المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، مصر(د ت)، ص:434.

إن أسلوب الثقافة الذي درج عليه علماء الجزائر في العصر الحديث في زمان ابن حمادوش والورتيلاني وابن عمار وغيرهم، هو نفس أسلوب الرحالة العرب والمسلمين الذين درجوا عليه منذ نهاية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، والمتمثل في الحاجة إلى معرفة المسالك والخطط لإثراء المعرفة الوصفية الجغرافية، وطلب العلم لإيصال المعارف لتحقيق الاحتكاك الحضاري بين الأمم، والدوافع الدينية لأداء الفرائض كالحج، فضلا عن الدوافع التجارية والاستكشافية، أو تلك الرحلات الرسمية التي يكلف أصحابها من قبل الخلافة[1].

فرحلة ابن حمادوش لم تخلو موضوعاتها من طرائق وصفها للأحداث بشكل أو بآخر، أو في تفسير للسلوكيات التي رآها أو سمعها من أناس مر ببلادهم، أو في مبادلاته التجارية التي كان يقوم بها، وهكذا نجده الرحالة العالم، والرحالة الحاج، والرحالة التاجر، وإذا كان مثلا الرحالة التاجر أحيانا يختلف في درجة قبوله لتفسير الظواهر من رفضها عن الرحالة العالم، والحال هنا مثلا ينطبق على المقدسي(ت380هـ/990م) الذي خرج تاجراً، وردت الإشارة عنه في مقدمة كتابه"أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" إنه لا يُعلِق أو يُشكِك في بعض الروايات، رغم إنها لا تتفق في العديد من مفاصلها مع الثوابت التاريخية والعقلية، فإن ابن حمادوش جمع تلك الوظائف كلها تقريبا، لتبقى مسألة التباين المعرفي لدى الرحالة أساسا في كثير من الأحيان في تحديد طبيعة قبوله وتحليله لكل ما يشاهد أو ما ينقل[2].

ولكن، من شدة همه للعلم وحبه للعلماء، مع ما كان يعتمل في نفسه من حب للوقوف على الحقائق بنفسه، لم يكتف بالاطلاع الواسع على ما كتب وألف، ولكنه أراد إن يقرن ذلك بالمعاينة المباشرة والمشاهدة الحية، فساق قدمه في كل أفق، فلم يكن مثلا كالجاحظ الذي لم يسلك البحار ولا أكثر الأسفار، واقتصر على كتب الوراق، ولا كالطبري الذي رحل إلى مصر وعاش فيها مدة من الزمن، وخالط علماءها، وكتب عن تاريخها ولكن كما ورد عن أهل الأخبار لا كما رأى وسمع، لذا فإنه دخل مصر وخرج منها وكأنه لم يذهب إليها، وإنما كان كالمسعودي الذي جاب الأقطار وضرب في الآفاق، واستخرج كل دقيق من معدنه، وأثار كل نفيس من مكمنه، تارة على متن البحر، وتارة على ظهر البر، مستعملين بدائع الأمم بالمشاهدة، عارفين خواص الأقاليم بالمعاينة"[3].

ومن هنا فإنه باستطاعتنا القول، إن ابن حمادوش كان من الرحالة الجزائريين الرواد في هذا المجال، حيث إن مؤلفه التاريخي"الرحلة" قد اصطبغ بصبغة المؤرخ المتحرك الحي الذي يرى الأشياء الجامدة المهملة التي لا يؤبه بها، فيكتب عنها، ليبعث فيها الحياة والحركة ويجليها للعيان، ومما هيأ له ذلك، الاستعداد النفسي والعقلي،

[1]- نقولا زيادة، الجغرافيون والرحلات عند العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، 1962، ص:43.

[2]- محمد نوري، الروايات التاريخية في كتابات الرحالة المسلمين في العصر العباسي بين الأسطورة والحقيقة، مجلة أبحاث، مج11، ع1، منشورات كلية التربية الأساسية، جامعة الموصل، العراق، 2011، ص:251-265.

[3]- المسعودي، مروج الذهب...، ج1، المصدر السابق، ص:12.

ونفس لا تمل المطالعة والتسجيل، وعين فاحصة دقيقة النظر، ولسان لا يني عن السؤال والجدل، ورِجْلا تحمله إلى حيث شاء من ذوي الصلة المباشرة بما يريد إن يعرف، ولعل العبارة المختصرة التي جمعتها من فقرات المؤلف خير دليل على ذلك، قوله:"وصبيحة السبت بعد شروق الشمس، خرجنا من جبل طارق، ألقينا مراسينا...وكانت عادة قبيحة بتطاون ابتدعوها، إنهم يأخذون كلما معك...وفي يوم الخميس الموالي له، ذهبت لزيارة سيدي علي الريف راجلا، فقطعت واد الكيتان إلى إنصاف فخذي...وفي يوم السبت حضرت دروس الشيخ البناني من كتاب الدعوات، فسألته عن الكيفية، فأراني أحد الأوجه الذي كان يرينا الشيخ زيتونة...وفي يوم الأربعاء أذن لي الشيخان البناني والورززي إن أدرس المقنع، فابتدأت ختمة للطلبة[1].

أما المورد الثاني من موارد ابن حمادوش والذي كان من أقوى الاهتمامات التي استحوذت على فكره، هو لقاءه العلماء، والتحادث معهم، ومناقشتهم فيما يريد إن يتوصل إليه من معلومات، ولهذا نراه بمجرد إن وطأت قدماه أرض تطوان بالمغرب الأقصى كان حريصا على الوصول إلى أماكن العبادة فيها، لأنها غالبا ما تكون ملتقى للعلماء، وعن ذلك يقول:"فدخلت تطاون في أول الساعة السابعة وصليت الظهر بها جماعة، فلقيت من علمائها الشيخ أحمد الورززي، فسلمت عليه"[2].

ومن خصائص ومميزات ابن حمادوش إنه تطرق في مؤلفه إلى ذكر معظم أسماء العلماء إن لم أقل كلهم، الذين التقى بهم، أو حضر دروسهم، أو نقل عنهم، وبيّن رأيه فيهم، ومدى ثقته بهم، وإعجابه بالبعض، وانصرافه عن البعض الآخر، ونظرا للعدد الكبير من العلماء الذين التقاهم، لا يمكننا إن نذكر إلا نموذجين ممن أشار إليهم، خاصة وإنني ذكرت سابقا البعض منهم في عنوان "**شيوخه**".

من أبرز العلماء المغاربة الذين قابلهم ابن حمادوش وحضر دروسهم الشيخ محمد البناني، وهو رجل تقي ذو ميل واهتمام بجميع العلوم الفقهية والأدبية، وكان لقاؤه به في مدينة تطوان سنة1156ه/1743م، ذكره ابن حمادوش كثيرا في مؤلفه، وفارقه وهو راض عنه،خصه بقصيدة مدحه فيها، يقول في بعض أبياتها:

سموت فلم يكن بقـــــربك نازل	فكنت في أوج العز تمطر بالسؤل
فأنت هو الشمس المنيرة في الورى	لكهفك قد تأوي الركائب للظل
أيا شيخنا البناني الاسم محـــــمد	فقد شهدت لك الأكابر بالفضل
كأنك لقمان في علمك والهدى	أو إنك حسان إذا فهت بالقول

1- ابن حمادوش، الرحلة...المصدر السابق، ص:34-35.

2-نفسه، ص:31.

أما من العلماء الذين حضر دروسهم وناقشهم وتبادل الآراء معهم، الشيخ أحمد الورززي، والذي ناقشه في مسألة"أفضلية الملائكة والرسل" ولكنه لم يقتنع بإجابته، فأنصرف عنه و لم يعد إلى مجلسه أصلا، سائلا له الهداية إلى الحق، وظنه به إنه يميل إلى مذهب الجرابة.

أما المورد الثالث الذي استفاد منه ابن حمادوش فهو الكتب، وقد تحدثت بالتفصيل عن بعض المصادر التي رجع إليها أعلاه، وهو الذي صرح برجوعه إليها في ثنايا مؤلفه، فهي مؤلفات متنوعة مختلفة، بعضها في التاريخ، وبعضها في علوم الرياضيات والفلك والطب، وبعضها في التصوف وفي الفلسفة وغير ذلك من الفنون.

لم يكتف ابن حمادوش بسرد مصادره التي اعتمد عليها، وإنما جاوز ذلك إلى الحكم على بعضها ونقدها نقدا علميا صحيحا، والأمثلة من ذلك كثيرة منها: تعليقه على رأي الشافعي التونسي حول مسألة "السبعة الذين خُلقوا معا"، فأظهر خطأه، وصوبه بقوله"فأنت ترى كيف إن الشافعي التونسي اضطرب في المعنى...وأقرب للصواب ما قلت، والله أعلم"[1].

وأحيانا أخرى يعلق على المؤلف ويبين طريقته في التأليف، ومزايا مصنفاته، وتأثيره على المؤلفين الآخرين الذين جاؤوا بعده، وهو الحال بثاليس الملطي الذي يقول عنه:"وفي هذا الزمان اشتهر في الفلسفة ثاليس الملطي، وقيل هو أول من قال بألاطوماطون...وبعده اشتهر في العلوم الرياضية أبولونيوس النجار، وله كتاب المخروطات المؤلف في علم أحوال المخروط...أخرج منه إلى العربية في زمان المأمون سبع مقالات...وهذا الكتاب، مع كتاب آخر من تصنيف أبولونيوس، كان السبب في تصنيف أقليدس كتابه بعد زمان طويل"[2].

وأحيانا ثالثة يبين لماذا وصلت بعض المؤلفات إلى مرتبة عالية، ودرجة رفيعة من الكمال، مثل المصنفات الجليلة للبيروني، والتي قال في حقها:"وبالجملة لم يكن في نظرائه في زمانه وبعده إلى هذه الغاية أحذق منه بعلم الفلك، ولا أعرف بدقيقه وجليله" وقوله عن مصنفات الفارابي:"فجاءت كتبه المنطقية والطبيعية والإلهية والسياسية الغاية الكافية"[3].

ومن هنا نرى كيف إن ابن حمادوش كان حريصا على عرض مصادره وتحليلها وبيان قيمتها الموضوعية، والدلالة على فضل أصحابها وبيان منزلتهم من العلم.

1- نفسه، ص:136.

2- نفسه، ص:142.

3-نفسه، ص:140.

فقط أريد إن أنبه في هذه المناسبة إلى إن ابن حمادوش في مؤلفه قد ذكر عددا كبيرا جدا من المؤلفات والكتب، ولكن ذلك لا يعني بالضرورة رجوعه إليها كلها بنفس الدرجة والاهتمام، فقد يذكر بعض المؤلفات عدة مرات للدلالة على أهميتها، بينما يذكر البعض الآخر ذكرا خفيفا يكون قد سمع به أو قرأ عليه شيئا، ولهذا فليس كل ما ذكر من هذا القبيل يعتبر مصدراً من مصادر ابن حمادوش.

وأختم بما قاله أطفيش في شإن كتاب"السير" لأحمد الشماخي:"يظن الذين لاحظ لهم من التاريخ إنه كتاب غير مفيد، ولكنهم لا يعلمون إنه ثروة ومادة أخذت من كل ناحية بسبب"[1]، لأقول نفس الكلام في شأن كتاب"الرحلة" لابن حمادوش.

المبحث الرابع: رحلة الناصري المعسكري(حلتي ونحلتي في تعداد رحلتي) لمحمد أبي راس الناصري

أولا:اسمه ونسبه

هو محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن الناصر بن علي بن عبد العظيم بن معروف بن عبد الله بن عبد الجليل، وكنيته بأبي الطاهر، وقيل إنه اشتهر بأبي راس لضخامة رأسه، أو لكثرة وسعة معلوماته وسرعة حفظه[2].

أكد أبو راس على نسبه الشريف، بانتمائه إلى البيت النبوي الشريف، حيث قال:"إن هذا النسب متصل إلى عمرو بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم[3]. وإذا كانت معظم المصادر والمراجع تتفق على نسبه الشريف، وهو الذي ذكر إن عالمين جليلين من المنطقة شهدا له بانتمائه هذا، وهما الشيخان المصطفى بن المختار جد الأمير عبد القادر وعبد القادر بن السنوسي، فإن أبا القاسم سعد الله قد شكك في انتماءه إلى النسب الشريف بقوله:"إذا كنا لا نشك في موهبته كنسابة فإننا نشك في نسبته إلى الشريف"[4].

ثانيا:مولده ونشأته

ولد أبو راس الناصري بمنطقة تقع بين جبل كرسوط وهونت بقلعة بني راشد قرب مدينة معسكر عام1150ه/1737م، أي في منتصف القرن الثاني عشر الهجري. وبالمنطقة التي ولد فيها توجد مقبرة أسرته، حيث دفن أكثر أبائه وأجداده، والتي يقول فيها أبو راس ذاكرا جده الرابع" وهو الناصر الذي كان أول من

---

[1]- أحمد الشماخي، كتاب السير، در و تح: محمد حسن، ج1، دار المدار الإسلامي، ليبيا، 2009، ص:15.

[2]- أبو راس الناصري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تحقيق وضبط وتعليق: عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص:25.

[3]- نفسه، ص:25.

[4]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر-القسم الأول-ط2 منقحة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص:89.

ميز المصلى الذي في بلادنا غربي النهر المذكور، وحَوزهَا بأحجار كبيرة لتدريس العلم وصلاة العيد، وهي في شجر عرعارة طويلة غليظة مستقيمة من أدراج الشجر العظيمة"[1].

نشأ أبو راس يتيما، فقد قرأ على والده قبل وفاته ما يقارب ختمة القرآن، فأتقن أحكامه وحفظها عن ظهر قلب بروايتي ورش وقالون، كما قرأ إلى جانب ذلك صدراً من الفقه قبل صومه الأول بمعسكر، بعدها رحل إلى مدينة مازونة بعد إن ذُكِر له كثرة مجالسها، ونجابة طلبتها، وجهابذة أشياخها، فحفظ مختصر خليل حفظا، وفهمه معنى ولفظا، وهو الذي قال:" ومن مازونة نبغ عنصر أسرار خليل، ونم نوره في الأقطار، وصار يشارك في التدريس منذ عامه الأول، وفي العام الثالث، صار لا يشق له في فهم المختصر غبار، وطار صيته بذلك في كثير من الجهات، حتى صار طلاب الفقه يقصدونه"[2]. وبعد ثلاث سنوات قضاها في مازونة، عاد أبو راس إلى معسكر، وعن ذلك قال:"لما انصرفت من مازونة، وقدمت إلى أم عسكر، ما معي شيء من المال ولا غيره سوى معرفة الفقه وحده"[3]. فاتصل بالشيخ عبد القادر المشرفي الذي أعجب بذكائه وحفظه، ولما رأى صغر سنه قربه واستخدمه للقيام ببعض شؤونه، ولازمه حتى اخذ عنه الفقه. تزوج امرأة من أولاد أمحمد بن يحي، وهي أخت الشيخ محمد بن فريحة عميد علماء غريس، ولما ذاع صيته، تنافس عليه مشايخه للظفر بتدريس أولادهم، فاختار شيخه عبد القادر المشرفي بالقيطنة ليتولى التدريس عنده إلى إن توفي عام1192ه/1778م، لينتقل بعدها إلى مدينة معسكر، فشمر عن ساق الجد للتدريس والتأليف ليلا ونهارا، واستمر على ذلك مدة ست وثلاثين سنة، ما ترك الدرس فيها إلا صبيحة يوم الاثنين للاستجمام كما قال[4].

ثالثا:أقوال العلماء فيه

قال عنه شيخه عبد القادر المشرفي للباي:"إنما اخترته على من هو أكبر منه من تلامذتي لأنه فيه النفع والقريحة"[5].

وقال عنه أبو القاسم الحفناوي:"العلامة المحقق الحافظ، والبحر الجامع المتدفق اللافظ، من هو ليث الدين، أوثق الناس وأوضأ نبراس، الإمام القدوة المتفنن، سيدي محمد أبو راس، كان رحمه الله إماما في المنقول والمعقول"[6].

1- أبو راس الناصري، فتح الإله...المصدر السابق، ص:27.

2- نفسه، ص:21.

3- نفسه، ص:21.

4- نفسه، ص:22.

5- نفسه، ص:24.

6- أبو القاسم الحفناوي،المصدر السابق، ص:167.

وقال عنه صاحب القول الأحوط:"الإمام القدوة الأسوة، الهمام الحافظ، الضابط المتقن للدراسة والضوابط، ذو القلم الصحيح، واللسان الفصيح، كان إماما في المعقول والمنقول"[1].

وقد أبنه محمد بن يوسف الزياني بقوله:"وفي وقته، أي زمن الباي حسن آخر بايات وهران،مات مجدد القرن الثالث عشر، وصاحب التآليف العديدة والتصانيف المديدة،الشريف الأمد، العلامة الفرد، الحافظ أبو راس محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن ناصر بن علي بن عبد العظيم بن معروف بن عبد الجليل الراشدي المعسكري، والذي ليس له نظير ولا مثيل،يوم الأربعاء خامس عشر شعبان سنة1238ه، من له العزة والشرف...[2].

رابعا:شيوخه وتلاميذه

من مميزات التعليم في المدارس آنذاك، إن المشايخ كانوا يسمحون بالمناقشة والسؤال، فيستعدون للرد والإجابة المقنعة دون انفعال، أو حرج للطالب والسائل، وتزداد أهمية التعليم عند أخذه عن الشيوخ الموثوقين، وعن ذلك قال أبو راس:"ومازال الناس يفتخرون بكثرة الشيوخ، فكان للإمام مالك تسعمائة، وللبخاري أكثر... وأبو راس واحد من الذين يفتخرون بكثرة شيوخه[3]. وقد لاحظنا ونحن بصدد تقديم قائمة شيوخ أبي راس الناصري، إن من العلماء من حضر مجالسهم مرتين أو ثلاث، خاصة شيوخ دعوة الغيبيات بسبب تصرفاتهم الدنيئة، ولذلك أعرض بعد حضوره ثلاثة أيام عن حلقات الشيخ محمد أبي طالب بمازونة، وهناك من لازمهم سنين كالشيخ عبد القادر المشرفي بمعسكر.

1-شيوخه:

تلقى أبو راس ثقافة علمية فقهية وأدبية واسعة، وحتى وإن كانت ثقافته تقوم على المجهود الشخصي، فإن لها نسبا، وهي أخذه عن الشيوخ والعلماء الأجلاء، ولذلك نجده أفرد لهم بابا خاصا في سيرته الذاتية"فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته"، كما خصهم بتأليف سماه"لب أفياحي في عدة أشياخي" عرض فيه أسماء الشيوخ الذين أخذ عنهم، وسنذكر البعض منهم حسب المدن والبلدان التي زارها والتقى بعلمائها:

ففي معسكر، أول شيوخه والده الشيخ احمد الذي قرأ عليه القرآن وكتابة الحروف، واخذ عن الشيخ منصور الضرير القراءة المتقنة والأحكام المؤقتة في علوم القرآن وفرائضه،كما درس الفقه المالكي على يد شيوخ كانوا حجة في فروعه وأبوابه، ومن أبرزهم: الشيخ محمد بن مولاي بن علي بن سحنون قاضي معسكر، والشيخ الموفق بن عبد الرحمن الجلالي، والشيخ عبد القادر بن عبد الله المشرفي، صاحب تأليف"بهجة الناظر في أخبار

1- مجهول، القول الأحوط في معرفة الفنون والكتب المتداولة في المغرب الأقصى والأوسط، مخطوط مؤلفه مجهول، ص:18.

2- محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وإنيس السهران،...المصدر السابق، ص:226.

3-أبو راس الناصري، فتح الإله...المصدر السابق، ص:42.

الداخلين تحت ولاية الإسبانيين كبني عامر"، فقد استفاد منه كثيراً ولازمه طويلا، قال عنه:"كان رحمه الله يوعدني على صغر سني بالمراتب السنية، والمناصب الزكية، أوصى أولاده علي، قليل التردد على الأمراء، عُرض عليه القضاء عدة مرات، فلم يلتفت إليه ولا عرج عليه، ويشبهه في التعفف والزهد بالجنيد"[1].

وفي مازونة، فقد درس على يد العربي بن نافلة وأخيه أحمد بن نافلة الواسع المجال في تحقيق الصرف وبيوع الآجال، ومحمد الصادق بن أفغول الذي كان خبيراً بعلم الشريعة، والشيخ ابن علي بن أبي عبد الله المغيلي الذي صار بين يديه رغم الزحام والضيق.

أما في الجزائر العاصمة، والتي زارها كثيراً، وتردد على علمائها مرارا، فقد درس على شيوخ الإسلام كأحمد بن عمار، ومحمد بن الحفاف، والمفتي علي بن عبد القادر المعروف بأن الأمين، ومحمد بن جعدون، وكلهم اعترفوا لأبي راس بفضل العلم وغزارة الإطلاع والحفظ، فلقبوه بالحافظ [2]، كما التقى علماء وهران وتلمسان والبليدة وقسنطينة، وفي كل المناطق التي زارها بالجزائر.

وفي فاس، وهي المحطة الأولى في رحلاته، فقد التقى ودرس على الشيخ الطيب بن كيران الحافظ والمفتي والخطيب والعالم بالسير وأخبار السلف، والشيخ عبد القادر بن شقرون نحوي فاس باتفاق الناس.

وفي تونس التي يذكرها باسم أم البلاد، ومثوى الطارق والتلاد، فقد نزل على علمائها وفقهائها منهم المفتي محمد بن قاسم المحجوب الذي درس عليه فقه النوازل، ومحمد بيرم مفتي الحنفية، قرأ عليه فقه أبي حنيفة بمختصر الكنز، قال عنه أبو راس:"إنه إمام في الآداب والبيان والإعراب واللغة والأنساب والفرائض والحساب"[3].

وفي مصر، فقد درس الفقه الشافعي على الشيخ عبد الله الشرقاوي، والفقه الحنفي على الشيخ أبا الفيض مرتضى الزبيدي، والفقه الحنبلي على الشيخ عثمان بمختصر الشيخ مرعي بن يوسف المقدسي.

أما في الحجاز، فقد التقى علماء وفقهاء، برعوا في علم الحديث، والتفسير، والأصول، وعلم الكلام، كالشيخ عبد الرحمن التادلي، وعلماء الحركة الوهابية الذين تباحث وتناظر معهم في مسائل التسبيح بالسبحة، ومشاهد السادات، وهدم مباني الأولياء وذوي الكرامات[4].

1- نفسه، ص:55.

2- نفسه، ص:143.

3- نفسه، ص:52.

4- نفسه، ص:119.

2-تلاميذه:

إن أبا راس الناصري لم يتحدث عن تلاميذه بالتفصيل كما تحدث عن شيوخه، ولم يذكر إلا القليل منهم، وفي مناسبات مختلفة، ولكن المسجد المحمدي بمعسكر الذي كان يلقي به دروسه، كان يضيق بطلبة العلم، فقد وصل عدد الطلبة في حلقات دروسه سبعمائة وثمانون طالبا في بعض السنين، فقد قال عنه ابن بكار بلهاشمي:"تخرج عنه كثيراً من فطاحل العلماء"[1].

ومن هنا لا نشك في كثرة طلبته الذين صاروا علماء، ساهموا في إثراء الحركة الثقافية في معسكر والجزائر عامة، ولعل من أشهرهم: الشيخ السنوسي بن السنوسي الذي قال فيه أبو راس:"قرأ علي الفقه، ولجلالته وعلو منصبه أفردته عن الطلبة في القراءة لكثرتهم حتى يضيق عنهم الجامع ورحابه"، والشيخ أحمد الدايج الملقب بالخرشي الكبير عند أهل الراشدية، والذي صلى على أبي راس عند وفاته، والشيخ ابن تكوك، فقيه السنوسية ومؤسس زاويتها سنة1276ه/1861م، والشيخ الطيب بن فريح الذي انفرد بمعية الأمير عبد القادر بالشيخ أبي راس الناصري، والذي أصبح من أجّل علماء مدينة معسكر، وإليه المرجع في الفتوى في زمانه[2].

خامسا: وظائفه ومكانته

1-وظائفه:

اشتهر أبو راس وذاع صيته، فأدرك بايات معسكر مرتبة الاجتهاد الفقهي التي بلغها، خاصة وإنه يفتي بالمذاهب الأربعة، فقلدوه الفتوى والخِطابة والقضاء بعد رجوعه من أداء فريضة الحج عام1205ه/1791م، لأن حكام الأتراك كانوا حريصين أشد الحرص على تعيين القضاة بأنفسهم، ولكنه لم يكن متحمس لها كما تحمس للتدريس من قبل، فهو يَعْلَمُ تمام المعرفة ثقل المهمة من جهة، والقضاء يشغله عن التأليف والتصنيف من جهة ثانية، فإذا كانت شهرة سعيد المقري مثلا جاءت من أثره في التدريس، فإن شهرة أبي راس جاءت من أثره في التأليف[3].

2-مكانته:

1- بلهاشمي بن بكار، مجموع النسب والحسب...المصدر السابق،ص:13.

1-Gorguos, Bou Ras, historien inédit de l'Afrique septentrional, R. A, vol 5, année 1861, 1èr partie, pp : 114-124, 2éme paris, pp : 210-222, 3éme partie pp : 376-385.

G Dogat, sidi hamed Ben Mohammed Ben mokri, R A, vol 5, année 1861, pp: 422-423

3- يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا...المرجع السابق،ص:133-135.

نظرا لضلوعه في شتى علوم عصره، ولقوة ذاكرته،خطف الأضواء بسرعة كبيرة حتى تنافس عليه الشيوخ والعلماء، وحظي بمكانة عالية لدى بايات معسكر ولدى سكان الراشدية، وذلك بسبب ميله إلى التحرر العلمي، ومحاولته التوفيق بين المذاهب، وتفتحه للنقاش والحوار، وأخذه بالحل الوسط ورفضه للتشدد والغلو في القضايا الدينية والاجتماعية، ولذلك انتقل أبو راس من المحلية إلى العالمية، ومن حافظ مدينة معسكر والجزائر، إلى حافظ يعرفه العلماء في مغارب الدول العربية ومشارقها، فلقب بالحافظ بفاس وبشيخ الإسلام بمصر، ووصف بالموسوعة المعرفية، فقال عنه رابح بونار:"وقد استطاع بفضل مستوى موهبته وعبقريته إن يرتفع من مستوى عصره الفكري، وإن يعيد للدراسات العلمية والفقهية مجدها وجلالها، تؤكده شهادة معاصريه من العلماء"[1].

سادسا:مؤلفاته

إن طريقة الكتابة عند أبي راس مبنية على الاستحضار والاستدلال بالملائمات، يستعمل إطلاعه العلمي الذي يستحضر فيه أعلام العلماء والعلم الذي اشتهروا به، ويستعمل فيه حمولته اللغوية التي يستحضر فيها المترادفات، والمشتقات، والمتجانسات، لأنه لم يكن حافظ فقط، ولا فأهما فحسب، بل جمع بين الحفظ والفهم، ولا ريب إنها طريقة اغلب الحفاظ والموسوعيين القدماء كالجاحظ والسيوطي وأحمد المقري وغيرهم[2].

كتب أبو راس في كل علوم عصره، كعلوم القرآن، والتفسير، والقراءات، والحديث، والفقه، والتوحيد، والتصوف، والنحو، واللغة، والبلاغة، والعروض، والمنطق، والأصول، والتراجم، والأنساب، والتاريخ بدرجة أكثر، كما نظم الشعر.بيد إن هذا التوسع في العلوم يجمع بين التآليف الأصلية من وضعه، والشروح والتعاليق على كتب وقصائد له ولغيره[3].

ذكر أبو راس تآليفه في كتابه"فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته" إنها أزيد من تسعين كتابا، وقال المستشرق كراتشوفسكي إن تصانيفه في مختلف العلوم بلغت مائة وأربعين مصنفا[4] ،وقال عنه تلميذه أبو حامد المشرفي"إن تآليف شيخه أبي راس أوشكت إن تزيد على عدد أيامه، فقد ألف في سائر العلوم، فهو أشبه

---

[1]- رابح بونار، أبو راس الناصري وتاريخ مدينة الجزائر، من كتاب تاريخ المدن الثلاث-الجزائر، المدية، مليانة بمناسبة عيدها الألفي، إعداد وتعليق: عبد الرحمن الجيلالي، ط2، الجزائر، 1972، ص:193.

[2]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء...المرجع السابق،ص:93.

[3]- من العادات المألوفة لدى الكتاب العرب تأليف ثلاثة شروح على الكتاب الواحد، وذلك إنه يتناول كل فقرة بعد الأخرى ويوردها كاملة ويوضحها جزءا بعد جزء مميزا للنص الأصلي. ولعل أبو راس يكون قد اقتبس ذلك من الفيلسوف ابن رشد والذي بدوره يكون قد اقتبسه من مفسري القرآن الكريم، هذا المنهاج الحرفي، حيث يفرق بين ما هو خاص بالمؤلف وما هو خاص بالشارح. ينظر: ارنست رينان... المرجع السابق، ص:73-74.

[4]- كراتشوفسكي، تاريخ الأدب...المرجع السابق، ص:768.

بأسد الفرات في غزارة علمه وإطلاعه على المذهب المالكي"[1]،بينما لخص أبو القاسم سعد الله العدد حينما قال"أكثر أبو راس من التآليف كثرة لا يضاهيه فيها من الجزائريين أحد حسب علمنا باستثناء احمد البوني الذي تجاوزت تآليفه المائة"[2].

أورد يحي بوعزيز في كتابه"أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة"،قائمة بأسماء مؤلفات أبي راس كما سجلها بنفسه على حد قوله، ونظرا للعدد الكبير، سأكتفي بذكر البعض منها حسب العلوم والفنون التي كتب فيها، ومنها:

في علم التراجم: كتاب"فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته"، وهو عبارة عن سيرة ذاتية، ألفه في أواخر حياته، وقسمه إلى خمسة أبواب:

الباب الأول: في ابتداء أمره، ذكر فيه نسبه ومولده وتعلمه.

الباب الثاني: خصصه لذكر أشياخه النافضين عنه قشب أوساخه شريعة وحقيقة وقرآنا وطريقة على حد قوله.

الباب الثالث: ذكر فيه رحلاته إلى المشرق والمغرب العربيين والمدن التي زارها بالجزائر.

الباب الرابع: تحدث فيه عن المناظرات والمحادثات والتساؤلات مع العلماء الذين لقيهم في المناطق التي زارها.

الباب الخامس: رتب فيه مؤلفاته في كل فن من الفنون التي كتبها، سماه بالعسجد والإبريز، واعتبر هذا المؤلف من كتب الرحلات.

وفي علم التاريخ: يعتبر أول وأكثر فن ألف فيه أبو راس، وصلت فيه مؤلفاته إلى 34 كتابا، منها: زهر الشماريخ في علم التاريخ، وهو عبارة عن تأليف تاريخي للأمم والشعوب منذ بدء الخليقة إلى البعثة المحمدية، ركز فيه على أنساب القبائل العربية والبربرية. مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم ك ونسخة بمكتبة القصر الملكي بالرباط- المغرب الأقصى- تحت رقم13.923ك، ونسخة منه تحصلنا عليها من زاوية الهامل ببوسعادة.

وكتاب"درء الشقاوة في حروب درقاوة"، سجل فيه الحروب التي دارت بين العثمانيين والدرقاويين في أوائل القرن التاسع عشر، ولكنه في حكم المفقود، وكتاب"الخبر المعرب عما وقع بالأندلس وثغور المغرب"مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم3182.

1- ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للمغرب الإسلامي"تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين"، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1999، ص:461-462.

2- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر...المرجع السابق، ص:394.

في علم التصوف: كتاب"الحاوي لنبذ من التوحيد والتصوف والأولياء والفتاوى، وكتاب"الزهر الأكم في شرح الحكم، شرح فيه حكم ابن عطاء الله السكندري، ويعرف باسم"فتح الإله في التواصل إلى شرح حكم ابن عطاء"[1].

في علم اللغة والأدب والقصائد: كتاب"درة عقد الحواشي على جيد شرحي الزرقاني والخرشي"في أربعة أسفار، وكتاب"النظم العجيب في الفروع التي قل فيها النص مع كثرة الوقوع" وكتاب"الدرة الأنيقة في شرح العقيقة" شرح أول،و"البشائر والإسعاد في شرح بانت سعاد"و"طراز شرح المرداسي لقصيدة المنداسي" شرح ثإن، و"فتح الإله في شرح عقيقة ابن عبد الله"شرح ثالث[2].

ومما يلاحظ على مؤلفات أبي راس الناصري، كثرة الشروح لقصائد سواء من وضعه أو من وضع غيره، والجمع بين الأدب والتاريخ، حيث يبدأ بكتابة قصيدة موضوعاتها أدبية، ثم ينتقل إلى شرح هذه الموضوعات شرحا تاريخيا، كقصيدة"نفيسة الجمان في فتح ثغر وهران" التي شرحها وحولها إلى متن سماه"عجائب الأسفار ولطائف الأخبار".

سابعا:وفاته

توفي يوم الأربعاء الخامس عشر من شعبان سنة ثمان وثلاثين ومائتين وألف هجرية، الموافق ل الثامن والعشرين أبريل سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة وألف، عن عمر يناهز التسعين سنة، يرجح إنه توفي بمرض الطاعون الذي ضرب المنطقة في ذلك الوقت، حيث يذكر صاحب كتاب"أنيس الغريب"،قوله:"مات حافظ العصر أبو راس محمد بن احمد بن عبد القادر الراشدي المعسكري بوباء الطاعون..."[3].

دراسة الكتاب ومحتواه:

الكتاب ونسبته إلى مؤلفه:

عن نسبة كتابه يشير أبو راس الناصري إلى مؤلفاته كاملة في الباب الخامس من مؤلفه"فتح الإله"، وعن ذلك يقول"وإني قد عزمت على تأليف عظيم الجدوى، بليغ الفحوى، يحتوي على أبواب وأسئلة فتوى...منها الباب الخامس في تأليفي في كلّ فنّ، وسميته"فتح الإله ومنّته في التحدث بفضل ربّي ونعمته"،كما يشير في الباب الرابع الذي خصصه للأسئلة وما يتعلق بها من نفس الكتاب،إلى مؤلفه الذي يقدم فيه حياته وسيرته

[1]- أبو راس الناصري، فتح الإله...المصدر السابق،ص:180-181.

[2]- يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا...المرجع السابق،ص:171.

[3]- مسلم بن عبد القادر، إنيس الغريب والمسافر...المصدر السابق، ص:80.

الذاتية، بقوله"هذا ما حضرني من الأسئلة في وجهتي وأثناء رحلتي، التي هي ملء العيبة في طول غيبة إلى مكة وطيبة وغيرها"[1].

موضوعات الكتاب:

لاشك إن المتصفح لكتاب"فتح الإله" يدرك تمام الإدراك إنه عبارة عن سيرة ذاتية، تحدث فيها أبو راس الناصري عن أهله، وبيئته، وشيوخه، وعلومه، وأسفاره، ومؤلفاته، وعن العلماء الذين لقيهم بالمغرب والمشرق العربيين خلال رحلاته وتنقلاته، كما يكشف الكتاب عن معلومات كثيرة وهامة منها على سبيل المثال: العلاقات بين الدول وحدودها الجغرافية كالعلاقة بين الجزائر والمغرب الأقصى في عهد الدولة السعدية، وعن علماء عصره الذين تناظر معهم، وعن مستواهم العلمي، ومن بينهم علماء الحركة الوهابية بالحجاز، وأخبار عن المذاهب الدينية الأربعة

الكتاب مقسم إلى خمسة أبواب وهي:

الباب الأول: يسميه بابتداء أمري، وفيه يعرض مولده ونشأته، نسبه النبوي وشرفه السنّي، والمنتمي الحسني، والبيت الكريم العلوي، فهذه عنده من المقدّمات التي لا تؤخر، ومن الكنوز التي يُنفق منها ويدّخر.

الباب الثاني:في ذكر شيوخه النافضين عنه قشب أوساخه شريعة وحقيقة وقرآنا وطريقة، يذكرهم بخصالهم، ويعددهم بمراتبهم، فيقول عن ذلك:"أول شيوخي والدي الشيخ أحمد، قرأت عليه وإنا صغير جداً...إلى إن يصل به المقام، فيقول"وقد اجتمعت بعالم الدنيا على الإطلاق وأديبها بالاتفاق السيد إبراهيم الرياحي"[2].

الباب الثالث: يذكر فيه رحلاته للمشرق والمغرب الأقصى، ولقاءاته بالعلماء الأعلام، وما جرى له معهم من المناظرات والمراجعات. يرتب رحلاته زمنيا ومكانيا، بحيث يبدأ برحلاته داخل الوطن ذاكرا المدن التي زارها كالجزائر العاصمة ووهران وتلمسان وقسنطينة، ثم ينتقل إلى الدول التي زارها تباعا كمدن فاس وتطوان بالمغرب الأقصى، وتونس، ومصر، والحجاز، والشام، وفي كل منطقة دخلها إلا ولقي علمائها وفقهائها ومفتيها.

الباب الرابع: خصصه للأسئلة وما يتعلق بها، مصورا مجالس العلماء بالأبهى من الروض الأنف، وبالزهد الذي سارت به الركبان، وبالمحاسن التي يقصر عنها اللسان، أعلام أجلة وعلماء ملة، مرددا في كل مرة:"سئلت وقلت".

1-أبو راس الناصري، فتح الإله...المصدر السابق، ص:15-165.

2- نفسه، ص:110.

الباب الخامس:يسميه بالعسجد والإبريز في عدة ما ألفت بين بسيط ووسيط ووجيز، ومحتواه قائمة مؤلفاته التي ألفها حسب العلوم و منها: علوم القرآن، والتصوف، والتاريخ، القصائد الشعرية، وغيرها. وقد ذكر إنه عدد تآليفه وجملة تصانيفه اقتداءً بالإمام السيوطي الذي عدّ ما ألف في كتابه"حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة"،فكانت نحو الثلاثمائة وعشرة، مؤكدا إنه لا أحد أكثر من التصانيف بعده منه.

منهج الكتابة عند أبي راس وأبرز مميزاته:

من المعلوم إن المؤرخين العرب والمسلمين ألفوا كتبهم بأشكال مختلفة، ودونوا رحلاتهم بمناهج متنوعة تنوع أهداف رحلاتهم، ولما كان أبو راس الناصري واحد من هؤلاء الرحالة البارزين خلال القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي الذين اهتموا بالتدوين التاريخي، وأخبار الجزائر والعالم العربي والإسلامي، كان من الضروري معرفة المنهج الذي اتبعه في مؤلفه"رحلتي ونحلتي".

الواقع إنا أبا راس الناصري لم يستحدث منهجا خاصا به، فهو كسابقيه من الرحالة المؤرخين اتبع المنهج الذي اعتمد عليه أغلب المؤرخين الذين عايشهم ودونوا رحلاتهم، وهو الذي قال:"وأسوتي في ذلك رحلة الجهابذة النحارير، والأسانيد الجماهير:كرحلة الإمام ابن رشيد السَّبتي، والخطيب ابن مرزوق، ورحلة الشيخ أبي سالم عبد الله بن محمد العياشي...وكذا رحلة الشيخ أحمد بن الناصر وغيرهم"[1].

وعليه، فإن أبا راس انتهج منهجا واضحا في رأينا، اعتمد فيه على سرد الأحداث ونقل الأخبار والروايات التاريخية، وحاول تحقيق قاعدة"الرحلة جزء من التاريخ" من خلال ربط التاريخ برحلته الخصوصية، لأن التاريخ البشري في نظره هو تجربة فردية وأيضا جماعية، وهو ما يوضحه عبد الله العروي نقلا عن فون رانكة حين يقول:"إن التاريخ تاريخ لا يعود، وكل عمل له خصوصية ذاتية. لكن هذه الخصوصية لا تنفي وحدة التاريخ الكوني الذي يمثل تجليات الوعي الإنساني، الوعي بأن الإنسان حر بما إنه تاريخي، وتاريخي بما إنه حر"[2].

إن رحلة أبي راس الناصري هي تسجيل لرحلتين قام بهما، تفصل بينهما مدة عشرين سنة، وهي مدة كافية لحدوث تغييرات كبيرة على جميع الأصعدة، ولكنه كتبها في شكل مذكرات، وعني فيها بإسهاب بتدوين كل الجوانب، العلماء الذين اتصل بهم في البلدان التي زارها، والدروس التي حضرها، والشيوخ الذين استجازهم، وما سمع من أحاديث، وما رَوى من الأشعار.وعموما يمكن إدراج رحلة أبي راس الناصري ضمن

---

[1]- نفسه، ص:91.

[2]- عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، المركز الثقافي العربي، ط4، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 2005، ص:359.

الرحلات المغاربية التي اتخذت طابعا فهرسيا، وهي التي استخدمها الأندلسيون والمغاربة على السواء للتعبير عن الكتب التي جمعت أسماء العلماء والأسانيد والمرويات والقراءات على الشيوخ، والمصنفات المجازة ونحو ذلك[1].

من الطبيعي إن تنفرد كل رحلة بخصائص تميزها عن غيرها، ومنها التحديد الزماني والمكاني، حيث اهتم معظم الرحالة بتحديد تواريخ الأحداث، وأوقات السفر بالسنوات والشهور، بل بالأيام والساعات بدقة تامة عند البعض، فابن جبير الأندلسي مثلا أرخ بالتاريخ الهجري والميلادي، وبأسماء أيام الأسبوع، والأشهر العربية والإفرنجية على شاكلة طريقة المذكرات الشخصية، ومما جاء في مقدمة رحلته يوضح ذلك:"وكان انفصال أحمد بن حسان ومحمد جبير من غرناطة حرسها الله للنية الحجازية المباركة شرفها الله بالتسيير والتسهيل وتعريف الصنع الجميل أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال سنة ثمان وسبعين وخمسمائة وبموافقة اليوم الثالث لشهر فبراير الأعجمي..."[2]، ومنهم من اكتفى بالتاريخ الهجري فقط كالمقري في رحلته إلى المغرب والمشرق، بينما لا يعتمد أبو راس التاريخ في رحلته إلا نادرا.

لم يكتفي أبو راس الناصري بالتحديد الزملكاني، بل صور حياة القبائل التي عَبَر أراضيها، والمراحل التي قطعها في رحلته، والمسافات بين كل مرحلة وأخرى، والمناطق والأماكن والمدن التي دخلها، وكل ذلك باستعمال مفردات منها"ولما دخلت" و"رحلت"و"ذهبت"، وهذا ما يجعل القارئ يدرك إن الأدب والجغرافيا اجتمعا سويا بتوافق فذ في تأليف أبي راس المتمكن من أدوات الرحلة بجدارة[3].

إن الوقوف على رحلة أبي راس الناصري تدفعنا إلى معرفة بعض الخصائص والمميزات التي تميزت بها، ومنها إن الراوي في الرحلة هو المؤلف ذاته، وهذه هي إحدى خصائص الكتابة الرحلية عامة، وعند أبي راس الناصري خاصة، وفي هذه الحال يكون الراوي حاكيا وموضوعا للحكي. فهو يكون حاكيا عندما يصف، ويكون موضوعا للحكي عندما يسرد، وبهذا يقدم الراوي (الرحالة) معرفة موضوعية أثناء الوصف، كما يقدم تجربة ذاتية أثناء السرد[4].

1- هناك نوع من الرحلات الأندلسية إلى الجزيرة العربية يسمى بالرحلات الفهرسية أو البرامجية، وكلمتي"فهرسة-برنامج"من الألفاظ الفارسية المعربة، وهي كلمات مرادفة ل"المعجم-الثبت-المشيخة"في الشرق الإسلامي.ينظر:خالد البكر، الرحلة الأندلسية إلى الجزيرة العربية، جامعة الملك سعود، المملكة السعودية، 2003، ص:22-24.

2- محمد بن جبير، ابن جبير الأندلسي-اعتبار الناسك في ذكر الآثار والمناسك-تق: إبراهيم شمس الدين، منشورات علي بيضون، دار الكتب العلمية، لبنان، 2003، ص:من المقدمة.

3- أبو راس الناصري،فتح الإله...المصدر السابق،ص:108.

4- عبد الفتاح كيليطو، المقامات السرد والأنساق الثقافية، تر: عبد الكبير الشرقاوي، ط1، دار توبقال، المغرب الأقصى1993، ص:33.

مصادره:

لقد تنوعت وتعددت مصادر أبي راس الناصري في رحلته، من روايات شفوية، وكتابات تاريخية، وأقوال مأثورة، ومجالس علمية يصفها بالحكيمة. ونظراً للعدد الكبير من المصادر المكتوبة التي استعملها، سنركز على البعض منها، خاصة وإن العديد من المصادر التي اعتمدها كثيرا كنفح الطيب لأحمد المقري، وذيل الديباج لأحمد بابا التنبكتي، ومقدمة ابن خلدون، وحسن المحاضرة للسيوطي مثلا كنا قد أشرنا إليها في الفصول السابقة، ولذلك تجنبا للتكرار سنكتفي بالمصادر التالية:

نسيم الرياض في شرح القاضي عياض، لأحمد بن محمد بن عمر شهاب الدين الخفاجي علي القاري المصري(ت1069ه/1659م) صاحب التصانيف في الأدب واللغة، ومنها هذا الكتاب الذي يعتبر من أوسع وأضبط شروح كتاب"الشفا بتعريف حقوق المصطفى" للقاضي عياض، موسوعة في الأخلاق والصفات والسنن النبوية، حيث قيل فيه إنه لا أفيد منه ولا أوسع في شروح"الشفا" كلها المشارقة والمغاربة، فهو من أفضل شروحه وأوفاها، كما يعد الأصل المشروح كتابا عظيم النفع كثير الفائدة، وقيل فيه أيضا كتاب لم يؤلف مثله في الإسلام في شمائل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أولاه العلماء اهتماما بين مهذب وشارح[1]. يستشهد به أبو راس كثيرا في قضايا فقهية تارة، وفي مسائل لغوية تارة أخرى، ومن ذلك ما يذكره لما سئل بمدينة تلمسان عن كلمة"رشد"أتفتح شينه أم تكسر، طارحا أراء العلماء والفقهاء ومنهم السبكي، وابن هشام، والسيوطي، وقول الخفاجي الذي يميل إليه، فقال:"قال الخفاجي، فشين رشَد مفتوحة في الحديث، وهو المشهور رواية، ويجوز كسرها، وروى إنه من باب علم أيضا"[2].

المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على كثير من البدع المحدثة والعوائد المنتحلة المشهور بالمدخل، لأبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري القبيلي الفاسي المالكي الشهير بابن الحاج(ت737ه/1336م)، هو كتاب كثير الفوائد، كشف فيه صاحبه عن معايب وبدع يفعلها الناس ويتساهلون فيها، وأكثرها ما ينكر، وبعضها مما يحتمل، وفيه رد كثير عن بدع الصوفية كالرقص والغناء بالدف، وذكر فيه إن شيخه أبا محمد عبد الله بن أبي جمرة أشار إليه تعليم الناس مقاصدهم في أعمالهم، فكتبه وسماه"المدخل"، وقد فرغ من تأليفه في سابع محرم سنة732ه/1332م.يذكر أبو راس أقواله كسند يستند عليه في توضيح رؤية حول مسألة الحديث الذي رواه الحاكم والدار قطني عن أم أيمن رضي الله عنها، قوله:"ونصّ

1- شهاب الدين الخفاجي، نسيم الرياض في شرح القاضي عياض، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت، لبنان، 1327ه، ص:من المقدمة.

2- أبو راس الناصري، فتح الاله...المصدر السابق، ص:164.

ابن الحاج في مدخله: وقولهم"صِحة"من محدثات الأمور. وهذا اللفظ، وإن كان دعاء حسنا، فاتخاذه عند الشرب بدعة"[1].

إحياء علوم الدين، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي(ت505ه/1112م)كتاب عجيب من كتب الدين الجامعة في علوم الشريعة، وأعمال القلوب ولطائف التصوف، والأخلاق والتربية والوعظ والإرشاد، وفيه من التأثير العجيب والفضل السريع في توجيه النفوس وإصلاحها، وفيه أيضا دراسة وافية لواقع المسلمين الاجتماعي من جوانبه المتعددة، وذكر لقضية جهل المسلمين وترتيب الواجبات[2]. يعود إليه أبا راس كمصدر أول وأخير في ضبط بعض الصفات الحميدة التي يتحلى بها الأئمة والعلماء منها "شكر النعم"و"التحرز من آفات النفس بقول لا أدري"و"التقليد"، ويطرح رأيه كخلاصة للآراء التي ساقها، ومن ذلك ما ذكره وهو بصدد الحديث عن عبد إذا كاشفه الله بعلم المعرفة وعلم اليقين فلا حاجة له بالتقليد، فيقول:"ومن انكشف عنه الغطاء، صار في نفسه متبوعا مقلدا، فلا ينبغي له إن يقلد غيره"، وهذا ما في الباب السادس من كتاب العلم من"الأحياء"للغزالي في ذكر علامات علماء الآخرة[3].

اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، للشيخ عبد الوهاب بن أحمد بن علي بن محمد بن زوقا ابن الشيخ موسى الحنفي المكني في بلاد البهنسا بأبي العمران(ت973ه/1565م)، كتاب في المطابقة بين عقائد أهل الكشف وعقائد أهل الفكر، لأن المدار في العقائد على هاتين الطائفتين، إذ الخلق كلهم قسمان:إما أهل نظر واستدلال، وإما أهل كشف وعيان، وقصد الكتاب بيان وجه الجمع بينهما ليتأيد كلام أهل كل دائرة بالأخرى[4].يعود إليه في مناسبات لينقل عنه الإجابات، خاصة لما سئل أبي راس بتونس عن قضية الانتقال من مذهب إلى مذهب، ومن كان يفتي بالمذاهب الأربعة، فيجيب بما ذكره الشعراني في كتابه"اليواقيت"،قال:" لم نعترض على من تمسك بمذهب من مذاهبهم، ولا على من انتقل من مذهب إلى مذهب، ولا على من قلد غير إمامه في أوقات الضرورة"[5]، مع العلم إن أبا راس نقل عنه أيضا من كتابه"الميزان"، وإن أبا راس هو نفسه كان يفتي بالمذاهب الأربعة.

الأشباه والنظائر، للإمام عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي تاج الدين السبكي (ت771ه/1370م)، يعتبر هذا الكتاب من أهم المؤلفات في الفقه، هذّب فيه السبكي قواعد الأحكام للعز بن عبد السلام، فزاد عليه فوائد لم تكن فيه، وحذف منه أشياء أخرى، يذكر القاعدة ومستندها من الكتاب أو السنة أو الإجماع، ومن

[1]- نفسه، ص:103.
[2]- خليفة حاجي، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ص:23.
[3]- أبو راس الناصري، فتح الاله...المصدر السابق، ص:145.
[4]- عبد الوهاب الشعراني، اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، ج1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د ت)، ص:08-11.
[5]- أبو راس الناصري،فتح الاله...المصدر السابق، ص:155.

ذكرها من العلماء، وما يندرج تحتها من مسائل، وما يستثنى من هذه القاعدة، وذكر أصولا كلامية عقائدية يبنى عليها فروع فقهية وبيان المآخذ المختلفة فيها بين الأئمة[1]. يذكره تارة مفندا إجابته وهو مثلا في حالة الحديث عن الطهارة والنجاسة والحلية والحرمة بأي شيء توصف، فيقول:"أجبت: بأن تاج الدين السبكي ذكر في"الأشباه والنظائر" إنها ليست من صفات الأعيان"، وتارة أخرى مستغربا ما حكاه في طبقاته في مسألة"رشد تفتح شينها أم تكسر" بقوله"فلله دره[2].

الفتوحات المكية، لمحي الدين محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي (ت638ه/1240م)، المكون من37 سفر و560باب، وُصِف بأنه من النصوص الصوفية الموغلة في التعمق، وإن لغته رمزية وبها أشارات إلهية، وهو ما جلب إليه نقد النقاد الذين عاينوه، خاصة شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى بأنه كان مفتريا في كتبه مثل الفتوحات المكية وأمثالها من الأكاذيب ما لا يخفى على لبيب، حتى سماه بعض المحققين بالقبوحات الهلكية[3]. وأبو راس الناصري واحد من الذين ينكرون على الحاتمي ولذلك أورد ما قاله الشيخ عبد القادر الفاسي فيه:"إن محكم كلامه يقضي على متشابهه، كما هو الشأن في كلام الأولياء"، إلا إنه ينعته بالشيخ الأكبر تأدبا منه، وهي ولا ريب سمة آداب العلماء الذين ينبذون الاختلاف الذي يوهم الشقاق والفرقة، ويطلبون السّعة لأنها صريحة في الرخصة والارتياح واليسر[4].

شرح مقاصد الطالبين في علم أصول الدين، لسعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني الشافعي(ت792ه/1389م) كتاب من أعظم كتب علم الكلام، شرح فيه مقاصد الطالبين شرحا وافيا، يحمل أفكارا ونظريات في المعقول والمنقول لدحض شبه الملحدين والمارقين بالحجة والبرهان، إلا إن أسلوبه يميل إلى الصعوبة والتعمق في أبحاثه، وكان من اعقد العقد عند الباحثين، فقد دُرّسَ في الأزهر، وهو كتاب جامع يندر إن يكتب باحث في علم الكلام أو العلوم العقدية، ولا يكون هذا الكتاب أحد المراجع الأساسية التي يستعين بها في بحثه، لما حواه من المباحث والنظريات العقلية[5]. ولعل صعوبة الأسلوب تظهر فيما يورده أبو راس عندما ينقل رد التفتازاني على المعتزلة في قولهم"إن التكوين غير المكون"، فيقول التفتازاني:"إن التكوين من الصفات، وإنه لا يلزم من وصف الباري به قيام الحوادث به وتبين إن ليس المراد بكونه حادثا إنه موجود بعد

1- تاج الدين السبكي، الأشباه والنظائر، تح: عادل أحمد الموجود وعلي محمد مشوض، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1411ه/1991م، ص: من المقدمة.

2- أبو راس الناصري، فتح الاله...المصدر السابق، ص:159-164.

3- للمزيد من المعلومات ينظر:محي الدين العربي، الفتوحات المكية، تح: عثمان يحي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2006.

4- أبو راس الناصري، فتح الاله...المصدر السابق، ص:150-155.

5- للمزيد من المعلومات ينظر:سعد الدين التفتازاني، شرح المقاصد، تح وتع: عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب، ط2، بيروت، لبنان، 1419ه/1997م.

عدم. وإنما المراد تجدّده في الاعتبار، لأنه إذا كان اعتباريا، والاعتبار عدمي لم يتصوّر فيه الحادث بمعنى الخروج من العدم إلى الوجود"[1].

مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن(رسائل أبي المحاسن)،لأبي حامد محمد العربي بن يوسف بن محمد أبو المحاسن الفاسي الفهري(ت1013ه/1605م) هو من الأئمة الذين اشتغلوا بالتدريس والإفتاء بالقصر الكبير، كما ظهر في التصوف والسلوك، وانتهت إليه المشيخة حتى وفاته، كانت له عدة مكاتبات ورسائل في الحث على استحضار الله تعالى في جميع الشؤون، والابتعاد عن الشهرة والفتنة والتسليم للأقدار، والدعوة إلى الصبر عند البلاء والأخذ بالأسباب. ينقل عنه أبو راس لما يذكر صفات العالم المتبصر الكامل مقامه، المؤهل للمشيخة، قوله:"وإنما يؤهل لها(المشيخة) من جمع بين الأمرين، وصار برزخا بين بحرين:بحر التشريع وبحر التحقيق، فيعطي كل ذي حق حقه، ويوفي كل ذي قسط قسطه"[2].

الرسالة القشيرية في علم التصوف، لزين الدين أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن ابن عبد الملك بن طلحة القشيري(ت465ه/1072م)، هي رسالة من أهم المصادر المعتبرة في التصوف إلى مذهب الصوفية المعتدلة وشرح ألفاظها ومصطلحاتها الشائعة فيما بينهم، فقد حوت هذه الرسالة مجموعة كبيرة من التعابير التي تدور غالبا على ألسنة الصوفية، كما شرحت الأحوال والمقامات والتجليات التي يصعب أحيانا على القارئ العادي إن يفهمها، ولكن أسلوب القشيري وسلامة لغته قربت هذه المفاهيم إلى العقول والقلوب معا. كم احتوت هذه الرسالة على تراجم لعدد من كبار المتصوفين، ونقلت الكثير من أقوالهم وبينت أحوالهم[3]. يستدل أبو راس في العديد من المواضع بما جاء في الرسالة، تارة بتأكيد المعلومات مثل قوله"حسبما دلت عليه الرسالة القشيرية"، وتارة يضم رأيه إلى أراء علماء آخرين في قضية معينة كقوله:" قال القشيري في رسالته، وقال القاضي عياض في الشفا:أجمع فقهاء بغداد أيام المقتدر...على قتل الحلاج وصلبه"، وثالثة لتصحيح خطئ معين، قوله:"فما في كتاب أبي العباس الفاسي، وتبعه أخوه الشيخ العربي في كتابه"مرآة المحاسن" من إنما كانت أي وفاة الجنيد سنة سبع وسبعين وَهم، بل الصواب وتسعين كما في نسخة عتيقة من رسالة القشيري"[4].

الفتوحات الإلهية في نفع أرواح الذوات الإنسانية، لزين الدين الحافظ زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري السنيكي الشافعي(ت926ه/1520م)، كتاب مختصر في علم التزكية والتصوف، بيّن فيه مصنفه أقرب الطرق إلى الله وأوضحها وأرشدها، جعله على عشرة أصول أوجزها غاية الإيجاز[5]، ينقل عنه

[1]- أبو راس الناصري، فتح الاله...المصدر السابق، ص:139.

[2]- نفسه، ص:146.

[3]- عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية، تح: محمود بن الشريف، دار جوامع الكلم، القاهرة(د ت)، ص:27-28.

[4]- أبو راس الناصري، فتح الاله...المصدر السابق،ص:145-152.

[5]- زكريا الأنصاري، الفتوحات الإلهية، تر وتح: تامر محمد الطحاوي، تق:إبراهيم صالح الحسيني، دار البصائر للطباعة والنشر والتوزيع.

أبو راس بالنص الكامل قوله:"قال الشيخ زكريا الأنصاري في مختصره في التصوف المسمى"الفتوحات الإلهية" في الفصل الثاني منه في بيان أركان التصوف ما نصه"[1].

أهمية الكتاب وقيمته:

إن الطبيعة الغنية لرحلة أبي راس الناصري جعل دراستها تتجه اتجاهات مختلفة تبعا لاهتمام الدارسين والباحثين، فالرحلة على مستوى المضامين احتوت على معارف متنوعة، تاريخية وجغرافية، دينية وأدبية، وحتى اثنوغرافية، وعلى مستوى الأشكال نجد فيها السرد والوصف، الحكايات والأخبار، الرسائل والأشعار، وعلى هذا جعلها المؤرخ نصا تاريخيا فيه كثيرا من المعلومات المتصلة بالبلدان المزارة، وجعلها الجغرافي مصدرا يستقي منه ما يورده الرحالة من معلومات جغرافية عن الأماكن التي مر بها، كما يجد فيها الباحث الاثنوغرافي كثيرا ما يود معرفته عن ثقافة الذات التي يحليها الرحالة بمقارنتها بثقافة الغير، ويجد فيها الدارس الأدبي أنماطا أسلوبية، وأنواعا أدبية أفرزتها ظروف اجتماعية وثقافية عاش الرحالة في أحضانها.

تعد كتب الرحلات من أهم المصادر العلمية والأدبية والاجتماعية، لأن الكاتب يستقي الحقائق من المشاهدة الحية، والتصوير المباشر، مما يجعل قراءتها غنية وذات فائدة كبيرة، فأعمال ابن بطوطة وابن حوقل وماركو بولو وارنست همنجواي ورفاعة الطهطاوي وأبو راس الناصري محور دراستنا، كلها خلاصات رؤى لواقع تاريخية، وحقائق جغرافية في مرحلة زمنية معينة، وهناك من الرحلات من تعّدت ذلك إلى دراسة الثقافات الاجتماعية كاللغة، والعادات والتقاليد بعناية خاصة، كرحلة البيروني مثلا[2].

إذا كانت المصادر التاريخية التي أتسمت مضامينها بالزوايا السياسية والعسكرية والاقتصادية في المقام الأول، تسد جانبا له شأنه في الدراسات الإنسانية والاجتماعية، فإن المؤلفات الرحلية تضمنت أشارات قيّمة على الأصعدة الحضارية الثقافية العلمية، والدينية العقائدية، ومن مظاهر حياتية متعددة ومختلفة، ضف على ذلك، إن أولئك الرحالة قدموا لنا رؤى مهمة لزوايا ندر إن تتردد في كتب الحوليات، ومنها على سبيل المثال لا الحصر، اتفاق الرحالة الجزائريين الثلاث أحمد المقري وحسين الورتيلاني ومحمد أبو راس الناصري، على ذكر بعض الصفات والعادات المذمومة التي لم تعجبهم أثناء تواجدهم بمصر وتونس، كالغيرة والحسد الغش والكذب والوشاية والسرقة، إذ تعرض أبو راس إلى سوء معاملة علماء مصر له حينما شكُّوا في إجابته، في حين يذكرون صفات حميدة كالكرم وحسن الضيافة عند أهل الشام[3].

---

[1]- أبو راس الناصري، فتح الاله...المصدر السابق،ص:140.

[2]- محمد القاسمي، الرحلة وآدابها في اللغة العربية-دراسة تاريخية، مجلة الداعي، الصادرة عن دار العلوم بديوبند، جمادى الثانية-رجب1434ه/أفريل-يونيو2013م، ع:6-7، ص:17 وما بعدها.

[3]- أبو راس الناصري، فتح الاله...المصدر السابق،ص:115-116.

إن كتاب"فتح الإله"لأبي راس الناصري يعتبر فن من فنون السير، ورحلته عبارة عن سيرة ذاتية وعلمية لحياته، حيث سجل فيها كل ما أثر في تكوينه العقلي وتطوره الفكري، والأدب العربي قديما كان أو حديثا يحفل بالكثير من هذا النوع كالبيروني والسيوطي مثلا. وفي ذلك يصف محمد بويجرة رحلة أبي راس ب"النص الذي تجسدت فيه صورة معاناة كاملة، وتبلورت في مضامينه جملة القضايا التي تشكل همّا وجوديا، وآمال مكبوتة كان الشيخ أبي راس يبغي تحقيقها على أرض الواقع". كما يلاحظ إن رغبة التفوق والتجاوز عند أبي راس الناصري لعبت دورا أساسيا في دفعه نحو الاعتلاء والتعلّم، وجعلته يشدّ الرّحال إلى كل مكان يعرف إن به عالما يمكنه إن يأخذ عنه شيئا ذا فائدة، كما كانت لقاءاته مع العلماء غنية بالاستفسارات والنقاش والحوار، وكان أبو راس دائما هو صاحب الرأي الصحيح، وهو الذي يقنع محاوريه[1].

فإذا ما حاولنا تحليل نصوص رحلته لاستخلاص أهميتها وقيمتها و دلالاتها النفسية، نجد إنه يعكس لنا بصورة جلية كافة انفعالاته وانتماءاته الإسلامية العربية كرجل مسلم عربي عندما يقف موقف شيخه عبد الله الشرقاوي من الحملة الفرنسية على مصر، حيث يتغير النص إلى مشاعر مضطربة عندما يستشعر مدى السيطرة والإهانة التي لحقت بالمصريين لما ألزم الفرنسيون المسلمين بدفع المحبوب(نوع من الضرائب تدفع نقدا)، فيصف نابليون بونابرت بالطاغية، والفرنسيين بالكفرة، وأعمالهم بالحقيرة والذليلة. وكوطني جزائري، حينما سمع بخبر فتح وهران وهو بتونس قافلا من رحلته الثانية، فعجل العودة إلى أرض الوطن للاشتراك في الجهاد ضد الأسبان، حيث اعتبر فتحها حدثا هاما عَوضَ المسلمين خسارة الأندلس، وقد ساعده على ذلك التوضيح إنه لا يوجز عباراته بل إنه يفصلها، ويقدم تصوراته العقلية وأحاسيسه النفسية الصادقة[2].

وعلى غرار القيمة العلمية لرحلة أبي راس والتي هي سِجل لمختلف المعارف والأفكار المتداخلة المتشابكة، والقيمة الأدبية بارتفاع أسلوب كتابتها، ورقيها إلى عالم الخيال الفني، تمثل صورة تبرز المنحى النفسي الذي كان يمر عبره أبو راس، والتوهج الروحي لفرض الذات بالقدرات العلمية، وهنا تتداخل التاريخانية بالتاريخ عند أبي راس الناصري، فالتاريخانية تؤمن بأن التاريخ هو العامل المؤثر في أحوال البشر، وتروم رؤية ثقافية واقعية، تبلورها ممارسة تمثل الماضي، بهدف التحرر التدريجي للإنسان عن طريق جدل ثقافي ومناظرة علمية، هذه الأبعاد لا يستوعبها إلا الفكر التاريخي. على هذه الأرضية تضع التاريخانية الإنسان(أبو راس الناصري) في قلب

1- محمد بويجرة، التسامي والعبقرية عند أبي راس الناصري-قراءة في فتح الإله ومنته وفق المنهج النفسي-مجلة قراءات، منشورات المركز الجامعي، ع:01، معسكر، 2008، ص:110-111.

2- محمد مؤنس عوض، الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام، ط1، عين للدراسات والبحوث الأنسانية والاجتماعية، مصر، 1995، ص:13.

العملية التاريخية، إذ تستحضر الماضي بشكل مستمر لتستمد منه مقولات جاهزة، ليس للذكرى، لكن لإحيائها وتحقيق تغيير بواسطتها[1].

ومهما يكن من عيوب في الرحلة من حيث الخلط والتكرار وكثرة الاقتباس غير المنظم من طرف المؤلف، فإن الرحلة تحتوي على معلومات تاريخية ذات أهمية، لأن الرحالة ليسوا وسطاء، بل هم شهود عيان، وبالتالي فهم أحد المصادر التي تعتمد في الدراسات والبحوث الأكاديمية خاصة.

استنتاج:

لما كانت الرحلة ضرب من ضروب النشاط البشري تمتد جذورها إلى بدايات الجنس البشري، فقد رحل الجزائريون كغيرهم من مكان لآخر، ومما يلاحظ في تاريخ الثقافة، إن أدب الرحلات في الجزائر ازدهر في الفترة التي اعتراها الجمود والتأخر في مختلف الجوانب الثقافية منذ القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، واشتدت في القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، وقد كان ذلك دافعا لعلماء تلك الفترة(الورتيلاني-ابن حمادوش-ابو راس الناصري) إلى الرحلة لتحصيل العلوم في طريقهم إلى الحج وتدوين رحلاتهم، وما رأوه فيها ومن قابلوه واخذوا عنه من العلماء، وهي بذلك أشبه بوثيقة علمية تشهد لهم بما حصلوه من علوم ومعارف.

وإذا كان الرحالة الجزائريون أسهموا مساهمة كبيرة وواضحة في الكتابة التاريخية، ولاسيما خلال القرن الثاني عشر الهجري/18م والذين تعمقت صلاتهم بالأراضي المقدسة للأسباب التي ذكرناها سابقا، إلا إنهم وبالقياس إلى كتاب الرحلات المغاربة كانوا قليلي الإنتاج. ولعل ذلك راجع إلى إن عددا من العلماء الذين رحلوا لم يعودوا إلى الجزائر ليدونوا ما كتبوا.

إن القيمة العلمية والأدبية للرحلات موضع دراستنا تتمثل في موادها من أساليب ترتفع بها إلى الكتابة التاريخية، وترقى إلى مستوى المعرفة العلمية، وإلى عالم الخيال، وهذا ما تألق فيه الرحالة المغاربة بصفة عامة، وتفوقوا فيه على الرحالة المشارقة كما وكيفا على نحو ما نجد في العشرات من الرحلات المغربية والأندلسية التي فيها المقتضب وفيها المسهب، وفيها المنثور والمنظوم، وفيها الفصيح والعامي، حتى إن كراتشوفسكي كان على حق عندما لاحظ إن المغاربة أحرزوا درجة السبق في أدب الرحلات.

[1]- ج.هرنشو، علم التاريخ، ترجمة: عبد الحميد العبادي، ط1، دار الحداثة للطباعة والنشر، لبنان، 1988، ص:66.

الفصل الرابع

منهج استخدام المصادر في الكتابة التاريخية

عند مؤرخي الجزائر(1519-1830م)

المبحث الأول: أنواع مصادر الكتابة التاريخية في الجزائر العثمانية

المبحث الثاني: طرق النقل من المصادر

المبحث الثالث: طرق ذكر المصادر

المبحث الرابع: تحليل طريقة الكتابة التاريخية عند المؤرخين الجزائريين

المبحث الخامس: أثر مؤرخي الجزائر العثمانية على منهج مؤرخي الجزائر في الفترة الاستعمارية.

تقديم:

لا يمكن للباحث إن يكتب دون الرجوع إلى المصادر ليستقي منها المادة التاريخية التي تزوده بالنصوص الكفيلة بكتابة متن البحث، فهي تشكل أهمية كبرى في عملية كتابة التاريخ التي تقوم على المصادر، والتي على المؤرخ إن يتقيد بضوابط وقواعد التوثيق، وذلك بإسناد كل ما يقتبسه من معلومات أولية عن الموضوع إلى مصادرها وتوثيقها في الهامش، لأن المؤلفات التاريخية الحديثة وخاصة في زماننا هذا والتي لا تلتزم بالتوثيق لا يعتد بها وهي منافية لقواعد المنهج العلمي في دراسة التاريخ وكتابته[1].

ولما كان التاريخ معرفة نقلية تعتمد على الأخذ من المصادر، وكان خبر عن حدث وقع وانتهى، فلا يغني فيه الخيال والرجم بالغيب، ولا التجارب المعملية، كما يفعل الأديب والقصصي والشاعر والفيزيائي مثلا. ومادامت المصادر بهذه الأهمية للمؤرخ فلا بدّ إن يعتني بها غاية الاعتناء، وإن يرتبها الترتيب الصحيح، وفق معايير نقدية محددة الدرجة والثبوت، والثقة في المصدر، والقرب من الواقعة التاريخية، سواء قرب المصاحبة والمعايشة، أو القرب الزمني، فيقدم ما هو أوثق ثبوتا كالنقل المتواتر، ثم ما هو أقل من ذلك.

وعليه، فإن الباحث التاريخي يحتاج إلى جملة من المصادر الموثوقة، وإلى روايات شفهية صادقة للوصول إلى نتيجة عامة(قانون-قاعدة عامة-نظرية...) باعتبار إن البحث والتقصي وسيلتان موضوعيتان هدفهما الوصول إلى ما يسمى بالحقيقة التاريخية.

1- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تح: عبد الله القاضي،ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،1995، ص:39.

المبحث الأول: أنواع مصادر الكتابة التاريخية في الجزائر العثمانية

هناك نوعان من المصادر:

- مصادر في تفسير وتحليل الحوادث التاريخية، تفسيراً يتماشى مع النظرة للكون والإنسان والحياة، وتتجلى هذه النظرة في توضيح دور الإنسان ومسؤوليته عن التغيير الاجتماعي، وهذا النوع لسنا نناقشه في هذا البحث.

-مصادر طرق إثبات الحقائق التاريخية، والتي تتمثل في وضع قواعد وضوابط لمعرفة صحة المرويات، وإتباع منهج دقيق في نقدها، لذلك على الباحث إن يطلع على ذلك، ويفيد في دراساته التاريخية، فمثلا مصادر كتب التاريخ الإسلامي المتخصصة، سواء أكانت مصادر أولية كتاريخ الطبري(ت310ه/922م)، أم مصادر ثانوية كالدول الإسلامية لابن الطقطقي(ت709ه/1310م)فإنها تحوي مادة علمية تاريخية تحتاج التمحيص، لأنها مصادر في المعلومات وليست مصادر في نقد الأخبار[1].

ومن هذا المنطلق، فإن عموم المؤرخين الجزائريين في الفترة التي تناولناها(العصر الحديث) بالدراسة في هذا البحث اعتمدوا على ثلاثة أنواع من المصادر، وهي:

النوع الأول: تجريبي، وهو ما استمدوه من رحلاتهم وأسفارهم، وما وقع لهم من المشاهدات والمعاينات للأحداث على طبيعتها، وما تحصل لهم من تجارب وملاحظات خلال تلك الرحلات والأسفار.

النوع الثاني: شفهي، ويقصد به ما تحصل عليه المؤرخون من معلومات من خلال لقاءاتهم ومناقشاتهم ومناظراتهم مع العلماء، من ذوي الصلة المباشرة بالحدث، أو شهود العيان للوقائع، وأهل الخبرة والاختصاص.

النوع الثالث: كتابي، وهي المصادر التي تم النقل منها، والتي ألفها علماء عاشوا قبلهم غالبا، أو عاصروهم، فاستعانوا بها في تآليفهم لمصنفاتهم.

هذا وسوف أتناول هذه الأنواع الثلاثة من المصادر التي أفاد منها المؤرخون الجزائريون، مبينا الأهمية والقيمة التاريخية لكل نوع، وكيف أفادوا منها في تصانيفهم وكتاباتهم، مبتدئا ومركزا على النوع الثالث (الكتابي) نظرا لأولويته في الكتابة، مع الإشارة للنوعين الأوليين أشارة خفيفة فقط. علما بأن الكتابة التاريخية عند المؤرخين الجزائريين في العصر الحديث تعددت مناهجها، ولكننا وجدنا تشابه واضح بينهم في استخدام المصادر التي اعتمدوا عليها من حيث النوعية، والطريقة، والكيفية، ومنها ما يلي:

---

[1] - للمزيد من المعلومات ينظر:قاسم يزبك، التاريخ ومنهج البحث التاريخي، دار الفكر اللبناني، ط1، بيروت، لبنان، 1990، ص:40 وما بعدها.

أولا: المصادر المقروءة (المكتوبة): ويأتي في مقدمتها:

1- المصادر الشرعية (القرآن الكريم والأحاديث الشريفة):

إن المصادر الشرعية واجبة التقديم لاعتبارين:

- لأنها أصدق من كل وثيقة تاريخية فيما ورد فيها من الأخبار، وذلك لصدق مصدرها وعلمه وهيمنته.

- لما تدل عليه من السنن الربانية والنظرة الشمولية لتاريخ البشرية كلها على مدار الزمن ماضيا وحاضرا ومستقبلا.

فالكُتاب الذين لا يعتمدون القرآن الكريم في مصادر دراساتهم وأبحاثهم، يُحرمُون هذه الفوائد، مثل النظرة الشمولية، والتشخيص الدقيق لاتجاهات الأحداث، وقد جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الإشارة إلى جملة من القوانين التاريخية والسنن الربانية، مما يعطي الباحث سعة وشمولا في النظرة التاريخية، وعمقا في التحليل للأحداث. والقرآن والسنة يعطيان الباحث التصورات والمفاهيم والقيم التي في ضوئها تفسر أحداث التاريخ ويحكم عليها[1].

ومما لاحظناه، إن المؤرخين الجزائريين قيد الدراسة جنحوا لحركة التاريخ بتفسيرات ومنظورات تاريخية إسلامية، بعيدين كل البعد عن تفاسير المدارس التاريخية المتعددة(المدرسة المادية، المدرسة الاجتماعية، المدرسة القومية...)، فكل دراسة للتاريخ في كل أجزاءه لا تعتمد المصادر الشرعية لا بدّ إن تصاب بالنقص والتشوه والبعد عن التصور الإسلامي، لأن التاريخ الإسلامي جزء لا يتجزأ من الدراسات التاريخية العربية الإسلامية، وهو تاريخ امة ذات عقيدة محركة لها، ومسيطرة على نشاطها واتجاهاتها[2].

إن كل المؤرخين الجزائريين الذين تناولناهم بالدراسة في هذا البحث يعتمدون القرآن الكريم مصدراً من مصادر الكتابة التاريخية، ولكنهم يتفاوتون من حيث قيمة ونوعية ودرجة الاعتماد على القرآن الكريم.

فعبد الكريم الفكون يوظف الآيات القرآنية في معظم المواقف التي يؤرخ لها، وفي كل تراجمه، خاصة عندما يذكر صفات بعض العلماء والفقهاء ممن ترجم لهم، سواء بذكر الصفات الحميدة أو الصفات الذميمة. فقد تصدى للإمام الفاسي الذي وصفه بالشقي، وبأنه خارجي المعتقد، واعتبر معاداته واجب لله تعالى، ناهيا عن مخالطته حتى يرجع عن فعله، وكل ذلك يهون في سبيل الله حسب اعتقاد الفكون، مستشهدا بقوله

1- محمد بن صامل السلمي، منهج كتابة التاريخ الإسلامي، دار ابن الجوزي للطباعة والنشر،ط1، المملكة العربية السعودية، 1429ه/2008م،ص:239.

2- أحمد شلبي،موسوعة التاريخ والحضارة الإسلامية-موجز عام للحضارة الإسلامية،ج1، مكتبة النهضة المصرية،ط8، مصر،2002،ص:58.

تعالى:"أم حسبتم إن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين"[1]، كما يستشهد بالآيات القرآنية وهو يتحدث عن صفة الكِبر، وعدم الرضى بالقدر، الذي يؤدي إلى تكذيب الشرع وهدم أساسه، وفي ذلك يذكر الآية الكريمة، قوله تعالى:" سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين"[2]، ويصف بعض الدجالين بحزب الشيطان، مصداقا لقوله تعالى: "أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون"[3][4].

كذلك أبو راس الناصري الفقيه والمتصوف والمتشبع بالفكر الإسلامي، لا تخلو أقواله وأحاديثه في معظم الحالات من الاستشهاد بالقرآن الكريم والسنة النبوية، وهو القائل لما سئل عن القرآن من قبل شيخه أبي عبد الله محمد بن لبنة، وهو يتأهب للذهاب إلى مدينة مازونة لقراءة الفقه، فأجابه بقوله:"نعرفه بأحكامه وانصاصه وما يتعلق به، ولقد انتفع بي كثير من الطلبة في الأحكام ودرستها لهم"[5].

ومن المواضع الكثيرة جدا التي يستشهد بها بالقرآن الكريم، نورد مثال أو مثالين للدلالة على ذلك، ومنها حديثه عن الإثمين(إثم العزم، وإثم الفعل)، فالحدث التاريخي هو قتل قابيل لهابيل، فالمقتُول حمّل النفس وعدم تزكيتها ذنوب عدائه تخويفا وتحذيرا عن عدائه، جريا على أسلوب قول نبي الله يوسف عليه السلام"وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي"[6]، مؤيدا كلامه بالحديث النبوي الشريف"من همَّ بسيئة فلم يعملها كتبت عليه حسنة، فإن عملها كتبت عليه سيئة"[7]، كما يطرح قضية العقوبة وما يستحقه المذنب من عقاب، مشيراً إلى الآية الكريمة قوله تعالى:"من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل إنه من قتل نفسا بغير حق أو فساد في الأرض، فكانما قتل الناس جميعا"[8][9].

ونفس الشيء ينطبق على الورتيلاني الذي يستشهد كثيراً بالقرآن في مواقف متعددة من كتابه، فقد ذكر إنه تصدى لبعض النساء من بني عامر اللواتي كن يرافقن ركب الحجيج مكشوفات العورات مبدين زينتهن لكل الناس فمنعهن، وأراد إقامة الحد عليهن وعلى أزواجهن، بعدما أصابه منهم عداوة وبغضاء، فكان موقف

---

[1] - آل عمران،142.

[2] - الأعراف، 183.

[3] - المجادلة، 19.

[4] - عبد الكريم الفكون، منشور الهداية...المصدر السابق، ص ص:101-123-139.

[5] - أبو راس الناصري، فتح الإله...المصدر السابق، ص:20.

[6] - يوسف، 53.

[7] - الجامع بين الصحيحين، للإمامين البخاري ومسلم، ج1، جمع وترتيب: صالح أحمد الشامي، دار القلم، ط2، دمشق، 1432ه/2011م، ص:117 .

[8] - المائدة، 32.

[9] - أبو راس الناصري،فتح الإله...المصدر السابق،ص:93.

ربأني أظهره الله عليهم،ذاكر قوله تعإلى:"إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم"[1]، وقوله في مثل أهل بني عامر ممن يريد الوصول إلى الله بالدعاوي الكاذبة والزخارف البينة والأباطيل المزينة"وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ، فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا"[2][3].

في حين إن ابن حمادوش كان قليل الاستشهاد بالقرآن الكريم إلا في حالات نادرة، ومنها مثلا، عندما كان بصدد تأليف مقامته الثانية في أم أولاده، والتي تحدث فيها عن ما أصابه من شظف العيش، وغلبة الزمان، وكثرة الهموم والغموم، سائلا الله عز وجل إن يحفظه فيما تبقى من عمره، مستذكرا قول الله تعإلى:"وَاصْبِر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون"[4]، ومناجيا ربه، ذاكرا قول نبيه الصادق المصدوق:"اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة"[5]، كما يلجأ في بعض الحالات إلى النقل الكامل لنص مع ما فيه من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، مثل نقله لنماذج من عقود النكاح والخطب والتعليق عليها، كعقد نكاح أبكم أصم، وعقد البكر اليتيمة، وعقد التائب من الذنوب[6].

2- المصادر العامة:

تأتي في المرتبة الأولى من حيث الاعتماد، وتتمثل في المصادر التاريخية للمؤرخين الذين سبقوهم، سواء المحليين أو الخارجيين، فقد أشار المؤرخون الجزائريون إلى المصادر الأساسية التي اعتمدوا عليها في كتبهم، إلا إنها لا تمثل جميع المصادر المعتمدة. ونظرا للعدد الكبير من المصادر التي اعتمدوا عليها، واستفادوا منها، فإنني ذكرت المصادر التي تداولت عند معظم المؤرخين قيد الدراسة (اجتنابا للتكرار)، وقد ذكرتها بعنوان"كتب التاريخ"، علما بأن فيها كتباً للتاريخ العام كتاريخ الطبري ومروج الذهب للمسعودي، وفيها كتباً للتاريخ المحلي كتاريخ الأندلس (نفح الطيب) للمقري، وتاريخ مصر (حسن المحاضرة) للسيوطي، وتاريخ القدس (إنس الجليل) للعليمي، ومنها ما يلي:

أ-كتب التاريخ :إن أهمية وحتمية الكتب التاريخية في البحث العلمي التاريخي هي في استعادة وتركيب أحداث ووقائع الماضي بطريقة علمية في صورة حقائق علمية تاريخية، لفكرة من الأفكار، أو نظرية من النظريات السياسية والاقتصادية والاجتماعية اعتمادا على العقل والمنطق، باستخدام المنهج العلمي التاريخي، ولذلك نالت هذه الكتب الصدارة بين الموارد التي اعتمد عليها المؤرخون الجزائريون، وذلك عند استعراضهم

1- محمد، 7.

2- المائدة، 41.

3- الورتيلاني، نزهة الأنظار... المصدر السابق،ص:127.

4- النحل،127.

5- حسنن الإمام أحمد، تح: شعيب الرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة،ط2، بيروت، لبنان،1420ه/1999م.

6- ابن حمادوش، رحلة ابن حمادوش... المصدر السابق،ص:250-251.

للحوادث العامة في العالم العربي الإسلامي والجزائري من جهة، وفي علاقات الجزائر بالدول الخارجية من جهة ثانية، ومنها:

-**تاريخ الرسل والملوك**، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري(ت310ه/922م).

-**مروج الذهب ومعادن الجوهر**، لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي(ت234ه/956م).

-**العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**،لولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن إبراهيم عبد الرحمن بن خلدون (ت808ه/1406م).

-**الإحاطة في أخبار غرناطة**، لابن الخطيب لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني (776ه/1374م).

-**نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب**،

لأحمد بن محمد بن يحي أبو العباس المقري(ت1040ه/1631م).

-**الاكتفاء في أخبار الخلفاء**، لأبي مروان عبد الملك التوزري التونسي الشهير بابن الكردبوس(ت610ه/1214م).

-**تاريخ مختصر الدول**، لغريغوريوس ابن أهرون بن توما الملطي أبو الفرج(ت685ه/1286م).

-**حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**، لجلال الدين عبد الرحمن بن محمد سابق الدين، جلال الدين السيوطي(ت911ه/1505م).

-**مختصر الجمان في أخبار أهل الزمان**، لأبي عبد الله محمد بن علي حسن الشطيبي(ت963ه/ 1556م).

-**تاريخ إنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، لعبد الرحمن بن محمد العليمي المقدسي(ت928ه/1521م).

ب-كتب الفقه: نظرا لما امتاز به الفقه الإسلامي من قوة البناء، ورسوخ الأركان، وتعدد الآفاق، وسعة المصادر والأحكام، ولما كان علم أصول الفقه أيضا هو العلم الذي كان محركا للاجتهاد في كل العصور، فقد عرف له المؤرخون الجزائريون أهمية في عصرهم، فاعتنوا به غاية الاعتناء، واعتمدوا على كتبه كثيرا في هذه الفترة عند حديثهم عن موضوعات فقهية مختلفة، اختلف عليها من قبل علماء الفقه، من هذه الموضوعات

نذكر بعض القضايا على سبيل المثال لا الحصر التي ذكرها أبو راس الناصري في فحوى حديثه عن الأسئلة وما يتعلق بها على حد تعبيره، ومنها مسألة الأنتقال من مذهب إلى مذهب، ومن إنتقل للاجتهاد، ومن كان يفتي بالمذاهب الأربعة، وعمن قلّد غير الأربعة، حيث يستعرض أراء العلماء الذين لم يعترضوا كالشيخ عبد الوهاب الشعراني، ويذكر أسماء العلماء الذين كانوا يفتون بالمذاهب الأربعة، ومنهم أبو راس الناصري نفسه الذي يقول عن ذلك"ومؤلف هذا الكتاب محمد أبو راس الناصري، وفقه الله"، وأما عن مسألة من قلد غير المذاهب الأربعة، فيذكر إن أهل الأندلس في ابتداء أمرهم قلدوا مذهب الأوزاعي، إلا إن ردّهم الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل إلى مذهب الإمام مالك[1].

على إن الغاية التي قصدها أبو راس الناصري حسب فهمنا، هو إنه يجب على المسلم إن يعمل بما دلّ عليه الدليل من الكتاب والسنة، سواء وافق المذهب الذي ينتسب إليه أم لم يوافقه، كما ينبغي على من يرغب في معرفة التفسير إن يلُم بأصول الفقه، إذ يعينُ المفسر على الإلمام بجوهر الخلاف، وموضوعات فقهية أخرى كالتوحيد والتكوين. ومن الكتب التي عاد إ ليها المؤرخون الجزائريون في حل مسائلهم الفقهية، ما يلي:

-**كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ**، لأبي إسحاق إبراهيم بن إسماعيل بن أحمد اللواتي الطرابلسي المعروف بابن الأجدابي(470ه/1078م).

-**المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب**، لأبي العباس أحمد بن يحي الونشريسي(914ه/1508م).

-**نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض**، لأحمد شهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي(ت1029ه/1620م).

-**المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على كثير من البدع المحدثة والعوائد المنتحلة**، لأبي عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي، الشهير بابن الحاج(ت737ه/1336م).

-**شرف الطالب في أسنى المطالب**، لأبي العباس أحمد بن حسن بن علي الشهير بابن قنفذ القسنطيني(ت810ه/1407م).

-**الدرر المكنونة في نوازل مازونة**، لأبي زكريا يحي بن موسى بن يحي المغيلي المازوني (883ه/1478م).

-**الأشباه والنظائر**، لتاج الدين عبد الوهاب ابن عبد الكافي السبكي (ت771ه/1370م).

---
[1]- أبو راس الناصري، فتح الإله ومنته...ص:155-156.

-**فتاوى الشاطبي**، لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي(ت790ه/1388م).

-**الحكم العطائية(ابن عطاء الله السكندري)**، لأحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي المعروف بزروق(ت899ه/1494م).

ج- **كتب التصوف**: إن التصوف جزء أساسي في التراث الإسلامي، حيث تبوأ مكانا هاما في الفكر التاريخي العربي الإسلامي. والاهتمام بالتصوف قديم، تناوله المؤرخون العرب والمسلمين تأليفا وكتابة كابن سينا والغزالي وغيرهم. ففي الجزائر في العصر الحديث تحول من التصوف النظري إلى التصوف العملي الصرف، وأصبح يطلق عليه"تصوف الزوايا والطرق الصوفية"، وهو الأمر الذي دفع بالمؤرخين الجزائريين إلى أخذ مرجعيتهم من المرجع الأساسي الذي يمثله كتابات ومؤلفات أئمة الصوفية من أهل السنة والجماعة، ومنها:

-**الفتوحات الإلهية في نفع أرواح الذوات الأنسانية**، لزين الدين زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري السنيكي الشافعي(926ه/1520م).

-**الرسالة القشيرية في علم التصوف**، لزين الدين أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري(465ه/1072م).

-**مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن(رسائل أبي المحاسن)**، يوسف بن محمد أبو المحاسن الفاسي الفهري(1013ه/1605م).

-**الفتوحات المكية**، لمحي الدين محمد بن علي بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي(ت638ه/1240م).

-**شرح مقاصد الطالبين في علم أصول الدين**، لمسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني الشافعي(791ه/1389م).

د-كتب التراجم: عنى المؤرخون الجزائريون بتراجم وسير مشاهير العلماء والفقهاء والأعيان والوجهاء، وقد اختلفت التراجم من حيث الطول والقصر تبعا لاعتبارات، يعود بعضها إلى ثقافة المترجم، والبعض الآخر إلى أهمية المترجم له، والبعض الثالث وهو الأهم في هذه الحال، غزارة المادة المتصلة به وبأخباره من المصادر المتوفرة.ومن أهم مصادر التراجم التي تم اعتمادها ما يلي:

-**نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، لأبي العباس أحمد بابا بن أحمد التنبكتي(ت1036ه/1627م).

-**بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، ليحي بن محمد بن محمد أبو زكريا ابن خلدون الحضرمي(ت780ه/1378م).

-**النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب**، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن سعيد بن صعد الأنصاري التلمساني(901ه/1496م).

-**الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، لإبراهيم بن علي بن محمد بن أبي القاسم فرحون اليعمري المدني(799ه/1397م).

-**الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد ابن حجر العسقلاني(ت852ه/1448م).

-**روضة النسرين في مناقب الأربعة المتأخرين**، لابن صعد التلمساني.

-**المواهب القدسية في المناقب السنوسية**، لمحمد بن عمر بن إبراهيم الملالي التلمساني(كان حيا سنة897ه/1492م).

-**كتاب الوفيات**، لابن قنفذ القسنطيني، وقد جعله ذيلا لكتابه"شرف الطالب في أسنى المطالب".

ه-كتب الرحلات: استخدم المؤرخ الجزائري في العصر الحديث كافة المصادر للإلمام بتاريخ هذه المنطقة، خاصة كتب الرحالة المغاربة والأندلسيين، وأظهروا أهميتها، وأكدوا على إنها من المصادر المهمة لتاريخ الجزائر، ولا يجب الاستغناء عنها، لأنها من الكتب المفتوحة على تخصصات معرفية وفنية متعددة، وهي تتميز بنمطها الخاص في الكتابة، المتمثل في قدرتها على رسم ملامح الأزمنة والأمكنة خارج مقتضيات النمطية المعتادة في الكتابة البحثية بمختلف مجالاتها. فقد شكلت الرحلات بمختلف إنزاعها (الدينية، العلمية، السياسية) المحور الرئيسي في تدوين بعض مشاهدات الرحالة في هذه الكتب، والتي تحدثوا عنها، ومنها

-**رحلة ابن بطوطة(تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)**،لمحمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، الشهير بابن بطوطة(ت779ه/1377م)، اعتبرت من أشهر كتب الرحلات على الإطلاق، وبسبب شهرتها أطلقت جمعية كمبردج على ابن بطوطة لقب"أمير الرحالة المسلمين".

-**المسالك والممالك**، لأبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري(ت487ه/1094م).

-**رحلة ابن جبير**، لأبي الحسن محمد بن أحمد ابن جبير الكناني الأندلسي(ت614ه/1217م).[1].

[1]- كل من ترجم له ذكر لها اسما، فذكرها محمد عبد الله عنان ب"اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك" ويسميها بالرسالة البليغة المؤثرة في وصف الحرم النبوي الكريم ومراسم زيارته، كتبها إلى وليه وصديقه أبي الحسن بن مقصير من علماء فاس، وذكرها حاجي خليفة

-**الرحلة العياشية**(ماء الموائد)**1661-1663م**، لأبي العباس عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي(ت1090ه/1679م).

-**الرحلة الناصرية1709-1710م**، لأبي عبد الله محمد بن ناصر الدرعي(ت1129ه/1717م).

-**رحلة التيجاني**، لأبي محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التيجاني(ت717ه/1317م).

-**رحلة القلصادي"أو تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب"** لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد القرشي البسطي(891ه/1486م).

و-كتب الحديث: لقد نوع المؤرخون الجزائريون في اعتمادهم على المصنفات الخاصة بكتب الحديث، وحاولوا جمع الأحاديث ذات الموضوع الواحد، بعضها إلى بعض تحت عنوان عام يجمعها، فاستشهدوا بها في بعض المواضع والمواضيع، وذلك لإظهار فضائلها، ومعرفة الصحيح منها، ومنها:

-**الموطأ**، للإمام مالك ابن إنس(ت179ه/795م).

-**الجامع الحسن الصحيح المختصر من أمور رسول الله(ص) وسننه وأيامه(صحيح البخاري)**، أبي عبد الله محمد بن إسماعيل(ت256ه/869م).

-**صحيح مسلم**، للإمام أبي الحسن بن مسلم بن الحجاج القشيري(ت261ه/874م).

-**شرح صحيح مسلم**،لمحي الدين أبي زكريا يحي شرف النووي(ت676ه/1277م).

ز-كتب علمية(فلك،منطق،رياضيات،علم الكلام):

-**النجاة في المنطق والإلهيات**، لأبي علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي ابن سينا(ت427ه/1037م)، كتاب في المنطق والطب والفلسفة.

-**المجسطي**، أو الوفاء محمد بن إسماعيل بن العباس البوزجاني(ت388ه/998م)، هو كتاب في الرياضيات والفلك.

-**المناظر في مجموع الرسائل**، لنصر الدين محمد بن محمد بن الحسن الطوسي(ت901ه/1274م).

وكراتشكوفسكي ب"رحلة الكناني"، في حين ذكرها ابن جبير وتبعه في ذلك نقولا زيادة ب"تذكرة بالأخبار عن اتفاق الأسفار" وهو الاسم الأقرب إلى الصواب.ينظر:محمد عبد الله عنان، تراجم إسلامية شرقية وإندلسية، مكتبة الخانجي، ط2، القاهرة، 1390د/1970م،ص:336،وحاجي خليفة،كشف الظنون،ج1،... المصدر السابق،ص:836، وكراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي،ج1،... المصدر السابق،ص:299،ونقولا زيادة،رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، دار لبنان للطباعة والنشر،ط2، لبنان،1406د/1986م، ص:08، وابن جبير، الرحلة...المصدر السابق،ص:07.

-**مباهج الفكر ومناهج العبر**، إسحاق برهان الدين محمد بن إبراهيم بن يحي بن علي المعروف بالوطواط (ت718ه/ 1318م)، كتاب في علم الحيوان.

-**المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار**، (المعروف بالخطط المقريزية) لتقي الدين أبو العباس أحمد بن علي العبيدي المقريزي(ت845ه/1442م).

ثانيا: المصادر التجريبية: والقصد بها هنا المشاهدات والمعاينات للأحداث على طبيعتها، وهذا ما ينطبق بالدرجة الأولى على المؤرخين الرحالة الذين سجلوا ملاحظاتهم خلال الرحلات والأسفار.

إن دراسة الماضي ومعرفته وكتابته من خلال هذا النوع من المصادر ليس أمراً جديدا، فقد وُجدت المصادر المدونة والمصادر الشفهية جنبا إلى جنب عبر التاريخ وحتى العصور الحديثة، فأعمال هوميروس وهيرودوت مثلا جمعت استخدام الرواية الشفهية من الرواة والمشاهدة العينية للأحداث من خلال الرحلات والبحث والتحقيق في البقايا والآثار، كما اعتمد المؤرخون الإغريق والرومان في مرحلة لاحقة على التقاليد والرواية الشفهية من حاشية الحكام وكبار الموظفين، بالإضافة إلى ملاحظاتهم هم الشخصية حول الأحداث المعاصرة لهم أو التي وقعت في فترة ليست بعيدة عن زمنهم الذي عاشوا فيه[1].

وقد استمر الحال كذلك عند المؤرخين في أوربا في الاعتماد على المصادر الشفهية (الملاحظة والمعاينة) خاصة في بريطانيا، حيث تم الجمع في منهجية الكتابة بين نوعين من المصادر التاريخية-الشفهي والمدوّن، وتكرر النمط الأنجليزي في سائر بلدان أوربا في العصور الوسطى.أما على الجانب الآخر في العالم الإسلامي، فقد اعتمد المؤرخون بشكل مباشر أو غير مباشر على المادة التاريخية الشفهية والمصادر المدونة على حد سواء، وإن كان للثقافة الإسلامية خصوصية تفضيل شهود العيان على المصادر المدونة، ولعل ما يؤكده أبرز علماء الجغرافيا العرب في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي دليل على أهمية المعاينة وجمع المادة العلمية التي دونها في كتابه الشهير"أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"خلال رحلاته التي ارتبطت بمختلف التراث العربي، حيث يقول في مقدمته: "نحن لم نبق إقليما إلا وقد دخلناه وأقل سبب إلا وعرفناه، وما تركنا مع ذلك البحث والسؤال والنظر في الغيب، فإنتظم كتابنا هذا ثلاثة أقسام: أحدهما ما عاينّاه، والثاني ما سمعناه من الثقات، والثالث ما وجدناه في الكتب المصّنفة"[2].

إن المؤرخ الذي يشاهد الحدث بأم عينيه تكون رواياته أرجح من معاصره الذي ينقل الأخبار مشافهة عن طريق السماع، وفي ذلك يرى فرانز روزنتال" إن أهمية أي تاريخ إسلامي كمصدر تاريخي يقررها قدمه

[1]- ولْ واريل ديورانت، فكر في دروس التاريخ، تر وتق: علي شلش، ط1، دار سعاد الصباح، الكويت، 1993، ص:57 وما بعدها.

[2]- أحمدي المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ص: من المقدمة.

وقربه من الحوادث التي يصفها"[1]، ويضيف إلى ذلك ابن تغري بردي"إن المؤرخ لا يكفي إن يكون معاصراً، أو استخدامه لكتب مفقودة قديمة أو قربه من المعاصرة لتعتمد كتاباته بوصفها مصدراً أوليا، ما لم يتمتع بالثقة والمصداقية، واعتماده على مشاهدة الأحداث عيإنا أو سماع أخبارها عن إناس اشتركوا فيها أو شاهدوها.إن قيمة الأخبار التي يدونها المؤرخ مشاهدة تكمن في إنه سينفرد بذكرها على الأغلب، إنه ذكر فيها غرائب لم تقع لغيره وأشياء تفرد بها لأنه شاهدها بنفسه[2].

من خلال كل هذه المعطيات، نلاحظ إن مؤرخي الجزائر العثمانية في العصر الحديث اعتمدوا على المشاهدات الشخصية التي عادة ما تظهر عند ذكرهم للمواقع والأماكن الطبيعية، ولعادات وطبائع المجتمعات البشرية، وذلك رغبة في التأكيد، فنجدهم يقفون على هذه المواقع الأثرية من وصف للمدن التي إنتقلوا إليها ومعالم تاريخية زاروها، منها وصف ابن حمادوش لمدينتي تطوان ومكناس خلال رحلته للمغرب الأقصى، ووصف أحمد المقري لبعض محاسن مدينة دمشق الفاتنة الألباب على لسإن لسإن الدين بن الخطيب، قوله"وكان لسإن الدين ذا الوزارتين ابن الخطيب عناها بقوله المصيب، وهو يصف مدينة غرناطة لما نظر إليها"، فقال:

بلد تحف به الرياض كانه	وجه جميل والرياض عذاره
وكانما واديه معصم غادة	ومن الجسور المتحكمات سواره[3].

وعند وصفهم لأي حدث من الأحداث التي وقعت في عهدهم كحادثة إليهودي المختاري التي حدثت في عهد عبد الكريم الفكون بمدينة قسنطينة، ووصفه للحضرة الصوفية والتي يقول عن أصحابها:"ترأهم ككلاب نابحة، ولعابهم كمياه طافحة، وإنفاسهم كنيرإن نافحة، لا يفرقون بين واجب ومندوب ولا محرم ومكروه"[4]، ووصف حسين الورتيلاني لمصر (القاهرة) بمشاهدها ومساجدها ومساكنها وعادات أهإليها، حيث نجده يتابع الحدث أولا، ويسجل مشاهداته وهي أشبه بتقارير يومية[5]، وعند ترجمتهم للأشخاص المعاصرين لهم والذين حرصوا على اللقاء بهم، وتسجيل ما شهدوه عنه وسمعوا منهم.

ثالثا: المصادر الشفهية: وإلى جانب اعتمادهم على معظم هذه المصادر المختلفة من الكتب والمشاهدات، نجدهم أيضا شديدي الحرص على تدوين الروايات الشفهية التي كانت تروى لهم من الثقات، وذكر المناظرات والمناقشات التي دارت بين المؤرخين الجزائريين وغيرهم والتي شكلت جوهر هذه المصادر الشفهية.

[1] – فرإنز روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، تر: صالح أحمد العلي، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1403ه/1983م، ص: 127.

[2] – ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تح:محمد أمين،مج1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر ،1986،ص:69.

[3] – لسإن الدين بن الخطيب،الإحاطة...ج1، المصدر السابق، ص:115.

[4] – عبد الكريم الفكون، منشور الهداية...ص:64-119.

[5] – حسين الورتيلاني، مج2، نزهة الأنظار ...ص:68-69.

ففيما يخص الروايات، نجدهم كثيراً ما يرددون بعض العبارات عند النقل من المصادر، كقول ابن مريم التلمساني على سبيل المثال"وذكر لي بعض من أثق به"، وقوله أيضا"وسمعت الفقيه سيدي علي بن موسى الونشريسي"[1]. وقول عبد الكريم الفكون"وحكى لي جماعة من الناس"، وقوله"وأخبرني بعض من جاوره"[2].

كما إنه من مظاهر حرص المؤرخين الجزائريين على السند، نقلهم لروايات من المقربين منهم كان يكون من أهل المذهب أو من تلاميذ الشيخ، أو خاصة من الأسرة، ومن ذلك ما يذكره الفكون، قوله:"ومما أخبرتني به جدتي...وأخبرني والدي..." وقوله: "وسمعت من الطالب محمد النقاوسي"[3].

كما شكلت المناظرات أيضا نوعا بارزاً في قائمة إنواع المصادر الشفهية التي صاغت محتويات كتب التاريخ الجزائري الحديث، وكانت وليدة مجالات تاريخية وأدبية وفقهية خاصة، وهو المجال الذي مارس فيه أبو راس الناصري ضميره الفكري ومستواه العلمي عند لقاءه بالعلماء والمشايخ.

ولما كانت المناظرة تعتمد جوهريا على العقل في جهوده الاستنتاجية وعلى أحكامه المنطقية، وتقوم على الإدراك الشامل للمعطيات المطروحة من قبل الخصم، فإنها أيضا نوع ترد على الحاجات الاجتماعية الثقافية للعصر، واختلافها عن الأنواع الأخرى يقوم على اعتمادها تقنية احتجاجية تهدف إلى عرض فرضية وطرح مسألة والدفاع عنها، وهو ما يستنتج من الموقف الذي سجله أبو راس الناصري عند لقاءه علماء الوهابية بالحجاز، قوله:"لقيت علماء الوهابية...فوقع لي معهم مناظرة ومباحثة واعتراضات، وسؤالات، وأجوبة فائقات، ودلائل قاطعات، وأحاديث مروية عن أكابر الأئمة من الأمهات...في التسبيح (بالسبحة)، ومشاهد السادات، وهدم مبأني الأولياء ذوي الكرامات...فكان ظني بهم إنهم حنابلة المذهب...فعلمت إنهم خارجون عن المذاهب الأربعة في الفروع، وأما في العقائد فهم على ما عليه الإمام أحمد"[4].

وعليه، فإذا كان الشعر مثلا يعكس الواقع الاجتماعي عبر حديث المشاعر، فإن المناظرة تعكس هذا الواقع ولكن من خلال الخطاب العقلي والفكري والعلمي.

وأود الأشارة إلى ملاحظة بهذا الخصوص، وهي إن المؤسسات الأكاديمية والباحثين لا زالوا يعزفون عن المصادر الشفهية ولا يقبلون إلا الوثائق الخطية كمصادر موثوق بها، وذلك بحجة إن الروايات الشفهية تحوّل الحدث من حقيقة تاريخية إلى خرافة أو أسطورة لا يمكن تصديقها، هذا مع العلم بأن المصادر الخطية نفسها في

1- ابن مريم التلمساني، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، در وتح: عبد القادر بوباية، ط1، مكتبة الرشاد، الجزائر، 1432ه/2011م، ص:92-98.

2- عبد الكريم الفكون، منشور الهداية...المصدر السابق، ص:50-59.

3- نفسه، ص:50-51-55.

4- أبو راس الناصري، فتح الإله...المصدر السابق، ص:119.

كثير من الأحيان لا تقل تضاربا وتناقضا عن الروايات الشفهية وهي مستقاة أصلا من مصادر شفهية، ثم ألا يمكن إن نعتبر الاختلاف في الروايات الشفهية تعبيراً عن اختلاف في وجهات النظر وفي تفسير الأحداث؟

المبحث الثاني: طرق النقل من المصادر

إن طرق النقل والاقتباس للمعلومات من المصادر والمراجع تتنوع حسب اعتبارات كثيرة، فأحيانا يقتضي الحال نقل نصا كاملا بحذافيره، خاصة إذا كانت تعبيرات المؤلف مؤدية للغرض في سلامة ووضوح، وأحيانا يستدعي الأمر اختصاره، أو إعادة صياغته إذا كانت من تعريف المعنى بالزيادة أو النقصان، وخاصة إذا كان موضوعا ذا حساسية.

إن الاقتباس نوعان:

اقتباس كامل للنص ويسمى بالحر أو المباشر (direct quotation)

واقتباس ثاني ويسمى بالغير مباشر أو ليس بحر (indirect quotation)

وفي حالة اقتباس جزء من النص، لابد من التأكد من إن الجزء المأخوذ من النص لا يؤدي إلى تغيير المعنى أو تشويه قصد المؤلف، كما على الكاتب إن يأخذ بعين الاعتبار أثناء الاقتباس القواعد الثابتة التي تعطي الاقتباسات الفكرية والمادية. ومن بين حالات النقل التي ميزت مؤرخي الجزائر في العصر الحديث، ما يلي:

1- النقل الكامل (المباشر) بالنص من المصادر:

إن اعتماد المؤرخين الجزائريين على عدد كبير من المصادر الأساسية في تأليف كتبهم (وهو ما سبقت الأشارة إليه) جعل ظهور النقل الكامل بالنص للمادة العلمية ظاهرة مميزة، كشفت عنها ضخامة المعلومات المختلفة والمتنوعة الواردة في المؤلفات، ولعل الأمثلة التي سنذكرها خير مثال على ذلك. فالمقري في كتابه"نفح الطيب" أكثر وأحسن النقل الصحيح من مختلف المصادر التي وقعت بين يديه خاصة التاريخية والأدبية، سواء لمعاصريه أو ممن سبقوه، وسواء ملخصا أو مطولا. فقد ذكر إنه نقل من كتاب"قطب السرور"لابن الرقيق المغربي ما ملخصه، حيث ينقل صفحتين(ص188-189)، ويعلل ذلك بقوله" وغرضي من إيراد هذه الحكاية هنا، كونه وصف للمشرقي الأندلس وطيبها، وذلك أمر لا يشك فيه ولا يرتاب، والله المسؤول في حسن المتاب"[1]. وفي موضع آخر ينقل نصا مطولا وكاملا من كتاب"مروج الذهب"للمسعودي، مشيراً إلى إن تكرار هذا الكلام مع ما ذكرته عن غيره، فلا يخلو من فائدة[2].

[1]- أحمد المقري، نفح الطيب... مج1، المصدر السابق، ص:190.

[2]- نفسه،ص:144.

ومن بين الحالات للنقل الكامل والمباشر للنص ما ورد في كتاب"نزهة الأنظار" للورتيلاني، فقد نقل نصا كاملا في التعريف بمدينة تونس من كتاب"الأدلة السنية النورانية على مفاخر الدولة الحفصية" –الباب الثاني في التعريف بمدينة تونس وما يتصل بذلك–[1].

وجاء عند كل المؤرخين محور دراستنا في بحثنا هذا في مؤلفاتهم عبارات كثيراً ما تكررت منها"قال الشيخ السنوسي" و"ذكر ابن ابي جمرة" و"قال السخاوي" و"قال ابن عباد"، والأمثلة كثيرة، وهي مظهر من مظاهر الحرص الشديد على تحري الصدق والدقة والتثبت، ونسبة النصوص، والاحترام الراسخ لمبادئ الأمانة العلمية في النقل من المصادر، وهي ولا ريب خصائص لها أهميتها في البحث العلمي.

2–عدم النقل المباشر من المصادر:

إن المتتبع لكتابات المؤرخين الجزائريين في العهد العثماني يجد نفسه أمام كتب علمية وأدبية غزيرة المعارف والفنون، متعددة المصادر والمرجعيات، متنوعة الأجناس، تتداخل ألوانها الفكرية بشكل مكثف، بلحمة الثقافة العربية الإسلامية

وسداها، وتعكس مواصفاتها منذ أقدم العصور إلى عصر المؤلف، وهو ما يجعلنا نعتبر إن دراسة هذه الكتب(بعضها موسوعات) بطريقة علمية دقيقة تحتاج إلى جهود متعددة لمعرفة طرائق النقل من المصادر التي ذكرت في المؤلفات.

فطريقة النقل غير المباشرة من المصادر تعددت وتنوعت، ففيها الاختصار للمادة المنقولة أي (بالتصرف في النقل) من حيث الحذف والإضافة حسب ما تستدعي إليه الحاجة مع المحافظة على الألفاظ وعدم الإخلال بالمعنى، مع التقديم والتأخير، وبذلك تصرف بالنقل وفق حاجته، ويظهر ذلك باختصار الروايات والحكايات خاصة، ومثال ذلك ما يورده المقري وهو بصدد وصف محاسن بعض المدن بالشام رابطا بما شاهده بأم عينيه بما سمع به وقرأه من قبل، قوله:"وكنت قبل رحلتي إليها، ووفادتي عليها، كثيرا ما أسمع عن أهلها زاد الله في ارتقائهم...فلما حللت بدارهم ورأيت ما أذهلني من سبقهم للفضل وبدارهم، صدّق الخبرُ الخبرَ"[2]. فهو يختصر الزمان والمكان ويتصرف في الحدث والعيان، حيث إن المعنى لم يتغير، وذلك إن المقري تمثلت له نفس الصورة بمدينة دمشق بما وصف به ابن الخطيب مدينة غرناطة لما رأى مدينة غرناطة[3]. ونفس الملاحظة تتكرر

1– الورتيلاني، نزهة الأنظار... مج3، المصدر السابق، ص:328.

2– أحمد المقري،نفح الطيب...مج1، المصدر السابق،ص:67-68.

3– ابن الخطيب، الإحاطة...ج1، المصدر السابق، ص:115.

عند المقري وهو يتمثل بقول الأصفهاني في أبيات شعرية استبدل فيهما"الصالحية" بدل"القادسية"و"الحجاز" بدل"بلاد الحجاز" فيقول:" وتمثلت بقول الأصفهاني، وإن غيرت يسيراً منه لما أسفرت وجوه التهاني"[1]

كما نجد مؤرخي الجزائر في هذه الفترة لا يكتفون بالنقل من هذه المصادر، وإنما يضيفون إلى النصوص التي ينقلونها من الكتب التي سبقتهم أو المعاصرة لهم، فنلاحظ البعض منهم يتابع تطور الأحداث والروايات معتمداً على مصادره المكتوبة والمسموعة، بإضافة تحليلات وأراء ومقارنات بين الفترات السابقة له والفترة المعاصرة التي يعيشها، أو بين أحداث منطقته وأحداث المناطق التي تنقل إليها خاصة في كتب الرحلات، ثم يذكر آراءه من حيث صحة الحدث والرواية التي ينقلها من خطئها، كان يقول"وما أشار إليه ابن خلدون في غزوة الخندق فصله المسعودي في كتابه مروج الذهب" وقوله ثانيا"إنتهى كلام ابن سعيد، وهو يؤيد كلام ابن خلدون"[2].

وفي حالات أخرى نجدهم حريصين على ترجيح أصح الروايات المتناقضة مثل قوله"قال ابن خلدون...وابن الفرضي أعرف، لاسيما وقد استند إلى كتاب المهدي وصاحب البيت أدرى"، وفي مواضع أخرى تتداول الآراء فتطرح من المصادر للمقارنة تارة، وللتكملة ثانية، ولمعرفة الصواب تارة أخرى قوله:"قال ابن خلدون...قال ابن حيان...وفي كتاب ابن زيدون...وحكى لي غير واحد"[3].

للعلم إن جميع المعلومات التي يوردونها في كتبهم يستقونها من مؤلفات سابقيهم، وبذلك استطاعوا الجمع بين أفكارهم وأفكار من سبقوهم، وهي الحصيلة العلمية (التاريخية والأدبية) التي ميزت تاريخ الفترة الحديثة بالجزائر.

المبحث الثالث: طرق ذكر المصادر

من خلال تتبعي لهذه الكتب بكثير من التفحص والتمعن لجميع موضوعاتهم ومسائلهم، ومع استقصائي لمختلف العناوين، تبين لي إن المؤرخين الجزائريين في الفترة الحديثة اعتمدوا على جملة من المصادر المختلفة والمتنوعة وذات الأهمية العلمية الكبيرة، والذي يرعى إنتباهنا من هذه المصادر ما كان له علاقة بالتاريخ مباشرة أو على صلة به.

كما تبين لي أيضا إنه كان لمؤرخي هذه الفترة في تعاملهم مع المصادر المكتوبة عدة طرق في ذكر أسماء مصادرهم التي نقلوا منها، وإن كانت تبدوا لبعض الباحثين إنها ناقصة الدقة والوضوح والتنظيم في ذكر

[1]- أحمد المقري، نفح الطيب...مج1، ص:70، نقلا عن جذوة المقتبس للحميدي، المصدر السابق، ص:72.
[2]- نفسه، ص:340-344.
[3]- نفسه، ص:321-322.

المصادر، حيث إنهم اختلفوا في طرق ذكرها، إلا إنه حسب اعتقادنا هي الطريقة التي اتفق عليها معظم المؤرخين في كتاباتهم في تلك الفترة سواء بالمشرق أو بالمغرب العربيين.

وعليه، هناك من المصادر ما أثبته الكُتاب، إما بذكر اسم مؤلفه فقط، سواء كان الاسم كاملا أو اسم الشهرة، أو بذكر عنوإن المصدر تارة كاملا وتارة محرفا، أو بذكر اسم الكتاب ومؤلفه معا، أو بذكر أشارات لبعض الروايات والأحداث من كتب، وفي حالات قليلة جدا، هناك من المصادر لم تُثبتُ لا بذكرها ولا بذكر مؤلفيها مكتفيا بالنقل، لكن عن طريق المقارنة ومن خلال الدراسة استطعنا إن نصل إلى بعضها لوجود تقارب كبير بين النص المنقول والمنقول عنه. وتماشيا مع هذه الكيفية التي اعتمدها المؤرخون في إدراج مصادرهم، نذكر الحالات التالية:

1-ذكر اسم المؤلف: تنوعت واختلفت هذه الطريقة من كاتب إلى آخر، فتارة يذكر اسم الشهرة للمؤلف وهي الغالب عند حسين الورتيلاني مثلا، قوله"قال العياشي" و"ذكر العبدري" و"قال البكري" و"قال السمهودي"، ونفس الطريقة يستعملها أبو راس الناصري تقريبا وهو بصدد ذكر المؤلفات التي أخذ منها، فيقول"وذكر ابن خلدون"و"قال الخفاجي"، في حين نجدهم يذكرون الاسم الكامل للمؤلف في مواضع أخرى، وهو ما يذكره أبو راس الناصري، قوله"قال شهاب الدين أحمد الخفاجي الحنفي" و قول الورتيلاني" قال يحي بن خالد بن برمك"و"قد ذكر يحي الحطاب" و"قال شيخنا سيدي احمد بن ناصر الدرعي"، وفي حالات وهي قليلة جدا يذكر الاسم والوظيفة والبلد مثل: "قال القاضي تقيّ الدين الفاسي- مؤرخ مكة -"و"قال قاضي القضاة ابن خلدون الحضرمي"[1].

2- ذكر اسم الكتاب: قليلا ما لاحظنا ذكر اسم الكتاب فقط، حيث غالبا ما يجنح الكاتب إلى ذكر اسم المؤلف وكتابه، ومن بين الحالات التي سجلناها قول ابن حمادوش وهو ينقل من كتاب الملطي"وأطلعت على كتاب تاريخ الدول، و لم أرى مثله في التراكيب العربية وأساليبها فيما عرب من كتب النصارى"، وقول أبي راس الناصري"والذي في نفح الطيب ما نصه"وقوله" ثم بقيت أفتش عن ذلك النقل مدّة حتى طالعت كتاب المدخل"وقوله"وأما في المقامات الخطابية والأساليب البلاغية"[2].

في حين إن الورتيلاني كثيرا ما يستعمل الاسم المختصر وهو ما يكثر منه وهو يذكر كتب الرحلات، قوله" قال البكري في رحلته" وقوله"قال أبو سالم في رحلته" و"وذكر العبدري في رحلته"[3].

1- نفسه، ص:261-303.

2- أبو راس الناصري، فتح الإله...المصدر السابق، ص:94.

3- الورتيلاني، نزهة الأنظار...مج2، المصدر السابق، ص:182.

3-ذكر اسم المؤلف وكتابه: ذكر المؤرخون الجزائريون الاسم الكامل للمؤلف وكتابه، مثل ما يذكره أبي راس الناصري، قوله"ذكره الشيخ احمد بابا في كتابه-كفاية المحتاج لمعرفة ما ليس في الديباج" وما يذكره الورتيلاني في مواضع شتى منها" و"كتاب حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للجلال السيوطي" وقوله"قال القاضي تقيّ الدين الفاسي في شفاء الغرام"وقوله"ذكره صاحب الجمإن في مختصر أخبار الزمان للعلامة الشيخ محمد الشاطبي"[1]، ونفس الشيء يذكره الفكون في كتابه، قوله"قال أبو عامر السالي في كتابه المسمى ب"درر القلائد وغرر الفوائد"، وقوله"قال أبو إسحاق الشاطبي في فتواه"[2].كما سجلنا طريقة أخرى من طرائق المنهجية عند مؤرخي الجزائر العثمانية، وهي ذكر اسم المؤلف وكتابه معا مختصرا، مثل"وفي الخطط للمقريزي" وقوله"ذكر ابن مرزوق في شرحه على البردة" وقوله"وقد ذكر ذلك كثير من المرتحلين كالعبدري وابن رشيد ومن بعدهما"، وفي حالات يتم الاكتفاء بالأشارة إلى المؤلف أو الكتاب، مثل قوله:"قال السمهودي مإنصّه"، وقوله"قال صاحب مباهج الفكر"[3].

وفي مواضع أخرى يكتفون ببعض الأشارات مثل: "قال العلماء"، و"قال بعض المؤرخين"، و"يقول بعض علماء الأندلس"، وهي ولا ريب طريقة تجعل القارئ والباحث يجد صعوبة في التعرف على اسم المؤلف واسم الكتاب وبالتالي تسبب نقص لمعلوماهم.

وبقي إن نشير إلى إنه من الطرق المنهجية التي لاحظناها في مؤلفات المؤرخين الجزائريين قيد الدراسة، هي الأشارة في مقدمة الكتاب إلى المصادر الأساسية التي اعتمدوا عليها في مادقم العلمية،وهو ما يذكره أبو راس الناصري على سبيل المثال لا الحصر، قوله"وأسوتي في ذلك رحلة الجهابذة النحارير والأسإنيد الجماهير، كرحلة الإمام ابن رشيد السبّتي، والخطيب ابن مرزوق، ورحلة الشيخ أبي سالم عبد الله بن محمد العياشي، ورحلة الشيخ أحمد بن ناصر وغيرهم"[4]، ولكن اتضح عند الدراسة إنهم اعتمدوا على مصادر أخرى وبكيفية واسعة لم يذكروها ضمن مصادرهم التي وضعوها في المقدمة.

[1]- الورتيلاني، نزهة الأنظار...مج3، ص:185.

[2]- عبد الكريم الفكون، منشور الهداية...ص:171-188.

[3]- الورتيلاني، نزهة الأنظار...مج2، ص:167-272.

[4]- أبو راس الناصري، فتح الإله...المصدر السابق، ص:91.

المبحث الرابع: تحليل طريقة الكتابة التاريخية:

لقد كان اهتمام المؤرخين الجزائريين بالتاريخ في العصر الحديث ينبع من اهتمامهم بقيمته كعلم وفن له مكانته في الحياة الثقافية والفكرية لدى الشعوب، فهو ليس سجلا لأحداث الماضي فقط كما يراه العموم، بل هو أيضا فنا وفرعا من فروع الأدب، وقد لمسنا ذلك بكثرة وبزيادة مضطردة في الفترة التي درسناها، وفي عدد الذين يرون إن التاريخ في أساسه علما اجتماعيا، يعني بقدر الإمكان بإعادة بناء الفكر البشري والنشاط الأنساني، وهي نفس الفكرة التي يؤكدها هاري إلمر بارنز حول قيمة التاريخ في العصور السابقة[1].

وإنطلاقا من هذه النظرة، ومن خلال دراستي لمناهج بعض المؤرخين، أجد إن مؤلفاتهم تنوعت بتنوع الجانب التاريخي(كتب تراجم- كتب رحلات)، واختلفت باختلاف موضوعاتها، ولذلك سوف أحدد طريقة تحليل الكتابة التاريخية لدى المؤرخين الجزائريين حسب الاختصاص، كما أحدد قيمة الشعر، وهو القاسم المشترك بين كل المؤرخين الذين تناولتهم بالدراسة بتفاوت بينهم من حيث الدرجة والقيمة.

1-منهج الكتابة في كتب الرحلات

إن دارس التاريخ في حاجة إلى دراسة الرحلات، لأنه يحتاج في أبحاثه إلى معرفة أحوال المجتمعات العربية والإسلامية وغيرها في إنحاء العالم. ولما كانت كتب التاريخ تُعنى دائما بأحوال الملوك والأمراء والحكام أكثر من عنايتها بأحوال الشعوب، لذلك كان لا بد من دراسة رحالات الرحالة العرب والمسلمين الذين دونوا رحلاتهم للوقوف على أحوال تلك البلاد من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للبلاد التي مروا بها، والتي أهملت من قبل المؤرخين المسلمين. وأيضا كان لزاما على دارس كتب المؤرخين إن يرجع إلى ما كتبه الرحالة، فالرحالة المسلمون هم الذين سجلوا الصورة الواقعية التي عرفتها العصور الوسطى لتعريف أبناء المسلمين أو البلاد الإسلامية بعضهم ببعض في العصور اللاحقة.

لقد كان لتلك الرحلات التي قام بها الرحالة الجزائريون أثر هام جدا في مؤلفاتهم، إذ أصبحت المعلومات التي حصلوها عن طريق المعاينة المباشرة، والمشاهدة والتجربة، تشكل جانبا مهما من المعارف الجديدة، ولعل تلك الرحلات قد ساعدت على تكوين ملكة الملاحظة، والمقارنة، والنظرة الشاملة، فجاءت ملاحظاتهم وأحكامهم سديدة وصائبة في أغلب الأحيان.

---

[1]- هاري إلمر بارنز، تاريخ الكتابة التاريخية، تر:محمد عبد الرحمن برج، مر: سعيد عبد الفتاح عاشور،ج1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر،1986، ص:17.

صحيح، إن المؤرخين الجزائريين الرحالة ساروا على طريقة الرحالة المغاربة في إدخال هذا النوع من المصادر في مؤلفاتهم، واعتمدوا عليه في تدوين أخبارهم. ولا شك إن الرحالة المغاربة ساروا هم الآخرين على درب من سبقهم من المؤرخين المسلمين، خاصة المسعودي الذي يعتبر رائدا في هذا المجال، حيث إن مؤلفاته وكتاباته التاريخية قد اصطبغت بصبغة المؤرخ المتحرك الحي، الذي يرى الأشياء الجامدة المهملة، فيبعث فيها الحياة والحركة ويجليها للعيان. كما يعتقد المسعودي أيضا، إن من أولى المهام التي يجب على المؤرخ إن يلتزم بها ويطبقها إن لا يكتب عن شيء إلا إذا كان قد خبره بنفسه، وشاهده حسا إذا كان باستطاعته ذلك، وإلا تركه لمن يستطيع، فالمسعودي من أولئك الذين اتخذوا الأسفار منبعا ورافدا يمد صاحبه بالعلم العملي، والمعرفة الصحيحة الواقعية[1].

منهج الكتابة في كتب التراجم:

إن التأليف في التراجم من الأهمية بمكان للمؤرخ، لأنه يحوي أخباراً تاريخية قد تكون نادرة، وقد يجد الباحث في دراسة التراجم ما يسد به الثغرات التي تبقى عادة من المؤلفات التاريخية ولا تتعرض لها، كما إن هذه الأخبار التي تأتي عرضا تكون عادة أقرب إلى الصواب والخلو من الدس والغرض.

ولكتب التراجم أهمية خاصة في التعريف بالحياة الثقافية للمدن والأقاليم التي تناولت تراجم علمائها، كما إنها مهمة لمعرفة الأصول التاريخية، ودراستها لما تحويه من التعريف برواة الأخبار وبيان أحوالهم، وعقائدهم، واتجاهاتهم الفكرية، ودوافعهم وأغراضهم. كما تُظهِرُ أهمية خاصة في نوع من الدراسات التاريخية التي ظهرت حديثاً والتي تعنى بعلم"تاريخ التاريخ" لمعرفة الرواد الأوائل في الدراسات التاريخية عند العلماء المسلمين[2].

وقد أطلق كثير من المؤلفين في علم الرجال على كتبهم اسم"التاريخ"، ومنهم أبو زرعة الدمشقي (ت281ه/895م)[3] الذي جمع في كتابه بين الأخبار التاريخية والتراجم الوجيزة لبعض الصحابة والتابعين ورواة الحديث، ولم يرتب تراجمه على الطبقات، أو على تاريخ الوفيات، أو على أسماء المدن، أو على حروف المعجم، أو على الأنساب، وحتى الحوادث التاريخية لم تكن مرتبة ترتيبا تاريخيا دقيقا، قال عنه تلميذه أبي بكر الخلال الذي ذكر بأنه"جمع الكتاب لنفسه في التاريخ وعِلَلِ الرجال"[4]، حيث اعتبرت كتبهم في التراجم فرعاً

1– آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج2، ص:10.

2– أكرم ضياء العمري، بحوث في تاريخ السنّة المشرفة، دار الرسالة، ط3، بيروت، لبنان، 1975، ص:201 وما بعدها.

3– عبد الرحمن النصري، تاريخ أبي زرعة، تح:خليل المنصور،دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان،1417ه/1996م.

4– أبو يعلى، طبقات الحنابلة، تح وتق وتع: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين ج1، منشورات الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة سنة على تأسيس المملكة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1419ه/1999م، ص:205.

من فروع التاريخ حتى عند علماء المتأخرين الذين كتبوا في مفاهيم علم التاريخ، وتحديد مجالاته وفوائده وأغراضه من أمثال السخاوي والسيوطي[1].

وإنطلاقا من هذا، فقد تبنى المؤرخون الجزائريون في كتاباتهم صفة الالتزام بالإسناد، وغالبه بصيغة التحديث أو الأخبار"حدثنا-أخبرنا" في مرويات الذين يترجم لهم، أما الأحداث التي تتعلق بتاريخ الشخصيات والمعالم التاريخية، والأحداث السياسية والاقتصادية وحتى الاجتماعية فإنهم لا يلتزمون فيها بالإسناد دائما، فهم يسندون بعضها ويتركون بعضها، ويبدو إنهم يأخذون مثل هذه المعلومات من كتب تحت أيديهم، كما إنهم يعلقون على بعض الأخبار من عندهم، ويسبقون ذلك بقولهم، "قال المؤرخ"، و"ذكر لي الراوي" و"حكى لي، وقد ينقلون أقوال العلماء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وقد يجمعون في تنظيم كتبهم بين الترتيب للأحداث وبين التسلسل التاريخي وحتى المكاني، ولعل ما يذكره كلا من ابن حمادوش وأبي راس الناصري في رحلتهما لدليل على ذلك.

وعموما، فإن كتاب الجزائر العثمانية بالنسبة للمنهج التاريخي لا يضيفون جديدا، وإنما التزموا بالسمات العامة لمنهج المؤرخين في عصرهم من الإسناد والترتيب التاريخي، والاستشهاد بالشعر، والأشارة في الكتب إلى المصادر التي استقوا منها معلوماتهم.

الشعر والكتابة التاريخية عند المؤرخين الجزائريين:

احتضنت كتب المؤرخين الجزائريين قيد الدراسة خاصة كتب الرحلات، نصوصا أدبية كثيرة في الشعر، والذي لا يستغنى عنه في دراسة أدب هذه الفترة(العصر الحديث)، وهو الأمر كذلك الذي دفعني إلى اعتبار هذا النوع الأدبي(الشعر) من مناهج الكتابة التاريخية عند المؤرخين الجزائريين في الفترة المذكورة، والعدد الكبير من القصائد التي وظفها مؤرخو هذه الفترة في الجزائر، سواء من قصائد الشعراء أو من وحيهم. ويكفي إن نلقي نظرة على المضمون الشعري في الكتب المختلفة التي نحن بصدد دراستها لنتبين صحة هذا الاستنتاج.

فكتاب"رحلة المقري" يعتبر وبشهادة كل المؤرخين والأدباء معجزا باهرا في الأدب والمحاضرات، وموسوعة أدبية أكثر منها تاريخية، أما كتاب"رحلة الورتيلاني" فيضم ما يربو على الخمسين(50) من مقاطع القصائد لشعراء من مختلف العصور، وست قصائد من شعره الخاص.

1- اعتبر كلا من السخاوي والسيوطي إن علم التاريخ فنا من فنون الحديث النبوي، وإن من فوائده معرفة مواليد الشيوخ ووفياتهم، ينظر: السخاوي، الإعلأن بالتوبيخ لمن ذم التاريخ...ص:44، والسيوطي، الشماريخ في علم التاريخ،...ص:26.

وعليه، فإن أغلب الرحالين الجزائريين في الفترة المذكورة حرصوا على نقل الأشعار ورواياتها، وسجلوا لأنفسهم أيضا قدرا من القصائد الشعرية، فكانت هذه الرحلات بمثابة دواوين لأصحابها خصوصا إذا علمنا إن أكثرهم لا تعرف لهم أشعاراً إلا من خلال ما أثبتوه في رحلاتهم[1]

ومن أهم الأغراض الشعرية التي سجلناها ما يلي:

-**المديح النبوي:** لقد اغتنم الكتاب الجزائريون فرص موسم الحج وحلول عيد المولد النبوي الشريف وليلة القدر، وانتصار الملوك والسلاطين في الحروب، وجلوسهم على العرش ليتجهوا إلى التعبير عن مشاعرهم ومواقفهم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة عن عواطفهم. ومن بين هذه المواقف مدح النبي صلى الله عليه وسلم، والشوق إلى الحرمين الشريفين ما تكرر من لدن كل المؤرخين الجزائريين في كتاباتهم، ولعلي أذكر مثال أو مثالين للدلالة على ذلك، منهم أحمد المقري في قصيدة طويلة والتي إنشدها في وصف الأقدار، كما يعبر عن هذا الشوق أيضا حسين الورتيلاني في قصيدة طويلة رواها في مدح النبي صلى الله عليه وسلم والاستغاثة به لتزول عنه حجب الغفلة وكدرات النّفس، وليرقى إلى مراتب التّجليات، يقول في مطلعها[2]

لا أيها القطب الهمام تعلّقت	مجامع قلبي بالسّعيد المنوّر
شُغفت بحبّه لأنه مذبدا	يقوم بأوراد ويسعى بأسطر

وإلى جانب أشعار الشوق إلى البقاع المقدسة، نجد أشعاراً أخرى عبر فيها أصحابها عن الحنين إلى العودة إلى قبر الرسول عليه الصلاة والسلام والاستمتاع بجواره، وقصائد تخصصت بذكر ما كان يتحلى به الرسول صلى الله عليه وسلم من صفات حميدة، واستحضار مواقفه من السيرة، فهي تنتظم في سلك المدائح النبوية، وهذا النوع كثيرا في كتب الرحالة الجزائريين خاصة.

كما كان المدح من الأغراض الأكثر شيوعا، حيث لم يخلو كتاب من قصائد هذا الغرض الشعري، ففيه قصائد لمدح الملوك والسلاطين، كمدح ابن حمادوش للسلطان المغربي عبد الله بمناسبة انتصاره على الباشا[3]،

---

[1]- سجل أحمد المقري قصيدة طويلة في الأقدار بلغت أبياتها (103) بيت، وهي من البحر المجزوء الكامل، بينما سجل الورتيلاني هو الآخر قصيدة في المدح بلغت أبياتها مائة وعشرة (110)، وهي من البحر البسيط. ينظر: أحمد المقري، نفح الطيب...ج1، المصدر السابق، ص:10-17، والورتيلاني، نزهة الأنظار...ج1، المصدر السابق، ص ص:392-402.

[2]- الورتيلاني، نزهة الأنظار...المصدر السابق، ص:392 وما بعدها

[3]- ابن حمادوش،لسان المقال...المصدر السابق،ص:97

ومدح الأصدقاء والشيوخ، وهو ما تمثل به أبو راس الناصري عندما رثى شيخه عبد القادر المشرفي بقول الأعرابي لمالك بن طوق لما قصده ومدحه بقوله[1]

تَعَوَّدْتَنِي بِالْجُودِ حَتَّى نَعَشْتَنِي	وَقَدْ زِدْتَنِي حَتَّى حَسِبْتُكَ تَلْعَبُ
فَإنتَ النَّدَى وَابْنُ النَّدَى وَأَخُو النَّدَى	حَلِيفُ النَّدَى مَا لِلنُّدَى عَنْكَ مَذْهَبُ

-الرثاء: تعرض بعض المؤلفين لبعض نصوصه، والأشارة إلى بعض نماذجه تجعلنا نقف على هذا النوع من الشعر عند المؤرخين الجزائريين ومنها قصيدة ابن حمادوش التي يرثي فيها شيخه ابن المبارك [2]، ورثاء عبد الكريم الفكون لشيخه أبو الحسن علي البهلولي بقصيدة ضمنها كتاب التعزية[3]، في حين إن حسين الورتيلاني يمزج النص النثري بالنص الشعري وهو بصدد الحديث عن خلفاء الدولة العباسية فينقل أبيات شعرية من قصيدة للفرزدق يرثي فيها عمر بن عبد العزيز بعد وفاته[4].

-الوصف: تكاد كل الأغراض الشعرية تنهل في صور التعبير من الوصف وتعتمد عليه، وهنا نقصد الوصف الخالص للطبيعة، حيث نجد في بعض الكتب قدرا مهما من الأشعار التي اهتمت بوصف بعض مظاهر الطبيعة من إنهار وجبال وشواطئ وصحراء، كما اهتمت كتب أخرى بجوإنب العمرإن والآثار التاريخية والمعالم الدينية من مآذن ومساجد وأضرحة ومدارس، وسأكتفي بما وصف به أحمد المقري الأقطار التي زارها في الشام(دمشق) نقلا من شعر الأصفهإني تارة، ومن النثر الشعري للسإن الدين بن الخطيب تارة أخرى، قوله"فصرت أورد من بدائع بلغائها ما يجري على لسإني من الفيض الرحمإني، وأسرد من كلام وزيرها لسإن الدين بن الخطيب السلمإني...ما تثيره المناسبة وتقتضيه، وتميل إليه الطباع وترتضيه، من النظم الجزل في الجد والهزل... [5]

---

[1]- أبو راس الناصري،فتح الإله...المصدر السابق،ص:24

[2]- ابن حمادوش، لسإن المقال...المصدر السابق،ص: 87

[3]- عبد الكريم الفكون، منشور الهداية...المصدر السابق،ص:225-226

[4]- الورتيلاني، نزهة الأنظار...ج3، المصدر السابق،ص: 195

[5]- أحمد المقري، نفح الطيب...ج1، المصدر السابق،ص:75.

– **الإخوانيات:** ضمت كتب المؤرخين الجزائريين في هذه الفترة قدرا مهما من الشعر يمكن ضمه إلى الاخوانيات[1] وهو ما كان يتبادله الأصدقاء والأحباب في شكل مراسلات ورسائل في مناسبات التهنئة والشكر، والتوديع، والتعزية، والعتاب، وغير ذلك مما كان عاملا في تحقيق عامل الصداقة والود، وتأجيج المشاعر وصدق الأحاسيس، ومنها رسالة ابراهيم الغرياني

القيرواني خديم الزاوية الشريفة لعبد الكريم الفكون يتودد فيها إليه ويطلب منه الدعاء، فهي قصيدة شعرية بلغت ثلاث وأربعين(43) بيت [2]، وقصيدة لابن حمادوش في الحنين إلى وطنه وهو بمرسى تطوان بالمغرب الأقصى، يشكو غربته وحزنه لقلة ذات اليد بعد إن نوى قضاء العيد مع أهله بالجزائر، يقول في مطلعها[3]

لقد كنت قبل اليوم أصبر صابر	وها إنا في هذا الأوان ذليل
إنوح على بعد الديار صبابة	نواحي التكالى تحسبوني جميل

–**الإجازة وطلب الحديث:** من الأشعار التي تضمنت النطق بالإجازة، أو أوصت بطلب الحديث ودعت إلى الاهتمام به، وغالبا ما اقترن الموضوعان معا في مقطوعة واحدة، وسأكتفي في هذا المقام بالأشارة إلى بعض الأبيات الشعرية من القصيدة التي نظمها أبو راس الناصري في حق شيخه محمد مرتضى الزبيدي المصري الذي أجازه في"البخاري" و"مسلم" و"رسالة القشيري"، قوله فيه متمثلا[4].

أبو الفيض ذو الإفضال والسعد والعطا	إمامي وأستاذي وشيخي وسيدي
سقاني كؤوس الحب في قدس حضرة	مداما بها من سكرها كم معربد

مع العلم إن هناك أغراض أخرى سجلها المؤرخون الجزائريون في هذه الفترة كالهجاء والغزل اختلفت من كاتب إلى آخر قلة وكثرة، حدة وبساطة.

[1]- الاخوانيات، هي فن من الفنون الشعرية التي تتمتع بخصوصية ومزايا معينة، وهي أيضا لون من ألوان الشعر الطريف الذي يصور العلاقات الاجتماعية بين الشعراء وبين الاصدقاء والأحباب. كانت موجودة قبل العصر العباسي الثالث ولكنها لم تتخذ شكل الاستقلال والتميز إلا في القرن الرابع الهجري، حيث أصبحت بابا شعريا قائما بذاته، وهو يرى إن الاخوانيات إنفرد بها النثر قبل الشعر.ينظر:بطرس البستاني، أدباء العرب في الأعصر العباسية، دار الجيل، بيروت، لبنان،1970،ص:89.

[2]- عبد الكريم الفكون، منشور الهداية...المصدر السابق، ص:218-222

[3]- ابن حمادوش، لسان المقال...المصدر السابق،ص:108.

[4]- أبو راس الناصري، فتح الاله...المصدر السابق،ص:59.

وعموما، فإن كتاب الجزائر العثمانية بالنسبة للمنهج التاريخي لا يضيفون جديدا، وإنما التزموا بالسمات العامة لمنهج المؤرخين في عصرهم من الإسناد والترتيب التاريخي، والاستشهاد بالشعر، والأشارة في الكتب إلى المصادر التي استقوا منها معلوماتهم.

وعن تقويم هذه الكتابة التاريخية عند المؤرخين الجزائريين في هذه الفترة، نجد:

-اتفاق معظم مؤرخي الجزائر في هذه الفترة على كتابة مقدمة لمؤلفاتهم، تتضمن أسباب ودوافع اختيارهم لتأليف الكتاب، ولمحة موجزة عن ما يحتويه كتابه من موضوعات، وذكر عنوإن الكتاب، وتاريخ الشروع والأنتهاء من كتابته، ثم خاتمة يشكرون الله فيها على إتمام كتابه هذا خاصة في كتب التراجم[1].

-حرصهم على نهج أسلوب الإطالة والتكرار، رغم إنهم سلكوا أسلوب سهل ويسير في كتابتهم التاريخية، ورغم حرصهم على استخدام أسلوب الإحالة في بعض المرات عندما يرون إن الموضوع طويل وخارج عن الفكرة الأساسية، فيتم الإحالة إلى المصدر الذي تحدث عن هذا الموضوع.

-استخدام أسلوب الاستطراد في كثير من الأحداث التاريخية والمواضيع الأدبية قد يصل أحيانا إلى الصفحات، وعند الرجوع إلى الموضوع الأساسي الذي كان المؤرخ يكتب فيه قبل الاستطراد يورد عبارة"ولنرجع إلى ما كنا بصدده" أو كلمة"لنرجع" أو"إنعطاف إلى التكلم فيما نحن بصدده"[2].

-كان لمؤلفي الجزائر في هذه الفترة إضافات وتعليقات في كتاباتهم وهي تتفاوت ما بين الإسهاب والإيجاز، تختلف من كتاب لآخر تبعا لمكانة ودرجة وشخصية المؤلف، وحتى للكتب التي نقل منها. وهذه الإضافات بعضها يغلب عليها طابع الشروحات البسيطة التاريخية منها والأدبية، وبعضها اتسمت بالتحليل والتعليل والتوضيح باستعمال كلمات"تنبيه" أو"فائدة"أو"تتمة"أو"حاصله".

-تعريفهم لبعض الأماكن والمواقع التي يذكرونها حسب المصطلح الذي يعيشونه تعريفا جغرافيا سواء المشهورة أو غير المشهورة، كما يعرفون بالشخصيات المشهورة خاصة والتي لها علاقة بالتاريخ معتمدين على كتب التراجم والأنساب، ولعل ما يذكره ابن حمادوش لقائمة شيوخه خير مثال[3].

1- أحمد المقري، نفح الطيب...ج1 وج3، المصدر السابق،ص:351-357.

2- الورتيلاني، نزهة الأنظار...ج1، المصدر السابق،ص: 236

3- ابن حمادوش، لسان المقال...المصدر السابق،ص:17 وما بعدها.

-اعتمد معظم مؤرخي الجزائر في هذه الفترة أسلوب المناقشات والمحاورات بين الآراء والأقوال والروايات، وترجيح بعضها على بعض، وتوضيح الأصح منها، وتحديد أخطاء بعض المؤرخين سواء الذين سبقوهم أو الذين عاصروهم، والتعبير برأيه عن ذلك بقول"قلت"، ومناقشتهم للآراء و قدرتهم على نقدها يدل على مدى تمكنهم وثقتهم في صحة المعلومات التي يوردونها، وإن كان ذلك بنوع من الاعتزاز والفخر والتباهي في بعض الحالات، ومن هؤلاء المؤرخين أبو راس الناصري.

- من بين الملاحظات على مناهجم، رواية الخرافات والأساطير والقصص والروايات التي يرونها منافية للعقيدة الإسلامية الصحيحة، ولكننا نجدها كثيرا في أحاديثهم ومؤلفاتهم، وكأنهم يؤمنون بها، وهي اعتقادات كانت منتشرة في عصرهم،، حتى إن بعض هؤلاء المؤرخين(عبد الكريم الفكون، وابن مريم التلمساني) كادوا إن يقعوا في الخطأ حينما بالغوا في ذكر هذه الخرافات والأساطير، وامتزجت رواياتهم وتراجمهم ببعض هذه الروايات، على الرغم من اتساع ثقافتهم وغزارة علمهم وورعهم الديني[1].

-اهتم بعض المؤرخين في منهجهم بشرح الألفاظ والكلمات الصعبة والغريبة، وقد استوفى شرحها بالرجوع إلى كتب ومصادر ومعاجم، وقد وضحنا ذلك أعلاه في مناهج مؤرخي التراجم ومؤرخي الرحلات.

-مزج المؤرخون الجزائريون في هذه الفترة رواياتهم وأحاديثهم بالأسلوب القرآني تارة، وببعض الأبيات الشعرية تارة أخرى، وذلك كله لدعم صحة الروايات، وهذه الأشعار نقلا لبعض الشعراء للاستشهاد بهم، وقد تكون من المؤلف نفسه، ومنها القصيدة الطويلة(79 بيت) التي قالها الورتيلاني في الشيخ الموهوب، الذي بذكره قد أطمإن الورتيلاني، وهي أشارة إلى قول الله تعإلى في سورة الرعد،الآية28، إلى اطمئنإن المؤمنين ويقينهم عند ذكر الله تعإلى[2].

حاصله، إن منهج الكتابة التاريخية عند مؤرخي الجزائر العثمانية يثبت إن التاريخ لديهم ليس مجرد نقل للأحداث السياسية، بل هو تصوير للحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بما تشمله هذه الحياة من رقي وازدهار، أو تخلف وتدهور، وهم في ذلك مثلا يتابعون التفاصيل الدقيقة للمواضيع التي يتحدثون عنها، فالرحالة(الورتيلاني،الناصري، المقري) يتحدثون عن مشاهد استقبالهم بالمدن التي رحلوا إليها، وعن عادات

---

[1]- وعن أمثلة لهذه الخرافات والروايات، ينظر: ابن مريم التلمساني، البستان...المصدر السابق،ص ص:61- 136

[2]- الورتيلاني، نزهة الأنظار...ج1، المصدر السابق، ص:133.

وتقاليد سكان تلك المدن، ويركزون على الوصف الجغرافي للأماكن التي زاروها، وكل ذلك بأخلاقيات عالية، وموضوعية صادقة في مناهجهم التاريخية.

المبحث الخامس: أثر منهج مؤرخي الجزائر خلال العهد العثماني على منهج مؤرخي الجزائر في الفترة العثمانية

يقول كثير من الباحثين إن كل عصر ينبغي إن يكتب التاريخ من وجهة نظره، لأن تقدير كل عصر لما هو مهم وذو معنى بالنسبة إليه يختلف عن تقدير العصر الآخر، وكل عصر كذلك يحاول إن يرى الماضي من خلال إهتماماته والأفكار السائدة فيه، ومن هنا قال كثيرون من المؤرخين"إن التاريخ حوار بين الحاضر والماضي.

ومن الواضح إن اهتمامات المؤرخين في عصر ما تختلف عن اهتماماتهم في عصر آخر، ومن أدلة ذلك مثلا إن الأهتمام بالسيرة النبوية وشرحها وتفصيلها نشط جدا في القرنين السادس والسابع الهجريين/الحادي والثاني عشر الميلاديين، لن توالي الأخطار على الدول الإسلامية دفع بالمؤرخين المسلمين إلى الارتداد إلى سيرة النبي صلى الله عليه وسلم يلتمسون فيه الحل أو المخرج، فظهرت كتب كثيرة منها"دلائل النبوة" للبيهقي، و"الروض الأنف" للسهيلي، و"عيون الأثر" لابن سيد الناس، وغيرها. وليس من المصادفة ظهورها كلها في هذه الفترة التي توالت فيها الأخطار على العالم الإسلامي، كما إن ازديااد اهتمام الناس في الغرب(أوربا) بدراسة التاريخ، واجتهاد الكثيرّين من المؤرخين في تحويل هذه الدراسة إلى علم مستقل مستكمل الشروط العلمية كان بسبب ظهور القوميات والدول الكبرى في أوربا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر[1]

من العوامل والأسباب التي دفعتني لطرح هذه الفكرة، هي إن الكتابات التاريخية في كل فترة من الفترات التاريخية، وفي كل منطقة من المناطق كانت متصلة إتصالا وثيقا بالثقافة الأم أولا، وبالمجتمع الأصلي ثانيا، وإن هذه الطريقة هي التي مكنت من استجلاء ما أسهمت به المواهب الفكرية(المؤرخين السابقين) من استعراض للأحداث التاريخية في العصور السابقة، وهو الأسلوب الذي يربط بين أطراف كتابات المؤرخين السابقين باللآحقين عن طريق التأثير، وهي الوسيلة التي يتم بموجبها تقييم الكتابات تقييما سليما وسط كتابات معاصريهم، فكانت الحصيلة إن قيل" إن الكتابة التاريخية هي في حقيقة أمرها نتاج تاريخي"[2]

1- حسين مؤنس، التاريخ والمؤرخون، دار المعارف، القاهرة، مصر،1984،ص: 44-46

2- هاري إلمر بارنز، المرجع السابق،ص:14

من الأمور الواضحة اليوم، إن إنقضت أزمنة وإندثرت عصور أعتبر فيها كل من خاض في أحداث التاريخ، وكل من يحاول الكتابة في التاريخ، أو كل من يروي قصة من قصص الماضي مؤرخا، لأن التاريخ اليوم أصبح علما له قوإنينه وقواعد ومناهجه التي لا يعيها إلا المؤرخ الذي يجمع بين الحاسة التاريخية المرهفة والوعي العلمي المتين، ولأنه العلم الذي يوضح كيف نشأ الأنسان ويتتبع تطوره على مدى العصور، وجهوده في تسخير الطبيعة لخدمته، والخطوات التي بنى بها حضارته لبنة بعد أخرى، وكيف كان ينهض بعد كبوة، ويكبو بعد نهضة، وذلك كله كفيل بأن يجعل من التاريخ علم ودراسة وتحقيق وتحليل ومقارنة ونقد.

من الأمور الواضحة والواقعية اليوم أيضا، إن التاريخ أصبح يحتل مكانة متميزة بين باقي العلوم، وهو أحد العلوم التي ظل الجدل يدور حول ماهيته ومنهجيته لكثير من الوقت، إلا إن أهتدى العلماء إلى وضعه دلالة على مطلق مجرى الحوادث الفعلية التي صنعها الأفراد والشعوب والتي وقعت منذ أقدم العصور، واستمرت وتطورت في الزمان والمكان حتى الوقت الحاضر.

ولكن هذه النظرة، بل هذه النظرات قد تغيرت في المفهوم العام للتاريخ خلال الفترة الاستعمارية الفرنسية للجزائر في القرن التاسع عشر الميلادي، وذلك بسبب السياسة التي إنتهجها الكُتاب الفرنسيون كفيليكس غوتي(F. Gautier) وستيفإن غزال(S . Gsell) وغيرهم ممن دار في فلكهم بحملات من التشويه والمسخ، ومن ورائهم السلطة الاستعمارية التي عملت على تهميش المؤرخين الجزائريين، وحاولت تغييب ونكرإن الذاكرة التاريخية للجزائريين، حيث إن أغلبية إنتاج هؤلاء المؤرخين كان مكرسا لخدمة أهداف الاستيطإن الفرنسي، وهادفا لتكريس النظرة الاستعمارية الفرنسة التي ترى ماضي الجزائر مرتبطا بالعهد الرومإني. أما باقي الحقب الأخرى المتمثلة في العهد الإسلامي، فهي حسب هذه النظرة، فترة إنتقالية يكتنفها الغموض وتتميز بالفوضى، حتى وصفها الكاتب الفرنسي غوتي في كتابه ب"السنين المظلمة"[1]

ورغم ذلك، فقد كان لهذا التحول الذي فرضته الظروف التاريخية (نهاية الحكم التركي وبداية الحكم الفرنسي) في النظرة إلى احداث التاريخ الجزائري تأثير إيجابي تمثل في طرح عديد القضايا والتساؤلات حول ماضي تاريخ الجزائر، الذي ظل يحضى بمكانة هامة عند الجزائريين، واتضح مفهومه التاريخي والتاريخي الوطني

[1]- ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية-دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار البصائر،ط2، الجزائر،2009،ص:17.

أكثر مع بروز طائفة من المؤرخين والذين تعد كتاباتهم ذروة تطور الوعي التاريخي الجزائري في تلك المرحلة بمنهج حديث اعتمد على كتابات سابقيهم[1].

هناك تشابه كبير، ونقاط مشتركة كثيرة، وتأثير واضح بين مؤرخي الجزائر في الفترة العثمانية ومؤرخي الجزائر في الفترة الاستعمارية في منهجية تأليف الكتب، ذلك إن المؤرخين الجزائريين الذين عاشوا فترة الحكم العثماني تركوا رصيداً كبيرا ومادة علمية في غاية الثراء، لا من حيث عدد المصادر والمؤلفات التي زخرت بها مكتبات الزوايا، والمساجد، والمدارس، ومكتبات العائلات والبيوتات العلمية، بل من حيث قيمة الأفكار بالاتجاهات المختلفة، فهم لم يتركوا ما هو قابل للتأريخ إلا وأثبتوه بالتقييد في مؤلفاتهم، وإن تفاوتت في الأهمية التاريخية والقيمة العلمية، ولكنها كتابات عبرت عن تصورات كتابها وأرائهم، وبالتالي فهي مصادر لا يمكن الاستغناء عنها.

وفي هذا المبحث، سنحاول إعطاء نماذج من المؤلفات الجزائرية في الفترة الاستعمارية (1830-1954م) أو ما تسمى بكتابات الحركة الوطنية التي تأثر أصحابها بكتابات الفترة العثمانية، ومعرفة مدى تأثرهم بمناهج مؤرخي الفترة العثمانية. للعلم إننا اخترنا نماذج من كتب الأنساب والأشراف، وكتب التراجم والمناقب، وكتب المذكرات والسير، وكتب من التاريخ العام، وإن كل المؤرخين الذين تناولناهم وُلِدوا وعَاشوا في القرن التاسع عشر الميلادي، ومنهم من عايش وعاصرالحملة الفرنسية على الجزائر، ومنهم:

كتاب القول الأعم في بيان إنساب قبائل الحشم" للطيب بن المختار الغريسي المؤلف:

هو الطيب بن المختار بن الطاهر بن البشير بن محمد بن عبد القادر بن المختار الغريسي، وقد ولد بمنطقة غريس، درس بمدينة معسكر على يدي الشيخ مصطفى بن التهامي والشيخ ابن عبد الله السقاط المشرفي، سافر إلى فاس فدرس بجامع القرويين على يد أبي عبد الله محمد الجاوي[2].

تولى عدة مناصب منها منصب القضاء بمنطقة غريس مدة من الزمن، وعضواً في لجنة مجلس معسكر، وعضوا في لجنة تسيير القضاء الإسلامي والتدخل في شؤونه واخذ صلاحيات القضاة المسلمين وإعطائها إلى قضاة الصلح الفرنسيين[1]. توفي الشيخ الطيب بن المختار عام1320ه/1903م ودفن بمنطقة غريس.

1- بلهاشمي بن بكار، مجموع النسب والحسب...المصدر السابق،ص:142.

2- أبو القاسم سعد الله، ج7، المرجع السابق،ص:305.

الكتاب: هو الكتاب الثالث من كتاب"مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب" في أربعة كتب، حيث إن المؤلف لا يدع شكا في نسبة الكتاب إليه، بقوله" وسميته بالقول الأعم في بيان إنساب قبائل الحشم"، كما إنه يقدم دوافع التأليف أيضا بقوله" إنه رأى بعض الدخلاء في العربية المتطفلين على أبوابها وفصولها المتحاملين على قواعدها وأصولها..قد أكثروا الخوض في إنساب الحشم فركب كل منهم مثني وقال قولا وما أفاد معني، أحببت إن إنفق شيئا من العمر الضائع

في هذه الرسالة، وأزيل الخبط والاضطراب عنهم...مقتصرا على ما تدعوا الحاجة من مشاهر القبائل ورؤساء الفضائل وأعيان الأشراف[2]، رتب المؤلف كتابه في مقدمة وثلاثة فصول، فأما المقدمة فقد جاءت في شكل ديباجة، إبتداها بالحمدلة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وفيها تعرض لشرح مدلول كلمة"الحشم" التي قال إنها مشتقة من الحشمة، وقال إن هؤلاء القبائل قد حملوا هذا الاسم في منتصف القرن الثامن الهجري/14م، وكانوا قبل ذلك يعرفون ببني راشد استقروا بجبل عمور، ثم استوطنوا سهل غريس[3].

أما الفصل الأول، فجاء بعنوان"في ذكر أشراف غريس" والذين عُرفوا بالمَرابْطِين، فقد ذكر فيه اعيان الأشراف ونسبهم وعدّدهم بثمانية قبائل، ومنهم قبائل اولاد سيدي دحو الذين يرجعون في نسبهم إلى أصل سلفهم من الأندلس من بني حمود، وأولاد سيدي أحمد بن علي الذين يتصل نسبهم بمحمد الباقر بن علي بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، والمشارف الذين يعودون في نسبهم إلى الأدارسة بالمغر ب الأقصى، وأشهرهم شيخ الجماعة ومعتقد الجميع السيد عبد القادر بن عبد الله المعروف بالشيخ المشرفي صاحب كتاب"بهجة الناظر في اخبار الداخلين تحت ولاية الاسبأنيين بوهرإن من الأعراب كبني عامر"[4].

والفصل الثاني الذي عنونه ب"فيمن هو بغريس من العرب الذين ليسوا بأشراف"، وهم العرب الذين غزا بهم افريقش الحميري المنطقة، تاركا بعد رجوعه إلى موطنه قبيلتا كتامة وصنهاجة، والذين إندرجوا بالبربر، والبربر الذين يصفهم بالقوة والشدة والذين ظلوا أسياد بلاد المغرب إلا إن جاء الفتح الإسلامي.

1- نفسه، ص:330، وعبد القادر بكاري، منهج الكتابة التاريخية عند أبي راس الناصري من خلال مخطوط زهر الشماريخ في علم التاريخ، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة معسكر، 2008-2009، ص:17

2- الطيب بن المختار، القول الأعم...ضمن كتاب"مجموع النسب والحسب، المصدر السابق،ص:329.

3- الطيب بن المختار، المصدر السابق، ص:329

4- الطيب بن المختار، المصدر السابق، ص:333-336.

والفصل الثالث وهو الأقصر، خصصه لقبيلة زناتة الموجودين بغريس قبل العرب، وإن اوليتهم متساوية بأولية البربر، حيث إندمجا العنصرين كليا، فلا يكاد يميز البربري من الزناتي، حيث تعرض فيه لاشتقاق لفظة زناتة، وتعريف الزناتيون من غيرهم، فهم إذا عرفت الأشراف والأجواد والعرب الآخرين، عرفت إن الزناتي من سوأهم، لأن الأشياء تعرف بأضدادها[1].

من بين أبرز مميزات منهجية الكتابة عند الطيب بن المختار الغريسي، هي إنه قرن حديثه عن النسب بالتاريخ، خاصة وإن مسألة النسب إحتلت أهمية بالغة في المجتمع الجزائري في تلك الفترة، فالمجتمع الجزائري كغيره من المجتمعات العربية كان يعتز كثيرا بنسبه ويتفاخر به، وكان له تأثير كبير في حياته الاجتماعية والسياسية، وطرحت مسألة الشرف عند السلطة والرعية معاً، خاصة في قضية المناصب الحساسة كالقضاء. رتب الطيب بن المختار قبائل الر اشدية عبر تسلسل وربط، فبعد الأنتهاء من شجرة نسب لقبيلة بعد إن يوصلها إلى منبعها، ينتقل إلى الحديث عن نسب آخر، من ذلك ما يذكره عن أشراف غريس بالترتيب والذين لا شك في شرفهم ولا خلاف، ومنهم أولاد سيدي دحو بن زرفة واولاد سيدي أعمر بن دوبة...والذين يتصلون في نسبهم بمحمد الباقر ابن علي بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والقبائل بغريس من العرب الذين ليسوا بأشراف زناتة المنحدرين في قبائل الحشم"[2].

أما الميزة الثانية في كتابه، وهي الطريقة التي يجمع فيها الكتابة التاريخية بالوعي الديني، وهي الأصول المنطقية التي بنى عليها المؤرخون المسلمون نتاجهم الفكري في العصر القديم، فالتاريخ هو عرض لزمن ديني يخضع لقدرة إلهية، كما إن الرواية الشفهية وايراد الخبر ظلت الطريقة الأكثر حضورا في الكتاب، وذلك من خلال الاستشهاد بالشعر، كغوثية سيدي عيسى ابن موسى في غوثيته، وقصيدة للعلامة ابن زيان أحد علماء تلمسان، وقصائد من وحيه كالتي رتبها في مدح الأمير عبد القادر[3]. والملفت للنظر، إنه يحيل في العديد من المرات إلى المصادر التي يلجأ إليها في نقله للمعلومات، من ذلك مثلا ما ينقله من كتاب"البستان وذكر الأعيان" وكتاب"روض الأزهار في ذكر آل النبي المختار" وغيرها من المصادر.

---

[1]- نفسه، ص:354.

[2]- الطيب بن المختار الغريسي، المصدر السابق، ص:331.

[3]- نفسه، ص:341-342.

كتاب:"طلوع سعد السعود في تاريخ وهران ومخزنها الأسود" للأغا بن عودة المزاري

المؤلف: هو ابو اسماعيل بن عودة الساري بن الحاج محمد المزاري البحثاوي، ينتمي إلى أسرة تولت عدة وظائف مخزنية ببايلك الغرب في النصف الأول من القرن التاسع عشر، كما تنتمي عائلته إلى اعيان وقواد القطاع الوهراني، فقد شغل أبوه الحاج محمد المزاري وظيفة كاتب لدى الأمير عبد القادر قبل إن ينضم إلى الفرنسيين حيث ظل في خدمتهم إلى إن وافته المنية عام 1862م[1]. كما تولى هو الاخر منصب الأغوية في الادارة الفرنسية إلى اواخر القرن التاسع عشر، ولا يعلم تاريخ وفاته، والراجح إنه توفي في مطلع القرن العشرين[2].

الكتاب: هو عبارة عن موسوعة كبيرة ضمت احداث تاريخية وجغرافية واجتماعية وثقافية لعدد من بلدان العالم القديم على مستوى القارات:الافريقية والاوربية والآسيوية، كما اشتمل على تراجم العديد من الشخصيات، وعرضا لأخبار ملوك فرنسا، وفترة الاحتلال الفرنسي للجزائر، ثم أحداث عن قبيلتي الدواير والزمالة[1] [3].

إن العنوان الأصلي للكتاب هو"طلوع سعد السعود في تاريخ وهران ومخزنها الأسود" وأحيانا ترد كلمة أخبار" بدل "تاريخ" وكلمة "جيشها" بدل "مخزنها"، ولكن المحقق يحي بوعزيز ادخل تحويرا على اسم المخطوط ليكون أكثر دلالة على محتواه، وهو "طلوع سعد السعود في اخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا من غابر الازمان إلى نهاية القرن التاسع عشر"[4].

أما بخصوص نسبة الكتاب لصاحبه، فقد أثار الكاتب الفرنسي مارسيل بودان(M.Bodin) أشكالية تمثلت في إن الكتاب هو لمحمد بن يوسف الزياني الذي يكون قد تنازل عنه للمزاري مقابل نيله وظيفة القضاء، وإن المزاري كان من رجال المخزن وليس من رجال العلم[5]

1- ابن عودة المزاري، طلوع سعد السعود...المصدر السابق،ص:148

2- ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي...المرجع السابق،ص:568.

3- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص:380.

4- ابن عودة المزاري، طلوع سعد السعود...المصدر السابق، ص:من المقدمة.

5 - Marcel, Bodin, la breve chronique du bey Hassan, extraite et traduite de la Tal'at-os-Sa'd-is-So'oud de Mazari, in BSGAO, 44, 1924, p : 25-26 .,

يتألف الكتاب من خمسة أقسام يحمل كل منها اسم المقصد، وهو ما يذكره المؤلف في مستهله بقوله"فإني لما طالعت كتاب التاريخ واجتمعت عندي منه رقائع جليلة تاقت نفسي إلى جمع تأليف جليل في أخبار وهران ومخزنها القساور، الذين بهم فاقت ما عداها من المدون، فهم أصل الخصائل الجميلة، فجمعته بحمد الله تعالى في كتاب جليل الفرائد ورتبته بإذن الله على خمسة مقاصد:

-المقصد الأول: فيمن بنى وهران، وأي وقت بنيت فيه، ووصفها بالتعريف.

المقصد الثاني: في ذكر بعض اوليائها بحسب الاستطاعة والتعرض بالذكر إلى من هو منهم شريف.

المقصد الثالث:في ذكر بعض علمائها من حين بنيت للأن.

المقصد الرابع: في ذكر دولها على سبيل الترتيب من حين بنيت إلى هذا الزمان. وما أذكره من غيرهم، فذلك رغبة في إتمام الفائدة بزيادة البيان.

المقصد الخامس: في ذكر مخزنها وهو عين المراد.والتعرض إلى سيرته الجميلة التي لا يكون فيها الأنتقاد[1] وبشهادة المؤرخين الجزائريين المعاصرين المهدي البوعبدلي وابوالقاسم سعد الله وناصر الدين سعيدوني، فإن الكتاب(طلوع سعد السعود) يعتبر من المصادر الأساسية التي أرخت لبايلك الغرب الجزائري أواخر العهد العثماني والقرن التاسع عشر، فترة الحكم الفرنسي لوهران إلى فترة ادارة المحافظ كارنو للمدينة[2].

كتاب:"المرآة" لحمدان خوجة

المؤلف: هو حمدان بن عثمان خوجة الكرغلي الأصل، الجزائري الجنسية، ينتمي إلى عائلة عريقة ذات جاه وثروة ومكانة. ولد عام 1773م بالجزائر العاصمة والتي قضى حياته بها، ثم عاش متنقلا بين فرسا وتركيا التي تردد كثيرا على مركز الخلافة فيها، وأعجب بمناهجها وتعلق بمظاهر الحياة بها، وبعض أقطار المشرق العربي وبلدان البلقان. مارس التعليم الديني في بداية حياته، ثم التجارة مع خاله فأصبح من أثرياء الجزائر، كما كان سفيرا دبلوماسيا في فرنسا وبلدان البلقان، وأصبح من إنشط السياسيين في الحركة الوطنية الجزائرية بعد الغزو الفرنسي للجزائر عام 1830م [3]

ونظرا للسياسة الفرنسية العدائية إضطر لمغادرة الجزائر بعد إن يئس من الحد من الاجراءات التعسفية الاستعمارية، وبعد إن أدرك نوايا وأبعاد السلطة الاستعمارية التوسعية، متتبعا للتطورات بالجزائر، ومواظبا على التأليف والترجمة والقراءة حتى وافته

المنية أواخر سنة1840م [4]، ودفن بمقبرة الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري، في حين يذكر جورج إيفر(Georges.Yver) إنه توفي ما بين سنة1840 1845م [5]، والأرجح إنه توفي عام1845م [6].

1- ابن عودة المزاري، ج1، المصدر السابق، ص:51-52.

2- محمد بن عبد الكريم، حمدان خوجة الجزائري، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان،1972، ص:31.، وعبد الكريم بوصفصاف وآخرون،معجم أعلام الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ج2، المرجع السابق، ص:102.

3- محمد بن عبد الكريم، المرجعي السابق، ص: 32.

4 -Georges, yver,si hamdan ben othman khodja, In, R,A, v57,1913, pp:321-336

5- ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق،ص:489.

6- ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي...المرجع السابق،ص:570.

الكتاب: رغم التآليف العديدة التي ألفها حمدان خوجة والتي تعتبر من المصادر الأساسية لتاريخ الجزائر في نهاية الحكم العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي، والتي تعطينا صورة واضحة عن مستوى الأفكار والاتجاهات وقضايا المجتمع الجزائري والعالم الإسلامي عامة، إلا إنه اشتهر بكتاب"المرآة" الذي يعتبر من أوائل الكتب التي صدرت بعد الاحتلال، وفرغ من تأليفه عام 1833م[1].

إن كتاب"المرآة" الذي يحمل التسمية الأصلية"لمحة تاريخية واحصائية عن إيالة الجزائر" (Apercu historique et statistique sur la régence d'Alger) والذي ضاع أصله العربي، ترجم إلى اللغة الفرنسية ثم إلى اللغة التركية،كان الغرض منه إطلاع الحكومة الفرنسية على مساوئ الادارة المدنية بالجزائر الناتجة عن الاحتلال بجمع وثائق واحصاءات تقدم إلى اللجنة الافريقية بباريس[2].

قسم الكتاب إلى جزأين: الجزء الأول عرض فيه تاريخ الجزائر الثقافي والاجتماعي والسياسي بشكل مفصل ودقيق. أما الجزء الثاني فيتناول أسباب الغزو الفرنسي للجزائر، وتفاصيل عن نزولها بشاطئ سيدي فرج، كما يضم الكتاب معلومات هامة حول الأوقاف والوثائق الإسلامية بالجزائر، واستهل كل ذلك بمقدمة استعرض فيها أوضاع الجزائر والجزائريين، وقارن بينهم وبين أوضاع الأوربيين، وبيّن فيها الاسباب التي دفعته إلى هذا التأليف، والهدف الذي قصده به.

يتضح إن الكتاب جاء بنظرة متفحصة ومعلومات قيمة، تعكس مدى معرفته بنوايا الادارة الفرنسية، وبواقع الادارة العثمانية نتيجة لمعرفته الخاصة ببعض الحكام والموظفين والتجار الذين كان على اتصال بهم، وفي مقدمتهم التجار إليهود المتنفذين في السلطة كبكري وبوشناق، وقد أشار إلى ذلك بقوله:"لقد أخذت عن هذا الشريك نفسه هذه المعلومات"[3].

[1]- معجم أعلام الجزائر، ص:136-137.

[2]- عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، ص:133.

[3]- حمدان خوجة، المرآة، تق وتع: محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر،1982، ص:43.

كتاب:"فريدة مُنِيسة في حال دخُول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطاِنها".

المؤلف: هو محمد الصالح بن محمد بن أحمد بن محمد العنتري، ولد في أوائل القرن التاسع عشر مابين 1790و1800م بقسنطينة، ينتسب لأسرة عريقة إشتهرت بوظائف الكتابة والمهام الإدارية في العهد الفرنسي. شغل منصب"خوجة الدائرة" أي كاتبا بالمكتب العربي(Bureau Arabe) بقسنطينة تحت إشراف الضابط الفرنسي بوسوإني(Boissonnet) [1]. كما إشتغل بالتدريس مدة من الزمن، وتولى القضاء بقسنطينة، وعُد من مجموعة علماء قسنطينة وأعيانها الذين شاركوا في رحلة إلى باريس عام1844م للإطلاع على المظاهر العمرانية بها.

الكتاب: عرف هذا الكتاب بعدة عناوين منها:"كتاب الأخبار المبينة لاستيلاء الترك على قسنطينة" و"الأخبار المبينة في تاريخ قسنطينة"و"الفريدة المؤنسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على اوطانها وذكر شيء مستفاد من سيرة باياتها إلى إنقضاء دولتهم واحتواء الفرنسيين على مملكتهم"[2]، بينما يذكر محقق الكتاب"يحي بوعزيز" إن صاحبه سمّاه في المقدمة ب"فريدة منيسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها"، وفي الخاتمة ب"تاريخ قسنطينة"[3].

طبع ونشر هذا الكتاب لأول مرة في قسنطينة بمطبعة فإن سنة1846م، ثم قام دورنون(Dournon) بعد سنوات بترجمته إلى الفرنسية ونشره في مجلة "مجموعة ملاحظات ومذكرات الجمعية الأثرية القسنطينية" عام1929م[4].

تعتبر كتاب"تاريخ قسنطينة" من اوائل الكتب التاريخية التي عالجت تاريخ قسنطينة بالتفصيل، اعتمادا على الروايات والمشاهدات(المؤلف عايش العصر) واستنادا إلى وثائق العائلات العريقة بالمدينة، وإنطلاقا من الوثائق الرسمية التي وضعها المكتب العربي تحت تصرفه خاصة المستشرق الفرنسي بواسوني الذي كان مهتما بالتراث الجزائري وتاريخ المنطقة خاصة.

وفي الكتاب معلومات هامة تتعلق بالعلاقة بين الجزائر وتونس، يصفها بالعلاقة الجوارية التي تتحسن تارة وتسوء تارة أخرى.

1- محمد الصالح العنتري، فريدة منيسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على اوطانها، تح: يحي بوعزيز، دار البصائر، الجزائر،2009،ص: 04

2- مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم2320.

3- محمد الصالح العنتري، المصدر السابق، ص:05.

4- سعودي يمينة، الحياة الأدبية في قسنطينة خلال الفترة العثمانية، مذكرة ماجستير في الادب الجزائري القديم، جامعة الاخوة منتوري، قسنطينة،2005-2006

وفي نهايته يضع جدولا بأسماء البايات والحكام الفرنسيين الذين حكموا اقليم قسنطينة بالتقويم الهجري، والحق ذلك بقصيدة في مدح مدينة قسنطينة وأهلها(5).

للعلم، إن المؤلف لم يضع فهرسا، ولا عناوين، فقد إكتفى بكتابة بداية كل فقرة، واسماء البايات بخط غليظ.

كتاب:"تعريف الخلف برجال السلف" لأبي القاسم الحفناوي

المؤلف: هو أبو القاسم محمد الحفناوي بن الشيخ بن أبي الديس البوسعادي ابن سيدي بن الصغير بن ابراهيم الغول، أحد صلحاء المنطقة وصاحب زاوية بالديس. ولد الحفناوي سنة1269ه/1852م بقرية الديس، ونشأ على طلب العلم والمعرفة بالعديد من المدن والحواضر الثقافية كقسنطينة والجزائر العاصمة وتونس. تقلد عدة مناصب منها: التدريس بالجامع الكبير بالجزائر العاصمة ابتداءًا من سنة1897م، كما عين مفتي المالكية عام1936م، لكن الكتابة هي التي طبعت حياته، فقد شارك في تحرير صحيفة "أخبار العرب"، واستمر في الكتابة بجريدة "المبشر" إلى إن توقفت عام1344ه/1927م، كما تعامل مع الشيخ محمود كحول في جريدة"كوكب إفريقية" سنة1907م[1].

الكتاب: إحتوى كتاب الحفناوي على مقدمة وقسمين. فاما المقدمة، فهي عبارة عن إشادة ووصف واعتزاز، فقد أشاد بالسلف الصالح الذين تركوا آثارا علمية نقبوا بها في كنوز الموضوعات، ووصلوا بها إلى أعلى الدرجات. أما الوصف، فيخصصه للمدرسة الثعالبية التي عرفت أوج ازدهارها في عهده، يفتخر بجمال مناظرها وهندستها وقبابها، ومنها وقف على تراجم العديد من علماء الجزائر. يعتز ويشيد بالحاكم العام للجزائر جونار(Jonart) الذي كان يهتم بالعلم والعلماء، مع الأشارة إلى المصادر التي اعتمد عليها في تراجمه ومنها على سبيل المثال: الدراية، البستان، الديباج، المحتاج، خلاصة الأثر، نشر المثاني، نفح الطيب... وغيرها[2].

القسم الأول من الكتاب يخصصه لتراجم العلماء المدونة أسماؤهم في المدرسة الثعالبية التي علا شانها بفضلهم المتميز، وعددهم خمسون(50)عالما.

أما القسم الثاني، فقد تناول فيه جمع من بعض مصادر القسم الأول وأجوبة المحبين، وبلغ عدد المترجم لهم في هذا القسم368 عالما، ولم يكتفي بعلماء الجزائر، بل أضاف علماء من أقطار اخرى كالسودان مثلا. للأشارة

1- أبو القاسم سعد الله، ج7، المرجع السابق، ص:423.

2- صالح بلعيد، قراءة في تعريف الخلف برجال السلف للشيخ أبي القاسم محمد الحفناوي الديسي، مجلة جامعة مولود معمري، ع09، مارس2008، ص:68.

فإن كتاب الحفناوي جاء على نمط الموسوعات كطبقات ابن صعد، وكتاب علماء الأندلس لابن الفرضي، وليس كتراجم الفكون أو ابن مريم التلمساني على سبيل المثال[1].

وعليه، فإن من يتصفح كتاب الحفناوي يجده من أهم المصادر الآساسية في التراجم، فقد اطال وأكثر التفصيل في بعض ممن ترجم لهم، من ذكر لحياتهم ونشأتهم، ووظائفهم، ومصادرهم، والبعض الاخر جاءت تراجمهم مختصرة موجزة، كل ذلك مبنيا على الواقعية والشمولية، ومعتمدا على الرواية والسند[2].

---

1 -Saadedine Bencheneb, Quelques historiens arabes modernes de l'algérie, in, r.a, v100, 1956, p : 480

2- فارس كعوان، المرجع السابق، ص:105.

كتاب:"تاريخ الجزائر في القديم والحديث" لمبارك الميلي.

المؤلف: هو الشيخ مبارك بن محمد الابراهيمي الميلي، الذي ولد في23ماي1896م بقرية أورمامن في جبال الميلية بشرق الجزائر، حفظ القرآن الكريم منذ صغره ثم واصل مسيرة طلب العلم بقسنطينة ليتجه بعدها إلى تونس لمواصلة دراسته بالزيتونة على يد مشايخ كبار كعثمان خوجة ومحمد النخلي والصادق النيفر، وبعد تخرجه عاد إلى أرض الوطن سنة1925م[1].

عاش الميلي في كنف ومن أجل التربية والتعليم والإصلاح، فعمل كمعلم في مدرسة قرآنية بقسنطينة إلى غاية سنة1927م، لينتقل بعدها إلى مدينة الأغواط تولى فيها الإشراف على تعليم أبناء المنطقة بنفسه، وتحت ضغط الادارة الاستعمارية غادرها إلى بوسعادة ثم إلى قسنطينة ثانية التي قضى بها سنوات من العمل والنشاط، ثم إلى مدينة ميلة التي تفرغ فيها إلى التعليم والتربية والاصلاح.

من بين نشاطاته الواسعة، مساهمته بكتاباته في العديد من المجلات والصحف، منها: المنتقد والشهاب ثم السّنة والبصائر، وبعد تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كان أحد أركانها البارزين واعضائها الناشطين تسييرا لإدارتها، وامينا للمال فيها، ومصلحا ناجحا في حقل التعليم والكتابة فيها[2].

وبعد مرض عضال، توفي الشيخ مبارك الميلي بمدينة ميلة يوم9 فبراير1945م، ودفن بمقبرة شيخه محمد بن معنصر الميلي[3].

الكتاب: يعتبر كتاب"تاريخ الجزائر في القديم والحديث" من الأعمال الرئيسية للتاريخ الجزائري الحديث، لتأريخه لمختلف العصور أولا، ولطريقته في كتابة التاريخ من خلال تجميعه ما تفرق من أحداث وأخبار عن التاريخ الجزائري عبر عصور .قسم الكتاب إلى جزأين، الجزء الأول يضم مقدمة وثمانية (08) أبواب، خصصت لجغرافية الجزائر، وأصول البربر وملوكهم، والفينيقيون وأخبارهم، ثم علاقة البربر وأحوالهم مع الرومان والوندال والروم البيزنطيين.

أما الجزء الثاني، فقد خصصه للعصر العربي، ويضم ستة(06) أبواب، وهي الفتح الإسلامي لأفريقية. كما يضم الكتاب بعض الرسائل منها رسالة شيخه عبد الحميد بن باديس، وتنويه الأمير شكيب أرسلأن وإعجابه

1- محمد مبارك الميلي، الشيخ مبارك الميلي، حياته العلمية ونضاله الوطني، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان،2001، ص:324-325.

2- علي مراد، الحركة الاصلاحية الإسلامية في الجزائر، تر:محمد يحياتن، دار الحكمة، الجزائر، 2007، ص:106.

3- محمد الميلي، الشيخ مبارك الميلي...المرجع السابق، ص:342.

بما كتبه الميلي، جاء فيه ما يلي:"واما تاريخ الجزائر فو الله ما كنت اظن إن في الجزائر من يفري هذا الفري، وقد أعجبت به كثيراً"[1].

اتبع الميلي منهجا جديدا في مؤلفه، وهي استعمال التبويب، حيث كانت الخطة المعلنة في الجزء الأول هي اشتماله على ثلاثة كتب، أما الكتاب الرابع الذي لم يرى النور، فهو:"في مصير أمر الجزائر إلى الأجانب وأحوالها في هذا الدور"[2].

من بين الملاحظات المنهجية التي نسجلها في هذه المرحلة هي إن الكتابة التاريخية عرفت تطورا ملحوظا بفعل الاحتكاك بالكتاب الفرنسيين، والقصد هنا هو نوعية الكتابات الفرنسية ونظرتها للتاريخ الوطني الجزائري، مما خلق ردة فعل قوية وطبيعية، دفعت بالمؤرخ إلى التخندق تحت مظلة الايديولوجية الوطنية، حيث أظهر المؤرخ الجزائري موقفا إنحيازيا لقضيته.

---

[1]- نفسه، ص:05.

[2]- محمد الميلي، تاريخ الجزائر...المرجع السابق، ص:32.

من الأكيد إن الاحتلال الفرنسي للجزائر أحدث ثورة اجتماعية وثقافية ونفسية خاصة، أدى إلى ظهور الحركة الوطنية وإلى تطور مسارها، والتي أحدثت بدورها تطورا في مسار الكتابة التاريخية الوطنية، بأعتبار إن من الركائز التي ركز عليها الاستعمار هي محاولة تشويه ومسخ الذاكرة التاريخية للشعب الجزائري، فكانت المقاومة التاريخية أحد المقومات الرئيسية للدفاع عن الهوية الوطنية أمام تلك الحملات التي شنتها الهيئات الفرنسية والأقلام الاستعمارية الحاقدة على ماضي الجزائر[1].

وللدلالة أكثر على هذه المواقف، نقف عند ما سجله المؤرخون الجزائريون من وقائع وأحداث، إختلفت قيمتها وأهميتها من كاتب إلى آخر، ومن موضوع إلى آخر.

فابن عودة المزاري صاحب كتاب"طلوع سعد السعود" مهد لفترة الاحتلال الفرنسي للجزائر بذكر تاريخ ملوك فرنسا في مختلف الفترات التاريخية، وتوسع في أحداث المقاومة الوطنية، مركزا أساسا على مقاومة الأمير عبد القادر، وعلاقته بالفرنسيين من جهة، وبمختلف قبائل الغرب الجزائري من جهة أخرى. صحيح، إن المزاري يعتمد على مصادر الفترة الإسلامية والفترة العثمانية كابن خلدون وابن خلكان وابي راس والزياني وابن يوسف الملياني، وعلى الروايات التي جمعها والمشاهدات التي عايشها، ولكنه أيضا اعتمد على مؤلفات تعرضت للحكم العثماني(تأليف استرهازي) وهذا ما جعل القسم الأخير من مؤلفه في غاية الأهمية، برؤية جديدة للتاريخ في الفترة الاستعمارية[2].

أما كتاب"تاريخ بايات قسنطينة" للعنتري فيعتبر من أوائل الكتب التاريخية المحلية لمدينة قسنطينة، فهو مصدر محوري، لأنه أرخ لفترتين وإن كانتا متصلتين تاريخيا، إلا إنهما مختلفتين الوقائع والاحداث(أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي)، وهو ما يؤكده إقدام الكتاب الفرنسيين وضباط المكاتب العربية على ترجمته والنقل منه دون ذكره احيانا، ومن هؤلاء فايسات(Vayssettes) الذي كان مدرسا ومترجما في قسنطينة، كما أستفاد منه أيضا إرنست مرسيي(Mercier,Ernest ,) الذي أرخ لمدينة قسنطينة، وشارل فيرو(Charle, Feraud) ودورنون(Dournon) الذي ترجم كتاب العنتري ونشره ةعام1929م كما سبق الحديث عن ذلك[3].

أما عن كتاب"المرآة" لحمدإن خوجة، فما من شك إنه اول وثيقة تاريخية وسياسية في بداية عهد الاحتلال، حيث قدم فيها أحكامه عن النظام العثماني من جهة والاحتلال الفرنسي من جهة أخرى، فقد عبّر فيه حمدإن عن مواقفه من الأحداث، بل وأبدى رأيه في القضايا المصيرية للدولة الجزائرية في تلك المرحلة.

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص:306.

[2]- ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص:569-570.

[3]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص:343.

إن المنهج الذي إنتهجه حمدإن في كتابه"المرآة" يختلف عن مناهج المؤرخين الجزائريين الذين عاصرهم،فلم يتبع الطريقة الإسلامية في الاعتماد على الشواهد الشعرية، ولا الأساليب القرآنية، ولا الاعتماد على السنوات، بل اتبع طريقة حديثة تعتمد على المواضيع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية[1].

أما عن كتب التراجم والتي أخترنا منها كتاب"تعريف الخلف برجال السلف" للحفناوي، فقد لاحظنا وعلى ما كان عليه الحال خلال الفترة العثمانية من تراجم لرجال الصوفية حيث تركزت على ذكر كرامات الشيوخ، وهي التراجم التي تخصصت في مدح المترجم له وتبيان خصاله الحميدة فقط، وهو ما دفع مثلا لطفي عيس من الدفاع عن هذا الصنف من الكتابات بدعوى عدم تجريح صاحبه، وبدعوى إنها كتابات تاريخية صحيحة مثلها مثل باقي الكتابات الأخرى[2]، في حين إن التراجم هي ذكر لسيرة المترجم له بما فيها من مزايا وعيوب، وهو ما يتضح في كتاب الحفناوي.

إن الحفناوي يشيد بالسّلف الصالح الذين تركوا آثارا، ويجمع كتب أسلافه بإعادة نصوصها أحيانا، وبتغييرها احيانا أخرى وزخرفة أسلوبها وإن كتابه دراسة وصفية تاريخية أكثر مما هي نقدية يغيب عنها التحليل والاضافات، ولكن عمل موسوعي متخصص في علم التراجم الحديثة، ويعد من أمهات المصادر التاريخية في مجال التراجم التراثية خاصة[3] .

واما بخصوص كتاب الميلي"تاريخ الجزائر في القديم والحديث" ورغم إنه لا يفصل في بعض الأحداث تفصيل تاريخي، إلا إن كتابه يعرض الكثير من الأحداث التاريخية، فقد تجرأ على مناقشة قضايا التصوف والارتباط بالولياء، وهي الظاهرة التي حاربها في إطار التيار الاصلاحي، فالميلي يتحدث عن التاريخ الوطني، والتراث الجزائري، والفكر السياسي العربي الموحد، ويعتبر الفرنسيين أجانب ودخلاء عل الوطن[4].

وهو الذي وجه كتابه إلى من يعتبرون ويتبصرون، ويطلب الرجاء بدل اليأس، وكان غرضه الحث على العمل من اجل الوطن وسعادته، وقد اهدى كتابه إلى الوطن والعاملين من اجله، وإلى الشعب الجزائري وشبابه[5]

---

[1]- عبد الحميد زوزو، حمدإن خوجة ومنهجه في كتابة التاريخ، مجلة الأصالة، منشورات وزارة الشؤون الدينية والتعليم الأصلي، ع04، الجزائر، أكتوبر 1971،ص:92.

[2]- أحمد عبد السلام، المؤرخون التونسيون في القرون16-18-19م، رسالة في تاريخ الثقافة، بيت الحكمة، قرطاج، تونس، 1993، ص:154-156

[3]- صالح بلعيد، المرجع السابق، ص:68.

[4]- عبد الملك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، المرجع السابق، ص:204-205

[5]- مبارك الميلي، المصدر السابق،ص:07.

استنتاج:

إن التاريخ الصحيح يُكتب عندما تكون رؤية المؤرخ صحيحة، وإن التاريخ يتألف بصورة أساسية من رؤية الماضي من خلال عيون الحاضر، أي على ضوء مشاكله وتحدياته الإجتماعية والاقتصادية والثقافية، ومن هنا رأى بعض المؤرخين إن العمل الأساسي للمؤرخ ليس هو فقط تدوين الأحداث التاريخية أو ما يسمى بالتأريخ، وإنما تقويمها ونقدها، ولا يقف المؤرخ على مجرد جمع الأحداث وسردها بل عليه إن يبدي رأيه في هذه الأحداث التي يقوم بسردها وذلك طبقا للقاعدة التي وضعها سكوت(Scott) التي تقول إن"الحقائق مقدسة أما الرأي فهو حر"[1] .

ولما كان التاريخ بالنسبة للإستعمار مرتبط بضمان السلطة والهيمنة على الشعوب، فقد إنطلق المؤرخون الاستعماريون الفرنسيون في كتاباتهم من أهداف ترمي إلى إضعاف الوعي بالماضي الوطني، وإبعاد المجتمع الجزائري عن تراثه الوطني الحضاري، وعن الاعتزاز بأحداثه، والتأثر بمآثره والالتزام بقضاياه، فقد ظهر مؤرخون استجابوا لهذا التحدي بكتابات بنظرة دفاعية مقاومة لهذا التحدي، ومؤكدة على الهوية الوطنية العربية الإسلامية.

[1]- إدوار كار، ما هو التاريخ، تر:ماهر كيلاني وبيار عقل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1980،ص:40.

الخاتمة

من بين الملاحظات التي يمكن إن تكون كاستنتاجات والتي يمكن تسجيلها من خلال دراسة موضوع مناهج الكتابة التاريخية عند المؤرخين الجزائريين في العصر الحديث، سواء كُتاب التراجم أو كُتاب الرحلات الذين اخترنأهم كنماذج، إنهم اظهروا أهمية كبيرة في التعرف على المنهج التاريخي عامة والإسلامي خاصة، وضرورة المعرفة بقواعد هذا المنهج وأهدافه، ووسائل تحقيقه والالتزام بذلك، حتى لا تنحرف الدراسات التاريخية عن خط العقيدة ومقتضياتها.

وإذا كان اهتمام المؤرخين العرب والمسلمين إنصب في القرون الأولى على تدوين أخبار الأحداث والوقائع مع ذكر الأسانيد وأسماء الرواة حتى يتأكد القارئ لتلك الأحداث بنفسه من صدق ذلك من عدمه، فإن اهتمام المؤرخين الجزائريين إنصب على الأخبار والوقائع والمشاهدة والمعاينة، وهو من محاسن الكتابة التاريخية عند المؤرخين الجزائريين في العصر الحديث، مع القيام بالتفسير والتعليل بالقدر الذي تفعله الدراسات التاريخية في تلك الفترة.

فإن اهتماماتنا نحن إنصبت على كتب التراجم وكتب الرحلات بصفة عامة لما لها من خصوصيات تميزها عن ما ذُكر شكلا ومضمونا في العديد من الكتابات التاريخية الأخرى، فهي أداة تواصل واحتكاك بين الثقافات المختلفة من جهة، وأداة تفاعل داخل الثقافة الواحدة من جهة أخرى. فإذا كانت الرحلات مثلا تنوعت أهدافها وأغراضها بين ما هو علمي، وديني، وسياسي، وسياحي...فالبعض منها نجده تشكّل من مزيج من هذه الأغراض، كما هو الحال في بعض الرحلات الجزائرية، وخاصة التي تكون وجهتها إلى المشرق العربي الإسلامي.

ولما كان الرّحالة دائما يعتبر إن رحلته شيءٌ هامٌ، وإن ما حصل له شيء يستحق التدوين، ولهذا حرص كلٌ من الورتيلاني وابن حمادوش وابو راس الناصري على تدوين مشاهداتهما حول المناطق التي زاروها، فجاءت هذه الرحلات مليئة بالمظاهر المتنوعة، حيث نقلوا للقارئ أشياء كثيرة حول هذه المناطق، بدءاً بجغرافيتها، وشواهدها الدينية والعمرانية، وأوضاعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وإنتهاءاً بسكانها وعاداتهم زتقاليدهم

ورغم كثرة الأنحرافات في كتابة التاريخ الجزائري في العصر الحديث بسبب الأنحراف في التصور عند من تولوا كتابته، والقصور في فهم دلالة بعض المصطلحات، والفصل بين الدراسات الشرعية والدراسات التاريخية في مناهج الكتابة، مع التقصير في متابعة مناهج العلماء المسلمين في التوثيق العلمي ونقد الروايات، وكتابات المستشرقين التي ظلت تعتبر تاريخ الفترة العثمانية أشبه شيء بفترة ما قبل التاريخ وفي مقدمتهم جاك بيرك، وفي ضوء هذه الحقائق وغيرها، سأهم مؤرخي الجزائر في العودة إلى منابع منهج الكتابة التاريخية الصافية، ولعل إبراز المنهج الإسلامي في كتابة التاريخ، وتدوين قواعده، وبيان ركائزه ومنطلقاته من أهم وسائل

المسأهمة، خاصة وإن في هذا العصر كثرت المناهج المطروحة لتفسير التاريخ (في أوربا على وجه الخصوص)، كما كثرت المذاهب الفكرية والدينية التي أرادت إن تجعل من تفسير التاريخ سندا ومبررا لوجودها واستمرارها.

إننا إذا نظرنا في معطيات الفكر الجزائري على عهد العثمانيين لنستخلص منها خصائصه ومميزاته، ألفيناه على العموم تقليديا يعتمد اعتمادا مطلقا على آراء القدامى من علماء الإسلام، بل وحتى على أراء حكماء الإغريق وفلاسفتهم في ميدإن العلوم البحتة والتجريبية مثلما هو عند ابن حمادوش، اللهم إلا ما كان من بعض اشراقات في ميدإن البحث والتحليل، ومبادرات في مضمار الاجتهاد والتأويل، ونكاد نجد كل الأنتاج الفكري بالجزائر لهذا العهد-على كثرته وتنوعه- مصطبغا بصيغة دينية أو أدبية.

فهيمنة الدين وعلومه عند جميع الأمم ليست ببدع فيما قبل العصر الحديث، غير إن هذه الهيمنة أخذت في دول المغرب العربي طابعا بارزا بسبب تركز المذهب السني فيه، إلى وحدة في العقيدة الاشعرية، ووحدة في الفقه المالكي، ووحدة في طريقة الجنيد الصوفية، الأمر الذي أعطى الدين ورجاله قوة لا تنال منها نزعة أو بدعة، ولا توهنها مذهبية أو طائفية، وهذا لا يعني خلو الجزائر من البدع والفرق الضالة، وإنما نقصد خلوه من الفرق المخالفة للسنة المفارقة للجماعة كالشيعة والمعتزلة الموجودة عليها في المجتمع الإسلامي بالمشرق العربي.

تتجلى الصبغة الدينية للفكر الجزائري في كثرة الاستشهاد بالآيات القرآنية فيما يكتبه علماء هذا العصر، وإقحام الأحكام الفقهية حتى في كتب الطب والفلك، واستطراد آراء الصوفية وآدابهم حتى في مؤلفات قواعد اللغة، كما تتجلى في الاهتمام المباشر بهذه العلوم الدينية وإعطائها الأولوية في مضمار التعليم والتأليف.

وإذا كان اهتبال المغاربة بحفظ القرآن الكريم وتلاوته معروفا منذ القديم، فإن العهد العثماني عرف مزيدا من الإقبال على علوم القرآن، ضبطا ورسما وتجويدا وتفسيرا وقراءات، واعتمد القراء الجزائريون أولا على كتب الأقدمين، فتناولوها بالشرح والتعليق، والاختصار والتذييل، ثم ألفوا بدورهم كتبا مستقلة عديدة، مطولة ومختصرة في مختلف مناحي الدراسات القرآنية، كان لبعضها حظ الخلود والأنتشار في كل أقطار العالم العربي الإسلامي إلى أيامنا هذه.

لم يكن إنتشار الدراسات الفقهية في الواقع ظاهرة دينية خالصة، وإنما هو ظاهرة دينية-دنيوية، لا لأن الفقه يحتوي على عبادات ومعاملات فحسب، ولكن لكونه مصدرا للعيش والارتزاق أيضا، فتبوأ الفقهاء من المناصب الدينية ما لا مطمح فيه لغيرهم من العلماء(الفتوى والخطابة والقضاء)، وبرزت ضلاعة فقهاء الجزائر

وأصالتهم في الكتب المستقلة التي وضعوها نظما ونثرا، واحتل بعضها مركز الصدارة في الدراسات الفقهية، كما تبدو في اجتهاداتهم في الأحكام والنوازل سيرا مع مبدأ المذهب المالكي.

أما التصوف، وهنا أشير إلى إن كل المؤرخين الجزائريين الذين تناولنأهم بالدراسة في هذا البحث معدودين من المتصوفة، يتفاوتون درجة ومكانة قربا وبعدا من السلطة، فعبد الكريم الفكون مثلا يعتبر من المتصوفة الأكثر تشددا، وهو الذي صنف الأولياء والعلماء إلى درجات(متصوفة عارفين بالله، متصوفة كذّابين ضالين، متصوفة ادعوا العلم من اجل المناصب) على عهد العثمانيين بالجزائر، وبقدر ما كان من دراسات ومناظرات بين جماعات النُساك العلماء، وإقبال على العبادات والذكر في الرُّبط والزوايا، بقدر ما أصبح مجرد سلوكات لبعض الشيوخ يمارسون من خلاله طقوسهم، وهذا ما طبع التصوف الجزائري في العصر الذي درسناه وهو الجزائر في العهد العثماني.

أما الصبغة الأدبية، فتمثلت في كثرة المظاهر الأدبية والأشعار، ووفرة الأنتاج الأدبي، ونبوغ عدد من الكتاب والشعراء حتى في كتب التراجم والرحلات، وفي الاستطرادات التي لا تكاد تخلو منها فهارس العلماء ومؤلفاتهم في مختلف فروع المعرفة.

إن اعتماد التأريخ الجزائري على صحة النقل يجعل من الكتابة التاريخية ممارسة تتوسل الحق، على ما في هذا التصور لأخبار التاريخ من غرابة وهجانة في عصرنا الذي ينتضد من مفهوم الموضوعية، تلك الخاصية التي أصر عصرنا على إمكان امتلاكها رغم مراوغتها وعدم استسلامها. وليس ملامح الغرابة هذه وغيرها من الملامح الأقل أهمية بالجديدة جدة تامة، بل إن كثيرا من الدارسين أبدى الملاحظات حول منهج الكتابة التاريخية، وحول التراجع للمفهوم التاريخي بكل إنواعه(حولي-أفقي-موضوعي...)، ويجري اعتبار كتابات المؤرخين الجزائريين حول المنهج وغير ذلك من الأمور غير المنتسبة إلى التاريخ العلمي، وذلك احتراما لهم ولاكتفاء عصرهم عنّا، وللموضوعية والعلمية الحقّة المتمثلة في التاريخية على حد سواء، على إنها بالفعل الأمور التي توجه كتابة التاريخ وعلى إنها شؤون تترتب عليها نتائج هامة فيما يتعلق ببنى ومفاهيم ومنهجيات هذه الكتابة.

إن هذه الدراسة محاولة في إعطاء منهج الكتابة حقه في الخصوصية والتميز المطلقين، وإعادة التوكيد على ماضوية المنهج المتبع واكتفائه بنفسه، وفرضه على كل ما يصدر عنه من شروط وضوابط تختص به بما هو ثقافة متكاملة ليست بحاجة لنا لكي ننقدها من ماضويتها.

وليست هذه الدراسة تأريخا لمناهج الكتابة التاريخية الجزائرية في العصر الحديث، بل هي دراسة بنيناها حسب الملامح العامة لتطور الكتابة التاريخية العربية التي أصبحت واضحة، إلا إن دراسة تركيبية وتحليلية

لتاريخها فكريا وعلميا وحتى اجتماعيا لم تظهر بعد حسب اعتقادنا، وهي أيضا ليست بالدراسة التي تصف وتعرض بصورة تعليمية أسس هذه الكتابة، بل هي افتراض معرفة أساسية بأدبيات مناهج الكتابة التاريخية في الثقافة الجزائرية. كما إن هذه الدراسة ليست دراسة هستوريوغرافية تاريخانية التي تبنى على المعايير الكرونولوجية للأحداث التاريخية، تنظر إلى مدى صحة الأخبار الواردة في كتب التاريخ، بل هي تنطلق من هذه الأخبار بما هي معطيات رأي أصحاب الكتب التي كانت محل الدراسة.

فالهدف من هذه الدراسة تبيان أسس ومناهج كتابة التاريخ في حقل تاريخي، علمي، ثقافي، محدد ومعين، وذلك بناء على المحور الأساسي الذي ينتظم هذه الدراسة"محور المعقولية"، وليس مرادنا المعقولية المجردة التي يتسم بها التاريخ الوضعي، بل المعقولية التاريخية التي تصف الأشياء في الموقع الذي تحتله في مكان وزمان معينين.

على ذلك، كانت دراستنا من أصول التاريخ ،كما تتمثل في عنصره الأساسي وهو الخبر(الأحداث)، فنرد الخبر إلى عناصره المفاهيمية (تراجم، رحلات، تاريخ عام) وتستخرج منه أسس كتابة التاريخ، ثم تتناول دراستنا صلة عناصر التاريخ–الأخبار– ببعضها البعض في بناء موضوعات تفصح عن ترابط الأحداث الماضية.

إن بنية التضمن على أساس التزامن هذه هي ما حدا بالكثير من الدارسين والباحثين إلى إن يرى في الكتابة التاريخية الجزائرية الكثير من الاستطراد، وإن يرى في الاستطراد لمعات من عدم الأنتظام. فالحادثة المنقطعة لا تمتلك من صلة مع العالم إلا الرابطة التزامنية، إذا ما استثنينا الرابطة العامة التي تجمعها وموضوعها. وإن قسمة مجال التاريخ إلى حوادث مفردة منعزلة وقسمة الزمان إلى وحدات مستقلة–وإن كانت مستقلة– قد تتفق في الطول، كما في التاريخ الحولي، أو قد لا تتفق، مما يجعل من الحادثة أحد خواص إنسياب الزمان في لحظاته، أو يجعل من التاريخية"الشكل الأول والأخير للزمان.

وعليه، فقد تأكد لنا من خلال دراستنا هذه إن للتاريخ موضوع بالمعنى الدقيق والمتعارف عليه لكلمة موضوع، ذلك المعنى الذي يشير إلى تعريف هذا الموضوع تعريفا آتيا بخصائصه الجوهرية، وبجملة مطالبه الطبيعية، وهو ما دفع بابن خلدون في مقدمته إلى تعداد الخصائص للشيء في لائحة هامة وكبيرة الدلالة على المفاهيم الضمنية لطبائع الأشياء في فكر العصور الوسطى وذلك بقوله" إن تحديد الشيء يجري بالنظر إلى أصل الشيء وجنسه وفصله ومقدار عظمته وقوته".

إن هذا التعريف بهذا المعنى ينساب مع إنسياب وتسلسل نص السخاوي ونصوص المؤرخين الجزائريين خاصة أحمد المقري وأبو راس الناصري في دفاعهم عن فن التاريخ بصورة تبين بوضوح كيف إن تعريف التاريخ يتساوى مع وصفه، وكيف إنه غير مستقل عن ممارسته العينية في حيّز نظري يجد فيه حدّه، فهذا الفن

يتناول مجموعة من زمر المطالب التي بإمكاننا إن نصف أجناس الفنون التاريخية من أخبار كالسير والمغازي والقصص والطبقات على إنواعها، ثم أخبار البلدإن التاريخية والجغرافية، وأخيرا مطلق التاريخ غير مقيد بوصف أو جنس، أي التاريخ العام على طريقة الطبري والمسعودي وابن الجوزي وابن الأثير وغيرهم.

ولما كان التاريخ وكتابته ليس فقط سردا للحوادث، بل هو ضبط وترتيب لها، فالأحوال المفصّلة للأنسإن والزمان تجعل من التاريخ فناً يبحث فيه عن وقائع من حيثية التعيين والتوقيت، والتاريخ كل تعيين للوقت، وهو بعبارة أخرى"الأخبار الخاصة بعصر أو جيل، فإن مناهج الكتابة فيه والتي حارى الوعي التاريخي النافذ فيها في تقدم أساليب العلم وفي طرق المعرفة باتجاهات جديدة، جمعت بين ذلك وبين تحليل الظواهر الطبيعية والأنسانية والاجتماعية وتقويمها.

ولقد كان من الطبيعي إن تؤثر هذه العوامل وسواها من التطورات في مفهومات التاريخ من حيث غرضه ونطاقه وأساليبه وسواها من الشؤون المتعلقة به نظرا وتطبيقا. ومن أهم هذه التأثيرات ثلاثة، نذكرها هنا:

– اتساع نطاق موضوع التأريخ حتى غدا يشمل مظاهر الحياة الماضية بأجمعها، فلقد تبين للمؤرخين بصورة تشتد وضوحا يوم بعد يوم، إن الأحداث السياسية والوقائع الحربية التي كان ينصرف إليها اغلب اهتمام المؤرخين في العصور السالفة لا تحيط بالحياة الماضية، بل لا تنفذ إلى جوهرها، فهي ليست إلا وجها من وجوهها، ولا تكون في أحيإن كثيرة أهم هذه الوجوه. فلا بد للمؤرخ إذن من إن يعني بالأحداث الاقتصادية والاجتماعية والعقلية والأدبية والخلقية وسواها من مظاهر الحياة الأنسانية، ليأتي فهمه للماضي شاملا متزنا مُحلا عناصره المختلفة في مواضعها الصحيحة، وهو مالحظناه في معظم الكتب التي تناولناها بالدراسة في بحثنا هذا.

– تحول الأسلوب التأريخي من السرد الأدبي إلى التحقيق العلمي، فلقد كانت الصفة الغالبة على التأريخ هي الصفة الأدبية، وكان المؤرخون يتحرون جمال الأسلوب وينشدون التأثير على القارئ سواء للاعتبار بتقلبات الماضي أو لغرض من الأغراض المماثلة. أما الاتجاه الجديد فهو إلى توكيد صفة التأريخ العلمية، وهي الغاية التي إنصرف إليها المؤرخون الجزائريون في استكشاف حقيقة الماضي، مستخدمين أسلوب تحقيق الآثار والمخلفات ونقدها لاستخراج الوقائع الجزئية، ومحاولين ربط هذه الوقائع بعضها ببعض بأدق طرق الاستقراء والاستنتاج والتأليف، وبهذا أعطوا صورة العلمية الاجتماعية للتاريخ.

– إنصراف المؤرخين في تعليلاتهم لسير التاريخ عن القوى العُلوية والعوامل الغيبية(وهما نسجل لبعض المؤرخين الجزائريين الذين درسنأهم اعتمادهم على العوامل الغيبية والتصديق بها) إلى القوى والعوامل المستنبطة من

أحداث الحياة ذاتها إلى تأثيرات البيئة الطبيعية، والتكوين البيولوجي أو الجنسي، والدوافع الاقتصادية والاجتماعية والعقلية التي تكيف سلوك الأفراد والجماعات، فالمؤرخ الجزائري قيد الدراسة لم يعد يبحث عن أسباب الأحداث خارجا عنها، بل أخذ ينكب عليها ليتفهم العلاقات التي تربطها، وليميز الأسباب والنتائج، وليستخلص من هذه الحلة صورة للاتجاهات أو للقوانين التي تنتظم بها هذه الأحداث.

ومهما يكن، وبعد هذا العرض، فإنني تناولت موضوع مناهج الكتابة لمؤرخي الجزائر في الفترة الممتدة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجري(16-20م)، ولاحظت خلال دراستي لكتب مؤرخي الجزائر مدى ما قدمه هؤلاء المؤرخين من تراث تاريخي كبير سأهموا به في تقويم نهضة علمية تاريخية، حيث قدموا للباحثين ممن جاءوا بعدهم كتبا تاريخية قيمة، وذات مواضيع متنوعة في شتى المجالات، كالتاريخ العام والتراجم والمناقب والرحلات، فكانت هذه الكتب دروسا وعبر لمن عاصرهم، ومصادر لمن جاء بعدهم.

لقد اتضح لي من خلال هذه الدراسة إن اهتمامهم لم يكن قاصرا على التاريخ فقط، بل نبغوا في علوم أخرى كالفقه والحديث والتفسير والأدب، لكن الجانب الأكثر الذي اهتم به مؤرخو الجزائر في هذه الفترة، هو تأليف كتب التراجم بالاعتماد على مصادر معينة كانت الأساس لمؤلفاتهم، وكان الطابع العام لتراجمهم هذه إعطاء نبذة عن حياة المترجم له، وأهم الأحداث في عهده. للعلم، إن هذه التراجم لم تخضع لمعايير ثابتة، بل كانت تراجم متفاوتة(عبد الكريم الفكون وابن مريم التلمساني نموذجا).

كما تميزت التراجم ايضا بالاختصار والايجاز للمترجمين لهم، حيث اشتملت على اسم المترجم وكنيته، ومكانته العلمية، وبعض صفاته ووظائفه، مع ايراد تاريخ وفاته، مع الملاحظة وهي إن التراجم خصصت فقط لأهل العِلم وعامة الناس.

والجانب الثاني، الذي اهتم به مؤرخو الجزائر هو كتب الرحلات التي كانت بمثابة سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة بالجزائر وبالوطن العربي عامة، وهو ايضا بمثابة الرصيد الكبير الذي يحتوي على كثير من المعارف الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية.

وقد استنتجنا من دراستنا لمناهج مؤرخي الجزائر عدة نتائج، أهمها:

-المنهج الواضح الذي اعتمده المؤرخون في كتاباتهم، حيث حرصوا على إن تشمل كتبهم على مقدمة تناولت الأسباب التي جعلتهم يؤلفون مؤلفاتهم، ولمحة مختصرة عما تحويه كتبهم وترتيب للموضوعات، وذكر لأهم المصادر التي استعانوا بها عند كتابتهم هذه المؤلفات، وتحديد ملامح منهجهم الذي ساروا عليه في الكتابة التاريخية، وهي أشبه بالخطة العامة للكتاب.

– وضوح نوعية النقل من المصادر سواء نقل مباشر او غير مباشر(باللفظ أو بالمعنى)، وعدم الاكتفاء بالمصادر في النقل، بل كانوا يعملون على إضافة الكثير من الاضافات التي تتمثل في المناظرات والمناقشات والمقارنات التي حدثت بينهم وبين العلماء.

–التكرار(في بعض الحالات) للآسانيد أثناء رواياتهم للحادثة الواحدة، وذلك حرصا منهم على تقديم معلومات صحيحة ومتصلة لا يفصل بينها إسناد، والإطالة والاستطراد إلى موضوعات مكررة كان كثير ممن سبقهم ذكرها بشيء من التفصيل.

–عدم الدقة في بعض الحالات في تحديد التواريخ المتعلقة بالحوادث السياسية خاصة عند الاعتماد على الروايات الشفهية التي تروى لهم من إناس لهم صلة بالمترجم له، واذا كان البعض رتب تراجمه هجائيا، فإن البعض الاخر كان ترتيبه عشوائيا.

–نهج المؤرخون الجزائريون نهج الأسلوب العملي في النقل من المصادر، وتحري الأمانة العلمية، وأسلوب الوصف والضبط وتحديد وقوع الأحداث، فضلا عن إنهم اعتمدوا على طريقة المشاهدة والملاحظة والتجربة، فلم تختلف مناهجهم في تتبع الأخبار والروايات ونقلها، بحيث ساروا فيها على التسلسل التاريخي عموما.

وأختم بهاتين الملاحظتين من خلال هذه الدراسة حول الكتابة التاريخية عند المؤرخين الجزائريين في العصر الحديث، وهي إن من خصائص مناهج المؤرخين الجزائريين تداخل وتشابك التاريخ بالمجتمع وبالثقافة وبالاقتصاد، مع الحرص على علاقة كل مسلك لمستوى المجتمعات ولطبيعتها(المجتمعات المغاربية–المجتمعات المشرقية) بالهيئات الاجتماعية(الحكام، العلماء، عامة الناس)، من هنا تبرز ميزة منهج الكتابة التاريخية عند المؤرخين الجزائريين، وهي ولا ريب ميزة العديد من المؤرخين السابقين، خصوصا في ربطهم بما يمكن وصفه بالتاريخ والتاريخانية.

أما الخاصية الثانية، فهي الاعتماد في ايراد مادة كتبهم أسلوب من ينقلون عنهم(وهذا ما ذكرناه سابقا)، ومن هنا جاءت معظم متون نصوص هذه الكتب مع المصادر التي نُقل عنها مطابقة تماما باستثناء ما ورد من اختلافات لفظية(أحمد المقري ولسان الدين بن الخطيب– حسين الورتيلاني والأخضري...) بالاستشهاد بالآيات القرآنية والاحاديث الشريفة في كثير من الروايات والأشعار على وجه الخصوص.

الفهارس العامة

فهرس الأعلام

الآباء

الأبناء

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(س)

(ص)

(ط)

(ع)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

فهرس القبائل والأجناس

(ء)

فهرس الأماكن والبلدإن

(ب)

البيبليوغرافيا

المصادر

القرآن الكريم

المصادر المخطوطة:

1. المشرفي أبو حامد العربي، الرد على أبي راس الناصري المعسكري، مخطوط بخزإنة الشيخ بوكعبر بلقرد-معسكر.
2. مجهول، القول الأحوط في معرفة الفنون والكتب المتداولة في المغرب الأقصى والأوسط، مخطوط بخزإنة الشيخ بوكعبر بلقرد-معسكر.
3. ميارة محمد الفاسي، نظم اللآلي والدرر في اختصار مقدمة ابن حجر أو معين القارئ لصحيح البخاري، مخطوط بمؤسسة الملك عبد العزيز، رقم516، المغرب الأقصى.
4. كتاب البدع، مخطوط بالخزإنة العلوية بالمغرب الأقصى تحت رقم1657.

المصادر المطبوعة

1. أحمد رمضإن أحمد، الرّحلة والرحالة المسلمون، دار البيإن العربي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر.
2. الأدفوي كمال الدين، الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تر:أمين عبد العزيز، مطبعة الجمالية، ط1، القاهرة، مصر، 1914.
3. الأندلسي ابن حزم، جمهرة إنساب العرب، تح وتع: عبد السلام محمد هارون، ط5، دار المعارف، القاهرة، مصر، (د ت).
4. الافرإني محمد، صفوة من إنتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، تق وتح: عبد المجيد خيإلى، مركز التراث الثقافي المغربي، ط1، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 2004.
5. الأنصاري زكريا، الفتوحات الإلهية في أرواح الذوات الأنسانية، تر وتح: عامر محمد الطحاوي، تق: إبراهيم صالح الحسيني، دار البصائر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر.
6. ________، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، صححه: هوداس، طبعة بردين بمدينة إنجي، 1888.
7. ابن الأثير علي محمد، الكامل في التاريخ، تح: عبد الله القاضي، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنإن، 1995.
8. ابن الخطيب محمد السلمإني، الإحاطة في أخبار غرناطة، شرح وضبط وتقديم: يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، ج1، بيروت، لبنإن، 2003.
9. إقليدس السكندري، المناظر في مجموع الرسائل، حرره: محمد الطوسي، مكتبة أحمد الثالث، استإنبول، تركيا.

10. بردي ابن ثغري، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تح: محمد أمين، مج1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1986.

11. البطوئي عيسى بن محمد، مطلب الفوز والفلاح في آداب طريق أهل الفضل والصلاح، در وتح:حسن الفكيكي، مركز طارق بن زياد للدراسات والأبحاث، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، المغرب الأقصى، 2000.

12. البغدادي الخطيب، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تح: محمد عجاج الخطيب، ج2، مؤسسة الرسالة، ط3، بيروت، لبنان، 1996.

13. بن بكار بلهاشمي، كتاب مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب، مطبعة ابن خلدون، ط1، تلمسان، الجزائر، 1961.

14. البلوي خالد، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، نش وتح: الحسن السائح، ج1، مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعية، فاس، المغرب الأقصى، 1970.

15. البلاذري أحمد، فتوح البلدان، تح ودر: رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، 1983.

16. ــــــــــــــ، إنساب الأشراف، تح: سهيل زكار ورياض الزركلي، دار الفكر، ط1، بيروت، لبنان، 1996.

17. البيروني محمد، الآثار الباقية عن القرون الخالية، تح: إدوار شاو، ليبزغ، المانيا، 1923.

18. التفتزاني سعد الدين، شرح المقاصد، تح وتع: عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب، ط2، بيروت، لبنان، 1997.

19. التمغروطي علي، النفحة المسكية في السفارة التركية، تر وتق: محمد الصالحي، المؤسسة العربية للدراسات والتوزيع، دار السويدي، 2007.

20. التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ج1، إشراف وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرمة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ط1، طرابلس، ليبيا، 1989.

21. الجبرتي عبد الرحمن، تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تح:عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، تق: عبد العظيم رمضان، ج1، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، 1997.

22. الجاحظ عمرو بن بحر الكناني، رسائل الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، ج1، دار الكتب يالعلمية، بيروت، لبنان، 2000.

23. ابن الجوزي عبد الرحمن، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، در وتح: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، راجعه وصححه: نعيم زرزور، ج1، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، لبنان، 1995.

24. حاجي خليفة مصطفى، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1994.

25. الحافظ محمد، صحيح البخاري، اعتنى به: أبو عبد الله عبد السلام علوش، مكتبة الرشد ناشرون، ط2، المملكة السعودية، 2006.

26. الحضيكي محمد، طبقات الحضيكي، ج1، تق وتح: أحمد بومزكو، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب الأقصى، 2006.

27. ________، الرحلة الحجازية، ضبط وتعليق: عبد العالي لمدبر، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، ط2، الرباط، المغرب الأقصى، 2011.

28. الحفناوي أبو القاسم، تعريف الخلف برجال السلف، ج1، المكتبة العتيقة، مؤسسة الرسالة، ط2، تونس، 1985.

29. ابن حمادوش عبد الرزاق، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تق وتح وتع: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.

30. حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تق وتع وتح: محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1982.

31. الحميدي محمد بن فتوح، الجمع بين الصحيحين(البخاري ومسلم)، تح:علي حسين البواب، ج2، دار ابن حزم، ط2، بيروت، لبنان، 2002.

32. حواشي السنوسي على شرح كبرى السنوسي، تق وتح وفه:حميد حماني اليوسي، مطبعة دار الفرقان لنشر الحديث، ط1، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 2008.

33. ابن الحجاج مسلم، الصحيح، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

34. الخفاجي أحمد، ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، تح:عبد الفتاح محمد الحلو، ج2، طبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط1، القاهرة، مصر، 1967.

35. ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، تح:عبد الواحد وافي، ج2، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، مصر، 1953.

36. ابن خلكان شمس الدين، وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، ج2، دار صادر، بيروت، لبنان.

37. الدرعي أحمد محمد بن ناصر، الرحلة الناصرية1709-1710م، تح وتق: عبد الحفيظ ملوكي، ج1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية، 2011.

38. الدينوري أحمد، الأخبار الطوال، تح: عبد المتنعم عامر، دار إحياء الكتب المصرية، ط1، القاهرة، مصر، 1960.

39. الذهبي شمس الدين، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت، لبنان، 1989

40. ___________، سير أعلام النبلاء، تح: شعيب الارناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، لبنان، 1998

41. أبو راس الناصري محمد، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تح وتع: محمد عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990.

42. الزياني أبو القاسم، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، حق وعلق عليه:عبد الكريم الفيلالي، دار نشر المعرفة، ط2، المملكة المغربية، 1991.

43. الزياني محمد بن يوسف، دليل الحيران وإنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تق وتح: المهدي البوعبدلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979.

44. أبو سالم عبد الله العياشي، الرحلة(ماء الموائد)، تح وتع: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي، ط1، أبو ظبي، الامارات، 2006.

45. السبكي تاج الدين، الأشباه والنظائر، تح: عادل أحمد الموجود وعلي محمد مشوض، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1991.

46. سبنسر وليام، الجزائر في عهد رياس البحر، تر: عبد القادر زبادية، ش، و، ن، ت، الجزائر، 1986.

47. سحنون الونشريسي، تحرير المقال في الحمد لله والصلاة والسلام على سيد الإرسال، تق وتع: بشير ضيف، در ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان، 2009.

48. السخاوي محمد، الإعلأن بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ، تح: فرإنز روزنتال، تر: صالح أحمد العِلى، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، لبنان، 1986.

49. ___________، الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام بن حجر، تح: إبراهيم باجس عبد المجيد، دار ابن حزم، ط1، القاهرة، مصر، 1999.

50. ابن سعد محمد، الطبقات الكبرى، ج2، راجعه وعلق عليه: سهيل كيالي، دار الفكر للطباعة والنشر، ط1، بيروت، لبنان، 1994.

51. ابن سعيد علي بن موسى، المغرب في حلى المغرب، تح:شوقي ضيف، دار المعارف، ط3، القاهرة، مصر، 1955.

52. السكندري ابن عطا الله، لطائف المنن، تح وتع: عبد الحليم محمود، دار المعارف، ط3، القاهرة، مصر، 2006.

53. السيوطي جلال الدين، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تح: أبو الفضل إبراهيم، ج1، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1988.

54. السملالي العباس بن إبراهيم، الأعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، ج2، راجعه: عبد الوهاب بن منصور، ط2، المكتبة الملكية، الرباط، المغرب الأقصى، 1993.

55. ________، اليواقيت الثمينة في صفات السمينة، ج1، تح: فرج الحوار، دار الميزان للنشر، ط1، حمام سوسة، تونس، (د ت).

56. الشعراني عبد الوهاب، اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، ج1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (دت).

57. شوفاليه كورين، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر، تر:جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007.

58. ابن سودة عبد السلام، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، دار الفكر للطباعة والنشر، ط1، بيروت، لبنان، 1971.

59. ابن سينا الحسين بن عبد الله، النجاة في المنطق والطبيعيات والإلهيات، تح:محمد عثمان، مكتبة الثقافة الدينية، 2013.

60. الصولي أبو بكر، أدب الكتاب، تح: محمد بهجة الأثري، القاهرة، مصر، 1941.

61. الطرابلسي أبو اسحاق، كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ، تح: السائح علي حسين، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ليبيا، (دت).

62. ابن عبد الحكم عبد الرحمن، فتوح مصر وشمال إفريقيا، تح: محمد الحجيري، دار الفكر، ط1، بيروت، لبنان، 1996.

63. العبدري محمد البلنسي، الرحلة المغربية، تق: سعد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، 2007.

64. العربي محي الدين، الفتوحات المكية، تح: عثمان يحي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2006.

65. عطاء الله رشيد الماروني، تاريخ الآداب العربية، تح: علي نجيب عطوي، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ط1، بيروت، لبنان، 1985.

66. العسقلاني أحمد، تهذيب التهذيب، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، لبنان، 1991.

67. ________، نزهة النظر في شرح نخبة الفكر، تع وشر: صلاح محمد عويضة، دار الكتب العلمية، (د ط)، بيروت، لبنان، (د ت).

68. العليمي مجير الدين، كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، إعداد وتق:عدنان يونس، إشراف: محمود علي عطا الله، مكتبة دنديس، ط1، الأردن، 1999.

69. ________، اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر(فهرس العياشي11ه/17م)، تح ودر: نفيسة الذهبي، منشورات كلية الآداب والعلوم الأنسانية، الرباط، المغرب الأقصى، 1996.

70. غريغوريوس ابن أهرون(ابن العبري)، تاريخ مختصر الدول، تح:إنطوان صالحاني اليسوعي، دار الشرق، ط3، بيروت، لبنان، 1992.

71. الغزالي محمد، إحياء علوم الدين، إعداد ودراسة: إصلاح عبد السلام الرفاعي، مراجعة: عبد الصبور شاهين، ط1، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، مصر، 1988.

72. ابن الفراء محمد، العدة في أصول الفقه، تح وتع: أحمد المباركي، كلية الشريعة بالرياض، المملكة السعودية، (د د ن)، 1990.

73. الفكون عبد الكريم، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تق وتح: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 1987.

74. القادري محمد بن الطيب، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، ج1، طبعة فاس، المغرب الأقصى، 1893.

75. ________، التقاط الدرر، تح:هاشم العلوي القاسمي، دار الأفاق الجديدة، ط1، المغرب ىالأقصى، 1981.

76. ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، مكتبة لسان العرب، الرباط، المغرب الأقصى، 1973.

77. القرطبي ابن رشد، المقدّمات الممهدات لبيان مما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات والتحصيلات المحاكمات لأمهات مسائلها المشكلات، تح: محمد حجي، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1988.

78. القشيري عبد الكريم، الرسالة القشيرية، تح: محمود بن الشريف، دار جوامع الكلم، القاهرة، مصر، (د ت).

79. ابن قتيبة الدينوري عبد الله، كتاب العرب أو الرد على الشعوبية، تح: محمد كرد، رسائل البلغاء، القاهرة، مصر، 1953.

80. ـــــــــــ، المعارف، صححه وعلق عليه وراجعه: محمد إسماعيل عبد الله العاوي، دار إحياء التراث العربي، ط3، بيروت، لبنان، 1970.

81. ـــــــــــ، الشعر والشعراء، ج1، تح:محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، مصر، (د ت).

82. القلقشندي أحمد نهاية الإرب في معرفة إنساب العرب، تح وتع: علي الخاقاني، مطبعة النجاح، بغداد، العراق، 1958.

83. ـــــــــــ، صبح الأعشا في صناعة الأنشا، ج2، دار الكتب المعرفية، القاهرة، مصر، 1914.

84. القنوجي صديق، أبجد العلوم، تح: عبد الجبار زكار، ج2، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1987.

85. الكافيجي محي الدين، المختصر في علم التاريخ، تح: محمد كمال الدين عز الدين، عالم الكتب للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1990.

86. الكتاني محمد، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من الصلحاء بفاس، ج1، تح: عبد الله الكامل الكتاني وآخرون، دار الثقافة، ط1، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 2004.

87. ابن كثير أبو الفد إسماعيل، البداية والنهاية، تح: عبد الكريم التركي، ج3، دار عالم الكتب، القاهرة، مصر، 2003.

88. ـــــــــــ، تفسير القرآن الكريم، ج1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2002.

89. ابن الكردبوس التوزري التونسي، الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تح:صالح الغامدي، ج1، منشورات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط1، المملكة السعودية، 2008.

90. ابن الكلبي هشام، جمهرة الأنساب، ج1، تح: ناجي حسن، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2004.

91. مجهول، غزوات عروج وخير الدين، تص وتع: عبد القادر نور الدين، مطبعة الثعالبية والمكتبة الأدبية، الجزائر، 1934.

92. مخلوف محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تح وتع: عبد المجيد خيالي، ج1، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 2002.

93. مرداد أبو الخير، المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر، تح: محمد سعيد العامودي وأحمد علي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، جدة، المملكة السعودية، 1986.

94. ابن مريم التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، مر: محمد بن أبي شنب، الطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908.

95. المزاري بن عودة البحثاوي، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وفرنسا واسبأنيا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق: يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 1990.

96. مسلم بن عبد القادر، خاتمة إنيس الغريب والمسافر، تح وتع: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974.

97. المسعودي علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ج4، المكتبة العصرية، لبنان، 1988.

98. المسفيوي محمد(ابن المؤقت)، السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية، ج1، تق وتح:حسن جلاب واحمد متفكر، ط1، مراكش، المغرب الأقصى، 2002.

99. المشرفي أبو حامد، رسالة في الرد على أبي راس الناصري، مخطوط بخزانة الشيخ بلقرد بوكعبر، معسكر.

100. مقديش محمود، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تح: علي الزواوي ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 1988.

101. المقري أحمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب في ذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تح:حسان عباس، مج1، دار صادر، بيروت، لبنان، 1968م.

102. __________، روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيه من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، نشره: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، ط2، المغرب الأقصى، 1983.

103. __________، أزهار الرياض في أخبار عياض، ضبطه وحققه وعلق عليه: مصطفى السقا وآخرون، مطبعة لجنة التأليف للترجمة والنشر، القاهرة، مصر، 1939.

104. __________، فتح المتعال في مدح النعال، تح: علي عبد الوهاب وعبد المنعم فرج، دار القاضي عياض للتراث، القاهرة، مصر.

105. __________، رحلة المقري إلى المغرب والمشرق، تح:محمد بن معمر، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2004.

106. المقريزي تقي الدين، إغاثة الأمة بكشف الغمة، تق: سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الهلال، القاهرة، مصر، 1990.

107. المكناسي أحمد بن محمد ابن القاضي، درّة الحجّال في أسماء الرجال، تح:محمد الأحمدي أبو النور، ج2، دار التراث القاهرة، المكتبة العتيقة، تونس.

108. المناوي عبد الرؤوف، اليواقيت والدرر في شرح نخبة ابن حجر، تح: المرتضى الزين أحمد، ج2، مكتبة الرشاد، ط1، الرياض، المملكة السعودية، 1999.

109. بن ميمون محمد الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تق وتح: محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 1972.

110. الناصري أحمد، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح وتع:محمد الناصري وجعفر الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب الأقصى.

111. الناصري محمد أبو راس، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تح وضبط وتع:عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990.

112. ابن النديم محمد، كتاب الفهرست، تح: رضا تجدد، ج3، (د ط و د ت).

113. نف أميري، المؤرخون وروح الشعر، تر: توفيق أسكندر، مراجعة: محمد شفيق غربال، ط1، مطبعة الأنجلو-مصرية، القاهرة، مصر، 1961.

114. ابن هطال أحمد التلمساني، رحلة محمد الكبير"باي الغرب الجزائري" إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تح وتق: محمد بن عبد الكريم، عالم الكتب، ط1، القاهرة، مصر، 1969.

115. الهمذاني محمد، الإكليل من أخبار اليمن وإنساب حمير، تر وتح: محب الدين الخطيب، ج10، الدار اليمنية للنشر والتوزيع، 1987.

116. الورتيلاني حسين، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، دار الكتاب العربي، ط2، بيروت، لبنان، 1974.

117. ـــــــــ، نزهة الأنظار...تق: محمد بن أبي شنب، مطبعة بيير فونتانا الشرقية، الجزائر، 1908.

118. الوزان حسن، وصف إفريقيا، تر: محمد حجي ومحمد الخضر، ج2، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، لبنان، 1983.

119. الونشريسي أحمد، المعيار المعرب والجامع المغرب في فتاوى أهل افريقية والأندلس، ج2، المغرب الأقصى، 1981.

120. اليعقوبي أحمد بن إسحاق، تاريخ اليعقوبي، علق عليه: خليل منصور، ج1، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1993.

121. أبو يعلى محمد بن الفراء، طبقات الحنابلة، تح وتق وتع: عبد الرحمن بن سليمان العثيميين، ج1، منشورات الأمانة العامة للإحتفال بمرور مائة سنة على تأسيس المملكة، جامعة أم القرى، المملكة السعودية، 1419ه/1999م.

المراجع باللغة العربية

1. إحسان عباس، فن السيرة، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1956.

2. ـــــــــ، تاريخ الأدب الأندلسي(عصر سيادة قرطبة)، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1962.

3. ______، تاريخ الأدب الأندلسي(عصر الطوائف والمرابطين)، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط1، عمان، 2008.

4. ابن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان وأخبار تونس في عهد الأمان، ج2، ش، و، ن، ت، الدار التونسية، ط2، تونس، (دت).

5. أبو زهو محمد، الحديث والمحدثون، دار الفكر العربي، ج1، القاهرة، مصر، 1959.

6. أدهم علي، بعض مؤرخي الإسلام، المؤسسة العريقية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1974.

7. آل ياسين محمد مفيد وآخرون، التاريخ العربي الإسلامي، مطبعة الوفاق، بغداد، العراق، 1998.

8. ألتر عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، تر: محمود علي عامر، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط1، بيروت، لبنان، 1989.

9. أمين أحمد، ضحى الإسلام، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ط1، القاهرة، مصر، 2006.

10. ______، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1979.

11. إينالجيك خليل، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، تر: محمد الارناؤوط، دار المدار الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 2002.

12. ________، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، تحرير: خليل اينالجك بالتعاون مع دونالد كواترت، تر: عبد اللطيف الحارس، دار المدار الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 2007.

13. ابن آجروم، متن الأجرومية، دار الصميعي للنشر والتوزيع، ط1، الرياض، المملكة السعودية، 1998.

14. ابن اسحاق خليل المالكي، مختصر خليل، صححه وعلق عليه: الطاهر أحمد الزاوي، دار المدار الإسلامي، ط2، بيروت، لبنان، 2004.

15. بدر أحمد، المدخل إلى علم المكتبات والمعلومات، دار المريخ للنشر، الرياض، المملكة السعودية، 1985.

16. بركات مصطفى، الألقاب والوظائف العثمانية، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 2000.

17. بروكلمان كارل، تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية: يعقوب بكر ورمضان عبد التواب، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1975.

18. بروفنسال ليفي، الإسلام في المغرب والأندلس، دار نهضة مصر، القاهرة، مصر، (د ت).

19. البغدادي محمد بن حبيب، كتاب المنمق، تح: خورشيد أحمد فاروق، دائرة المعارف، القاهرة، مصر، 1964.

20. البغدادي عبد القادر، الرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، دار الأفاق الجديدة، ط2، بيروت، لبنان، 1977.

21. البغدادي إسماعيل باشا، هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1951.

22. ـــــــــــ، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، صححه وطبعه:رفعت بيلكه الكليسي، ج2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

23. بك المحامي محمد فريد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تح:إحسان حقي، دار النفائس، ط10، بيروت، لبنان، 2006.

24. البكر خالد، الرحلة الأندلسية إلى الجزيرة العربية، جامعة الملك سعود، المملكة السعودية، 2003.

25. بوداود عبيد، جرد وإحصاء المخطوطات الجزائرية بالمغرب الأقصى، منشورات مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، مكتبة الرشاد، الجزائر، 2013.

26. بوزياني قدور، مسألة الحدود بين المغرب وأتراك الجزائر، منشورات كلية الآداب والعلوم الأنسانية(سلسلة ندوات ومناظرات)، ط1، الرباط، المغرب الأقصى، 1995.

27. بوعزيز يحي، الموجز في تاريخ الجزائر الحديثة، ج2، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، الجزائر، 2003.

28. ـــــــ، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج2، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 1995.

29. بونار رابح، أبو راس الناصري وتاريخ مدينة الجزائر، من كتاب"تاريخ المدن الثلاث: الجزائر–المدية–مليانة"، بمناسبة عيدها الألفي، إعداد وتع: عبد الرحمن الجيلالي، ط2، الجزائر، 1972.

30. التازي عبد الهادي، رحلة الرحلات–مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، مر:عباس صالح طاشكندي، ج1، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، المملكة السعودية، 2005.

31. ترحيني محمد أحمد، المؤرخون والتأريخ عند العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د ت).

32. التميمي عبد الجليل، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي–1816–1817، الدار التونسية للنشر، ط1، تونس، 1972.

33. ـــــــــــ، الحياة الفكرية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، تونس، 1990.

34. التونجي محمد، المنهاج في تأليف البحوث وتحقيق المخطوطات، عالم الكتب، حلب، سوريا، 1986.-

35. جب هملتون، علم التاريخ، تع وتر: لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية(إبراهيم خورشيد وآخرون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1981.

36. جب هاملتون وهارولد باوون، المجتمع الإسلامي والغرب، ج1، تر ودر: أحمد عبد الرحيم مصطفى، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1970.

37. ابن جبير محمد، ابن جبير الأندلسي-اعتبار الناسك في ذكر الآثار والمناسك، تق:إبراهيم شمس الدين، منشورات علي بيضون، دار الكتب العلمية، لبنان، 2003.

38. الجاحظ عمرو بن بحر الكناني، كتاب الحيوان، ج3، دار صعب، بيروت، لبنان، (د ت).

39. الجامع بين الصحيحين للإمامين البخاري ومسلم، ج1، جم وتر:صالح أحمد الشامي، دار القلم، ط2، دمشق، سوريا، 2011.

40. الجمل عطاء الله شوقي، علم التاريخ ومناهج البحث فيه، دار الزهراء للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة السعودية، 2002.

41. الجمحي محمد بن عبد السلام، طبقات فحول الشعراء، شرح:محمود شاكر، ج1، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1974.

42. جنان الطاهر، مازونة عاصمة الظهرة(ثغر حربي ومركز إشعاع حضاري)، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2005.

43. الجنحاني الحبيب، المقري صاحب نفح الطيب، دراسة تحليلية، ملتزم الطبع والنشر، دار الكتب الشرقية، ط1، تونس، 1955.

44. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج8، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1968.

45. ابن الجوزي جمال الدين أبي الفرج، صفة الصفوة، اعتنى به: أيمن صالح شعبان، م1، مطبعة الأصيل، ط1، حلب، سوريا، 1969.

46. حاجيات عبد الحميد، خطر النصارى وإنهيار الدولة الزيانية، الجزائر في التاريخ(العهد الإسلامي)، ج3،

47. حجي محمد، الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، المطبعة الوطنية، المغرب الأقصى، 1969.

48. ________، الحركة الفكرية بالمغرب على عهد السعديين، ج2، مطبعة فضالة، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، مصر، 1977.

49. الحجوي محمد الفاسي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، ج2، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1995.

50. حسن الإمام أحمد، تح: شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت، لبنان، 1999.

51. حاطوم نور الدين، المدخل إلى التاريخ، مطبعة الهلال، دمشق، 1981.

52. الحديثي نزار، مشاكل الدراسات العثمانية في الوطن العربي من كتاب: الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني، جمع وتقديم: عبد الجليل التميمي، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، زغوان، تونس، 1988.

53. حسام أوغلي أكمل الدين، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، نقله إلى العربية: صالح سعداوي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة، استانبول، تركيا، 1999.

54. حسن الباشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، 1957.

55. حسن خان محمد صديق، التاج المكلل، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، ط1، قطر، 2007.

56. حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، بيروت، لبنان، 1983.

57. الحسيني صدر الدين، سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر، مكتبة الخانجي، مصر، 1906.

58. حلاق حسان، مناهج الفكر والبحث التاريخي والعلوم المساعدة وتحقيق المخطوطات بين النظرية والتطبيق، دار المعرفة الجامعية، ط3، القاهرة، مصر، 1998.

59. الحميدي محمد بن فتوح، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، تح: إبراهيم الابياري، دار الكتاب المصري، ط3، القاهرة، مصر، 1989.

60. حمادة محمد ماهر، الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر العباسي الأول، مؤسسة الرسالة، ط3، بيروت، لبنان، 1982.

61. ـــــــ، الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي، دار النفائس، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1985.

62. ـــــــ، المصادر العربية والمعرّبة، مؤسسة الرسالة، ط6، بيروت، لبنان، 1987.

63. الحنبلي الحسن، الرد على المبتدعة، تح:عبد المنعم عبد الغفور، ، (د د ن).

64. الحويري محمود، منهج البحث في التأريخ، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، مصر، 2001.

65. ابن حوقل، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1979.

66. الخفاجي شهاب الدين، نسيم الرياض في شرح القاضي عياض، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت، لبنان، 1909.

67. الخليل القاسمي محمد فؤاد، فهرسة مخطوطات خزائن القاسميين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2006.

68. داود محمد، تاريخ تطوان، ج1، مراجعة وإضافة: حسناء محمد داود، مطبعة الخليج العربي، تطوان، المغرب الأقصى، 2010.

69. الدوري عبد العزيز، نشأة علم التاريخ عند العرب(المغازي النبوية)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1960.

70. ________، دور الوقف في التنمية، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، عمان، 1996.

71. ________، أوراق في التاريخ والحضارة، ج1، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 2007.

72. ديورإنت ويل، قصة الحضارة، تر: زكي نجيب محمود، ج1، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1988.

73. ________، فكر في دروس التاريخ، تر وتق: علي شلش، ط1، دار سعاد الصباح، الكويت، 1993.

74. النابغة الذبياني، الديوان، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1991.

75. الرجراجي عبد الله، فهرس المخطوطات العربية المحفوظة في الخزانة العامة للكتب والوثائق، منشورات الخزانة الحسنية، الرباط، المغرب الأقصى، 2001.

76. الرافعي مصطفى، حضارة العرب، منشورات دار الكتاب اللبناني، ط3، بيروت، لبنان، 1981.

77. رسام مصطفى ابن عباس، تراجم الأعلام وعظماء التاريخ، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 1991.

78. رشاد حسن، المكتبات ورسالتها، دار الفكر العربي، ط3، بيروت، لبنان، (د س).

79. رضوان عبد الحي، جهود العثمانيين لأنقاذ الأندلس في مطلع العصر الحديث، مكتبة الطالب الجامعي، ط1، القاهرة، مصر، 1988.

80. رمضان يوسف محمد، دوافع البحث والتأليف عند المسلمين، دار ابن حزم، 2005.

81. رنسيمان ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية، ج3، نقله إلى العربية: الباز العريني، دار الثقافة للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1969.

82. رينان ارنست، ابن رشد والرشدية، نقله إلى العربية: عادل زعيتر، طبع بدار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر، 1957.

83. روزنتال فرانز، مفهوم التاريخ عند المسلمين، تر: صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت، لبنان، 1983.

84. زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، نوابغ الفكر للنشر والتوزيع، ط1، مصر، 2008.

85. زيادة نقولا، كتاب الجغرافية والرحلات عند العرب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1986.

86. ________، الجغرافيون والرحلات عند العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، 1962.

87. ________، رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، دار لبنان للطباعة والنشر، ط2، بيروت، لبنان، 1986.

88. زيدان جرجي، تاريخ آداب اللغة العربية، راجعه وعلق عليه: شوقي ضيف، ج3، دار الهلال، القاهرة، مصر.

89. سالم عبد العزيز، التاريخ والمؤرخون العرب، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1981.

90. السلمي محمد بن صامل، منهج كتابة التاريخ الإسلامي، دار ابن الجوزي للطباعة والنشر، المملكة السعودية، 2008.

91. السامرائي خليل وآخرون، تاريخ المغرب العربي، دار المدار الإسلامي، ط1، ليبيا، 2004.

92. سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تح: المهدي البوعبدلي، مطبعة البعث، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشئون الدينية، قسنطينة، الجزائر، 1973.

93. سعيد أحمد حسن، إنواع المكتبات في العالمين العربي والإسلامي، دار العرفان للنشر والتوزيع، ط1، الأردن، 1984.

94. سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.

95. ________، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون-داعية السلفية-دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 1986.

96. ________، الطبيب الرحالة، ابن حمادوش الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982.

97. ________، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر-القسم الأول، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

98. سعيدوني ناصر الدين والمهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ-العهد العثماني-المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

99. ________، عصر الأمير عبد القادر، مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، 2000.

100. ________، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني1792-1880، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2، الجزائر، 1985.

101. ________، ورقات جزائرية"دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني-دور قبائل المخزن في تدعيم سلطة البايلك بالجزائر، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 2000.

102. ________، من التراث التاريخي والجغرافي للمغرب الإسلامي"تراجم مؤرخي ورحالة وجغرافيين"، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1999.

103. السعفي وحيد، القربأن في الجاهلية والإسلام، منشورات تبر الزمان، تونس، 2007.

104. سيدي سوسي محمد سوسي، مدينة بجاية الناصرية(دراسة في الحياة الاجتماعية والفكرية)، تقديم: محمد الأمين بلغيث، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.

105. سمالي بيريل، المؤرخون في العصور الوسطى، تر: قاسم عبده قاسم، القاهرة، مصر، 1984.

106. السويكت سليمان المديد، منهج المسعودي في كتابة التاريخ، منشورات كلية العلوم الاجتماعية بجامعة محمد بن سعود الإسلامية، ط1، المملكة السعودية، 1986.

107. أبو شهبة محمد بن سويلم، دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين، مكتبة السنة، القاهرة، مصر، 1989.

108. الشاهدي الحسن، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج1، منشورات عكاظ، الرباط، المغرب الأقصى، 1990.

109. شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، م1، دار العلم للملايين، ط1، بيروت، لبنان، 1979.

110. شاوش محمد بن رمضان، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995.

111. شكري فيصل، المجتمعات الإسلامية في القرن الأول، دار العلم للملايين، ط5، بيروت، لبنان، 1981.

112. شكري فيصل وآخرون، الأدب العربي في آثار الدارسين، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1960.

113. الشّمري إنور عبد الحميد، قبيلة البكارة الكبرى-النسب...الماضي...الحاضر، منشورات دار المعارف بحمص، ط1، سوريا، 1996.

114. الشماخي أحمد، كتاب السير، در وتح: محمد حسن، ج1، دار المدار الإسلامي، ليبيا، 2009.

115. الشناوي عبد العزيز، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج2، مكتبة الأنجلو-المصرية، ط1، القاهرة، مصر، 1980.

116. الشوكاني محمد، أدب الطلب ومنتهى الارب، در وتح: محمد عثمان الخشت، مكتبة القرآن للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2002.

117. صبحي أحمد محمود، في فلسفة التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1994.

118. الصباغ ليلى، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، مطبعة ابن حيان، دمشق، سوريا، 1982.

119. الصلابي علي محمد، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط1، ليبيا، 2001.

120. الصولي عبد اللطيف، لمحات من تأريخ الكتاب والمكتبات، دار طلاس، ط1، دمشق، سوريا، 1987.

121. ضيف حسن، الرحلات، دار المعارف، ط4، القاهرة، مصر، 1987.

122. الضيقة حسن، الدولة العثمانية-الثقافة المجتمع والسلطة، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان، 1997.

123. الأصفهاني علي بن الحسن، الأغاني، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، (د ت).

124. الطناحي محمود محمد، الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم، مكتبة الخانجي، ط1، القاهرة، مصر، 1986.

125. عبد الباقي محمد فؤاد، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، مصر، (د ت).

126. عبد السلام هارون محمد، تحقيق النصوص ونشرها، مكتبة الخانجي، ط7، القاهرة، مصر، 1998.

127. عبد الغني حسن محمد، المقري صاحب نفح الطيب، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، (د ت).

128. عبد الكريم محمد، المقري وكتابه نفح الطيب، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، (د ت).

129. عبد الهادي جمال ومسعود محمد، منهج كتابة التاريخ الإسلامي-لماذا؟وكيف؟ دار الوفاء للطباعة والنشر، ط3، القاهرة، مصر، 1994.

130. عبد البديع لطفي، التركيب اللغوي للأدب، مطبعة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، 1969.

131. عبد الوهاب حسن، دراسات عن المقريزي، الهيئة العامة للتأليف والنشر، القاهرة، مصر، 1971.

132. العابد محمد الفاسي، فهرس مخطوطات خزانة القرويين، ج1، دار الكتاب، ط1، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 1979.

133. العامري محمد الهادي، تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون بين الازدهار والذبول، الشركة التونسية للتوزيع، تونس ، 1974.

134. عدي نديم، تاريخ الأدب العربي، ج1، مكتبة ربيع، ط2، حلب، سوريا، 1954.

135. العروي عبد الله، مفهوم التاريخ، المركز الثقافي العربي، ط4، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 2005.

136. عطاء الله خضر أحمد، بيت الحكمة في عصر العباسيين، شركة دار الإشعاع للطباعة، ط1، القاهرة، مصر، (د ت).

137. العلوي سعيد بن سعيد، أوربا في مرآة الرحلة: صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة، مطبعة النجاح الجديدة، ط1، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 1995.

138. عمارة محمد، الفتوحات الإسلامية في ميزإن الإسلام والتاريخ، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، مصر، 2014.

139. العمري أكرم ضياء، بحوث في تاريخ السنة المشرفة، دار الرسالة، ط3، بيروت، لبنإن، 1975.

140. عميرة عبد الرحمن، النجاة في المنطق والطبيعيات والإلهيات، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، لبنإن، 1992.

141. عنإن محمد عبد الله، تراجم شرقية وإندلسية(المقري مؤرخ الأندلس)، مكتبة الخإنجي، ط2، القاهرة، مصر، 1970.

142. عنإن محمد عبد الله وآخرون، فهارس الخزإنة الحسنية، إشراف ومراجعة: أحمد شوقي بنبين، الجامعة الملكية، الرباط، المغرب الأقصى، 2000.

143. عوض إبراهيم، دائرة المعارف الإسلامية-أضاليل وأكاذيب، بيروت، لبنإن، 1998.

144. عوض محمد مؤنس، الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام، ط1، عين للدراسات والبحوث الأنسانية والاجتماعية، مصر، 1995.

145. غطاس عائشة، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر-1700-1830، منشورات إناب، الجزائر، 2007.

146. ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيإن علماء المذهب، تح: مأمون بن محي الدين الجنإن، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنإن، 1996.

147. فركوس صالح، تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال-المراحل الكبرى-دار العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2004.

148. فروخ عمر، معالم الأدب العربي في العصر الحديث، ج2، دار العلم للملايين، ط1، بيروت، لبنإن، 1986.

149. فكاير عبد القادر، الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية وآثاره(910-1206ه/1505-1792م)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2012.

150. فهيم حسين محمد، أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1989.

151. بن قينة عمر، اتجاهات الرحالة الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1996.

152. كراتشوفسكي إغناطيوس، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تر: صلاح الدين هاشم، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، لبنان، 1987.

153. كاشف سيدة إسماعيل، مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، 1983.

154. الكعاك عثمان، موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، تق ومر: أبو القاسم سعد الله وآخرون، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 2003.

155. الكسندر نينل وفنا دوفينا، الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية، تر: إنور محمد إبراهيم، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، 1999.

156. كيليطو عبد الفتاح، المقامات السرد والأنساق الثقافية، تر:عبد الكبير الشرقاوي، ط1، دار طوبقال للنشر والتوزيع، المغرب الأقصى، 1993.

157. كنون عبد الله، النبوغ المغربي في الأدب العربي، مج1، دار الكتاب اللبناني، ط2، بيروت، لبنان، 1962.

158. كوبرولي محمد فؤاد، قيام الدولة العثمانية، تر وتح: أحمد السعيد سليمان، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، ط1، مصر، 1993.

159. لوبون غوستاف، حضارة العرب، تر: عادل زعيتر، دار إحياء الكتب المصرية، ط2، القاهرة ، مصر، 1984.

160. متز آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج2، تر:محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

161. محمود حسني محمد، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، مصر، (د ت).

162. المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة المنورة، اختيار وتبويب: محمد موسى الشريف، دار الأندلس الخضراء، ط1، المملكة السعودية، 2000.

163. مرجليوت.د. دراسات عن المؤرخين العرب، تر: حسين نصار، دار الثقافة، بيروت، لبنان.

164. مرشد عادل، المنهج الصحيح في الحكم على الحديث النبوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 2000.

165. المرعشلي يوسف عبد الرحمن، علم فهرسة الحديث، دار المعرفة، ط1، بيروت، لبنان، 1986.

166. المشوخي عبد الله، موقف الإسلام والكنيسة من العلم، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، 1983.

167. مصطفى أحمد عبد الرحيم، في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، ط3، القاهرة، مصر، 2003.

168. المطوي محمد العروسي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1982.

169. ممدود حسين، الحروب الصليبية في شمال إفريقيا وأثرها الحضاري، دار عمار للنشر، ط1، عمان، الأردن، 1998.

170. معتوق فردريك، المعرفة والمجتمع والتاريخ، طبعة جروس برس، طرابلس، لبنان، 1991.

171. المعاضيدي خاشع، من بعض إنساب العرب، مطابع دار الشؤون الثقافية، بغداد، العراق، 1990.

172. مرسي الشيخ محمد، نشأة الكتابة التاريخية عند المسلمين وتطورها من نهاية القرن الخامس عشر الميلادي(التاسع الهجري)، دار الثقافة العلمية، القاهرة، مصر، (د ت).

173. المقدسي محمد بن أحمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، ط3، القاهرة، مصر1991.

174. موافي عثمان، منهج النقد التاريخي الإسلامي والمنهج الأوربي، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، مصر، 1996.

175. الموافي ناصر عبد الرزاق، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع، مكتبة الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، مصر، 1995.

176. مؤنس حسين، الجغرافيا والجغرافيون في الأندلس من البداية إلى الحجارى، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، 1960.

177. موسى علي، مجسطي أبي الوفاء البوزجاني، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، القاهرة، مصر.

178. المنوني محمد، المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج2، منشورات كلية الآداب والعلوم الأنسانية، الرباط، المغرب الأقصى، 1983.

179. الميلي محمد مبارك، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1964.

180. نصار حسين، نشأة التدوين التاريخي عند العرب، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، مصر، (د ت).

181. نقولا زيادة، الجغرافيا والرحلات عند العرب، الأهلية للنشر والتوزيع، ط3، بيروت، لبنان، 1982.

182. نواب عواطف، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجري، دراسة تحليلية مقارنة، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، المملكة السعودية، 1996.

183. النووي محي الدين، منهاج الطالبين وعمدة المفتين، اعتنى به: محمد محمد طاهر شعبأن، دار المنهاج للنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان، 2005.

184. النويري شهاب الدين، نهاية الإرب في فنون الأدب، ج14، دار الكتب والوثائق القومية، ط1، القاهرة، مصر، 2002.

185. هواتكن، دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية، تح: محمود زايد، بيروت، لبنان، 1963.

186. هرنشو. ج، علم التاريخ، تر: عبد الحميد العبادي، ط1، دار الحداثة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1988.

187. الهيلة محمد الحبيب، التاريخ والمؤرخون بمكة من القرن الثالث الهجري إلى القرن الثالث عشر، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ط1، مكة المكرمة، المملكة السعودية، 1994.

188. وولف جون.ب، الجزار وأوربا، تر وتع: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

189. يزبك قاسم، التاريخ ومنهج البحث التاريخي، دار الفكر اللبناني، ط1، بيروت، لبنان، 1990.

190. اليوسي الحسن، المحاضرات في الأدب واللغة، تق وتح وفه: حميد حماني اليوسي، مطبعة دار الوفاق لنشر الحديث، ط1، المغرب الأقصى، 2008.

المصادر والمراجع باللغة الأجنبية:

1. Braudel, (F), la Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philipe II, paris, 1966.

2. Charles André-julien, histoire de l'Algérie contemporaine_ la conquête et les débuts de la colonisation:1827-1871, éd, casbah, Alger, 2005.

3. Chitour (chems eddine), Algérie le passé revisité, éd casbah, 2é éd, 2004.

4. De fontaine de resbecq, Alger et les cotes d'Afrique, Gaume frères libraires, imprimerie de découchant, paris, 1837.

5. Dan, pierre, histoire de barbarie et de ses corsaires, imp. et libr, Pierre Rocolet, paris, 1837.

6. Dumay, Projet pour l'entreprise d'Alger, In recueil historique contenant diverses pièces curieuses de ce temps, Christophe van Dyck, Cologne.

7. Edmond sergent et Etienne sergent, histoire d'un marais Algérien, Institut pasteur d'Algérie, Alger, 1947.

8. Emerit (M), les tribus privilégiés Iéés en Algérie dans la première moitié du XIX siècle, Annales .Economics, sociétés, civilisations. 21è année, n°1,1966.

9. François, Pouillon, dictionnaire des orientalistes de langue françaises, éd, Karthala, paris, 2008.

10. Gabriel, Colin, Abderrazaq el-jezairi, un médecin arabe du xii siècle de l'Algérie, Imp. Delord (Boehm et martial éditeurs du Montpellier médical, Montpellier, 1905.

11. Gaffarel, (P), Algérie, conquete et colonisation, édition de1883, firmin didot, éd, gandini, paris, 2004.

12. Gaid (m), chronique des beys de Constantine, O.P .U. Alger, S .D .

13. Garrot(h), histoire générale de l'Algérie, imp. cresenzo voutes, Alger, 1910.

14. Gleizes, R, jean le vacher, vicaire apostolique et consul de France à Tunis et à Alger1619-1683, d'après les documents contemporaines, J, Gabalda, paris, 1914.

15. Haedo, d, de, histoire des rois d'Alger, trad. de, h, d, Grammont, éd, grand-Alger ivres, Alger, 2004.

16. Haedo (f .d), histoire des rois d'Alger, H.D de Grammont, A, jourdan, Alger, 1881.

17. H .D. de Grammont, histoire d'Alger sous la domination turque1515-1830, Alger, Leroux, 1887.

18. Ibn meryem el-medyouni tilimceni, El-boustane ou jardin des biographies des saints et savants de Tlemcen, trad. Et annoté par F.provenzali, éd, ibn khaldoun, 2003.

19. Esterhazy (louis-joseph-Ferdinand walsin), de la domination turque dans l'ancienne régence d'Alger, paris, librairie de Charles Gosselin, 1840.

20. Krieken, G, van, corsaires et marchands, les relations entre Alger et les Pays-Bas, 1604-1830, éd, bouchene, 2002.

21. Lachref (m), l'Algérie : nation et société, paris, 1969.

22. Laugier de tassé, histoire du royaume d'Alger, paris, éd, loysel, 1992.

23. Leclerc, Lucien, histoire de la médecine arabe, éd, ministère des habous et des affaires islamiques, Rabat, Maroc, 1980.

24. Mercier, E, histoire de Constantine, S.N.E.D, Alger, 1903.

25. ______, Constantine au 17è siècle : élévation de la famille el-fagoun.

26. Miquel (A), l'islam et sa civilisation (16-20siécle), éd, Armand colin, collection' destins du monde' paris, 1968.

27. Khiati (M), histoire de la médecine en Algérie de l'antiquité à nos jours-la médecine dans l'Algérie ottomane du xv au début du xix siècle, dar Houma, anep, 2012.

28. Plantet, E, correspondance des deys d'Alger avec la cour de france1579-1700, t1, éd, bouslama, Tunis, 1981.

29. Rang, S.Précis analytique de l'histoire d'Alger sous l'occupation turque, In tableau de la situation des établissements français dans l'Algérie en1841, Imprimerie Royale, paris, 1842.

30. Raymond (A), grandes villes arabes à l'époque ottomane, sindbad, paris, 1985.

31. Rinn (louis), marabouts et khouans, étude sur l'islam en Algérie, jourdan, Alger, 1884.

32. Shaw(t), voyage dans la régence d'Alger, trad. de l'anglais par, j .mac-carty, éd, bouslama, 1980.

33. Shaler (w), Exquise de l'état d'Alger considéré sous les rapports politiques, historique et civil, trad. De l'anglais et enrichi de notes par H.X.bian chi-ladvocat, 1830.

34. Turin (y), Affrontements culturels dans l'Afrique coloniale, paris, 1971.

35. Vayssettes, Recueil, histoire des deys de constantine, 1867.

36. Weismann, Nahoun, les janissaires (étude sur l'organisation militaire des ottomans), thèse de doctorat, faculté des lettres de paris, 1938, librairie orient édition, paris, 1964.

المعاجم والموسوعات والقواميس:

1. التازي عبد الهادي، رحلة الرحلات مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، تح:عباس صالح طاشكندي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، 2005.

2. الحموي شهاب الدين ياقوت، معجم البلدان، ج5، دار صادر، ط2، بيرحوت، لبنان، 1985.

3. الدليرو المهدي ومحمد بوخبزة، فهرس مخطوطات مكتبة تطوان، مطابع الشويخ، تطوان، المغرب الأقصى، 1981.

4. الزركلي خير الدين، الأعلام"قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين"، دار العلم للملايين، ط15، بيروت، لبنان، 2002.

5. سركيس يوسف إلياس، معجم المطبوعات العربية والمعربة، جمع وترتيب: يوسف إلياس سركيس، مطبعة سركيس، ج1، مصر، 1928.ه.

6. شلبي أحمد، موسوعة التاريخ والحضارة الإسلامية–موجز عام للحضارة الإسلامية، ج1، مكتبة النهضة المصرية، ط8، القاهرة، مصر، 2002.

7. ضيف بشير، فهرسة معلمة التراث الجزائري بين القديم والحديث، مر:عثمان بدري، ط2، منشورات ثالة، الجزائر، 2007.

8. عبد الكبير بن المجذوب الفاسي، تذكرة المحسنين بوفيات الأعيان وحوادث السنين، ضمن موسوعة أعلام المغرب، ت حوتن: محمد حجي، ج1، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 1996.

9. القادري محمد وآخرون، فهرس المخطوطات العربية والأمازيغية، ج2، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الأنسانية، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 1985.

10. فهرس دار الكتب المصرية– قسم الفهارس العربية–ج6، مطبعة دار الكتب المصرية، ط1، القاهرة، مصر، 1933.

11. الفيروز آبادي مجد الدين محمد، القاموس المحيط، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، مصر، (د ت).

12. الكتاني عبد الحي، فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، تح:إحسان عباس، ج2، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، لبنان، 1982.

13. كحالة رضا، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، مؤسسة الرسالة، ط7، بيروت، لبنان، 1994.ل

14. ________، معجم المؤلفين، جمعه وأخرجه: مكتب تحقيق الدراسات، مؤسسة الرسالة، (د ط)، بيروت، لبنان، 1993.

15. ابن منظور جمال الدين محمد، لسان العرب، دار صادر، ط3، بيروت، لبنان، 1994.

16. نصار حسين محمد وآخرون، الموسوعة العربية الميسرة، المكتبة العصرية، (صيدا)، بيروت، لبنان، 2010.

17. تاريخ آداب اللغة العربية

18. نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1975.

19. الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ج24، ط1، الرياض، المملكة السعودية، 1996.

20. هوتسما.م.ت. وآخرون، موجز دائرة المعارف الإسلامية، تح: إبراهيم خورشيد وآخرين، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ج4، 1998.

المجلات باللغة العربية (المقالات)

1. إدريس هابي، محنة الكتابة التاريخية العربية بين التأريخ والمؤرخ، مجلة الكلمة، الصادرة عن منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، ع18، السنة الخامسة، لندن، المملكة المتحدة، 1998.(مجلة الكترونية).

2. بوشنافي محمد، هجرة العلماء الجزائريين إلى المغرب الأقصى وبلدإن المشرق العربي خلال العهد العثماني-1520-1830، مجلة المواقف للدراسات والبحوث في المجتمع والتاريخ، ع04، جامعة معسكر، ديسمبر2009.

3. البوعبدلي المهدي، المراكز الثقافية وخزائن الكتب بالجزائر عبر التاريخ، مجلة الأصالة، ع11، منشورات وزارة الشئون الدينية والأوقاف، الجزائر، 1972.

4. ــــــــــــ، عبد الكريم الفقون القسنطيني(988ه/1073م) والتعريف بتأليفه"منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية"، مجلة الأصالة، ع51، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشئون الدينية، السنة السادسة، الجزائر، ذو القعدة1397ه/نوفمبر1977م.

5. بوباية عبد القادر، عرض وتقديم كتاب"البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان"، مجلة التاريخ العربي، ع62، تصدرها جمعية المؤرخين المغاربة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنإن، 1331ه/2013م.

6. بوعياد محمود، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان وقيمته التوثيقية، مجلة الأصالة، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشئون الدينية، ع28، السنة الرابعة، ذو القعدة-ذو الحجة1395ه/نوفمبر-ديسمبر1975.

7. بويجرة محمد، التسامي والعبقرية عند أبي راس الناصري-قراءة في فتح الإله ومنته وفق المنهج النفسي-مجلة قراءات، منشورات المركز الجامعي مصطفى سطامبولي، ع01، معسكر، 2008.

8. بنبين أحمد شوقي، المؤسسات الثقافية في المغرب(خزائن الكتب العلمية)، مجلة التاريخ المغربي، ع35، المغرب الأقصى، 2005.

9. التميمي عبد الجليل، رؤية منهجية لدراسة العلاقات العثمانية المغربية في القرن16م، المجلة التاريخية المغاربية، ع29-30 جويلية1983.

10. حاجيات عبد الحميد، الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان، مجلة الأصالة، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشئون الدينية، ع26، السنة الرابعة، رجب-شعبأن1395ه/جويلية-أوت1975م.

11. الحازمي منصور، رحلات العرب في جزيرة العرب-البلاد العربية1901-1972، مجلة الدارة، منشورات دارة الملك عبد العزيز، ع3، الرياض، المملكة السعودية، ربيع الآخر1400ه/مارس1980م.

12. حورإني ألبرت، الفكر العربي في عصر النهضة، مجلة الفكر العربي، ع28، منشورات مركز الأنماء القومي، بيروت، لبنان، 1982.

13. سعيدوني ناصر الدين، طبيعة الكتابات التاريخية المتعلقة بالجزائر العثمانية، مجلة الثقافة، ع45، منشورات وزارة الثقافة، السنة الثامنة، الجزائر، جمادى الثانية- رجب1398ه/ يونيو-يوليو1978

14. العامري عبد الله، الإسلام وشرف الأنساب، مجلة الحق، منشورات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، ع260، الرباط، المغرب الأقصى، ربيع النبوي1407ه/نوفمبر1986م.

15. الفاسي محمد، ابن عبد الصادق مشاهدات سفير مغربي باسبأنيا في القرن الثامن عشر، مجلة البحث العلمي، ع2، مطبعة الرسالة، الرباط، المغرب الأقصى، 1964.

16. فكاير عبد القادر، مسأهمة الجزائر في دعم الأندلسيين واحتضإنهم1492-1609م، مجلة عصور الجديدة، منشورات مخبر البحث التاريخي، ع16-17، ربيع الأول1436ه/أفريل2015م، جامعة وهرإن.

17. الفكيكي حسن، من أعلام الريف الشرقي في القرن الحادي عشر الهجري:عيسى بن محمد الراسي البطوئي، مجلة دعوة الحق، ع250، منشورات وزارة الأوقاف والشئون الدينية، الرباط، المغرب الأقصى، 5-6-1433ه/26-12-2012م.

18. القاسمي محمد رضى، الرحلة وأدأبها في اللغة العربية-دراسة تاريخية-مجلة الداعي، ع6-7، السنة37، منشورات دار العلوم ديوبند، جمادى الثانية-رجب1434ه/أفريل-يونيو2013م.

19. كوركيس عواد، الورق أو الكاغد-صناعة في العصور الإسلامية، مجلة المجمع العلمي العربي، ع13، منشورات مجمع اللغة العربية، دمشق، سوريا.

20. مخزوم محمد، نقولا زيادة، شيخ مؤرخي العروبة والإسلام، مجلة العربي، منشورات وزارة الإعلام الكويتية، ع548، الكويت، جويلية2004.

21. النساج سيد حامد، أدب الرحلات في حياتنا الثقافية، مجلة العربي، الكويت، يناير1987.

22. نوري محمد، الروايات التاريخية في كتابات الرحالة المسلمين في العصر العباسي بين الأسطورة والحقيقة، مجلة أبحاث، مج11، ع01، منشورات كلية التربية الأساسية بجامعة الموصل، العراق، 2011.

23. هلايلي حنيفي، عملاء وجواسيس الأسبأن في بايلك الغرب على ضوء كتاب"بهجة الناظر"، مجلة حوار، جامعة منتوري بقسنطينة، ع06، الجزائر، 2005.

24. اليزيدي مها، أوقاف الحرمين الشريفين أهميتها ودورها، مجلة الحجاز، منشورات الجمعية الوطنية الحجازية، ع89، المملكة السعودية، 2010.

المجلات باللغة الأجنبية(المقالات):

1. Boyer(p), le problème kouloughli dans la régence d'Alger, numéro spécial, 1970/
2. Devoulx, A, recherche sur la coopération de la régence d'Alger à la guerre de l'indépendance grecque, In R .A, 1856-1857.
3. __________, Notes historiques sur les mosquées et autres édifices religieux d'Alger, in ; R.A, n°5,1861.
4. _________, les édifices religieux de l'ancien Alger, in ; R.A, 1862.
5. Golvin, la mosquée, ces origines, sa morphologie, ses diverses fonctions, son rôle dans la vie musulmane plus spécialement en Afrique du nord, in ; R .A, n°105, année 1961.
6. Gourgous (A), notice sur le bey d'Oran Mohamed el-kebir, in ; R .A, n°1, 1866.
7. Haedo(f), topographie et histoire générale d'Alger, in, R .A, 1870.
8. venture de paradis, Alger au 18è siècle, par fagnan, in ; R.A, t39.

الأرشيف:

1. الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهمات الديوان الهمايوني رقم12، صفحة427، رقم14 صفحة38.
2. الأرشيف الوطني الجزائري، دفتر مهمات الديوان الهمايوني، رقم12 صفحة91، رقم12 صفحة312، رقم12 صفحة427، رقم22 صفحة182، رقم31 صفحة278، رقم42 صفحة386، رقم48 صفحة338.
3. -الأرشيف الوطني الجزائري: رسالة من سلسلة خط همايون، علبة24 رقم16872، رسالة رقم115 مجموعة3190 بالمكتبة الوطنية الجزائرية.

الرسائل الجامعية:

1. حماش خليفة، العلاقة بين الإيالة الجزائرية والباب العالي1798-1830، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الإسكندرية، 1988.
2. راجع أحمد، مقامات محمد بن ميمون الجزائري-دراسة معجمية ودلائية، مذكرة ماجستير في اللغات، جامعة أحمد دراية، أدرار، 2010 .
3. شويتام أرزقي، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني1519-1830م، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، 2006-2007.
4. قشي فاطمة الزهراء، قسنطينة المدينة والمجتمع في النصف الأول من القرن13ه/أواخر القرن18م إلى النصف الأول من القرن19م، رسالة دكتوراه، كلية العلوم الأنسانية والاجتماعية، تونس، 1998.

فهرس الموضوعات

الفصل التمهيدي: مناهج الكتابة التاريخية عند العرب والمسلمين منذ نشأتها

حتى القرن التاسع الهجري(15م)

الفصل الأول: الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني

1519-1830م

الفصل الثاني: مناهج الكتابة التاريخية عند مؤرخي الجزائر في كتب التراجم

(ق10-14ه/16-20م)

الفصل الثالث: مناهج الكتابة التاريخية عند مؤرخي الجزائر في كتب الرحلات

(ق10-14ه/16-20م)

الفصل الرابع: منهج استخدام المصادر في الكتابة التاريخية عند مؤرخي الجزائر العثمانية

الفهارس العامة